المشروع القومى للترجمة

برتراند راسل
سيرة حياته

تأليف
آلان وود

ترجمة
د. رمسيس عوض

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٨

Alan Wood

Bertrand Russell the Passionate

Sceptic : A Biography

Simon and Schuster, New York, 1968.

الحجر الذى رفضه البناءون هو قد
صار رأس الزاوية .

رسالة بطرس الرسول الأولى
الإصحاح الثانى – آية ٧

« إنى أريد أن أقف على حافة العالم ، وأحدق فى الظلام الجاثم وراءه ، وأرى شيئا قليلا يزيد عما شاهده الآخرون ، كما أرى أشكال الغموض الغريبة التى تقبع فى ذلك الظلام المجهول وإنى أريد أن أعيد إلى عالم البشر شيئا قليلا من الحكمة الجديدة . فهناك قدر ضئيل من الحكمة فى العالم يتمثل فى هرقليطس وسبينوزا وفى بعض الحكم المتناثرة ، وإنى أريد أن أضيف إلى هذه الحكمة ، حتى لو كانت إضافتى ضئيلة إلى أبعد الحدود » .

(فى خطاب كتبه برتراند راسل من سجن « بركستون » عام ١٩١٨)

* * *

مقدمة

هذا كتابى الثالث - وأرجو ألا يكون الأخير - عن برتراند راسل ، فقد سبق لى أن نشرت فى عام ١٩٦٢ كتابا بعنوان « برتراند راسل الانسان » ، وفى عام ١٩٦٦ كتابا آخـر بعنوان « برتراند راسل المفكر السياسى » ، عـدا طائفة متفـرقة من المقالات عن هذا الفيلسوف العظيم .

ويجدر بى فى هذا المقام أن أقدم إعتذاراً للمتـخصصين فى الفلسفة بوجه عام وفلسفة الرياضة بوجـه خاص ، عن خوضى فى موضوعات لا تتـصل بتخصصى فى الأدب الانجليزى من قريب أو بعيد . ولكن عذرى الأول فى ذلك أننى تجرأت لأنى أحبـبت . لقد كـنت أتمنى أن أرى برتى قبل أن يموت . ولكن هذه الأمنـية الغالـية باءت بالاخفاق - شأنها فى ذلك شأن مـعظم الأمانى الغالية . ويحدونى الآن رجاء آخر ، عله ألا يتبـدد كما تبدد أملى القـديم . وهو عندما يحين الأجل ويرحل المرء عن هذه الدنيا بخيره وشره ، أن يذكـر الذين يعرفوننى بين الحين والآخر أننى رجل أحب وظل وفـيـا لمن أحب حـتى النهـاية . ولكن هذا الحب لا يحـول بينى وبين الاختلاف معــه . فلست من أنصار الحب الطليق من كافة القيـود كما أنى لست من أنصار التخفف تماما من كل المعتقدات التقليدية .

أما عذرى الثانى فهو أن الكتاب الذى بين أيدينا يخاطب عامة المثقفين دون أن يكون قاصرا على خاصتهم .

وأخيرا أتقدم بالشكر إلى كل مـن أظهر عطفا حقيقيا عـلى اهتمامى ببرتراند راسل وقدم لى العون فى أية صورة من الصور .

د. رمسيس عوض

كلمة عن مؤلف هذا الكتاب

تخرج الان وود – وهو أسترالى المولد – من جامعة سيدنى حيث اشتغل والده أستاذاً للتاريخ فيها . وواصل وود دراسته فى أكسفورد حيث توفر على دراسة الفلسفة . وكان أول أسترالى يصبح رئيسا لاتحادها . وفيما بعد ، عاد إلى أكسفورد لفترة من الزمن انقطع فيها لدراسة برتراند راسل . وأثمرت دراستة ومعرفته الوثيقة براسل عن سيرة حياته التى بين أيدينا ، وكتاب آخر بعنوان «فلسفة راسل : دراسة لتطورها» .

ولم يقتصر إهتمامه ، على أية حال ، بالفلسفة . فقد أصبح لأول مرة معروفا لـلجمهور الانجليزى كمراسل للقوات الجوية خلال الحرب العالمية الثانية . وتشمل كتبه المختلفة «جزر يهددها الخطر» ، (بالاشتراك مع مارى وود) و «تاريخ الاحتلال الألمانى لجزر المانش» .

وبينما هذا الكتاب فى طريقة إلى المطبعة ذكرت الأنباء الواردة من لندن أن وود قد توفى فيها وعمره لم يتجاوز الثالثة والأربعين .

الفصل الأول
طفل فى الحديقة

يوجد الفلاسفة ليطرحوا الأسئلة وليس للإجابة عنها . وهم يؤدون وظيفتهم بطريقة أفضل كلما ازداد عدد المشاكل التى تشغل أذهانهم دون أن يجدوا لها حلا ، ولهذا ، فإن سخرية الناس العمليين منهم تخطىء فى فهم طبيعة وظيفتهم تماما . وبالرغم أن الفلسفة لا تستطيع أن تزعم أنها أحرزت تقدما عظيما فى مجال المعرفة ، فإنه من الجائز أنه لولا أن الفلسفة مهدت الطريق بإثارة التساؤلات ، لما قامت للعلوم قائمة . وعندما يجيب العلماء ، فإن إجابتهم ترجع غالبا إلى ما يطرحه الفلاسفة من أسئلة .

فقد فكر الفلاسفة فى الذرات قبل أكتشافها بزمن طويل . ومن الجائز انهم أعطوا العلماء فكرة عما يستوجب البحث عنه . وساور الفلاسفة الشك فى مدركات الحواس للمادة . ثم أتفق معهم العلماء فيما بعد على أن المادة تغاير ما تبدو عليه . وفى نظر الرجل العملى أن الشجرة شجرة ، وأن مدركات الحواس هى مدركات الحواس ، وأن الحياة شىء رتيب يبعث على الملال ، ولكن حدث فى يوم من أيام تاريخ الجنس البشرى أن طرح رائد مجهول سؤالا فلسفيا ، ولعله سؤال غير عملى وعديم الجدوى على الإطلاق مثل : « هل تظل هذه الشجرة موجودة إذا لم يكن هناك من يراها ... ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف أعرف انها موجودة ؟ » فى ذلك اليوم ولدت الفلسفة ، ولم يعد الناس مجرد حيوانات آلية . ولا يقلل أبدا من شأن النصر الذى حققه أول فيلسوف طرح هذا السؤال أن واحدا من الفلاسفة المتعاقبين لم يجد حتى يومنا الراهن إجابة مرضية عنه .

وغدت بعض المسائل التى بدأت الفلسفة بمعالجتها ، بعد الإجابة عنها ، جزءا من العلم أو الرياضة أو الفسيولوجيا . وفى هذا الصدد ذكر برتراند راسل ذات مرة « أن العلم هو ما نعرف ، فى حين أن الفلسفة هى ما لا نعرف » . وبالرغم من هذا ، فإن بقايا

المشاكل التي لم يوجد لها حل حتى الآن ستظل تشد انتباه أرفع العقول إليها ، وذلك لأن النظر إلى الكون من خلال عيون الفيلسوف فيه من بواعث الإثارة أكثر مما فى أى أسلوب آخر للنظر إليه . فشروق الشمس ، فى نظر العالم ، حقيقة رتيبة تبعث على الملل ، ولكن الفيلسوف يكتشف فجأة ، من هذه الظاهرة ، مشكلة الاستقراء ، ويتساءل : « كيف أعرف أن الشمس ستشرق غدا » ؟ فيجد ، وقد تجدد اهتمامه بالحياة ، أنه ليس فى مقدور أى إنسان أن يعطيه إجابة عن سؤاله ، ويتعين على الفيلسوف ، حتى يصبح فيلسوفا ، أن يهجر منطقة اليقين الممل المألوفة ، وأن يتنبه دوما إلى ما فى الكون والوجود من سحر وغموض كما يتعين عليه أن يزكى حذوة التساؤل المتلهف ، الذى يتميز به الأطفال ، مدى الحياة .

بدأ برتراند راسل فى طفولته يسأل الأسئلة النفاذة بمجرد أن تعلم الكلام ، وفى حقيقة الأمر ، كتبت أمه بعد ثلاثة أيام من مولده : « أنه يرفع رأسه عاليا ويتلفت حوله بطريقة نشيطة للغاية » ، وظل يتلفت حوله بطريقة نشيطة مستفسرة حتى بعد أن جاوز الثمانين من عمره . ووجد راسل اجابات عن الكثير من أسئلته ، لأن هذا ، بطبيعة الحال ، هو الهدف من وراء طرح الأسئلة . وكان راسل يكن الاحتقار لأولئك الفلاسفة الذين يشغلون أنفسهم بالأحاجى والألغاز من أجل الأحاجى والألغاز ، وكان شكاكا متأجج العاطفة لأنه أراد أن يكون مؤمنا متأجج العاطفة . وكان يشك فى كل شىء لأنه كان يتوق إلى المعرفة اليقينية بنفس الطريقة التى يتوق بها بعض الناس إلى الايمان بالدين . ولكن الأمر انتهى به ، شأنه فى ذلك شأن سائر الفلاسفة العظام ، إلى طرح أسئلة أكثر مما استطاع الإجابة عنها . وهو يحتل مكانه فى مصاف أعظم الفلاسفة طرا لأنه كان صريحا فى الاعتراف بما منى به من فشل . وهو زعيم المتشككين فى عصرنا هذا دون منازع . بدأ حياته متشككا فى الرياضيات والدين والفلسفة ، ثم استمر فى تشككه حتى شمل أفكار الناس التقليدية بصدد الحرب والسياسة والجنس والتعليم مفتقا أذهانهم للمضى قدما إلى الأمام . ولو أنه قيض له ألا يعيش ، لكان العالم أسوأ حالا مما هو عليه الآن .

وكان الرضيع البالغ من العمر ثلاث سنوات والذى رفع رأسه شامخا ونظر حوله فى نشاط ملحوظ يمثل أقوى محاجة يمكن أن تساق للدفاع عن الأرستقراطية المتوارثة . فسلالته تحتل بعض الأعمدة المعقدة فى سجل « بيرك » عن « سلائل النبلاء » دون أن نلمح أثرا لشخص عادى واحد فى سائر العائلة . وسأقتصر ، توفيرا لحيز الصفحات ، على الرجوع بتاريخ عائلته إلى ثلاثة أجيال خلت - أى إلى « دوق بدفورد » السادس الذى تزوج ابنة « الفيسكونت تورنجتون » . وغدا ابنهما الثالث - وهو جد برتراند - معروفا فى التاريخ الانجليزى باسم « اللورد جون راسل » (الذى أصبح فيما بعد « ايرل راسل الأول ») وكانت زوجة « اللورد جون راسل » الأولى هى أرملة « اللورد ريبلسديل » ، وزوجته الثانية ابنة « أيرل أف منتو » . وتزوج الابن الأكبر من الزوجة الثانية ، الذى كان يحمل لقب « فيسكونت أف امبرلى » تجاوزا دون أن يكون له حق شرعى فيه ، من « كيت ستانلى » ابنة « اللورد ستانلى أف أولدرلى » .

ولد « فرنك » ، أكبر أبناء عائلة « أمبرلى » فى عام ١٨٦٥ ، فأصبح بذلك « أيرل راسل » الثانى ، وولدت أخته « راشيل » فى عام ١٨٦٨ . وكانت « راشيل » كما وصفتها جدتها ، « أحلى فتاة صغيرة لامعة العيون رأيتها فى حياتى » . وولد أصغر أبناء عائلة أمبرلى برتراند آرثر وليم راسل فى الساعة السادسة إلا ربع من مساء ١٨ مايو عام ١٨٧٢ فى منزل مجاور لضفاف « الراى » . ووصفه الطبيب مستر أودلاند بأنه « طفل بديع للغاية » ، وأضاف أن طفلا واحدا من كل ثلاثين طفلا يولد فى مثل حجمه الكبير وسمنته » . وكتبت كيت أمبرلى إلى أمها الليدى ستانلى تقول : « وزن الطفل ٤/٣ ٨ رطل ، وطوله ٢١ بوصة وهو سمين للغاية وقبيح ... وفى رأى كل من يراه أنه يشبه فرانك كل الشبه - عيناه زرقاوان تبعدان عن بعضهما البعض ، وليس له ذقن واضحة ... إن ثديى يفيضان باللبن الآن ، ولكنى إذا توانيت فى إرضاعه لحظة واحدة أو كان يقاسى من الغازات أو أى شىء آخر ، فإن الغضب يستبد به ويرتفع صوته بالصراخ ويرفس ويرتعش حتى يجاب إلى طلبه أو يزايله ما يعانى منه . وهو قوى للغاية . ويقول المستر أودلاند أنه طفل قوى العضلات بشكل غير مألوف » .

وجاءت مسألة تسمية الطفل ، فاقترحت جدته لأبيه اسم « جالاهاد » كاسم مناسب له . ولكن جدته الأخرى لأمه الليدى ستانلى ردت على ابنتها قائلة : « ابتهل إليك ألا تنزلى مثل هذا العقاب به بأن تسميه جالاهاد » . وهكذا سمى الولد برتراند راسل ، وهو الاسم الذى عرف به أبدا فيما بعد فى تاريخ الفلسفة ، اللهم إلا عندما أصبح معروفا كذلك باللقب الذى ورثه والأوسمة التى فاز بها مثل أيرل راسل الثالث ووسام الاستحقاق ، وعضو فى الجمعية الملكية .

تظن كل الأمهات أن أبناءهن عجائب مدهشة ، ولكن العائلة عن بكرة أبيها أجمعت على هذا الرأى فى الولد المرح الذى لا سبيل إلى كبح جماحه المدعو « برتراند » . ووصفته جدته الليدى راسل بأنى يمتلىء بالفكاهة والمرح . ولاحظ عمه وليم راسل أن « الابتسامة الدائمة لا تفارق وجهه » . وسجلت عمته أجاثا راسل فى خطاب لها أنه « أصر بالأمس على أن يرفع بمفرده كتابا ضخما من فوق الرف وأن يحمله إلى كرسى صغير بلا مسند حيث جلس عليه ، فاتحا الكتاب أمامه ، وقد استغرق فى نوبة من الضحك على ما أصابه من حكمة ... وعندما بلغ من العمر عاما وعشرة شهور استطاع أن يتكلم بعض الكلمات مثل « ملعقة » ، و « عن اذنك » ، و « الكل ذهب » ، و « لا تفعل » . وبدأ يشترك فى الحياة الاجتماعية التى يستمتع بها من كان ينتمى إلى مثل عائلته الأرستقراطية المرموقة ، وذات يوم حضرت الملكة فيكتوريا للزيارة عندما كان برتراند يعيش مع جده وجدته من عائلة راسل ، وقالت العمة أجاثا إن « برتى انحنى لها انحناءة صغيرة غاية فى الظرف – ولكنه كبح جماحه كثيرا ، ولم يعامل صاحبة الجلالة بالاحتقار التام الذى توقعت أن يعاملها به » .

ثم توالت النكبات على أبوى برتراند المرح فى شبابهما فلبدت سحبها بقية طفولته . فقد أصيب أبوه الفسكونت أمبرلى – بعد مولد برتراند بعام بمرض أغلب الظن أنه شخص خطأ على أنه صرع . وفى السنة التالية أصيب وليم أخو أمبرلى بلوثة عقلية لازمته حتى وفاته فى عام ١٩٣٣ . وأصيب فرانك أخو برتراند الأكبر بمرض الدفتريا ، ولكنه استطاع بفضل قوته البدنية والعقلية – التى احتفظ بهما مدى الحياة – أن يتغلب على المرض ،

ولكن عدوى هذا المرض انتقلت إلى أخته راشيل التى كانت حينذاك فى السادسة من عمرها . وفى أثناء تمريضها أصيبت كيت أمبرلى نفسها بالدفتيريا فماتت الأم وابنتها معا . وأرسل برتراند البالغ آنذاك من العمر عامين تماما إلى مزرعة مجاورة فنجا من العدوى .

ولم يعمر أمبرلى طويلا بعد فقدان زوجته وابنته فقضى من بعدهما بنحو ثمانية عشر شهراً دون أن يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين ، واحتفظت لنا المصادفة بوصف لوفاته ورد فى خطاب كتبه أحد أفراد العائلة : « ظل فرانك يتشنج ويبكى لدرجة أن يد والده بللتها الدموع . ورفع الطبيب برتراند فقبله أبوه برفق وحنان قائلا : « الوداع يا أعزائى الصغار إلى الأبد » . وبعدئذ ، رقد هادئا وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه » .

بلغ عمر فرانك راسل حينذاك عشرة أعوام ، وبرتراند أقل من أربعة أعوام ، أى انه كان أصغر بكثير من أن يفهم ما حدث فهما كاملا ، ولكن لم يفت ذهنه المتوقد وحساسيته أن يدركا طرفا مما لحق به من خسارة ومأساة . فى السنوات التالية كتب راسل دون تدقيق أو تمحيص : « لقد ولدت تعيسا » ، نظرا لأن فترات التعاسة اللاحقة قد محت من ذاكرته مرح طفولته الأولى تماما ، وهو يستطيع أن يذكر كيف انه كان يحسب فى قتامة – وهو فى الخامسة من عمره – انه لو قيض له أن يعيش حتى يبلغ سن السبعين ، فإنه يتعين عليه أن يستمر فى تحمله وطأة الحياة طوال هذه الفترة ، باستثناء الـ ١/١٤ الذى انصرم منها . وقبل وفاته أوصى « أمبرلى » ، وهو مفكر حر عنيف ، بتعيين أثنين من الملحدين وصيين على ولديه . ولكن وصيته ضرب بها عرض الحائط ، وقامت المحكمة بالوصاية على اليتيمين اللذين أرسلتهما إلى جدهما وجدتهما حتى يتكفلا بتربيتهما .

وكان « اللورد جون راسل » ، يعيش بوصفه رئيس وزارة سابق مهيبا مرموق المكانة ، فى « بمبروك لودج » فى « ريتشموند بارك » (حديقة ريتشموند) ، وهو منزل منحته أياه الملكة . (فى أيامنا الراهنة الأكثر رتابة والأقل شاعرية وخيالا نجد أن وزارة الأشغال العمومية قد حولت جزءا من البيت إلى مقهى يستقبل السياح والمتنزهين فى الحديقة) وعندما ذهب فرانك وبرتراند إلى هناك ، كان الأيرل راسل فى الثالثة والثمانين من عمره .

وتوفى بعد ذلك بعامين دون أن يترك لبرتراند شيئا سوى ذكريات غير واضحة عن رجل عجوز لطيف المعشر يجلس فى كرسى للمرضى يتحرك على عجلات « يطفح بالبشر الشفوق ، ويغرم بالأطفال لا تزعجه ضوضاؤهم على الاطلاق » . وبعد وفاته ورث عنه فرانك لقب « أيرل » .

ويرجع الأثر الأكبر فى تربية الطفلين إلى جدتهما . وتنحدر الليدى راسل المعروفة فى معظم الأحيان باسم الليدى جون من أسرة اسكتلندية حازمة تعتنق الملة البرسبيتيرية ، وكانت هذه السيدة تستمتع بالفكاهة والمرح بالرغم من آرائها البيوريتانية المتزمتة فى مجالى السلوك والأخلاق . وكانت كذلك تصغر زوجها سنا وتفوقه راديكالية (ثورية) (الأمر الذى جعل الحذرين من زملائه فى مجلس الوزراء – الذين يخشون نفوذها – يطلقون عليها « مظلة الليل المروعة ») . وصدمت هذه السيدة الفكر التقليدى عندما تحولت إلى المذهب « اليونيتارى » الذى ينكر عقيدة التثليث فى اللاهوت المسيحى ، وأيدت الحكم الذاتى فى ايرلندا ، واعترضت على الحروب الاستعمارية البريطانية ، وهكذا شب الولدان فى ظل نظام حنون ولكنه صارم ، يجمع بين البيوريتانية التى عفا عليها الزمن والليبرالية التقدمية ، والحساء الاسكتلندى التقليدى الذى يقدم إليهما فى وجبة الفطور باعتباره طعاما خشنا صالحا للبدن ، وسلسلة من المربيات الألمانيات والسويسريات يغذين العقل بالتنوير الراديكالى الثائر . (ففى ذلك الوقت كان الليبراليون البريطانيون يفضلون المانيا على فرنسا لأن فرنسا بدت دولة تدمن الأنظمة الديكتاتورية والروح العسكرية تحت حكم عائلة نابليون) . ويكاد أن يكون برتراند قد تعلم اللغة الألمانية فى نفس الوقت الذى تعلم فيه الانجليزية .

وكان تدبير شئون البيت فى « بمبروك لودج » يقع على عاتق أجاثا عمة برتراند غير المتزوجة ، التى كانت ترتدى شالا أبيض وتلبس شباشب من القطيفة السوداء دائما بغض النظر عما يطرأ على الطقس من تغيرات ، يعاونها فى ذلك « العم رولو » ، الخارج عن التقاليد المألوفة . وهو رجل ضئيل الحجم خجول لا يتحلى بكثير من الرشاقة الاجتماعية .

ومن المحتمل أن يكون « رولو راسل » أول من أثار في برتراند الاهتمام بالعلم . فقد كان رولو يكتب مزامير عصرية في مدح الله يستخدم فيها نفس الأوزان التي تستخدمها المزامير في الكتاب المقدس ، ولكنه كان يدخل فيها إشارات علمية إلى الضغط الجوى ، والذرات المتصارعة ، وأثير القرن التاسع عشر الذى يحمل الرسائل من المادة إلى كافة الخليقة .

ولم يكن جو البيت مثيرا بالنسبة لولدين يفيضان بالحيوية . وتعطينا أنابيل جاكسون ، وصفا لهذا الجو منشورا تحت عنوان « طفولة فيكتورية » : « كانوا جميعا يتسللون داخل الحجرة وخارجها كما تتسلل الأشباح . ولم تبد علامات الجوع على أى واحد منهم مطلقاً » وتذكر نفس هذه الزائرة كذلك أنه كان من عادة « فرانك » أن يربطها من شعرها إلى الأشجار ، في حين أن « برتى - وهو ولد صغير وقور يرتدى حلة من القطيفة الزرقاء تصحبه مربية لا تقل عنه وقارا - كان دائم الحنو والاشفاق » .

وتؤكد صدق هذه الرواية فتاتان صغيرتان آخريان تعودتا أن تلعبا في بمبروك لودج هما : فلورا وديانا راسل ، ابنتا عم برتراند اللتان ذكرتا فيما بعد أن فرانك كان « عنيفا للغاية » وذات مرة دخلت الحجرة إمرأة تعمل ممرضة وخادمة في نفس الوقت لتجد أن فرانك ، الذى اجتاحته صورة غضب على فلورا كان يطاردها حول الحجرة ، ويحاول فيما يبدو أن يلقى بها في النار . وعلى النقيض منه كان برتراند يتميز بأدب جم وبالتعبير عن نفسه بلغة دقيقة محددة لا يتناسب نضجها المبكر مع حداثة سنه . وفى يوم من الأيام ، طلبت الليدى جون إليه أن يأخذ إحدى ضيفاته الصغيرات إلى الحديقة وأن يحتفى بها فرد عليها برتراند قائلا : « نعم يا جدتى . أو ، على أقل تقدير ، سأسعى إلى أن أفعل ذلك » .

وعلق زائر آخر هو الفيلسوف سانتيانا على جو البيت في « بمبروك لودج » قائلا إنه يشبه تماما جو بوسطون العتيق (وكان ذلك حين دعا برتراند سانتيانا لتناول الشاى معه في الأعوام اللاحقة ، في وقت كانت الليدى راسل لا تذهب فيه إلى لندن أبدا إلا لتناول الغداء مع المستر « جلادستون » .

وكانت تسود بمبروك لودج تقاليد سياسية قوية ، فقد كانت الليدى جون تتحدث عن المعارك التى خاضها زوجها من أجل الاصلاح الانتخابى ، كما تتحدث عن بطل آخر بالذات فى العائلة هو وليم لورد راسل الذى نفذ فيه حكم الاعدام ، لأنه كان يقاوم الملك « تشارلس الثانى » . وانغرست فى برتراند فى سن مبكرة للغاية أفكار مفادها أن عائلة راسل يقع على عاتقها واجب الخدمة العامة ، وأن التمرد له ما يبرره أحيانا ، وكتبت جدته على الانجيل الذى أهدته له فى عيد ميلاده الثانى عشر : « لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر » كما كتب عمه رولو فى أحد مزاميره العلمية العصرية يقول :

إن الإرادة القوية مرغوب فيها قبل كل شىء

حتى تصارع كل إرادة شريرة

تبغى مرضاة رفاق السوء وتعارض صيحات جموع الناس

وتدفع أمامنا نية الأمراء الطيبة كأنها قش تذروه الرياح

إذا كانت كلمة الحق تسىء إلى ملذاتهم .

وعندما كبر برتراند ، بدأ يتصل أيضا بعائلة ستانلى التى تنتمى إليها أمه ، وإذا صح وصف عائلة راسل بأنها جماعة من الانطوائيين العلماء ، فإن عائلة ستانلى جماعة من الانبساطيين الأشداء ، أفضى التقاء برتراند بهم إلى زيادة حيائه الذى طبع عليه . وكانت الليدى « ستانلى » سيدة لاذعة الحديث تمقت ما هو أجوف وسخيف . وأعلنت هذه السيدة أنها ستترك مخها بعد وفاتها لكلية الجراحين الملكية « لأن حصولهم على مخ امرأة ذكية لتشريحه سيكون باعثا لاهتمامهم البالغ » . وإحدى بناتها هى الكونتيسة أف أيرلى التى تزوجت حفيدتها ونستون تشرشل .

وورث فرانك راسل طباع عائلة ستانلى ، فهو يتمرد بشدة على الحياة السجينة فى بمبروك لودج . وهرب فرانك من البيت ، وهدد بألا يعود إذا لم يرسلوه إلى مدرسة داخلية ، فى حين أن برتراند كان فى هذه الفترة أقرب فى طباعه إلى عائلة راسل . ومضت أعوام

قبل أن يستعيد خصال عائلة ستانلي التي تتميز بالبشاشة والمرح ، وكتب عنه فرانك راسل بنوع من التأكيد القوى الذى يظهر فيه الأخوة الأكبر الاحتقار نحو اخواتهم الأصغر : « ولم يحظ برتى (الذى اصطادوه فى سن مبكرة عن سنى ، والذى كانت عريكته اللينة أكثر تطويعا فى أيديهم) بفائدة التعليم المنزلى الكاملة فى جو من الحب ، الأمر الذى جعله متغطرسا صغيرا لا يطاق حتى التحق بجامعة كامبردج » .

وذكر برتراند نفسه فيما بعد : « أكتسبت ، مثلى فى ذلك مثل كل الذين يتلقون تعليما بيوريتانيا ، عادة إطالة التأمل فيما ارتكبته من خطايا وحماقات وما يشوبنى من نقائص » .

وبطبيعة الحال ، كان الذهاب إلى الكنيسة بانتظام جزءا من النظام السائد فى بمبروك لودج ، وكذلك كان ترنيم التراتيل فى أمسيات الآحاد بمصاحبة البيانو الذى كانت الليدى جون تعزف عليه . وتركت هذه التراتيل فى برتراند أثراً واضحا يتجلى فيما حفرته فى ذاكرته . فبعد انقضاء ما يقرب من ثمانين سنة على ترديده لها ، نراه لا يزال يقول : « إننى أعرف آلاف التراتيل عن ظهر قلب » . ثم يسترسل فى تلاوة بعضها مثل الترتيلة التالية :

تطير الأيام واللحظات على جناح السرعة

تمزج الأحياء بالموتى

وفى القريب العاجل سنرقد أنا وأنت

كل منا فى منامته الضيقة .

وكانت رأسه تزدحم بالتفكير فى خطاياه وهو يهيم فى بعض الأحيان بمفرده فى حديقة بمبروك لودج الفسيحة المهملة . فشب يافعا يعتزل العالم ويلوذ بالصمت ويستبد به الحياء بسبب حرمانه من رفاق فى مثل عمره .

وسرعان ما فقد ثقته وأصابه العى فى التعبير عن أية عاطفة أو شعور خاص بسبب

حياته من ناحية ، وتمرسه بالتقاليد الأرستقراطية التى تنكر على المرء إظهار ما يجيش فى صدره من عواطف خاصة من ناحية أخرى ، وذات مرة ، داهم المرض عمته أجاثا أثناء غيبتها عن البيت – وكان المرض يداهمها فى أغلب الأحيان – فطلبت الليدى جون إلى برتراند أن يكتب إليها فسألها عما عساه أن يكتب فى خطابه . وقالت له جدته : « قل لها كما تأمل فى أن تعود إلينا موفورة الصحة والعافية » ، فأجاب برتراند : « إننى أحمر خجلا من قمة رأسى إلى أخمص قدمي من أن أقول لها ذلك » .

ويغض النظر عن طبيعته الخجولة وإحساسه بالوحشة لم يكن برتراند ، على أية حال ، طفلا شاذا على الاطلاق . فقد كان يستمتع استمتاعا طبيعيا بالألعاب والمغامرة ، وبذلت الليدى جون قصارى جهدها لكى توفر له الصحاب . ومن بينهم صبى مكث فى بمبروك لودج قرابة عام اشترك مع برتراند فى ربط حبل فى أعلى شجرة بلوط فوق منحدر . واستطاع الصبيان ، بالمران والمهارة ، أن ينزلقا على الحبل وأن يعودا عليه من حيث بدءا . وكان أى خطأ فى التقدير معناه الارتطام المخطر بجذع الشجرة . وعندما زارهما أولاد صغار آخرون كان يحلو لهم أن يحرضوهما على أن يجريا لعبة الحبل دون أن يتنبهوا إلى ما فيها من خطر محدق .

وأحب برتراند أيضا حبا متأججا الانزلاق على الجليد وتسلق الأشجار من أجل البحث عن أعشاش الطيور ، وكان دوق كامبردج يملك وحده حق صيد الديوك البرية فى المزرعة الكائنة بـ « ريتشموند بارك » . وأطاش برتراند عقل حرس الحديقة وهم يحاولون منعه من التعدى على أرض لاحق له فى أن يطأها بقدمه .

وفى تجواله الهائم ، كان برتراند يفكر فى أشياء أخرى غير خطاياه ، وأمتلأت رأسه بالخيال والتأمل . ويرجع أول مثل مسجل يشير إلى اتجاهه المتشكك فى المعتقدات الراسخة إلى سن مبكرة لا تتجاوز الخامسة . فعندما قيل له حينذاك أن الأرض كروية ، رفض أن يصدق ما قيل له . وبدأ يحفر حفرة فى الحديقة حتى يرى إذا كان سيخرج عند أستراليا من الناحية الأخرى . وقيل له فى نفس ذلك الوقت تقريبا أن الملائكة بجواره

تراقبه أثناء نومه ، فأجاب أن بصره لم يقع عليها قط . ولما قيل له أن الملائكة تختفى فى نفس اللحظة التى يفتح فيها عينيه ، قرر أن يحتال عليها ويغافلها بأن يقفل عينيه قفلا محكما ثم يمد يده حتى يمسكها على حين غرة . ولكن شيئا لم يقع فى قبضة يده .

وإزداد تشككه رسوخا عندما تنبأت الأم شيبتون بنهاية العالم فى عام ١٨٨١ . وجاء فى ذلك العام يوم أغبر مظلم ، أكد له تماما أنه إيذان بالنهاية ولكن العام انقضى دون أن يختفى العالم من الوجود .

وكان تشككه يهدف دائما إلى الوصول إلى الحقائق الصحيحة . وهناك مثال آخر على ذلك عندما كان طفلا لا يتجاوز الخامسة ، فعندما أخذوه إلى شاطىء البحر فى « برود ستيرز » ضايقه أن تفشل جهوده فى أن ينتزع من الصخور حيوان البطلينوس الصدفى الملتصق بها . وسأل عمته أجاثا :

– هل يفكر حيوان البطلينوس ؟

فأجابت :

– لست أدرى .

ورد عليها برتراند بقوله :

– إذن ، يجب عليك أن تتعلمى .

وسرعان ما أتجهت اهتماماته نحو دراسة الرياضيات . وفيما بعد ، نراه يذكر فى واقع الأمر « أن الرغبة فى معرفة المزيد من الرياضيات » هى التى أنقذته من الانتحار أثناء مراهقته . وكان شغفه بها ، فيما أظن ، ينبعث أساسا من تشوقه الذى يكاد أن يبلغ حد الصوفية للوصول إلى نوع من الحقيقة المطلقة اليقين .

ويلهم الناس العاديين شيئا من العزاء أن يعرفوا أنه بكا مر البكاء عندما حاول أن يتعلم جدول الضرب لأول مرة ، وأنه بدأ يمقت الجبر مقتا عظيما . (وكان يريد أن يعرف ما تعنيه (س) و (ص) فى حقيقة الأمر . وظن أن معلمه يعلم الحقيقة ولكنه يخفيها عنه) .

ولكنه أصاب تقدما سريعا فى دراسته . ومن الممكن تحديد أهم حادثة أثرت فى تطوره العقلى على وجه الدقة .

ففى التاسع من أغسطس عام ١٨٨٣ ، عندما كان برتراند فى الحادية عشرة من عمره سجل أخوه « فرنك » ما يلى : « أعطيت برتى - بعد ظهر اليوم - أول درس له فى رياضة أقليدس ، فاستجاب له فى واقع الأمر إستجابة حسنة للغاية حتى وصلنا إلى منتصف التعريفات » . وفى ٩ سبتمبر ذكر فرانك أن « برتى أتقن بنجاح جسر الحمار هذا المساء » (١) .

وفى بادىء الأمر اعترضت طريقه عقبة ، فقد خابت ظنون برتراند مرة عندما وجد أن الهندسة تبدأ ببديهيات لابد من التسليم بها دون أن يكون فى الامكان إثباتها . واستمر فى طريقه المتشكك الذى أظهر فيه الدلائل المذهلة على عبقريته الفلسفية . وخطر له أن يتشكك فى بديهيات أقليدس بادئا بتشككه فيما إذا كان شيئان متساويان لشىء واحد يتساويان الواحد منهما بالآخر .

ولم يكن فى استطاعة فرانك إلا أن يجيب : « إذا لم تقبل البديهيات ، فلن يمكننا أن نستمر ... وهكذا مضينا فى الدرس على هذا الأساس » . ولكن الشكوك التى أثارها عقل برتراند الذى لم يتجاوز الحادية عشرة بصدد صحة الأسس التى تبنى عليها الرياضيات سيطرت على حياته منذ ذلك اليوم حتى الانتهاء من تأليف « مبادىء الرياضيات » .

وبعد الرياضيات أولى برتراند التاريخ ثم الأدب أعظم إهتمامه واستكشف « شلى » بمتعة وهو لا يزال يذكر أولى قراءاته « الاستور » - وهى قصيدة رومانسية من شعر شلى المبكر - بقوله : « عندما قرأت القصيدة ابتعدت عن العالم ... ونسيت أين كنت » . وقيل له ألا يقرأ معظم الكتب الموجودة فى مكتبة جده ، فكان نتيجة ذلك أنه أقبل على قرائتها بنهم شديد وهو يقول فى هذا الصدد : « اننى أكاد ألا أتصور أن هناك طريقة أكثر من النهى فاعلية فى غرس الثقافة الأدبية فى النفوس » . وأرسى كذلك الأساس الذى شيد فوقه

(١) النظرية الخامسة فى كتاب أقليدس الأول (زاويتا القاعدة فى المثلث المتساوى الساقين متساويان) . (المترجم) .

مخزنا غير عادى من المعلومات فى شتى الموضوعات تقريبا ، التى تعجز حتى كتاباته الضخمة عن أن تعكسها بصورة كاملة نظرا لعزوفه عن استخدام أية حقيقة مستطردة لا تتصل بصلب الموضوع الذى يتناوله لمجرد إظهار ما يتوفر لديه من معرفة مستفيضة .

وعندما بلغ نحو السادسة عشرة من عمره أجهد عينيه إجهاداً سيئا للغاية ، إلى الحد الذى اضطره إلى الكف عن القراءة والكتابة لفترة من الزمن . وشغل نفسه فى تلك الفترة بحفظ الشعر عن ظهر قلب ومن بينه مجلدين من القصائد الغنائية الاليزابيثية .

وجاء فى كتاب من كتب جده التى قرأها عنوانه « حكايات ايرلندا التاريخية » قصة رجال ذهبوا إلى ايرلندا قبل أن يغمر العالم الطوفان الوارد فى الكتاب المقدس حيث غرقوا فيه ، ولكن عقله المتشكك تساءل على الفور كيف عرف المؤلفون مغامرات هؤلاء الرجال ، ثم ترك الكتاب باشمئزاز .

وكانت الخطوة التالية التى خطاها راسل فى طريق التشكك هى فحص المحاجات التى تستند إليها تعاليم الدين المختلفة ، مدونا خطواته بحروف إغريقية فى صحيفة يحتفظ بها سرا . وعقد العزم على أن يتجاهل ما يريد الايمان به ، وأن يجعل العقد وحده نبراسا له .

وكان عمه رولو يعتقد أنه يمكن التوفيق بين الحتمية العلمية والإرادة الحرة . وكتب رولو يقول إن : « ذرة واحدة أو مجرة من الشموس لا تجسر أن ترفع رأسها فى وجه الكلمة ... وليس فى الكون ركن يخلو منه القانون » . وقرر برتراند أن هذا الرأى يشوبه التناقض . فالأجسام الحية ، تشبه أية مادة أخرى فى أنها تخضع مثلها تماما لقوانين الديناميكا . ولذلك ، فإنه يمكن التنبوء بحركات الانسان بفرض أن تتوفر لدينا المعرفة الكافية به تماما كما نتنبأ بحركة الأجرام السماوية .

ومضى برتراند يرفض خلود الروح خلودا شخصيا . وظل مقتنعا لمدة طويلة بالمحاجة التى تدلل على وجود الله على أساس فكرة « السبب الأول » ولكنه نبذها بعد أن قرأ « ج . س . ميل » وتخلى تماما عن إيمانه بوجود الله .

وكان « ميل » – وهو صديق حميم لوالد برتراند – كاتبا له أكبر الأثر فى أفكاره المتطورة ، كما كان الدافع الرائد فى القرن التاسع عشر عن الفلسفة البريطانية التى تنهض على الملاحظة والتجربة – وهى فلسفة مبنية على الادراك العام (*) والواقع المألوف وتؤمن بأن الخبرة والتجربة أصل كل المعارف .

ويبدو أن الفروض الرياضية هى أوضح استثناء من هذه النظرة التجريبية . وبدا أن ٢ + ٢ = ٤ حقيقة قبلية (١) ، وأن فلسفات بأسرها قد بنيت على احترام للرياضيات يكاد أن يبلغ حد التصوف . وذهب ميل – عندما لم يعن له أن يتجاهل المشكلة ببساطة – إلى أن المعرفة الرياضية تتكون من تعميمات مبنية على التجربة . ولم يستطيع راسل الشاب أن يقتنع بصحة هذا الرأى . وفكر أنه إذا عن للمرء ذات مرة أن يرى أن ٢ + ٢ = ٤ ، فإنه يصل إلى هذه النتيجة بطريقة لا تزداد يقينا بازدياد خبرته بأزواج الأشياء المختلفة . ومرة أخرى وجد نفسه يتساءل ، أثناء سيره المنفرد فى الحديقة ، عن طبيعة الرياضة الحقة .

ويجد الذين يعتقدون أن للسنوات الأولى أثرا حاسما فى مستقبل أى انسان ، إذن ، فى حياة راسل دليلا يبعث على الاهتمام على صحة ما يذهبون إليه من رأى . فقد بدا أن كتاباته عن الأخلاق والتعليم والدين ترجع إلى حد ما إلى رد فعله ضد نشأته البيوريتانية المتزمته فى مجال السلوك والأخلاق . وعلى الرغم من أنه رفض هذا الجانب من تعاليم جدته فى بمبروك لودج ، فإن بعض الجوانب الأخرى من هذه التعاليم ظل يلازمه ، وخاصة الفكرة التى ترى أنه ليست هناك سوى قلة من الفضائل تفوق فى سموها الشجاعة الأدبية التى ينطوى عليها دفاع إنسان عن قضية لا تروق فى عين عامة الناس . وأخيرا ، انكب عقله بالفعل على تلك التأملات التى أفضت إلى ما حققه من إنجازات دائمة أساسية من الناحية الفلسفية – ألا وهو الأسلوب الذى أضاف به إلى الفلسفة التجريبية نظرية فى المعرفة الرياضية يمكن الأخذ بها ، يؤيدها باستخدام تقنية منطقية جديدة متشددة .

(*) Common sense

(١) يمكن تعريف المعرفة القبلية القائمة على التسليم بنتائج الاستدلال العقلى a priori بوجه عام ، بأنها المعرفة التى تستمد أصولها من مصدر غير التجربة . وينطوى إعطاء تعريف فلسفى محدد لها تأليف كتاب بأكمله أن لم ينطو على إقامة فلسفة كاملة .

ومن الناحية الشخصية كان شبابه مهما كل الأهمية كذلك . لقد ذكر البعض ذات مرة إننا جميعا ننفق حياتنا باحثين عما افتقدناه في طفولتنا من أشياء . وكتب راسل نفسه يقول عن الأيام الأولى التى قضاها أبراهام لنكولن فى الغابات أنه : « كان يحب البشر . وربما يرجع هذا ، إلى حد ما ، إلى ندرة وجودهم فى الغابة » ، ودفع الإحساس بالوحدة راسل إلى التلهف على المودة الانسانية العادية ، كما أنه انتهى به إلى الافتقار إلى معرفة الناس العاديين . وكان يخطىء فى أغلب الأحيان فيما يصدره من أحكام أولية على الناس ، ولكنه أصبح فيما بعد يحكم على شخصياتهم حكما صائبا نفاذا ، وذكر لى واحد من أقدم أصدقائه وأكثرهم تفهما له أنه لعل أسوأ ما كان يفتقر إليه في طفولته هو خلوها من أخت يركن إليها ، ومن الجائز أن حياته كانت تتغير تغيرا كبيرا لو قيض لأخته « راشيل » أن تعيش .

ومن ناحية أخرى ، فإنه من الجائز أن يكون إحساسه بالوحدة سببا فى تشجيع تطوره العقلي . فقد كتب « راسل » ذات مرة « إننى أكفر أحيانا - رغم أن هذا يتعارض كثيرا مع الكثير مما أرغب الاعتقاد فيه - إنه من المحتمل أن الذين عانوا من الوحدة وشىء من الأهمال فى طفولتهم أكثر قدرة على تحقيق الأعمال العظيمة من أولئك الذين يقابلون فى طفولتهم بالحدب والتشجيع ... ويعون القدرة على الاختلاء الذهنى ، لم يكن فى وسع عبقرية الانسان أن تحقق شيئا مما حققته من أمجاد ساحقة » ويقتطف راسل وصف ورد زورث لنيوتن « وهو يبحروحيدا فى بحار الفكر الغريبة » .

ودعا هذا الجمع بين الانتصار العقلى السامق فى مجال الفكر المجرد وبين فهم الناس العاديين الذى جاء متأخرا بعض الشيء فى حياته « ت . س . اليوت » إلى أن يصفه فى منتصف العمر بأنه « ناضج قبل الأوان نضوجاً دائماً » .

ويجب علينا أن نضيف أنه مهما حاولنا تفسير الكثير من نبوغ راسل فى ضوء نشأته وظروفه ، فإنه يتبقى عنصر عفوى لا سبيل إلى شرحه لا نستطيع - إذا شئنا الايجاز - أن نجد تسمية له غير العبقرية ، وكتب تشارلس سانجر ، وهو واحد من أصدقاء راسل

اللاحقين يقول فى هذا الصدد : « من الجائز أن أسلوبه الواضح الذى يدعو إلى الإعجاب يرجع إلى أنه لم يتلق تعليما كلاسيكيا فى مدرسة خاصة . وترجع آراؤه الدينية وشخصيته الأخلاقية إلى التصرف الحكيم الذى تصرفت به المحكمة عندما عينت نفسها حارسة قانونية عليه . ولكن يبدو أن دعابته الذكية وحبه للحقيقة وقدرته على العمل الشاق أشياء كامنة فيه » .

وكان راسل بحاجة إلى شىء واحد حتى يستكمل تعليمه المبدئى . فقد تعين عليه أن يرفع من مستوى إلمامه باللاتينية والاغريقية حتى يتمكن من الحصول على شهادة الثانوية العامة من جامعة كامبردج . وتقرر كذلك أن يحاول راسل الحصول على منحة دراسية ليس بسبب ضيق ذات اليد ، ولكن لتتوفر له فرصة إدراك حقيقة مستواه الدراسى إذا وضع موضع المنافسة مع غيره من الصبية . ولهذا السبب أرسل إلى معهد يعنى بحشو أذهان الطلبة بالمعلومات كما يعنى أساسا باعطاء دروس خاصة للذين يزمعون أن يتخرجوا كضباط فى الجيش من كلية « ساندهرست » العسكرية . ويبدو أن الليدى جون قررت اختيار هذا المعهد بسبب كراهيتها للمدارس الخاصة .

وعندما وفد راسل إلى ذلك المعهد لأول مرة ، خرج واحد من المدرسين لاستقباله . وبلغ به الحياء حدا جعله لا يستطيع أن يدفع للحوذى أجره . وغمره الخجل عندما سمع المدرس يهمس فى أذان فراش أن يدفعه نيابة عنه .

وذكر راسل فيما بعد أن حياءه جعل منه « ذلك النوع من الصبية بالذات الذى يحلو لاقرانه أن يسخروا منه » . وكان زملاؤه التلاميذ اجلافا أغبياء . وبعد انقضاء ما يقرب من سبعين سنة نراه لا يزال يذكر – وقد ظهر الرعب فى صوته – مشاعره عندما رأى صبيا بلغ به الجهل مبلغا جعله حين قيل له أن ظا س = $\frac{\text{جا س}}{\text{جتا س}}$ يظن أنه باختصار س من البسط والمقام يحصل على ظا س = $\frac{\text{جا}}{\text{جتا}}$.

واكتسب راسل فى ثمانية عشرة شهرا معرفة باللغات والآداب الكلاسيكية يستغرق الطالب العادى فى تحصيلها ستة أعوام أو ما ينيف . ونال منحة دراسية تؤهله للالتحاق

بجامعة كامبردج . ولكنه لم يتقن أبدا اللغات الميتة إتقانا كاملا كما يتقنها كثير من الفلاسفة البريطانيين المعاصرين . وفى زمن كان فيه « ح . أ . مور » مثلا يترجم الشعر الانجليزى من الامام إلى الخلف وبالعكس إلى شعر أغريقى ولاتينى ، كان راسل يتناقش مع عمه رولو فى المشكلات العلمية . ونظرا للتقدم الجديد الذى كان ينتظر من العلم إحرازه ، فإنى أعتقد أن اهتمامات راسل تفوق إهتمامات مور فى ميزتها ، فضلا عن أنه استطاع أن يقرأ للرياضيين والفلاسفة الألمان والفرنسيين والطليان فى لغاتهم الأصلية . وكانت جدتاه تتحدثان مع الزوار الأجانب المرموقين بالانجليزية والألمانية والفرنسية والايطالية بنفس الطلاقة . كان تراث الثقافة الأوربية أليفاً إلى راسل كشىء طبيعى لا غرابة فيه على الاطلاق .

الفصل الثانى
كان دائما يتكلم

التحق راسل بكلية ترينيتى فى جامعة كامبردج فى أكتوبر ١٨٩٠ فى الثامنة عشرة من عمره حيث ألقى نفسه فى « عالم جديد من البهجة اللانهائية » .

من العسير أن ننكر سيادة جامعة كامبردج الفكرية خلال نصف القرن أو ما يزيد الذى تلا التحاق راسل بها . صحيح أن « ف . هـ . برادلى » فى جامعة أكسفورد ظل يعتبر طوال سنوات كثيرة رائد الفلاسفة البريطانيين . ولكن ريادته آلت إلى زوال عندما هبت فى وجهه ثورة فكرية انبعثت من جامعة كامبردج أولا ، ومن الامريكان الواقعيين ثانيا . وتستطيع كلية واحدة فى كامبردج – هى ترينيتى – أن تفخر بأنها ضمت « ماك تاجارت » ، « هوايتهد » ، « راسل » ، « مور » ، « برود » ، « رامزى » ، و « فتجنشتين » ، فضلا عن « ايدنجتون » ، « رثرفورد » ، و « ج . ج . طومسون » . ويمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة أسماء أخرى من كامبريدج مثل « و . أ . جونسون » ، « مارشال » ، و « كينز » .

ولم يفسر أحد حتى الآن اجتماع كل هذا الحشد غير العادى من المواهب فى وقت واحد . وربما نستطيع أن ننسبه إلى الصدفة وحدها . ولكن قد يكون تفوق كامبردج الشديد على أكسفورد فى الرياضيات والعلم أحد الأسباب التى أدت إلى النهضة الفلسفية فى كامبردج ، وقيض للتقدم الرئيسى فى الفلسفة أن ينبعث منها . وكان الدافع الذى حدا ببرتراند إلى الالتحاق بكامبردج هو رغبته فى دراسة الرياضة ، فى حين التحق أخوه فرانك بجامعة أكسفورد .

وعقد راسل منذ البداية صداقات بعدد من الرجال النابهين . وكان « أ . ن . هوايتهد » ، وهو أحد ممتحنيه فى المنحة الدراسية ، قد التحق بكلية ترينيتى كطالب قبل ذلك بعشرة أعوام فى سنة ١٨٨٠ ، وأصبح زميلا فى عام ١٨٨٥ . وبلغ تأثر هوايتهد بأوراق إجابة

راسل فى المنحة الدراسية الحد الذى جعله يطلب من تلاميذه فى الصفوف الدراسية العليا أن يزوروا راسل وأن يتعرفوا به .

وترك « ماك تاجارت » الفيلسوف الهيجيلى ، وهو أحد أصدقائه الجدد من أهل الفلسفة أكبر أثر فيه . وكان هذا الرجل يتميز بنكته راسل الذكية ويقدر من الحياء يفوق ما كان عليه راسل نفسه من حياء . واعتاد ماك تاجارت أن يسير فى أروقة كلية ترينيتى بخطى متثاقلة مائلة متقربا على قدر المستطاع من الجدار . وكان محافظا على غير العادة بين أصدقاء راسل . وكان لراسل صديق أصغر سنا هو ج . أ . مور الذى التحق بكامبردج بعده بعامين .

كان لراسل أصدقاء آخرون ، سأشير مرة أخرى إلى بعضهم فيما بعد ، أصاب جانب منهم ذيوع الصيت فى داخل انجلترا وخارجها ، ومن بينهم لوويس ديكينسون العالم الكلاسيكى وتيودور وكرومتون ليولين ديفيز والأخوة ترافيليان الثلاثة – تشارلس السياسى ، وروبرت الشاعر ، وجورج م . ترافيليان المؤرخ . وعاش تشارلس حتى أصبح آخر عضو على قيد الحياة فى أول وزارة عمالية فى بريطانيا . وكان ج . م . ترافيليان – فى أيام الطلب المبكرة فى الجامعة – يعتبر أكثر منه راديكالية (ثورية) .

وكان تشارلس سانجر ، وهو صديق لراسل أيام الطلب ومعاصر له تماما ، شاركه فى السكن لفترة من الزمن ، موهوبا فى الرياضيات والمحاماة واللغويات بطريقة غير عادية . ولا يزال بين أيدينا وصف كتبه لوويس ديكينسون عن التقاء سانجر براسل . كان سانجر كما يصفه ديكنسون ضئيلا للغاية يفيض وجهه كله باليقظة لامع البشرة تنم حركاته عن الحماس والحرارة ، فى حين أن طلعة راسل كانت تشبه قسيسا فرنسيا من القرن الثامن عشر مختلطا بأرستقراطى انجليزى .

وكان لوويس ديكنسون الرقيق الحاشية واحدا من أول الذين احتجوا على عادة الإخلاص الصادق عند راسل التى لازمته طوال حياته ، وأطلق عليه فى إحدى المناسبات اسم شخصية كورديليا فى مسرحية « الملك لير » . وحتى فى أيام الطلب فى الجامعة ،

وجد كثير من الناس أن راسل شخص يبعث على الفزع بعض الشيء . وتخرج تشارلس ترافيليان ، وهو أكبر من راسل ببضعة أعوام من قبله ، ولكنه كان يجيء إلى كامبردج أحيانا حتى يرى أخوته الأصغر . وذكر ترافيليان بعد ذلك بسنوات أن « راسل أذكى بكثير من أن يستطيع مجابهته . وكنت أميل إلى الابتعاد عن طريقه . وشعرت أمامه أنى فى حضرة رجل عظيم يمكنه أن يكتشف مكنونات نفسى » .

شاهدت إنجلترا زمنا لم يكن التعليم الجامعى فيه - كما هو الآن - جزءا من الصراع الطبقى الوظيفى من أجل البقاء يضطلع فيه معظم الطلبة بالتركيز المتجهم للحصول على درجات عالية يتوسلون بها إلى التوظيف . وبالرغم من أن راسل وأصدقاءه كانوا يبذلون الجهد الشاق فى دراسة موضوعاتهم الأكاديمية التى تخصصوا فيها ، فإنهم كانوا يقرأون ويتحدثون كذلك فى الفلسفة والسياسة والادب والدين وأى شىء آخر يثير إهتمامهم . وفيما بعد ذلك عالم رياضى مثل « هوايتهد » أنه أمضى وقتا طويلا للغاية فى دراسة « نقد العقل الصرف » لكانط لدرجة انه استظهر بعض أجزائه . وبدا لـ « هوايتهد » وراسل أيام الطلب أن جو جامعة كامبردج يكاد أن يتفق بالضبط مع المثال الأفلاطونى فى التعليم فقد كان يقسمان وقتهما بين دراسة الرياضيات والاشتراك مع أصدقائهما فى نقاش حر يتناول شتى الموضوعات . وطبقا لما يقوله هوايتهد ، فإن هذه المناقشات فى حقيقة الأمر كادت أن تكون « محاورة أفلاطونية يومية » .

وكان مركز النقاش يتمثل فى مجموعة صغيرة مقفلة على ذاتها تعرف بـ « الجمعية » أو « الرسل » . وبلغ اقتصار الجماعة على نفسها حدا جعلهم يعتبرون وجودها سرا . وكانوا يلتقون فى حجراتهم بالتناوب فى أمسيات السبت حيث يتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما يلتقون مرة أخرى من أجل تناول الفطور المتأخر معا فى يوم الأحد ثم يخرجون بعده للسير على الأقدام طيلة النهار ، وهم منهمكون فى الحديث أثناء سيرهم .

وسرعان ما تألق راسل فى هذه المناقشات . وعندما عاش بعيدا عن عائلته ، انحصر

عنه ظل جده وجدته . ووجد راسل ، وقد اعتراه شيء من الشعور بالدهشة ، أن أذكى الناس في كامبردج يستمتعون بالانصات إليه . وتطورت شخصيته ونكتته الذكية بسرعة كما لو كان كائنا جديدا في عالم جديد . وزايله حياؤه عندما ألقى نفسه في صحبه أناس تتفق مشاربه مع مشاربهم . وفي كامبردج بدأ راسل يدخن - بعد أن كانت الليدى جون في بمبروك لودج تعرب عن سخطها على التبغ وتعتبر تدخينه « خطيئة » - وأظهر ميله إلى تدخين غليونه والتحدث طوال الليل والنهار .

وبعد أن انقضت على ذلك ستون عاما ، ظللت ألح على ج . أ . مور أن يروى لي أية ذكريات قد تكون عالقة بذهنه عن راسل أيام الطلب في الجامعة . وأصبحت ذكريات بعد انقضاء مثل هذه الفترة الطويلة من الزمن - مختلطة معتمة . ولكنه تذكر شيئا واحدا عن راسل بتحديد ودقة . قال مور « إنه كان دائما يتكلم » .

أما مور نفسه ، فقد كان يلوذ بالصمت عادة ، اللهم إلا إذا استثارته مناقشة عن الفلسفة فينسى في غمرة مشاعره الحادة كل شيء سواها . وكان شعره يتدلى على جبينه ، كما كان من عادته المميزة أن يعيد شعره إلى مكانه بأن يزيحه إلى رأسه بيده حتى مؤخرتها . وهو يعبر عن اختلافه في الرأى اختلافا مشوبا بالعاطفة ، وعندما قال له أى إنسان : « إنني لا أتفق معك في الرأى » كان مور يرد عليه قائلا : « يا إلهى . إنك لم تفهم كلمة واحدة مما ذكرت » . ومن الأمور التي تستلفت الانتباه في شخصية راسل ، بغض النظر عن مؤلفاته تماما ، ما يتمتع به من قدرة على إغراء الآخرين بدراسة الفلسفة . وفي بداية التحاق « مور » بجامعة كامبردج لم يكن طموحه يتجاوز الدأب على دراسة اللغات الكلاسيكية القديمة ، وان يضطلع بدوره بتدريسها في المدارس الثانوية . ولكن راسل دعاه في يوم من الأيام إلى تناول الشاى معه كي يقابل « ماك تاجارت » . وأخرج « ماك تاجارت » من جعبته نظريته المشهورة التي تذهب إلى أن الزمن ليس له وجود حقيقي . واعتقد « مور » أن هذا الرأى هراء . ولما رأى راسل ما أظهره مور من مهارة في الجدال في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى ، حثه على هجران دراسة اللغات الكلاسيكية

القديمة من أجل دراسة الفلسفة . وسرعان ما أظهر تألقا واضحا لدرجة أنه جاءت فترة لاحقة من المحتمل أن يكون راسل قد تعلم فيها من مور أكثر مما تعلم مور من راسل .

وظل معظم الناس ، فى كامبردج – خلال بعض الأعوام – يعتبرون أن مور يفوق راسل فى عظمته . وكان لـ « مور » أثر فى الطلبة الذين يصغرونه سنا يفوق بكثير أثر راسل فيهم . وأخطأ الناس فى تأويل فيض النكات البارعة التى كان راسل يطلقها على أنها مجرد ذكاء طريف أفضى به إلى التورط فى تأكيدات وتوضيحات خلابة لم يكن « مور » يسمح لنفسه أن يتردى فيها مطلقا . وكان مور يتميز دائما بعاطفة متأججة وضاءة نحو الحقيقة بمدلولها الحرفى . وعندما نحكم عليه بمقالاته التى كتبها فى مطلع حياته ، وبالأثر الذى تركه فى معاصريه الأوائل ، نجد أن كتبه لا تفى وفاء كاملا بحقه فى الاعتراف بما خلفه من أثر .

أما فيما يتعلق بعمل راسل الأكاديمى ، فقد درس الرياضيات فى أعوامه الثلاثة الأولى بجامعة كامبردج . ففى تلك الأيام التى تخلو من المشاغل والهموم أكثر مما تخلو منها أيامنا الراهنة ، كانت هيئة التدريس بالجامعة لا تزال تضم نصيبها من الشواذ ، فقد أصابت فى نهاية الأمر مدرس الرياضة الذى كان يعلم راسل لوثة عقلية . ووفقا لما يقوله راسل ، كان هناك زميل فى كلية « سانت جون » يحاول فى بعض الأحيان أن يذبح ضيوفه بسيخ مدفأة ملتهب متوهج ، ولكن قدمه العرجاء كانت لحسن الحظ تعوقه عن ملاحقتهم . وكانت هناك كذلك شخصيات لطيفة مثل الأستاذ العجوز الذى كان يحتفظ بتابوت فى حجرته ، ويستمتع بنخس الديدان فى الحديقة بعصاه عندما تظهر على سطح الأرض بعد سقوط المطر ، وهو يصيح : « أنت لم تأكلينى بعد » .

وفى عام ١٨٩٣ كان ترتيب راسل السابع بين المتفوقين فى الرياضيات بجامعة كامبردج ، وهى نتيجة طيبة ولكنها غير مرموقة . وكان ترتيب صديقه تشارلس سانجر الثانى فى نفس السنة ، وكانت نتيجة راسل ، فى واقع الأمر ، أفضل بعض الشىء مما كان أساتذته يتوقعون منه . وقد علق راسل فيما بعد ذات مرة بقوله أنه يدين بالفضل فيما

حققه من منجزات لاحقة إلى « المثابرة والعناد » كما اعترف بأنه عندما عمل وسانجر سويا فى حل المسائل الرياضية ، كان سانجر يتفوق عليه بسرعته تفوقا كبيرا .

ولكن هناك سببا أهم يفسر لماذا جاء ترتيبه السابع فى هذاالعام . فقد كان تدريس معظم الرياضة فى جامعة كامبردج حينذاك ، يتلخص فى حل المسائل ، نظرا للحاجة إلى وضع طلبة الامتياز فى ترتيب محدد ، وكان راسل يعتبر الكثير من هذه المسائل تمرينات عديمة الجدوى ، لا تمت بأدنى صلة إلى المشاكل الأساسية فى فلسفة الرياضة التى كانت تثير اهتمامه فى حقيقة الأمر . تشكك راسل فى أفكار أساتذته ، وقرر (بوجه حق) أن ما تلقنه بصدد نظرية ذات الحدين وحساب التفاضل والتكامل ملىء بالأغلاط .

وبلغ به الاشمئزاز مبلغ جعله ، بعد أن اجتاز امتحانات الأمتياز ، يبيع كل ما يملكه من كتب الرياضيات تقريبا ويقسم أن يهجر الرياضة هجرانا تاما .

ثم درس راسل الفلسفة فى آخر سنة له فى كامبردج ، وكانت أولى نتائج هذه الدراسة أن اتجه تفكيره الوجهة الخاطئة . فقد أغراه أساتذته ، بالاشتراك مع ماك تاجارت ، بالاعتقاد بأن التقليد البريطانى الذى ينهض على الملاحظة والتجربة والذى استمده من ج . س . ميل تقليد يجانبه الصواب ، وأن هناك حكمة تفوقه فى فلسفات كانط ، وهيجل ، وبرادلى .

وفي ذلك الوقت أثار نشر كتاب برادلى « المظهر والحقيقة » (١٨٩٣) أكبر إهتمام فى عالم الفلسفة . وكان ينبغى – على حد تعبير ناقد عدائى – أن يطلق عليه اسم « اختفاء الحقيقة » ، نظرا لأن برادلى تناول سائر الأشياء التى تعتبر عادة مكونة للعالم المتطور – مثل الأشياء والكيفيات والزمان والمكان – وألغاها واحدا تلو الآخر باعتبار أنها تتضمن علاقات رأى أنها تشتمل على التناقض الكامن . وفى نظر « برادلى » أن منطقة المظهر ، متناثرة الأجزاء متناقضة ، كما أن الحقيقة الوحيدة الصادقة هى « كل » متفرد غير محدود بزمان اسمه « المطلق » يشمل فى رحابه كل شىء .

وهذا المطلق ، بمعنى ما ، روحى أو أن له روحا ، ويختلف تماما عن الأشياء التى

تصـادفنـا فـي حـياتنا اليومـية . وبمـعنى آخـر ، ينزع برادلي إلى « المثالية » التي تناقض « الواقـعـية » . ويمكن تـعريف الفيلسوف الواقـعي بوجه عـام بأنه رجل يؤمن أن الأشـياء الحـقيقية موجودة بطريقة تتفق ، بدرجات متفاوته ، مـع الادراك العام ، بغض النظر عن وجود عقل بعقلها . وكتب برادلي متبعا منطق « الموضوع والمحمول » أن كل حكم « تحمل فكرته » المطلق .

وأصبح راسل بعد حث كبير تـابعا لـ « هيجل » وبرادلي . ويبدو واضحا أن السبب في هذا يرجع إلى أحاديثه مع أصدقائه أكثر من دراسته الأكاديمية في كامبردج . ولم يخبره أساتذته في الرياضة شيئا عما جد فيها من تطورات مثل أعمال وايرستراس ، في حين صرفه أساتذته في الفلسفة عن المذهب التجريبي . ولم يبدأ عمله الأصيل – سواء في الرياضة أو الفلسفة – إلا بعد تخرجه من الجامعة . وفي كلتا الحالتين ، قاده سخطه على أسس الرياضـة في نهاية الأمر إلى التمـرد على الأرثوذكسـيـة العلمـيـة بعنوان « أسس الهندسة » أهداها إلى ماك تاجارت ولكن هذا الكتاب لا يزال يعكس ما كان قد تعلمه في كامبردج .

وحـتى بعـد أن نبذ راسل ومور فـيـمـا بعد ، آراء مـاك تاجـارت نراهمـا لا يزالان يشتركان معه ، على أقل تقدير ، في شيئين ينسبهما إلى نفسه : (أولاهما) الكراهية التي كان ماك تاجارت يحملها لما اسماه « غموض التعبير » والاصرار على استجلاء معاني الألفاظ . (ثانيا) الاقتناع بأن محاولة توجيه أي جدال فلسفي حتى يصل إلى نتيجة مرغوب فيها من الناحية العاطفية ، هي أعظم جريمة فكرية .

ومما يثير الاهتمام أن نذكر في هذا المجال نقدا وجهه إلى راسل مدرسو الفلسفة في كامبردج . فقد كان من عادتهم أن يصفوا مقالاته وإجابته عن أسئلة الامتحانات بأنها موجزة أكثر مما ينبغي . واحتفظ راسل دائما بهذه القدة على الايجاز ، رغم أنه لم يترك لنا فيما بعد سببا يدعونا إلى الشكوى من ضآلة مؤلفاته .

لابد لأي مفكر عظيم ، مهما بلغت أصالته ، من أن يتأثر بالجو الفكري السائد في

عصره . ويجب أن نذكر شيئا عن الافتراضات المسبقة التى اشترك راسل وأصدقاؤه من طلبة الجامعة فى الأخذ بها . وصل راسل إلى كامبردج قبيل التحول الذى طرأ على أمزجة الناس العقلية من القرن التاسع عشر المتفائل الخلاق إلى القرن العشرين المتشكك الناقد . وساد فى القرن التاسع عشر التفاؤل المشرق بمستقبل العالم كل مكان ، بغض النظر تماما عن الخلافات القومية أو السياسية . واستلهم هذا التفاؤل الفلسفة الهيجلية فى ألمانيا ونظرية التطور لداروين فى بريطانيا ، وأيقن الاستعمارى المحافظ والليبرالى المؤمن بحرية التجارة ، والثائر الماركسى على حد سواء أنهم يستحقون جميعا العالم الذى يتطلعون إليه .

وكتب راسل فيما بعد عن نفسه وعن معاصريه يقول : « كنا نشعر جميعا أن التقدم الذى أحرزه القرن التاسع عشر سيستمر ، وأننا أنفسنا سنتمكن من أن نضيف شيئا ذا بال » .

أما فيما يتعلق بالحرب ، فهى – فى رأى ذلك القرن – أثر من آثار العصور البربرية البائدة لا تناسب غير الأغبياء الذين عرفهم راسل فى المعهد الذى يحشو أذهانهم بالمعلومات قبل أن يلتحقوا بأكاديمية ساندهرست العسكرية . ولم يكن هناك ما يدعو أى شخص عاقل إلى أن يأبه بها . صحيح أنه قد توجد مناوشات فرعية ضد المتوحشين فى المناطق النائية على أطراف الامبراطورية . ولكنه كان فى العادة عسيرا على أى شخص ذكى أن يعتقد ، حتى حلول عام ١٩١٤ ، أن القتال سينشب فى حقيقة الأمر بين الدول المتمدنة فى أوربا .

وحطمت الحروب والديكتاتوريات فى الواقع هذا الايمان السائد بحتمية التقدم تحطيما فظا خشنا ، كما حطمه ، من الناحية النظرية ، رفض الهيجلية أو أية فلسفة تطورية أخرى . وأوضح لنا راسل أكثر من مرة أنه بالرغم من أن الانتقال من « الأميبا » إلى الفيلسوف يمثل التقدم من وجهة نظر الفيلسوف ، فإننا لا نعرف إذا كانت الأميبا تشعر بنفس هذا الشعور . ولكن الإيمان بالتقدم المتغلغل فى راسل ظل مستقرا فى

لا وعيه يؤثر فى تفكيره فى ناحية واحدة ، إذا كان المجتمع الانسانى فى تغير وتحسين دائمين ، فإن يستتبع ذلك أن القوانين الأخلاقية ينبغى أن تتغير ، وكان هناك افتراض أن أية أحكام أخلاقية مبنية على التقاليد الماضية تحتمل الخطأ ، وأن أية أفكار جديد بصدد الأخلاق أكثر احتمالا فى صوابها من الأفكار القديمة . وقد ذكر راسل هذه النقطة فى إحدى مقالاته المبكرة التى كتبها أيام الطلب فى الجامعة . وشجعه هذا فيما بعد على الاستمتاع بمضايقة المستمسكين بالعرف ويتحدى الأخلاق التقليدية ، وكتب راسل : « إن علم الأخلاق شأنه فى ذلك شأن كل فرع من فروع الفكر الانسانى ، ينقسم إلى نوعين ، تلك الآراء المبنية على التقاليد من ناحية ، وتلك الآراء التى تستند إلى شىء من الحقيقة من ناحية أخرى » .

وفى أيام الطلب بالجامعة ، كانت عقلانية راسل المتمردة لا تزال تمتزج بآثار التشدد البيوريتانى مع النفس الذى ترعرع وشب فى ظله . وعندما اكتشف راسل لأول مرة مباهج كامبردج العقلية ، بلغت به السعادة مبلغا جعله يكاد أن يحس بشىء من الذنب على استمتاعه بها . وقرر أن واجبه يقتضى منه الاتيان كل يوم بفعل واحد غير بهيج . وكان راسل فى هذا الوقت أرثوذكسيا (تقليديا) فى آرائه فى الجنس . ويقال إنه أنحى باللائمة على فتاة تغازل رجلا لاتحبه .

وكان تسلل النساء إلى كامبردج فى تلك الأيام لا يزال طفيفا . ولكن بعض الأساتذة كانوا يقيمون فى كثير من المناسبات حفلة عشاء يدعو إليها بعض السيدات الشابات من نيونهام أو جيرتون . وهناك بعض الشواهد المبكرة التى تدل على افتتان النساء براسل . ومنها ما يذكره طالب من زملائه أن فتاة جلست بجواره في وقت العشاء ، تحملق فى حدة بعيون لامعة ، وهو يحدثها فى بعض المشاكل الاخلاقية أو الفلسفية .

وبعد طفولته الموحشة شب راسل دون أن يعرف عن الجنس الاخر سوى النذر اليسير . ولذلك ، كان حتما إلى حد كبير أن يغرق فى الحب لأذنيه عندما تحركت هذه العاطفة فيه بسبب ما جبل عليه من طبيعة متلهفة ، ووقع راسل في حب أليس بيرسال سميث الفتاة

الجميلة التى تنحدر من عائلة « الكويكرز » (الاصلاح) الانجيليين التى وفدت من بنسلفانيا واستقرت فى إنجلترا . وكان أخوها الكاتب لوجان بيرسال سميث ، وتزوجت أختها من بيرنارد بيرينسون الناقد الفنى المرموق . وبعد انقضاء سنوات كثيرة سجل بيرينسون ذكرياته عن زيارات راسل الأولى لعائلة بيرسال سميث بوصفه خطيب أليس . يقول بيرينسون : إن راسل كان « خائفاً ، هيابا ، خجولا ، ضئيلا ، داكن اللون بعض الشىء ، يلوذ بالصمت فى معظم الأحيان » . ووصفت أليس نفسها كيف أنها صحبته ليرى بعض أصدقائها قائلة : « إنى لا أعرف فكرتهم عن برتى راسل الذى أظهروا له كل العطف . ولكنه كان فى حضرتهم خجولا أكثر مما ينبغى » .

واعتبر الناس زواج هذا الأرستقراطى الانجليزى غريبا بعض الشىء . ووقف بعض أصدقاء راسل فى وجه هذا الزواج . وكذلك اعترضت عليه جدته الليدى جون ، ودبرت لراسل الترتيبات لتعيينه ملحق شرف بالسفارة البريطانية فى باريس آمله أن هذا قد يصرف انتباهه عن الزواج . ولكن راسل لم يجد أية متعة فى الملاهى الباريسية ، وكل ما استطاع أن يتذكره فى السنوات اللحقة أنه كان ينسخ رسائل طويلة تتناول حقوق صيد السمك حسب معاهدة « أوترخت » . وكانت الدبلوماسية البريطانية حريصة على أن تثبت فيها أن الكابوريا ليست سمكا ، فى حين أن الحكومة الفرنسية ترد عليها بأنها كانت تعتبر سمكاً عند توقيع المعاهدة .

وعاد راسل إلى بلاده فى أول فرصة . وفى ١٣ ديسمبر ١٨٩٤ تزوج أليس فى « بيت اجتماع الأصدقاء » فى لندن . وكان عمره اثنتى وعشرين عاما ، كما كانت زوجته تكبره بخمسة أعوام . وتخللت حفلة الزواج – شأنها فى ذلك شأن كل مراسيم « الكويكرز » – فترة من الصمت يقطعه أحد من الموجودين عندما يتحرج صدره بشىء يريدالتعبير عنه . وكان تشارلس ترافيليان – الذى جلس فى المؤخرة – يشغل باله بالمراهنات بالبنسات على الذين يتوقع وقوفهم وكلامهم من بين الحاضرين .

الفصل الثالث
برلين والماركسية

لم ييسر برتراند راسل عمل من يعن له أن يقوم بدراسته أو كتابة سيرته بتقسيم حياته إلى مراحل واضحة تتناول الموضوعات المختلفة تقسيما محددا . وكان من عادته دائما - التى تدعو دراسة إلى الارتباك - أن يولى إهتمامه أى عدد من الموضوعات المختلفة فى آن واحد . ويكاد أن يصل تنوع اهتماماته العديدة إلى ما وصلت إليه شخصيته من تعقيد شديد . ولخص راسل نفسه مستقبله ذات مرة بتعليق يميز شخصيته يقول فيه أنه عندما أصبح أغبى من أن يستوعب الرياضيات اتجه إلى دراسة الفلسفة ، وعندما أصبح أغبى من أن يستوعب الفلسفة أتجه إلى دراسة التاريخ . صحيح أنه أظهر أعظم الاهتمام - وهو بين الحادية عشرة والثامنة والثلاثين - بأسس الرياضيات ، وأنه نبذ إهتمامه بأى عمل فى هذا الميدان عندما بلغ نحو الخامسة والستين من عمره . ولكن إهتمامه الطاغى بالرياضية والفلسفة لم يحل بينه وبين دراسة الاقتصاد فى برلين بعد مضى عام على زواجه . وكان أول كتاب نشره يبحث فى السياسة .

وكثيرا ما يصف لنا راسل إحدى المناسبات فى مارس عام ١٨٩٥ . وهو يسير عبر الثلوج الذائبة فى تيرجارتن (حديثة الحيوان) فى برلين ، عندماقرر أن يكتب سلسلة من الكتب - تبدأ إحداها بأكثر الموضوعات تجريدا مثل الرياضيات ثم تصبح أكثر فأكثر تحديدا ، وتبدأ السلسلة الثانية بالسياسة والاقتصاد ثم تصبح أكثر فأكثر تجريدا . وكان راسل يزمع أن تتقابل السلسلتان في تركيب كامل يجمع بين النظرية والتطبيق . وكتب راسل هذه الكتب ، ولكن التركيب النهائى لم ير طريقه إلى النور نظرا لأنه قد نبذ الهيجيلية .

وضمنت خلفية عائلة راسل لسليلها إهتمامه بالسياسة . وكان يعرف معظم

الشخصيات الهامة فى الحياة العامة البريطانية - من جلادستون حتى تشرشل - معرفة وثيقة . ويصف راسل فى كتابه « مقالات غير مستحبة » ذكرياته الحية للغاية عن جلادستون عندما كان يزور بمبروك لودج . فبعد أن غادرت السيدات المائدة ، ترك الحاضرون راسل الشاب بمفرده ليحتفى بضيفه الذى توحى حضرته بالرهبة . وبلغ الحياء براسل مبلغا أعجزه الكلام . وكانت الملحوظة الوحيدة التى تفوه بها جلادستون وتلاها صمت أشق على النفس من ملحوظته هى : « أن نبيذ البورت حسن للغاية ولكن لماذا قدموه إلى » فى كأس من كئوس الكلاريت ؟ « وجاءت أول صلة لراسل بونستون تشرشل عندما كان راسل طالبا فى جامعة كامبردج وتشرشل تلميذا فى مدرسة « هارو » . ففى يوم من الأيام ذهب راسل إلى الحلاق فى لندن ليقص شعره ، فقال له الحلاق : « إن ابن اللورد راندولف موجود فى البيت المجاور يا سيدى . إنه شبل صغير . نعم . إنه كذلك » .

ولم يقصر راسل صلاته السياسية - بوصفه عضوا فى « الجمعية » التى تؤمن بتعلم كل شىء دون أن يصدمها أى شىء أو تجزع منه - على الحزبين الحاكمين : حزب المحافظين وحزب الأحرار (الليبرالى) الذى ينتمى إليه . وارتبط راسل عن طريق عائلة « بيرسال سميث » ، منذ مرحلة مبكرة للغاية ، بعلاقات ودية مع الفابيين ، دعاة الاشتراكية الرواد المنتمين إلى طبقة أصحاب الوظائف ، الذين كادت جهودهم - بالرغم مما منيت به من فشل فى القضاء على الرأسماليين البريطانيين أن تمحق الطبقة التى ينحدرون منها . وزار راسل وزوجته المانيا مرتين فى عام ١٨٩٥ . وكان يهدف أساسا من وراء زيارته الثانية إلى دراسة الحركة الاشتراكية الألمانية (*) . ولم يكن الاهتمام الذى أظهره أرستقراطى إنجليزى شاب أمرا مألوفا بعض الشىء ، إن لم يكن أمرا يصدم الشعور . وذكرت « أليس » فى السفارة البريطانية أنها حضرت مع زوجها اجتماعا اشتراكيا . وبالرغم من أن السفير صرف الموضوع بدبلوماسيته قائلا : « إننا جميعا اشتراكيون اليوم » ، فقد كانت تلك المناسبة آخر مرة تدعوهما فيها السفارة إليها .

(*) كان استخدام « اشتراكى » ، « ديموقراطى اجتماعى » يشمل حينذاك الماركسيين الذين يطلق عليهم اليوم اسم « الشيوعيون » .

كان راسل صحفيا رائعا . ونحن نجد ، لسوء الحظ ، أن مهنة الصحافة فى كثير من البلاد الآن قد ساءت سمعتها بسبب الصحف نفسها . ولهذا ، فإنه يجب على أن أوضح ، فى هذا المقام أو فى أى مقام لاحق ، اننى لا أقصد النيل من بعض أعمال راسل عندما أصفها بأنها أعمال « صحفية » فالمثل العليا فى الصحافة الحقة تتفق مع تلك المثل العليا التى تلهم أرقى الدراسات . وتتلخص فلسفة راسل بالذات فى الاصرار على رفض الأخبار المنقولة على لسان انسان آخر ، والتشكك فى كل شىء والبحث عن المعرفة اليقينية . ولا يتمتع راسل بموهبة الملاحظة الدقيقة والوصف الذى يفيض بالحياة فحسب ، بل انه يملك الغريزة الصحفية التى تستشعر تلك التطورات التى يحتمل أن تثبت أهميتها فى المستقبل . ولعل أعجب مثل على هذا أنه فى وقت مبكر للغاية لا يزيد عن عام ١٨٩٥ ذهب إلى برلين ليستقصى حقيقة القوتين اللتين قدر لهما أن يشكلا تاريخ العالم فى الخمسين عاما اللاحقة أو ما ينيف : إلا وهما العسكرية الألمانية والشيوعية الماركسية .

وتعلم راسل أشياء عن الدولة البروسية حتى من مجرد حضوره الاجتماعات الاشتراكية . ولفت أنظاره رجال البوليس الذين كانوا هناك دائما على أهبة الاستعداد لأن يفضوا هذه الاجتماعات أثناء انعقادها . وخبر خيلاء الضباط البروسيين خبرة مباشرة من خلال تصرفاتهم فى الفندق الذى كان ينزل فيه ، فإذا هم أرادوا أى شىء لم يقف فى سبيلهم عائق دونه ، إلى حد أنهم كانوا يطرقون باب المراحيض الموصد طرقا مدويا ويدفعونه دفعا إذا كانت هذه المراحيض مشغولة .

وكان راسل وزوجته « أليس » جادين ومثابرين فى دراستهما للاشتراكية الألمانية بالرغم من أن حماسهما كان يخبو أحيانا . وتسجل مذكراتهما الشخصية قصة دراستهما للإشتراكية الألمانية فى ثلاثة مواضع : (أولا) : « ذهبنا إلى اجتماع نقابة عمال تجليد الكتب الذى حضره ما يقرب من مائة شخص . وكان الاجتماع سقيما مملا لدرجة فظيعة ، ويشبه تماما كل اجتماع آخر من نوعه . وكانت كل كلمة فى الخطب التى ألقيت فى الاجتماع مشبعة بماركس » . وكتبا بعد مضى أيام قلائل : « حضرنا اجتماعا صغيرا

مملاً فى قاعة لاحتساء البيرة جوها خانق وفظيعة . وكان المتحدث كالعادة ماركسيا مملا » . وهناك تسجيل أخير لاجتماع آخر : « كان الاجتماع مملاً للغاية ولم نمكث سوى زمن قصير » .

وكانت دراسات راسل على قدر من الاتقان الذى كفل له ، على أية حال ، أن يحقق الانجاز النادر الذى يتمثل فى قراءة جميع الأجزاء الثلاث من كتاب « رأس المال » .

وبعد عودته إلى انجلترا ، ألقى راسل محاضرة فى الجمعية الفابية ضمنها ما توصل إليه من نتائج ، كما ألقى بسلسلة من المحاضرات فى مدرسة الاقتصاد فى لندن المنشئة حديثا ، التى نشرت فى عام ١٨٩٦ بعنوان « الديموقراطية الاجتماعية الألمانية » وهو أول كتاب يتصدر قائمة كتب راسل الطويلة .

ولا تزال هذه المحاضرات المختلفة تبعث على الاهتمام الخلاب بها حتى يومنا الراهن . ولا يرجع السبب فى هذا إلى انها تتنبأ فى بعد نظر غير عادى بمستقبل المانيا المفضى إلى الدكتاتورية والحرب فحسب ، بل لأن هذه المحاضرات مثل على ما يتميز به راسل من محاولة مناقشة أية مشكلة سياسية بطريقة علمية عقلانية خالية من الانقياد وراء العواطف .

وبالرغم من أن راسل ليبرالى ، فإن ثوريته الكامنة وشعوره بالتآخى مع أى متمرد جعلاه يعطف على احتجاج الاشتراكيين على الفقر والشقاء . وكتب راسل فى « الديمقراطية الاجتماعية الألمانية » يقول : « إن البيان الشيوعى يكاد ألا يبارى فى ميزته الأدبية ... وفى رأى أنه قطعة من أحسن نماذج الأدب السياسى الذى ظهر حتى يومنا الراهن نظرا لما فيه من بلاغة موجزة ودعاية ذكية وبصيرة تاريخية . ونحن نرى فى هذا العمل الرائع شيئا من القوة الملحمية التى تتسم بها النظرية المادية فى تفسير التاريخ ، كما نرى حتميتها القاسية التى تنأى بنفسها عن التورط فى العواطف الرخيصة ، وازدرائها للأخلاق والدين واختزال كافة العلاقات الاجتماعية إلى فعل أعمى من صنع القوى الإنتاجية التى ترفق الاعتراف بما هو شخصى » .

ويتضح لنا أنه بالرغم من كل ما أظهره راسل على الشيوعية من عطف وتفهم ، فإنه لم ينخدع بأوهامها منذ البداية . ورغم أنه فى عام ١٨٩٦ لم يتوقع تماما ما سيفضى إليه التعصب الشيوعى عند التطبيق - فلم يكن أحد فى ذلك العصر المتفائل يتصور مطلقا الفظائع التى تنتظر العالم فى القرن العشرين - فإنه وجه حينذاك إلى الماركسية بعض النقد الحاد النفاذ .

وأوضح راسل مواضع الزيف الكامن فى تفاصيل الاقتصاد الماركسى الجافة المملة . ففضلا عن زيف نظرية فائض القيمة ، فإنها تتناقض مع نظرية « تركيز رأس المال » ، التى اعتبرها راسل أكثر جزء أصالة وجوهرية فى عمل ماركس . وقد عبر ماركس عن هذه النظرية الأخيرة التى تتناول نزعة الصناعات نحو الاحتكارية بقوله : « إن رأسماليا واحدا يقتل كثيرا من الرأسماليين » . ولكن راسل اعترض عليه بأن الخلاصة التى يقرها العقل تقتضى من الدولة الاستيلاء على الصناعات المختلفة فى أوقات مختلفة عندما تصل هذه الصناعات إلى مرحلة الاحتكارية ، وليس فى نفس الوقت عن طريق تسديد ضربة واحدة حاسمة فى الصراع الطبقى لإقامة « دكتاتورية البروليتاريا » .

وفى رأيه أن المذهب الماركسى الذى ينادى بالحرب الطبقية سليم ، فقط لو كان سائر الناس خالدين ، وبعيدى النظر إلى حد الكمال ، ولا يحركهم دافع غير الدافع الاقتصادى . وتتجاهل الصورة التى يعطيها ماركس عن المجتمع الذى يزداد انقسامه إلى طبقتين متناحرتين هما : البرجوازية والبروليتاريا ، نمو طبقة وسيطة جديدة بينهما تخلقها الأهمية المتزايدة للفنيين فى الإنتاج .

بدأ راسل محاضرته الفابية التى ألقاها عن ألمانيا بقوله إنه لا يعنى بمعالجة مزايا الاشتراكية وعيوبها . ولكنه يعنى بمعالجة أفضل التكتيكات الكفيلة بتحقيقها - أى بمناقشة إذا كان الاشتراكيون الألمان محقين فى التبشير بالحرب الطبقية وفى رفض أية صلة تربطهم بالتقدميين الآخرين . وقال راسل إنه يقترح مناقشة هذه المشاكل باعتبارها « مسألة ميكافيلية بحتة » ، دون أن يقصد بذلك أنها ميكافيلية بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . وفى واقع الأمر ، أوضح راسل ذات مرة أن ميكافيلى رجل أساء الناس فهمه للغاية . وأن

أحكامه افتراضية وليست قاطعة وإنه لم يفعل أكثر من أنه صدم أفكار الناس بأمانته فى مناقشة عدم الأمانة السياسية . ورغم هذا ، فإن بعض الأشياء التى قالها راسل فى ذلك الوقت لها رنين عجيب فى أيامنا الراهنة . ومن الجائز أنه لم يكن يتمتع بمناعة كاملة تقيه من زلل التظاهر الذى يمارسه الشباب بالبهجة التى يجدها فى الواقعية ، الخالية من الاستسلام للعواطف ، أو لعله كان ببساطة قد اكتسب عادة التعبير عن أى شىء يريده فى أشد الصور تحرشا واستفزازا . وذكر لى جلبرت مرى ذات مرة أن راسل إذا تحدث إلى أسقف ، فإنه يقول له فى وجهه بصراحة لا تتغير : « إنى ملحد » ، فى حين أن فى إمكانه بسهولة أن يقول بدلا من ذلك : « اننى لا أستمسك بأية عقيدة دينية » .

وذكر راسل فى محاضرته أن الاشتراكيين الألمان حددوا سياستهم « دون أن تدفعهم إلى ذلك مقتضيات التكتيك أو ملاحظة طبيعة الانسان السياسية ملاحظة تجريبية ، ولكن نتيجة أتباعهم مذهب ماركس القائم على المعرفة القبلية فى الحرب الطبقية » . وأظهر راسل حينذاك ميله الذى يميزه نحو التجريبية ، ومقته للمعرفة القبلية بالرغم أنه لم يكن حينذاك تجريبيا فى الفلسفة . ثم تساءل بعدئذ إذا كانت تكتيكات نظرية الحرب الطبقية ، بالرغم من خلط هذه النظرية ، لها من النتائج العملية ما يبررها .

وقرر راسل أن التكتيكات وحدها ، على النقيض من ذلك ، هى التى تنقل نظرية الحرب الطبقية إلى حيز الواقع ، بمعنى أنها توحد جبهة الرأسماليين الألمان ضد الاشتراكيين . « فقد أوضح ماركس للبورجوازية منذ البداية مصدر ما يتهدد وجودها من خطر تحديدا حقيقيا . وهكذا نجد أنه حتى لو كانت نظرية الحرب الطبقية صحيحة فإنه يبدو أن التصريح بها يجانب الحكمة . إن الاشتراكيين قد أخفقوا فى أن يدركوا أهمية الاقلال من إفزاع أعدائهم إلى أدنى حد » .

ولم يتنبه الرأسماليون الألمان إلى الاخطار التى تهددهم فحسب ، بل أن تقدمية الليبراليين ظلت تتضاءل يوما بعد يوم بسبب العداوة التى لا تلين لها قناة التى يحملها الاشتراكيون لهم ، وذلك لأن هؤلاء الليبراليين وجدوا أنهم لا يستطيعون أن يأملوا – عن طريق تبنى آراء أكثر تقدمية – فى الحصول على أصوات الاشتراكيين الانتخابية . أما

بالنسبة للاشتراكيين أنفسهم فقد حرمتهم أراؤهم المذهبية المتطرفة من كل إحساس بما يمكن وضعه موضع التنفيذ من لحظة إلى أخرى ، ونفر المعتدلون من الحزب الاشتراكى ، فتعمق بذلك صراعه « بسبب اعتراضه على الدين والعائلة والوطن » مع الادراك العام عند الرجل الألمانى العادى .

ولو أن الاشتراكيين ، بدلاً من ذلك ، أيدوا التقدميين الآخرين وضمنوا كافة أصواتهم الانتخابية كشرط لتأييدهم ، لاستتبع ذلك مزيد من الاصلاحات .

ولكن راسل الذى استمر فى موقفه العقلانى عرض بعدئذ فى عدالة كاملة وجهه النظر المضادة . فقال : إن البرنامج الثورى الشامل يستطيع أن يلهم حماسا ونشاطا وإنكارا للذات أعظم ما تلهمه الاصلاحات الجزئية الصغيرة . وبلغت عقلانية راسل الحد الذى جعله يعترف فى حيدة بفوائد اللاعقلانية « والذى صنعته الاشتراكية الماركسية من أجل العامل الألمانى . والذى لا تستطيع الاشتراكية المهادنة بكل تأكيد أن تفعله من أجل العامل البريطانى ، هو خلق الحماس المتأجج الذى يضارع الحماس الدينى . وجلبت الاشتراكية الماركسية بمجيئها ، بطبيعة الحال ، عدم التسامح والتعصب الطائفى اللذين تتسم بهما سائر الأديان الجديدة ، ولكنها جلبت معها أيضا وحدة فى الصف وقوة فى القتال لا يستطيع غير الدين والوطنية توفيرهما . ويبدو أنه يكاد يستحيل علينا أن نقرر إذا كان المكسب الذى أحرزته الماركسية فى ميدان التماسك والقوة يعادل ما منيت به من خسران فى مجال التسامح ، وإذا كان الثمن الباهظ الذى تكبدته مقابل ما حققته من إجماع على الرأى يعادل ما يستتبع هذا الاجماع من تسليم أعمى بالرأى دون نقد أو تمحيص » .

ولم يجد راسل فى أيامه اللاحقة أية صعوبه فى الانتهاء إلى رأى بصدد هذه النقطة عندما اندلعت السنة الحروب العالمية وانتشرت البلشفية والفاشية . ولكن غريزته ومناقشته العقلية للموضوع هدياه حتى فى عام ١٨٩٦ إلى مناصرة موقف أكثر اعتدالا .

واقترح راسل حلا وسطا يمكن تحقيقه مفادة إنه ينبغى على الاشتراكيين الألمان ألا ينبذوا الماركسية رسميا ، بسبب ما خلقته من تحمس متأجج ، ولعل أفضل ما نأمل فيه أن « يفقد هؤلاء الاشتراكيون الألمان شيئا من براعتهم المنطقية ، وأن يتبنوا فى نشاطهم

السياسى - حتى ولو انطوى ذلك على تزييف فى الاستدلال العقلى - مبادىء حكيمة تتضارب ، فى حقيقة الأمر ، مع مبادئهم الأساسية ، ولكن تقتضيها الضرورة العملية » . ويمكن فى أغلب الأحيان إساءة تفسير ما يذهب إليه راسل فى حديثه عندما نطالعه مكتوبا على الورق بحروف المطبعة الباردة ، دون أن نلمح لمعان عينه الذى يدلنا بجلاء على ما فى نبرته من سخرية . ولكن المرء لا يستطيع أن يتصور أن راسل فى أيامه اللاحقة يمكنه إطلاقا أن يسمح بأى زيف فى الاستدلال العقلى ، حتى لو كان على سبيل المزاح .

ما البديل أمام الاشتراكيين الألمان لسياسة أكثر تعاونا ؟ أن المعتدلين بين التقدميين سيستمرون فى الانضمام إلى صفوف المحافظين : « ويكاد الليبرالى التقدمى ، كما نعرفه فى انجلترا ، ألا يكون له وجود فى ألمانيا . فقد انتقلت القوة الخالقة له إلى جبهة الاشتراكيين . وبدلا من حثه على المزيد من التقدمية ، نجد أن فزعه من الشبح الأحمر يدفعه إلى النكوص على عقبيه . وفى نفس الوقت نلاحظ استسلامهم لكافة أساليب الخسف والاضطهاد وسوء الحكم لأن البورجوازية تستشبع الاشتراكية أكثر مما تستشبع الديكتاتورية العسكرية » . ويعد هذا تنبؤا مذهلا بالظروف التى تولى فيها هتلر مقاليد السلطة فى ألمانيا بعد انقضاء نحو ثلاثين عاما .

ولم يدع راسل الاشتراكيين الألمان إلي التسامح والاعتدال فحسب ، بل إنه ناشد الحكام الألمان أن يقلعوا عن ممارسة الاضطهاد السياسى وأن يسمحوا بالديموقراطية الكاملة وحرية الرأى . وكتب متنبئا « وإذا لم يفعلوا هذا ، فأغلب الظن أن مصير الامبراطورية الألمانية لا مندوحة من أن ينتهى إلى الحرب ومحق الحياة التقدمية » .

ولم يستقبل الحاضرون محاضرة راسل فى الجمعية الفابية استقبالا حسنا وكانت هذه المحاضرة أول محاضرة عامة كبيرة ألقاها ، كما كانت أعصابه متوترة للغاية (ويذكر راسل عنها « أفزعتنى تلك المحاضرة وكنت اتمنى أن أكسر رجلى قبل أن ألقيها ») . ولم يحالفه توفيق كبير فى معالجة الأسئلة والنقد الموجه إليه . مما دعا جراهام والاس إلى أن ينتحى به جانبا فيما بعد وأن ينبهه إلى بعض الملاحظات فى هذا الصدد . وكان راسل ، فوق كل شىء ، أرستقراطيا ليبراليا يزعم القدرة على إسداء النصيحة للاشتراكيين فى

موضوع يحتدم حوله الجدل ، أى فيما إذا كان من الأصوب أن يباشروا عملهم فى استقلال من خلال حزب العمال المستقل ، أو عن طريق المطالبة بالاصلاح بالتعاون مع حزب الأحرار (الليبرالى) . وكانت وجهة نظر راسل تميل إلى إتباع السبيل الثانى .

ويجب علينا أن نذكر أنه ثبت أن راسل يتمتع بقدرة عظيمة على بعد النظر السياسى فيما يتعلق ببريطانيا وألمانيا . ولم ينجح حزب العمال البريطانى فى تأسيس نفسه وفى أن يحل فى نهاية الأمر محل حزب الأحرار الليبرالى إلى لأنه أتبع عين السياسة التى كان راسل يحث الاشتراكيين الألمان على إتباعها .

وكان بين حزب العمال البريطانى وحزب الأحرار تفاهم انتخابى دام عدة أعوام ، ويمكننا – على سبيل إظهار التناقض – أن نذكر أن فترة من أكثر الفترات ازدحاما بالكوارث والنكبات فى السياسة البريطانية – وهى العشرون عاما التى دانت فيها السيادة لحزب المحافظين بين الحربين العالميتين الأولى والثانية – ترجع أساسا إلى الطريقة التى أصبح بها حزب العمال محدود الأفق طائفيا تسوده عقلية الحرب الطبقية . وفى اعتقادى إنه لو أظهر زعماء العمال استعدادهم للعمل مع الليبراليين خلال هذه الفترة لامكن إنهاء البؤس والضياع الناجمين من البطالة الواسعة النطاق نهاية مبكرة ، ولكان من الجائز تجنب نشوب الحرب العالمية الثانية . ولو أن الاشتراكيين الألمان والبريطانيين التفتوا التفاتا أكبر إلى ما قاله راسل فى عام ١٨٩٠ لكان فى الإمكان تجنيب العالم فى القرن العشرين كثيرا من الويلات .

وما دمت بسالفت النظر فيما بعد إلى ما أراه خطأ فى أحكام راسل السياسية فمن العدل أن أذكر هذا المثل المبكر الذى يدل على سداد رأيه .

الفصل الرابع
عمـل عبقـرى

فى عـام ١٨٩٦ ذهب راسل إلى أمـريكا لبضـعـة شـهـور ، وزار منزل والت ويتمـان ، وحاضر فى جامعة جون هوبكنز ، وبيرن مور مستندا فى محاضرته إلى بحثه الذى يحمل عنوان « أسس الهندسة » . وبعد اسفاره إلى المانيا وأمريكا ، استقر فى انجلترا ليعيش معظم حياته فى كوخ صغير فى مقاطعة « بسسكس » ، حيث داوم على عمله الصارم الشاق فى الفلسفة الرياضية الذى كان سببا فى ذيوع صيته .

وكان لراسل ، كما اسلفنا ، أصدقاء حميمون بين جماعة الفابيين نخص منهم بالذكر سيدنى وب وزوجته بياتريس وب . وسجلت باتريس بما عرف عنها من حب عارم للنظام والمنهج بعض التعليقات التى تميزت بها بصدد راسل وزوجته أليس . وكتبت بياتريس فى مذكراتها الخاصة بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٥ تقول : « قضى برتراند راسل وزوجته بضعة أيام فى ضيافتنا . وراسل شاب صغير فى السن للغاية يتمتع بقدرة فكرية هائلة تبشر بالخير – دقيق الفكر ناعمه يحب الجدل والمعارضة . ولكنه ينزع إلى الفوضوية فى مقته لأى عمل يؤديه وهو مكتوف اليدين . وهو متزوج من سيدة أمريكية جميلة ذكية من طائفة الكويكر (الاصلاح) تكبره ببضعة أعوام وتعتنق آراء فوضوية فى الحياة وتمقت الروتين كذلك » .

وبعد أن زارت بياتريس وب كوخ راسل فى سسكس فى العام التالى كتبت تقول : « يحيا برتراند راسل وزوجته حياة رعوية يؤلف بينهما التفانى الكامل . وهما يعيشان فى بساطة تخلو بعض الشىء من النظام وتتسم بالاسراف . وهما يحققان مع معيشتهما أبسط النتائج بطريقة مبذرة ، كما يمكننا أن نتوقع من سيدة أمريكية فوضوية لها ايرادها

الخاص بها (*) » . وكان راسل يعمل نحو ست أو سبع ساعات فى تأليف كتابه الميتافيزيقى ، فى حين أن أليس كانت تهرع إلى المدينة لفترات وجيزة تتردد فيها على نوادى الفتيات وتحضر الاجتماعات التى تحض الناس على الامتناع عن المسكرات .

وكانت عائلة الكويكرز التى تزوج منها راسل تشحذ فى كثير من المناسبات نكتته الذكية . فقد كانت حماته مثلا مولعة بعض الشيء باقتطاف الآيات من الكتاب المقدس . وقالت ذات مرة : « إذا القيت خبزك على وجه الماء ... » فاكمل لها راسل الآية ساخرا بقوله : « فانك تجد – حين تسترجعه – أن التلف الشديد قد أصابه » .

وفى يوليو ١٩٠١ سجلت بياتريس وب أكمل وصف لراسل قيض له الوجود خلال هذه السنوات الأولى من حياته :

« كان مسلكه وملبسه ومظهره الخارجى أشد ما يكون حرصا على التأنق ، شديد المراعاة لقواعد الذوق واللياقة التقليدية ، جم الأدب يدقق فى اتباع الرسميات التى يقتضيها هذا الأدب . وكان أثناء الكلام يخرج الألفاظ بوضوح يكاد أن يكون مفتعلا ، ويعبر عن نفسه بطريقة محددة دقيقة ، وهو بيوريتانى متشدد من الناحية الاخلاقية . ويكاد أن يصل إلى حد التقشف فى عاداته الشخصية ، اللهم إلا أن ايمانه بأنه يعيش من أجل الكفاءة جعله يتطلع إلى الاحتفاظ بنفسه فى أفضل حالة جسمية . ولكنه جسور من الناحية الفكرية ، يحطم المقدسات ويكره المواضعات الدينية أو الاجتماعية ويتشكك فى العواطف . وهو يترك العنان لأشد المفارقات والنكات انطلاقا . ويصغ نكاته دائما فى قالب فكرى معقد يمنعها من الانحدار إلى مزالق النكات الخشنة السوقية . وهو محدث ممتع ، وخاصة فى أحاديثه العامة عندما يعترض سبيلة تدخل العقول الأخرى فيها لتمنعه من أن يهوى بسكين منطقه الماضية على ما يتناوله من موضوعات فيمزقها أربا أربا . وهو ينظر إلى العالم من على فوق قمة منفصلة عنه ، ويتوفر على تشريح الأشخاص وتحطيم القضايا » .

« والخطوط العريضة التى تحد عقله وشعوره خطوط حادة واضحة صلبة دائمة . وهو

(*) ذكر راسل فيما بعد أن الاشارة لاسرافه قد حيرته قائلاً : « كان دخلنا ضئيلاً وكنا نعيش فى حدوده » .

على العكس منى قادر على الكراهية الطيبة . فأنا لا أعانى من أى احساس بالخطيئة ، ولا تعتمل فى نفس الرغبة فى أن أرى العقاب ينزل بمقترف فيها ، فى حين أنه ، على النقيض من ذلك ، يكاد أن يصل إلى درجة القسوة فى رغبته فى الثأر من القسوة » .

وكان راسل فى هذا الوقت متشددا فى امتناعه عن معاقرة الشراب . وأنحى ذات مرة باللائمة على ج . أ . مور لانه يعاقرها ، الأمر الذى ضايق مور ضيقا له ما يبرره . وتدرب راسل دائما تدريبا واعيا على تحقيق المنجزات العقلية ، وهو يخطط أيامه بعناية لا تقل عن عناية من يمارس التدريب على الرياضة البدنية .

وتصف لنا بياتريس وب بعد زيارتها له صورة لحياته اليومية . وطبقا لهذا الوصف ، كان راسل وزوجته أليس يتناولان الفطور معا فى حجرة المكتب فى الساعة التاسعة ، ثم ينصرف راسل إلى دراسة الرياضيات حتى الثانية عشرة والنصف ، ثم يتناوبان القراءة المشتركة بصوت عال لمدة ثلاثة أرباع ساعة . ثم يقضيان ربع ساعة فى التنزه فى الحديقة ويتناولان الغداء فى الواحدة والنصف . وكان راسل بعد الغداء يلعب الكروكيه مع لوجان بيرسال سميث ، ثم يتناول الشاى فى الرابعة والنصف ، ينصرف بعدها إلى دراسة المزيد من الرياضيات حتى الساعة السادسة ، ثم يقرأ بصوت عال مع أليس حتى السابعة والنصف ، ويتناول العشاء فى الثامنة يتلوه حديث عام مع عائلة وب يستمر حتى التاسعة والنصف .

وعندما نشر هذا الوصف ، علق عليه راسل بقوله : « ان مسز وب كانت كلفة دائما بتبويب الأشياء وجميع الأحصائيات » . وذكر راسل أن إنصرافه إلى دراسة الرياضيات كان يستغرق وقتا أطول وأن القراءة بصوت مرتفع كانت تستغرق وقتا أقل . فقد كان من عاداته أن يتوفر على دراسة الرياضيات من التاسعة حتى الواحدة ، ومن الخامسة حتى الثامنة . وليس من شك أن التزامه بمثل هذا الجدول المنتظم كان حقيقة واقعة . فمهما بلغت درجة انشغاله بعمله ، فإ هذا الانشغال لم يمنعه أبدا من التوقف عن العمل الذى بين يديه حتى يتناول طعامه . وقال راسل فى هذا الصدد : « اننى أحمل الاعجاب العظيم بالناس الذين يستطيعون أن ينسوا تناول وجباتهم بانتظام . ولكنه لم يحدث فى حياتى أن فاتتنى وجبة مطلقاً . وكان راسل يتوقف عن العمل حتى ولو كان فى منتصف جملة

يكتبها ، ثم يعو د إلى مقعده فيما بعد حتى يختمها دون أن يفكر برهة واحدة ، لأن خاتمة الجملة كانت لا تزال عالقة بذهنه .

وهناك نقطة جديرة بالذكر مفادها أن نوع الحياة التى كان راسل يحياها تعتمد بجلاء على توفر دخل ثابت صغير ولكنه كاف . وفى حقيقة الأمر ، فإن كل التقدم العظيم الذى أحرزه هذا العصر يكاد أن يكون من صنع أناس لم تدفعهم الحاجة إلى العمل من أجل كسب لقمة العيش . ولا ينطبق هذا القول على راسل فحسب بل على مور وفتشجتين أيضا .

وإذا عن لنا أن نتساءل : كيف يمكن للتقدم الفلسفى فى بريطانيا أن يستمر بعد أن تغيرت الظروف الاقتصادية ، فلن يستطيع أحد أن يجد الجواب . ومن المؤكد أن الاشارة إلى المنح الدراسية ومنح الأبحاث التى تعطيها المؤسسات الغنية ليست ردا على الاطلاق ، لأن الأرثوذكسية (الفكر التقليدى الجامد) تعتبر فى أغلب الأحيان دلائل العمل المجدد فى الفلسفة والعمل الخلاق للغاية فى العلوم شيئاً لا يخلو من السخف فى بادىء الأمر . فمن العسير مثلا أن نتصور راسل وهو يتوجه إلى سلطات التعليم المحلية قائلا لها : « إننى لا أشعر بالارتياح فيما يتعلق بأسس الرياضيات » ، فيحصل منها على المال الذى يكفيه خمسة عشر عاما يضطلع فى أثنائها بالبحث فى هذه الأسس واستقصائها .

وظل راسل يعالج الفلسفة عن طريق الرياضيات أساسا . واستغل كانط وهيجل إلى حد كبير على سبيل المثال الصعوبات الرياضية التى تكتنف « المقادير اللامتناهية فى الصغر » و « اللانهاية » اللتين استنتجا منهما أن العالم كما يبدو للادراك العام ليس له وجود حقيقى . ولكن أسفار راسل فى ألمانيا أحاطته علما بأمر ستراس الذى أوضح أن حساب التفاضل والتكامل لا يعتمد على « المقادير اللامتناهية فى الصغر » ، كما احاطته علما بأمر كانتور الذى بدت نظريته فى اللانهاية غريبة دون ريب ، ولكنها فى نفس الوقت غير متناقضة . وعندما عرف راسل أعمال كانتور لأول مرة لم يفهمها . ولكنه بمثابرته المميزة لشخصيته أجهد نفسه فى نسخها فى كراسة كلمة كلمة تقريبا ، وانتهى رأيه إلى أن كانتور محق فيما ذهب إليه .

وبعد ذلك وقعت حادثة لحسن الحظ . فقد رغب ماك تاجارت الذى كان مقررا له أن يحاضر بعد فترة قصيرة عن ليبتنز فى كامبردج عام ١٨٩٩ فى أن يزور عائلته فى نيوزيلاندا . وناب عنه راسل فى إلقاء هذه المحاضرات الى نشرت بعنوان « فلسفة ليبتنز » . وتقدم راسل بتفسير لفلسفة ليبتنز جديد تماما ، معتمدا فى ذلك على مجرد التحليل العقلى . وحده فى دراسته ، وسرعان ما أسعدته التجربة بتأييد وجهة نظره عندما اكتشف بعض مخطوطات ليبتنز التى لم يسبق نشرها من قبل .

وأهم من هذا ، على أية حال ، أن دراسة راسل لـ « ليبتنز » ساعدته فى أن يقوم بتمحيص ناقد لمنطق « الموضوع والمحمول » وفلسفة برادلى ، وأن يرفضهما . ولعلنا نذكر أن برادلى أنكر حقيقة العلاقات بين الأشياء من حيث الجوهر ، مستخدما هذا كنقطة جدل مثالية أخرى يؤكد بها أن عالم الادراك العام بما يشتمل عليه من أشياء كثيرة مختلفة غير حقيقى ، وأن الحقيقة الصادقة الوحيدة هى « كل » يشمل فى رحابه سائر الأشياء . ووجد راسل أن آراء برادلى تجعل أية فلسفة رياضية أمرا مستحيلا . وثار راسل على هيجل وبرادلى وعاد إلى الواقعية يحفزه على ذلك ج . أ . مور الذى مهد له الطريق .

وذكر راسل فيما بعد : « وجد مور أن الفلسفة الهيجلية لا يمكن تطبيقها على الكراسى والمناضد ، ووجدت أن من ناحيتى أنه لا يمكن تطبيقها على الرياضيات . ولهذا ، تمكنت بمعونته من أن أتخلص من الهيجلية وأن أعود إلى الادراك العام الذى يلطفه المنطق الرياضى .

« وسمحنا لأنفسنا ، ونحن نحس إحساس الهارب من السجن ، بأن نفكر أن الحشائش خضراء ، وأن الشمس والنجوم لها وجود مستقل حتى إذا لم يكن هناك من يراها » .

وبالرغم من أن كانتور وويرستراس تؤازرهما الهندسة غير الإقليدية ، أوضحا أن كانط وهيجل كانا يؤمنان بنظريات خاطئة فى المعرفة الرياضية ، فقد تعين على راسل أن يجد المعرفة الرياضية الصحيحة . وقرر راسل فى النصف الثانى

مـن عـام ١٩٠٠ أن الرياضــة عـبـارة عن شـكل من أشكال المنطق بلغ درجـة عـاليـة من التطوير . وكان فريج فى ألمانيا قد توصل إلى هذه النتيجة . ولكن راسل لم يعلم بها فى بادئ الأمر .

وعندما حـضـر راسل مؤتمرا فلسفيا منعقدا فى باريس فى أوائل عام ١٩٠٠ وجد لزاما عليه أن يتعـرف على أعمال بينو واشياعه الطليان فى « المنطق الرمزى » . ودرس راسل رمـزية بينـو حـتى أتقنها . وفى مـقال لراسل أعيد طبعه بعد ذلك بأعوام كثيرة فى « المنطق والمعـرفـة » ، أطال راسل فى مـدى هذه الرمـزية حـتى جـعلها تشـمل « منطق العلاقات » وصمم راسل كتابة « مبادئ الرياضيات » (*) بهدف إثبات ما يذهب إليه من أن الرياضية والمنطق شئ واحد أساسا . ويقع هذا الكتاب فى مجلدين : يحتوى الجزء الثانى على محاجة صارمة صيغت فى رموز ، فى حين أن الجزء الأول عبارة عن نوع من التعليق والتقديم مكتوب بلغة عادية .

ونشـر أول جـزء من « مـبـادئ الرياضـيـات » فى عـام ١٩٠٣ . وفى ذلك الوقت قـرر راسل وهوايتهد الذى كان قد نشر أول مجلد من كتابه « الجبر الشامل » فى عام ١٨٩٨ ، أن يتعاونا فيما يضطلعان به من عمل فى المستقبل . ولم تكن نتيجة تعاونهما مجرد إصدار مجلد ثان من « مبادئ الرياضيات » ، بل كانت إصدار ثلاثة مجلدات ضخمة من « مبادئ الرياضيات » (**) الذى لم ينشر أول جزء فيه حتى عام ١٩١٠ . وكان راسل قد رسم صورة عامة لخطة العمل فى سلسلة من المحاضرات التى ألقاها بجامعة كامبردج . وبعدئذ وزع العمل فى أجزائها المختلفة عليه وعلى هوايتهد . وتقدم كل منهما بمسودة أولى قام بارسالها إلى شريكه فى العمل ثم راجعها فى ضوء ما أبداه زميله من تعليقات عليها ، بحيث أنه تم فحص كل جزء ثلاث مرات ، وأمضى راسل أيضا بضعة شهور من كل عام فى كامبردج حيث أمكنه أن يناقش هوايتهد شخصيا فى بعض النقاط .

(*) Principles of Mathematics

(**) Principles of Mathematics

واضطلع راسل بالكتابة الفعلية التى دفع بها إلى المطبعة . وتعين على المؤلفين أن يكتبا كل قضية رياضية على ورقة منفصلة حتى يسمح ذلك باضافة أية قضايا جديدة ، لدرجة أن المخطوط ، الذى احتفظا به فى صف طويل من الدوسيهات ذات الأغلفة ، أصبح أعجوبة فى ضخامة حجمه .

لماذا استغرق تأليف كتاب « مبادىء الرياضيات » كل هذا الوقت الطويل ؟ فسر راسل هذا فيما بعد بقوله : « تجمدت قريحتى مدة عامين . وعندما بدأت قريحتى تعمل استغرقت كتابته خمسة أعوام » . ويرجع الألم الذى عانى منه فى خلال العامين اللذين تجمدت فيهما قريحته (من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٠٤) إلى أنه وجد ، بعد أن رد الرياضة إلى منطق ، أن هناك متناقضات فى المنطق نفسه لم تنته إلى حل (*) . وكتب إلى فريج عن هذه المتناقضات فأجابه بالألمانية ما ترجمته بوجه التقريب : « إن علم الحساب يهتز من أساسه » والحل الذى توصل إليه راسل فى نهاية الأمر فى كتابه « مبادىء الرياضيات » هو مذهب « الأنماط المنطقية » الذى لا يمكننا مناقشته فى هذا المجال نظرا لتخصصه الشديد من ناحية ، ولأن الجدال لا يزال يحتدم حوله من ناحية أخرى . و « مبادىء الرياضيات » كتاب لا يقبل على قراءته إلا قلة قليلة للغاية . وفى حقيقة الأمر ، أخبرنى سكرو دنجر فى يوم من الأيام أنه لا يعتقد أن راسل وهوايتهد أنفسهما قد قرآه . وهذا الكتاب ، شأنه فى ذلك شأن معظم الكتب الكلاسيكية الراسخة ، أصبح الآن شيئا يسلم الدارسون بقيمته أكثر من عنايتهم بقراءته ، حتى بين الذين تقتضى منهم مهمتهم الاهتمام به . وفى السنوات اللاحقة ذكر هانز ريتشينباخ لراسل أثناء وجوده فى

(*) أبسط هذه المتناقضات تناقض قديم ، اقترن فى الأزمنة الكلاسيكية باسم أبمينيدس الكريتى . ولكن هذا التناقض كان يعتبر حينذاك أحجية تبعث على التسلية . ولنفرض أن شخصا قال : «إننى أكذب » ، فهل هو يكذب عندما يقول هذا . فإذا كان يكذب ، فمعنى هذا أنه يقول الصدق . وإذا كان يقول الصدق ، فمعنى هذا انه يكذب . وكان التناقض الذى اكتشفه راسل والذى كان بداية الصعوبات التى واجهته يفوق هذا الافتراض فى تعقيده (فقد أولى إهتمامه صنف سائر تلك الأصناف التى ليست أطرافا فى حد ذاتها) . وسرعان ما وجد كثيرا من المتناقضات الآخرى كذلك .

أمريكا أنه توصل لتوه إلى نظرية جديدة فى الاستقراء الرياضى . ولكن راسل صدمه بعض الشىء عندما أشار إليه بالرجوع إلى موضع فى « مبادىء الرياضيات » حيث يستطيع أن يجدَ شرحا لنظريته . وليس هناك شك فى أن هذا الكتاب أحد الانجازات السامقة التى حققها العقل البشرى ، صب فيه راسل أكثر طاقاته الذهنية توقدا فى فترة استغرقت سنوات عديدة . ولكنه من المحتمل ألا يزيد عدد من قرأوه من أوله إلى آخره عن عشرين شخصا .

وبعد أن انتهى راسل من وضع هذا الكتاب أخبر ج . هـ . هاردى ، وهو واحد من علماء الرياضة فى كامبردج ، أن كابوسا غريبا أقض مضجعه . ورأى راسل نفسه فى هذا الكابوس فى مكتبة جامعة كامبردج بعد انقضاء ما يقرب من مائتى عام ، وهو يراقب أمين المكتبة الذى يطوف فيها حاملا دلوا ، يضع فيه الكتب التى قرر تدميرها لأنها لا تستحق الاحتفاظ بها . وتناول أمين المكتبة النسخة الوحيدة الباقية من كتاب « مبادىء الرياضيات » ووقف مترددا . واستيقظ راسل عند هذه المرحلة من الكابوس .

وسأضطلع فى الفصلين التاليين بعمل بطولى - يجوز لى أن أسميه عملا طائشا متهورا - يتلخص فى محاولة شرح شىء من قيمة أعمال راسل خلال هذه السنوات فى لغة بسيطة . ولكنى أحب أن أختم هذا الفصل بأن أضيف شيئا قليلا عن الطريقة التى أنجز بها راسل هذه الأعمال .

لم يقدم لنا أحد حتى الآن تفسيرا يستحق الاهتمام لظاهرة العبقرية الانسانية . ولكن النقطة الوحيدة الأكيدة فى هذه الظاهرة أنه يبدو أن الوراثة تلعب دورا عظيما فيها . وحالة راسل مصداق واضح لهذا وكل ما عدا هذا لا يتجاوز حدود التخمين مثل الفكرة الخيالية التى يذهب إليها راسل من أن الذكاء الخارق قد يرجع إلى مادة غريبة تدخل فى تركيب طعام الطفل نتيجة الاهمال فى غسل الأوانى والحلل . وكان من عادة هوايتهد الذى كان الطفل الوحيد البارز فى عائلته أن يقول هازرا إن سبب تفوقه يرجع إلى أن أمه ، قبل ولادته ، جرى لها حادث وهى تستقل عربة تجرها الجياد انقلبت بها عدة مرات . ولكن

بالرغم من أننا لا نستغرق فى مثل هذه الخواطر ، فإنه أمر يثير الاهتمام الأكيد أن نسجل ما يمكن تسميته بالعناصر الفنية التى تكون العبقرية ، وأن نجمع أية معلومات يمكن توفيرها بصدد الطريقة التى يعمل بها عقل كل فيلسوف على حدة .

وهناك فى حالة راسل نقطة تبعث على الاهتمام البالغ ، فقد كان عمله يعتمد على السمع أكثر من اعتماده على البصر ، وعلى الصورة السماعية أكثر من الصور المرئية . وكان يحب أن يقرأ الناس له بصوت مرتفع . وعلق ذات مرة قائلا إنه إذا شاء أن يتابع شيئا أعطى له لقراءته ، تعين عليه أن يقرأه لنفسه فى عقله بصوت مرتفع . وكانت ذاكرته تعمل من خلال تذكر صوت الكلمات المقروءة أكثر من اعتمادها على منظر الكلمات المطبوعة فى صفحة . وانتقد راسل بيرجسون لأنه يعتمد على المرئيات (وأنكر بيرجسون هذا النقد) وقال : إن الشخص الذى يستطيع أن يفكر فى إطار الصور المرئية فحسب ، يجد عسرا فى التفكير فى الأشياء المجردة . فالمرء على سبيل المثال لا يستطيع أن يكون صورة مرئية للمفاهيم المستخدمة فى المنطق أو البعد الرابع .

ونظرا لأنى اعتمد على المرئيات اعتمادا لا سبيل إلى تبديله ، فقد ابتهجت عندما وجدت رياضيا مرموقا مثل البروفيسور ليتل وود ينكر أن هناك أى ضرر فى التصور المنظور . وإنى أميل للرد على راسل بأن العين يمكنها أن تسمح لنا برؤية ثلاثة أبعاد ، فى حين أن سلسلة الأصوات ليس لها سوى بعد واحد فقط . ومن الجائز أن راسل يستطيع أن يجد فى الأصوات ، نظرا لما يتمتع به من أذن حساسة وصوت فى الكلام بديع فى تموجه ، بعض الأبعاد الاضافية مثل الدرجة والنغمة والحجم . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أنه لم يكن ميالا بطبعه إلى رسم صور مرئية للأشياء ، لأنه كان ببساطة لا يحذقها . وذكر راسل ذات مرة : « كلما حاولت أن أرسم صورة بقرة ، ظهرت كما لو كانت حصانا » . وتذوق راسل الشعر والموسيقى تذوقا حساسا متأججا ، ولكن تذوقه لفن الرسم كان محدودا . ومن الجائز أن يكون هناك شىء مشترك بين الصور السماعية والصور المرئية ، شىء يمكن الوصول إليه عن طريق الأذن أو العين حسب كفاءة

كل شخص الفردية . ولكن هذا الخاطر يتسم بالغموض . فالحقيقة الأكيدة التى يجب ذكرها لمصلحة الدارسين فى المستقبل لنفسية النابهين المتميزين أن راسل كان يعمل من خلال الأذن .

وانعكس هذا حتى على آرائه فى التعليم وفى النقد الأدبى ، فقد ذهب إلى أن تعليم النطق الصحيح يفوق فى أهميته تعليم هجاء الألفاظ الصحيح ، وأن أحد أسرار الأسلوب الأدبى يهدف إلى كتابة شىء يمكن قراءته بصوت مرتفع دون صعوبة فى التنفس . وطبقاً لوصف راسل نفسه ، كانت كتاباته رديئة فى بادىء الأمر . ولكنه علم نفسه كيف يكتب باتباع هذا الطريقة . (ومن ناحيتى ، فانى لم أجد غير قليل من شواهد على رداءة كتابات راسل باستثناء فترات فى حياته اللاحقة ظهر عليه فيها التعب والاجهاد الواضحان) وأثار إهتمامى أن أحصل على رأى ت . س . اليوت الذى يذهب إلى أن أسلوب راسل يصل إلى ذروة جودته فى أعماله الجافة الصارمة مثل « فلسفة ليبتنز » . وفى السنوات اللاحقة قال راسل : إن مشكلة الشعر الحديث هى أنه يكتب بقصد إرضاء العين أكثر من إرضاء الأذن .

وإنى لا أريد ، بطبيعة الحال ، أن أبالغ فى هذه النقطة ، فقد كان بصر راسل سليما للغاية (وهو طويل النظر) فى إمكانه أن يقوم بقدر غير عادى من القراءة دون أن يصيب عينيه الاجهاد أو يصيب رأسه الصداع . ولا يزعم راسل أنه يستطيع أن يفهم أية صيغة رياضية معقدة دون أن يراها . كما أن كتابه « مبادىء الرياضيات » كتاب يكاد أن يكون من المتعذر قراءته بصوت مرتفع . (رغم أن راسل اخترع أسماء التدليل الخاصة لتحل محل الرموز الرياضية . فهو يشير أثناء محاضراته مثلا إلى الرمز (هـ) على انه (هـ) الزاعقة) . ولكن بالرغم من أن فكره لم يكن مستقلا عن الإحساس المرئى ، فقد كان راسل بعيدا عن الخيال المرئى ، ولكنه عرف الخيال المرئى الذى يفيض بالحياة ويزخر بالتفاصيل فى الأحلام التى تطوف فى منامه ، أو عندما أصابته الحمى بسبب المرض . ولكن « الفكر » ، كما يقول ، يعتم هذا الخيال أو يعترض طريقة .

وهناك نقطة أخرى فى أسلوب راسل فى العمل تثير بعض الاهتمام . فقد ذكر الدكتور وايزمان ذات مرة أن التفكير الواضح يمكن أن يكون عدو التقدم الفكرى ، لأن التقدم يتحقق فقط نتيجة إحساس معين غامض بالسخط . وهذا ، فى اعتقادى ، ينطبق بالتأكيد على اكتشاف أينشتين لنظرية النسبية . فقد بدأ أينشتين بنوع من البصيرة التصوفية أو الشاعرية بالحقيقة . ثم جاء دور الرياضيات فيما بعد . وقد نظن أن الوضع يختلف فى حالة مفكر على هذه الدرجة من الدقة والتحديد مثل راسل . ولكن الأمر يغاير هذا بكل تأكيد فى أعماله المبكرة . وكتب راسل إلى برادلى فى عام ١٩١٤ يقول :

« إننى لا أعرف كيف يتفلسف الناس الآخرون . ولكن الذى يحدث لى ، فى مبدأ الأمر ، أن غريزة منطقية تدلنى على أن الحقيقة لابد أن تكون موجودة فى منطقة معينة ، أبذل بعدها محاولة لأن أحدد موقعها فى تلك المنطقة ، وإنى أثق فى هذه الغريزة ثقة مطلقة ، بالرغم من أنها عمياء وصماء . ولكنى لا أعرف أية كلمات تصلح مهما بلغ غموضها للتعبير عنها . وإذا حدث أن سهمى لم يصب النقطة المطلوبة فى المنطقة ، فإن المتناقضات والصعوبات تلح فى محاصرتى ، ولكن بالرغم من شعورى بأنه ولابد أن أكون قد تنكبت الطريق بصورة أو أخرى ، فانى لا اعتقد قد أخطأت اختيار المنطقة » .

« والشىء الوحيد الذى يستقر فى أعماق أفكارى والذى أستطيع أن أذهب إلى إنه رأى خاص بى هو أننى أسير فى طريق يفضى إلى الحقيقة ، دون أن أكفر أنه يمثل الحقيقة بحال من الأحوال » .

وكتب راسل أيضا أن العقل قوة تعمل على الانسجام أكثر من كونها قوة خلاقة ، « والبصيرة هى التى تصل قبل أى شىء آخر إلى ما هو جديد حتى فى المناطق التى يسودها المنطق البحت » .

وهناك مثل آخر على أسلوب راسل فى العمل ، فهو يستخدم عقله اللاواعى استخداما

واعيا . وتعلم من التجربة أنه إذا شاء أن يكتب فى موضوع صعب ، فإنه يجهد نفسه فى التفكير فى هذا الموضوع ما استطاع إلى ذلك سبيلا لمدة بضعة أيام أو شهور . وبعدئذ : « أصدر أوامرى ، إذا استخدمنا هذا التعبير ، أن يبدأ العمل فى منطقة اللاوعى » . وبعد انقضاء بعض الشهور كان راسل يعود إلى الموضوع عودة واعية ليجد أن العمل قد تم إنجازه .

« كان من عادتى ، قبل أن أكتشف هذا الأسلوب ، أن أقضى الشهور التى تتخلل عملى فى قلق لفشلى فى أن أصيب أى تقدم ، فى حين أننى أستطيع الآن أن أكرس هذا الوقت فى عمل أشياء أخرى » .

ومهما كانت العمليات الى يعمل فيها عقله غامضة أو لا شعورية ، فإن نتاج تفكيره النهائى كان دائما دقيقا ومحددا . ويبدو أنها كانت تصل إلى عقله فى صورة كاملة . إننى لم أصدق أبدا ما قاله بن جونسون عن شكسبير من أنه لم يكن يشطب سطرا واحدا مما يكتب مطلقا ، حتى رأيت بعينى بعض مخطوطات راسل . لقد كنت أظن أن كل كتابة جيدة هى نتيجة المحاولة الأليمة والخطأ والتصويب والاختصار . ولكن راسل أقنعنى قبل كل شىء آخر أن الاستثناء من هذه القاعدة ممكن . فمخطوطاته وخطاباته كانت تملأ الصفحات المتعاقبة بأناقة غير طبيعية ، وتكاد ألا تكون إنسانية ، من النادر أن نجد فيها كلمة مشطوبة أو معدلة . وشرح راسل هذا بقوله أنه بمجرد الانتهاء من التفكير فى أى موضوع والجلوس لتدوينه ، كان يقوم بنسخة على الورق كما لو كان مكتوبا بالفعل فى عقله . وذكر راسل أنه كان يدون دائما كل شىء فى رأسه أولا ، لانه من الأسهل عليه أن يشطب أى شىء فى عقله من أن يشطبه فى الورق . وفى حديثه لم يبدأ جملة أبدا دون أن تكون نهايتها واضحة فى ذهنه . حتى الديالوج الذى يجرى فى أحلامه أثناء النوم كان كامل التركيب .

وعندما كان راسل شابا صغيرا للغاية ، نصحه لوجان بيرسال سميث أن يعمل من جديد فى أى شىء يقوم بكتابته وأن يعيد صياغته . وتوجه راسل إلى بيته وأعاد كتابة

شىء كان قد انتهى لتوه من تأليفه . وعندئذ قرر أن النسخة الأصلية أفضل بكثير من النسخة المعدلة . وقال راسل « إننى لم أعد صياغة أى شىء كتبته منذ ذلك الحين » .

وأسدى هذه النصيحة للمؤلفين : « لا تغيروا مطلقا أى شىء تكتبونه – وخاصة إذا طلب منكم شخص آخر أن تفعلوا هذا » .

الفصل الخامس
الرياضيات والفلسفة

من السهل على المرء نسبيا ، إذا توفرت لديه بضعة أعوام وقدرة على قراءة ما يقرب من عشرين مليون كلمة دون أن تهتز جفونه ، أن يكتب دراسة مستفيضة عن فلسفة راسل . وإنى الآن أفعل هذا فى حقيقة الأمر . ولكنه من العسير بمكان أن نناقش اكتشافاته المنطقية والفلسفية خلال الجزء الأول من هذا القرن فى حيز فصلين مكتوبين من أجل القارىء العادى .

إن أعظم عمل له بلغ درجة من التخصص الشديد تحول دون فهمه فهما دقيقا من غير مران متخصص . ولكن تجاهل أعظم أعماله تجاهلا كاملا يعطينا فكرة مضحكة فى زيفها عن مكانة راسل . ولذلك ، فانى سأغوص لتوى فى منطقة يخشى أى شخص عاقل أن يطأها بقدمه . وسأسعى إلى إعطاء مجمل وجيز لأهمية أعظم أعماله . ويجب على أن أحذر القارىء من أنى قد أقوم بهذا العمل بطريقة رديئة للغاية . وأن معظم الناس بعد انقضاء مائة عام من الآن أو حتى فى يومنا الراهن - قد يرون راسل من وجهة نظر مختلفة . ولكنه يشد من أزرى على أقل تقدير فى بذل هذه المحاولة ، أننى أكاد ألا أقوم بهذا العمل بطريقة أسوأ من طريقة راسل نفسه .

ونظرا لأنه كان يعيش منذ طفولته فى رحاب الرياضة والفكر المجرد ، فقد وجد عسرا غير عادى فى أن يدرك السبب فى عجز الرجل العادى عن فهمهما . ونحن نجد فى يومنا الراهن أن قلة من الطلبة تنشأ ، كما نشأ راسل ، على فلسفة برادلى والمنطق القديم . لقد كان فى استطاعة راسل أن يشرح لرجل الشارع أى شىء آخر بوضوح لا تشوبه ذرة واحدة من الغموض ، فى حين أنه ظل عاجزا عن شرح أهمية فلسفته الخاصة به . وعندما بذل محاولة واحدة فى هذا السبيل فى الفصل

الختامي من كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » علق أحد النقاد عليها بقوله إنه حقق عملا عظيما ملحوظا يتمثل فيما ألحقه بأعماله من إجحاف يفوق الاجحاف الذى ألحقه بأعمال كانط .

وهناك نقطة مبدئية واحدة تتلخص فى أننى سأتحدث دائما عن « فلسفة راسل » ، بالرغم من أن آخرين يشاركونه كثيرا من آرائه ، وأنه استمد بعض هذه الآراء منهم . وقد حاولت فى دراسة أخرى أكثر من هذه الدراسة الحالية استفاضة وتخصص أن أفصل آراء راسل عن الآراء التى استحدثها غيره من الناس . وهى مهمة شاقة إلى أبعد الحدود ، لأن راسل لا يحب أن ينسب الفخر إلى نفسه ، فى حين أنه حريص دائما ومفرط فى كرمه فى الاعتراف بما يدين به من فضل للآخرين . لقد ذكرت تحوله المبكر تحت تأثير ج . أ . مور عن فلسفة برادلى ، ولكنه ظل يحتفظ ببعض النقاط فى هذه الفلسفة . لقد ظهر المنطق الرمزى الجديد فى القرن التاسع عشر على يدى بول ، وأصر هيوماكول ، وهو رجل يكاد النسيان أن يطويه اليوم ، على نقطة حيوية مفاداها أن الفكرة الأساسية فى المنطقة ليست الاندراج بين الأصناف ولكنها التضمن بين القضايا . وسبق فريج راسل إلى تفسير الرياضيات . وأوضح بينو كيف يمكن اختراع نظام للرمزية المنطقية أكثر يسرا من النظام الذى اخترعه فريج . موفرا بذلك الأسس التى بنى راسل عليها عمله . وأخيرا ، فإن كتاب « مبادىء الرياضيات » ليس سوى نتاج التعاون الوثيق مع هوايتهد . وعندما كان أى إنسان يشير إلى هذا الكتاب مغفلا اسم هوايتهد ، احتج راسل على الفور بأنه لا تكاد صفحة واحدة فيه تخلو من بصماتهما معا .

ولا تحدونى الرغبة فى الايجاز وحدها إلى إحساس بمعقولية الاشارة إلى الأفكار الجديدة على أنها ببساطة أفكار راسل . فقد توصل راسل إلى كثير من أشد النقاط أهمية بمعزل تام عن الآخرين . ولم يقرأ فريج أبدا إلا بعد أن توصل بنفسه إلى عين نتائجه . ويذكرنا هذا بنظرية داروين فى التطور . فقد اكتشف داروين ووالاس هذه

النظرية فى استقلال عن بعضهمما البعض . وكان والاس أسبق من داروين إلى إعداد بحث للنشر . وبالرغم من هذا ، فإننا نشير إلى هذه النظرية ، بوجه حق ، على أنها نظرية داروين ، لأن داروين هو الذى جمع كافة الأدلة التى تفضى إلى استخلاص نتيجة كاملة مدعمة لم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يتجاهلها . وكان لراسل نفس هذا التفوق فى مجال المنطق . إن قلة من الناس فى يومنا الراهن تتذكر ماك كول الذى كان النسيان سيطويه لولا أنه التحم فى جدال متخصص مع راسل ، كما أن قلة من الناس كات ستسمع عن فريج لولا أن راسل لفت الأنظار إلى أعماله . أما فيما يتعلق بهوايتهد ، فيبدو انه كان يفوق راسل كرياضى عادى ، كما يفوقه فى مهارته فى اختراع الرموز المنطقية . ونحن ندين بالفضل إلى هوايتهد فى وجود معظم نظام الاعلام والأسهم والعلامات الغريبة التى تمتلىء بها صفحات « مبادىء الرياضيات » . ولكن نظرا لأن هوايتهد كان مشغولا كل الوقت بالتدريس فى الجامعة باستثناء فترات الأجازات ، فإنه لم يكن هناك مناص من أن يقع معظم عبء العمل على كاهل راسل . وإنى أرى أنه من العدل أن نقول إنه لولا راسل لما كان من الممكن إتمام كتاب « مبادىء الرياضيات » مطلقا . وفى حقيقة الأمر ، أزمع هوايتهد تأليف مجلد رابع فى الهندسة دون أن يشترك معه فى وضعه أحد ، ولكن هذا المجلد لم يقيض له أبدا أن يصل إلى مرحلة النشر .

ولهذا ، فإنى سأتحدث ببساطة عن راسل دون أن أطلب من القارىء أن يغض النظر عما قام به الآخرون ، وخاصة فريج من أعمال . وسأبدا حديثى بسؤال بسيط عن أهمية تدليل راسل على أن الرياضيات والمنطق شىء واحد ، وعن الأهمية الحقيقية لـ « مبادىء الرياضيات » ، هذا الكتاب الغريب الذى نقرأ فيه ٣٤٧ صفحة قبل أن نصل إلى تعريف العدد (١) ، ويمتد حتى المجلد الثانى قبل أن نصل إلى إثبات البديهية أن م × ن = ن × م ؟

والرأى عندى أن أهمية هذا الكتاب الفلسفية (*) الرئيسية تكمن فى أنه لا يجعل أسس الرياضيات على تبدو صعبة ومعقدة للغاية ، ولكن فى أنه يجعلها بسيطة واضحة . وقضى هذا الكتاب على ما يكتنف المعرفة الرياضية من غموض . وفكرة وجود شىء عجيب بعض الشىء فى عالم الرياضة فكرة من أكثر الأفكار رسوخا فى العقل البشرى . ولا يزال الاحساس بالتطوير من أعداد معينة مثل (٣) و (٧) و (١٣) باقيا حتى يومنا الراهن . وتثير الاعداد دائما بعض المشاكل الغريبة . ولنأخذ مثلا بسيطا كطرح ٧ من ٣ . قد يقال أن نقاص ٤ ليس له وجود ، ولهذا فإنه لا شىء . ورغم هذا ، فإنه يختلف عن الصفر . وشعر الناس أن هناك شيئا يدعو إلى قدر أكبر من الدهشة والعجب فى « عدد تخيلى » ، الجذر التربيعى لناقص واحد . فليس هناك وجود لأى شىء إذا ضرب فى نفسه يعطى ناقص واحد . ورغم هذا ، فإن الجذر التربيعى لناقص واحد يلعب دورا حيويا فى نوع المعادلات التى يستخدمها أى مهندس كهربائى فى التخطيط لمحطة توليد القوى . وتمتد علاقة الرياضة بالتصوف من فيثاغورث إلى جيمس جينز ، الذى يصف الله بأنه الرياضى الأعظم . وعندما جاءت نظريات راسل أزاحت كل هذا من الطريق .

ولم يستطع الفلاسفة التجريبيون الذين وجدوا أن مصدر المعارف ينبع من التجربة أن يفسروا الرياضيات مطلقا . فقد بدت الرياضيات معرفة مستقلة عن التجربة ، ولكنها انطبقت على العالم الحقيقى بالرغم من هذا .

وفى حقيقة الأمر لم يكن من المعقول مطلقا أن نجادل ، مثلما جادل ج . س . ميل بأننا نعرف أن ٢ + ٢ = ٤ نتيجة لاختبارنا أمثلة عديدة حيث نجد أنه باضافة شيئين إلى شيئين آخرين يكون الناتج أربعة أشياء . وهكذا استطاع فلاسفة مثل كانط أن يسبحوا

(*) لـ « مبادىء الرياضيات » بطبيعة الحال أهمية بالغة بالنسبة لعلماء الرياضة كذلك . وفى واقع الأمر ذكر راسل ذات مرة أن تسعة أعشار اهتمامات هذا الكتاب رياضية . وكى نعطى بعض الأمثلة التى تجىء عفو الخاطر ، فإننا قد نذكر الأسلوب الذى تكتب به رمزيته الآن على شكل التحليل وتوضيح فكرة الحد ، ومناقشة الاستقراء الرياضى ، والتمييز بين الأصناف اللامتناهية والأصناف المنعكسة والأمثلة على العناية الفائقة المطلوبة لتوضيح عدم تساوى بين الأعداد اللامتناهية . وكما سنذكر فيما بعد ، فقد كان لحساب العلاقات فى الجزء الرابع من الكتاب مع فكرة البناء أعظم أهمية بدورها فى الفلسفة والعلوم .

فى كافة أنواع الفلسفة ذات الأجنحة بحثا وراء تفسير للمعرفة الرياضية . ووضع راسل الآن نظرية بديلة يفسر بها أن ٢ + ٢ = ٤ أشبه ما تكون بأبسط المبادىء المنطقية التى تذهب إلى أن القضية المنطقية لا يمكن أن تكون صادقة وكاذبة . وبلغ الأمر براسل فى وقت من الأوقات مبلغا جعله يعتقد – على مضض منه نظرا لاستمتاعه وتبجيله المبكرين للرياضيات – أن كلا الرياضة والمنطق لا يعدو أن يكونا مجرد مواضعات تتعلق باستخدام الرموز والكلمات . ف ٢ + ٢ = ٤ تشبه القول بأن « طول الياردة ثلاثة أقدام » .

وقد جعل استبعاد فكرة انطواء الرياضة على شىء من الحدث الغريب إتباع المذهب التجريبى بحذافيره أمرا أكثر يسراً للغاية . ولكن راسل يغاير الكثيرين ممن جاءوا بعده فى أنه لم يقطع كل الطريق فى ذلك الاتجاه .

وتمثل هذه النتيجة – وهى خطوة فى سبيل الوصول إلى استنتاج إيجابى ينبنى على ما يقوم به راسل من عمليات استبعاد سلبية – طبيعته الفلسفية تمثيلا كبيرا . وترجع إحدى الصعوبات التى تقف عائقا فى سبيل فهم أهميته إلى أن جانبا كبيرا من عمله يظهر على إنه مجرد عمل سلبى . وقد أكد راسل نفسه ، فى حقيقة الأمر ، الجانب السلبى من عمله . وعندما استخدم التقدم الذى أصابته الرياضيات فى تحطيم الكثير من آراء كانط وهيجل ، وعندما أطاح ببرادلى ، فإنه يبدو للوهلة الأولى أنه لم يفعل أكثر من أنه اكتسب عرفان الدارسين فى المستقبل بما أسداه إليهم من جميل بانقاذهم من دراسة ما استحدثوه من لغو . ولكن هذه السلبية تنطوى ، فى الحقيقة ، على شىء أكثر إيجابية وبناءا من مجرد السلب .

ويمكننا أن نأخذ مثلا مشابها . فقد حاول عدد من الناس عبر التاريخ أن يصنعوا آلات متحركة دائما ، ولكنهم جميعا أخفقوا . ولهذا ، فإن المرء قد يتصور فى النهاية أن قصة هذه المحاولة لا تتضمن شيئا غير الفشل . ولكن عندما فهم الناس السبب فى إخفاقهم ، اتخذوا خطوة جوهرية فى سبيل فهم مبادىء الميكانيكا . وينطبق نفس هذا الشىء على إخفاق كل محاولة فى سبيل بناء نظام فلسفى كامل . ويمكن أن يفضى فهم السبب فى فشلهم إلى تبنى نظرة مختلفة اختلافا جذريا فيما يتعلق بطبيعة الحقيقة .

وتركزت مجالات راسل مع برادلى واشياع الهيجيلية حول مسائل عسيرة متخصصة . ولكنى أرى أن أهم نقطة فى هذا النزاع - إذا عبرنا عنها بلغة غير متخصصة أو محددة تتلخص إلى حد ما فيما يلى :

إذا شئنا أن ندرس عين الانسان ، فإننا نستطيع أن نبدأ دراستها بأسلوبين مختلفين . ويدافع الفلاسفة الذين يفكرون على نسق برادلى وهيجل عن الأسلوب الأول ، فيبدأون بالقول بأن العين جزء من جسم الانسان وأننا لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا اعتبرناها جزءا من الجسم . وفى حقيقة الأمر ، سيقول أى طبيب عيون يتقن عمله نفس هذا الشىء . وعندما يفحص هذا الطبيب مريضا يشكو من ضعف البصر ، فإنه سيستفسر منه عن صحته العامة . وتتوقف صحة الجسم الذى يحتوى العين بدورها على نوع الطعام الذى يتناوله . ويتوقف هذا نفسه على التقنية الزراعية السائدة وعلى التسهيلات المتوفرة لنقل الأطعمة من مكان إلى آخر . وتتوقف هذه الأمور بدورها على حالة التطور التاريخى للعالم فى الزمن المشار إليه . ويتوقف هذا على تاريخ العالم بأسره بل على الوقت الذى جاء فيه نظام المجموعة الشمسية إلى الوجود . وإذا شئنا أن نتبع خطا جدليا آخر ، فإنه يمكننا القول بأن العين التى تشاهد النجوم فى الليل تختلف اختلافا واضحا عن العين التى لم تر أبدا أشياء أبعد من الأشياء التى تراها على سطح الأرض . ويستتبع هذا أن العين تصبح نوعا آخر من العيون إذا لم يكن للنجوم وجود . ونستطيع بهذه الطريقة ابتداء بعين الانسان أو أى شىء آخر ، أن نجادل أن التغير سيطرأ عليها إذا تغير أى شىء عداها ، وأن أسلوب التحليل الذى ينظر إلى أى شىء بمعزل عن بقية الأشياء لابد أن يكون مضللا . وقد نقول إذا نظرنا إلى الكون النظرة الصحيحة ، أنه لا يتكون من عدد من الأشياء المنفصلة ، ولكنه وحدة كاملة . ومن المحتمل أن يسمى المرء نفسه فى هذه الحالة واحديا (*) (وهى كلمة مشتقة من كلمة « مونوس » (**) الأغريقية ومعناها مفرد واحد) .

(*) Monist

(**) Monos

ولكن هناك طريقة أخرى فى دراسة عين الانسان . وهى الطريقة التى يتبعها راسل . والتى نستطيع بمقتضاها أن نتناول العين بمعزل عن الأشياء الأخرى . وأن نقول أن كل ما يهمنا معرفته بصددها هو أشعة الضوء التى تدخلها ، ورسائل أعصاب العين التى تقوم بنقلها إلى المخ كنتيجة لما تبصره . والدوافع الحركية (الموتورية) التى تستقبلها آثر ذلك من المخ والتى توجهها إلى المكان الذى يجب عليها أن تنظر إليه . ونستطيع أن نقول إنه إذا كان أى شىء آخر فى الكون كله يؤثر فى العين ، فإنه يؤثر فيها عن طريق هذه الأشياء الثلاثة ، وإننا إذا عرفنا هذه الأشياء الثلاثة ، فإننا نكون بذلك قد عرفنا كل شىء نحتاج إليه . وإذا نحن اتبعنا هذا الطريق ، فاننا سنقول أننا نؤمن بفلسفة التحليل ، وسننكر أن « التحليل معناه التزييف » ، كما أننا سنتخلى عن أية محاولة لإقامة نظام فلسفى فخيم يضم فى رحابه كل شىء ، وسنركز على عزل المشاكل المنفصلة التى يمكن أن تحل حلا جزئيا .

وبمعنى ما ، فإن وجهتى النظر هاتين يتساويان فيما يتمتعان به من معقولية رغم أنه من العسير أن ندافع عن أية نظرة منهما إذا بالغنا فيها إلى أقصى الحدود . ولنفكر مثلا فى رجل يعيش فى انجلترا اسمه مستر جونز ، له ابن أخ يعيش فى استراليا . وحسب النظرة الأولى إذا مات ابن الأخ ، فإن مستر جونز يصبح رجلا مختلفا حتى قبل أن يسمع بوفاته ، لأنه لم يعد يملك صفة العمومة . ويبدو أنه من العسير تصديق هذا . وسيذهب التفكير القائم على الإدارك العام إلى أن مستر جونز قد أصبح رجلا مختلفا فى نظر الله ، فاننى اعتقد أنه لا يمكن دحض هذا الرأى دحضا منطقيا . ويبدو أنه يصعب التسليم أيضا بالنظرية التحليلية المتطرفة بالرغم من أنه لا يمكن دحضها دحضا منطقيا . وإذا عالجنا هذا الموضوع بطريقة فجة – وسأسعى فيما بعد إلى أن أعالجه بطريقة أقل فجاجة بعض الشىء – فأننا نقول إننا إذا مزقنا الكون كله إلى قطع صغيرة ، فقد نجد أنه من العسير علينا إلى أقصى حد أن نقوم بتجميع أشتات هذه القطع الصغيرة مرة أخرى وأن نفسر السبب فى أنها تعمل كما تعمل حاليا .

وانى أميل إلى الاعتقاد بأن الاختيار بين هاتين النظرتين يرجع عادة إلى مزاج الفيلسوف الفردى ، فمن الممكن أن يجد عقل الانسان ، إذا كان من نوع عقل راسل ، متعة فى تشريح الأشياء . (وقد وصف ناقد عدائى ذات مرة عقل راسل بانه يعمل كما تعمل فرامة اللحم) . وإذا سلمنا بأن مسألة الاختيار ترجع إلى المزاج الفردى ، فانى أرى أنه من السهل أن نرى السبب الذى حدا براسل أن يختار أسلوب التحليل . وإذا آمنا ، مثلما يؤمن الواحديون : إن الحقيقة الوحيدة التى تستحق أن نتحدث عنها هى الكون بأسره ، فيتضح عندئذ اننا لا نستطيع أن نقول فى حقيقة الأمر سوى القليل للغاية ، بالرغم من أن معظم الواحديين ينجحون فى أن يقولوا الكثير ، وسينتهى بنا الأمر إلى التعبير عن عواطف فخيمة وجليلة مثل : « الحقيقة عضوية فى تركيبها » أو أن « الله محبة » . وسرعان ما قد يتردى تفكيرنا فى وهدة التشويش العظيم . وإنه لجزء من موقف الواحديين ، فى واقع الأمر ، أننا لا نستطيع أن نقول أو نفكر أن أى شىء صادق كل الصدق . وذلك لأننا لا نعرف كل شىء (بالمعنى العادى لكلمة « معرفة ») .

اما إذا كنا ، على النقيض من هذا ، نكره التعميمات الغامضة كما نكره المناشدات الغامضة التى تستهدف التأثير فى العواطف ، وإذا كنا نتشوف إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية ، فعندئذ سنفضل الأسلوب الآخر . وهذا التشوف إلى المعرفة اليقينية هو الذى جعل راسل يميل إلى التحليل ، تماما كما جعله يميل إلى المذهب التجريبى . وأعطته إماطته اللثام عن الأخطاء الواردة فى المحاجات المنطقية التى يستند إليها مذهب الواحدية – كما أعطت من جاءوا بعده – دافعا قويا فى هذا الاتجاه .

ويتضمن عمل راسل الهدام نقطة أكثر أهمية ، فقد أوضح إفراط من سبقوه فى تقدير قدرة المنطق على إحاطتنا علما بطبيعة الكون .

وعندما يتساءل الناس عن السبب فى وصف راسل بأنه أعظم علماء المنطق منذ أرسطو ، فأن الإجابة التقليدية عن هذا السؤال هى أنه أوضح أن هناك صورا من الاستدلال تزيد فى عددها ما توصل أرسطو إليه . لقد حاول علماء المنطق الأغريق أن يحتاطوا من أعمال العقل الزائف عن طريق عمل قائمة كاملة – قد نسميها قواعد صالحة

للعمل – تضم كل أشكال الاستنباط السليم . وقرر أرسطو أن كل هذه الأشكال تقريبا تنهض على القياس المنطقى . مثل ، مصير كل الناس هو الموت .. و « سقراط واحد من الناس ، إذن ، فمصير سقراط هو الموت » . وأوضح راسل كيف يتسع المنطق لأكثر من هذا ، كما أوضح أن القياس المنطقى لا ينبغى أن يتمتع بما يتمتع به من مكانة رفيعة . ولكن ليس هذا كل شىء ، فإنى أرى أنه إذا سألنا عن السبب فى عظمة راسل كعالم منطق ، فإن هناك إجابة أخرى هامة تنطوى بعض الشىء على المفارقة ، لأن السبب فى هذه العظمة يرجع إلى أنه أوضح أن ما يستطيع المنطق أن يحققه لا يعدو أن يكون ضئيلا .

ويقول راسل : « كلما تحسن المنطق ، كلما تضاءل ما يمكن له إثباته » . وبين راسل أن التفكير بأن قضية منطقية تتضمن قضية أخرى فى حين أنها لا تتضمنها ، غالبا ما يكون دلالة تشير إلى افتقار الانسان إلى القدرة المنطقية . وذكر راسل من وجهة النظر هذه ذات مرة أن « المنطق هو فن عدم استخلاص النتائج » ، فقد كان على سبيل المثال بعض القياس الأرسطاليسى بشكله الذى اتخذه غير سليم . فضلا عن هذا ، فقد أصر راسل على أن كل المعرفة التى يوفرها المنطق (والرياضة) افتراضية . فهى تخبرنا أنه إذا كان شىء صادقا ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون شىء آخر صادقا » .

فالقياس المنطقى الذى أشرنا إليه مثلا كان ينبغى أن يصاغ فى صورة كهذه : « إذا كان كل الناس مصيرهم الموت ، وإذا كان سقراط واحد من الناس ، إذن فسقراط مصيره الموت » . ويجب علينا أن ننظر إلى المنطق على أنه أشبه ما يكون بالعقول الإلكترونية الحديثة التى تستطيع أن تحل مشكلة إذا توفرت لديها المعطيات اللازمة التى تعمل بمقتضاها ، ولكنها لا تستطيع أن تستخلص أية نتائج دون أن توضع فيها بعض الحقائق « أولا : فالمنطق يستطيع أن يعمل فقط على أساس المقدمات التى نزوده بها فى استقلال عن المنطق نفسه . وأى إثبات يجب أن يبدأ بمقدمة معينة لا ينهض الدليل على صحتها . وتبدو هذه النقطة ، حين تجد لها تعبيراً واضحاً ، بسيطة وجلية وليس فيها جديد على

الإطلاق . ولكن بالرغم من الاعتراف بها نظرياً اعترافاً مبكراً منذ أيام أرسطو ، فإن الغبش ظل يعتمها دائما فى تاريخ الفكر الانسانى .

وهناك بادىء ذى بدء التشوف الإنسانى الطبيعى من أجل المعرفة اليقينية . لقد سجلنا خيبة أمل راسل ، وهو فى الحادية عشرة من عمره ، عندما وجد أن إقليدس لم يقدم دليلا على صحة بديهياته . ولم يقل له أخوه فرانك كما كان من الجائز أن يقول : « يتعين عليك أن تبدأ بشىء يجب أن تسلم به دون دليل على صحته ، ويمكنك أن تبدأ من هذه النقطة تماما كما يمكنك أن تبدأ من أية نقطة أخرى » . ولو كان فرانك قد قال ذلك لجانبه الصواب ، لأن كل بديهيات إقليدس ليست فوق مستوى الشك . ويمكن الرجوع ببداية نظام الاستنباط إلى ما قبل هذا بكثير . وكان راسل ملهماً إلهاماً طبيعياً دفعه لأن يرى إذا كان يستطيع – فيما لو رجع بنظام الاستنباط إلى الوراء بقدر كاف – أن يصل إلى شىء مطلق اليقينية . واقتضى منه ذلك كل الجهود المضنية التى بذلها فى تأليف « مبادىء الرياضيات » ، الذى واصل جوديل العمل فيه ، حتى يبين بالذات ما لا سبيل إلى إثباته فى أسس الرياضيات والسبب فى عدم اثباته .

كان أسلاف راسل من الفلاسفة ، مثل كانط ، يذهبون إلى أن نظريات إقليدس تعطينا معرفة عن العالم الموجود فى الواقع . ولم يدرك الفلاسفة أن الهندسة الأقليدية شأنها فى ذلك شأن أى نظام استنباطى آخر ، لا يستطيع أن يمتد إلى أبعد من القول بأنه إذا كانت بعض المقدمات المنطقية المعينة صحيحة ، فإنه يستتبع ذلك أن بعض النتائج المعينة المترتبة عليها صحيحة كذلك . ويتسم إصرار راسل على هذه النقطة بالأصالة والجدة أكثر بكثير مما قد يبدو لنا عند النظر إلى الوراء ، فقد كان يفترض حين بدأ راسل عمله فى الهندسة – بأن المكان الموجود فى الواقع أقليدى فى حقيقة الأمر . ولم تكن نظرية النسبية بعد قد جعلت العلماء ينظرون إليه على إنه غير أقليدى .

ويرجع أحد الأسباب الشائعة التى تمنع الانسان من أن يرى أن أية محاجة فى المنطق أو الرياضة البحتة لابد وأن تكون افتراضية إلى الرغبة القوية فى إثبات صحة

اعتقاد يبعث على الرضا من الناحية العاطفية . وهكذا نرى مرارا وتكرارا أن الفلاسفة ظنوا أنهم نجحوا فى استخدام المنطق لإثبات وجود شىء يريدون الإيمان بوجوده ، بالرغم من عجز المنطق عن إثبات أى شىء تماما مثل توهم عدد لا يحصى من المخترعين أنهم استجلوا سير الحركة الدائمة رغم استحالة هذا الاستجلاء من الناحية العلمية .

لقد اعتقد ديكارت أنه أثبت وجود نفسه بقوله : « إننى أفكر ، إذن فأنا موجود » ، وبعدئذ تقدم إلى استنباط نظام فلسفى من هذا الأساس . واعتقد كثير من الفلاسفة أن باستطاعتهم إثبات وجود الله عن طريق المحاجة الأنطولوجية (*) . وفى وقت متأخر ، كالذى عاش فيه راسل ، اعتقد ماك تاجارت أنه قد توصل إلى إثبات منطقى لخلود الروح خلودا شخصيا . حتى الفلاسفة الذين أدركوا أن المنطق لا يستطيع أن يثبت وجود أى شىء إثباتا مباشرا اعتقدوا أنه يستطيع إثباته بطريقة غير مباشرة عن طريق إثبات أن سائر الفلسفات مستحيلة منطقيا باستثناء فلسفاتهم . ويتمثل هذا فى الطريقة التى ذهب بها برادلى شأنه فى ذلك شأن كانط وهيجل – إلى أنه اكتشف التناقضات فى العالم الظاهر .

وتنهض بعض هذه البراهين التى يسعى المنطق إلى إيجادها على الأخطاء الفنية ، وينهض بعضها الآخر على الأخطاء فى استخدام الألفاظ ، فى حين ترجع بعض الأخطاء الأخرى إلى الافتراض بأن الشىء الذى لا نملك سوى الإيمان به لابد أن يكون صحيحا . ومن أهم الخدمات التى قدمها راسل ما قام به من فصل بين المنطق وعلم النفس والقول بأن المنطق لا يعنى « قوانين الفكر » .

ولم تتضح المدلولات التى ينطوى عليها إدراك قصور المنطق إلا بالتدريج . واستغرق راسل نفسه بعض الوقت فى إدراك كل ما فى المنطق من قصور .

وعلى سبيل المثال ، ليست هناك محاجة منطقية يمكنها أن تثبت أن شيئا خير أو شرير مالم نبدأ بمثل هذا الافتراض فى مقدمة القضية المنطقية التى نعالجها . وفى كتاب راسل « مشاكل الفلاسفة » المنشور فى عام ١٩١٢ نراه لا يزال يكتب أنه لدينا معرفة

(*) الأنطولوجيا معناها البحث عن الموجود من حيث هو موجود – (المترجم) .

أخلاقية قبلية . ولكن سانتيانا سرعان ما اعترض عليه فى هذه النقطة منكرا أنه لدينا أية مقدمات منطقية موضوعية نستطيع أن نبنى عليها أية نظرية أخلاقية . وقال سانتيانا أن « الخير » و « الشر » مثل « اليمين » و « اليسار » يعتمدان على وجهة النظر الفردية .

واحتج سانتيانا عن طريق ضرب الأمثلة المشابهة ، بأن أثر الويسكى المسكر فى الإنسان يفوق أثر القهوة . ولكن هذا لا يعنى أن الويسكى « تتخلله مادة مسكرة كامنة فيه ، وأنها تترنح فى زجاجة الويسكى ميتة من السكر . ومع هذا ، فإن راسل و ج . أ . مور يسلكان مثل هذا السبيل عند النظر إلى الأشياء على أنها خيرة تماماً أو شريرة تماماً » . وكان راسل قد أخذ عن ج . أ . مور محاجاته فى كتابه « مبادىء الاخلاق » التى تذهب إلى وجود شىء اسمه المعرفة الأخلاقية الموضوعية . ولكن راسل قرر – بعد أن انبرى له سانتيانا بالنقد – أن سانتيانا محق فيما يذهب إليه ، وأن مقدمة أية قضية منطقية فى أية محاجة أخلاقية لا يمكن أن تصاغ على مثل هذا النحو : « هذا أو ذاك الشىء خير » ، ولكنها تصاغ على النحو التالى : « إننى أظن أن مثل هذا أو ذاك الشىء خير » . وبهذا أصبحت الأحكام الأخلاقية ذاتية بحتة .

ومرة أخرى ، ليس هناك فى هذه النتيجة شىء جديد . ولكن جدتها تكمن فى أن راسل كان على استعداد على مجابهتها . فاللادريون الآخرون لا زالوا – بعد أن رفضوا الله والكتاب المقدس على أنهما مقياس للقيم الأخلاقية – يتعلقون بافتراض غامض أن فى إمكانهم أن يقدموا دفاعاً عاقلاً عن القوانين الأخلاقية التى يؤيدونها . ولم يبد أنهم يهتمون بإخفاقهم فى هذا الدفاع حين كانت القواعد الأخلاقية التقليدية لا تزال محتفظة بالكثير من قوتها وعنفوانها . وحتى المدافعين التقدميين فى آرائهم عن الأخلاقيات الجديدة مثل جماعة « البلومزبرى » ، التى كانت تعتقد أنها تبنى أسلوب حياتها على تعاليم ج . أ . مور لم يختلفوا فيما بينهم إلا قليلاً بشأن العناصر المكونة للخير . ولكن فى الفترة التى عاشها راسل تولى مقاليد السلطة فى أمم عظيمة رجال تحدوا الأخلاقيات القديمة والجديدة تحدياً ظاهراً . وقالوا : إن الأفكار المسيحية يجانبها الصواب ، وأن للأقوياء الحق فى القضاء

على الضعفاء ، وأن يقوم الجنس الآرى بإبادة غير الآريين ، وأن يستعبد البلاشفة من ليسوا بلاشفة . ودافعوا عن القسوة والزيف . ولم يستطع راسل أن يثبت أنهم مخطئون . وأمكنه وفقا لمبادئه ، أن يقول فقط : « إننى أكره آراءكم غاية الكره . ولكنه يتعين على أن أعترف بأن هذا لا يعدو أن يكون مسألة رأى شخصى بحت » . ولا يمكن لإنسان أن يقر نتيجة تتنافى تماما مع كل شىء يريد الإيمان به . وكل شىء يؤمن به فعلا إلا إذا كان قد وصل إلى أعلى درجة من الأمانة الفكرية .

وكان راسل ذات يوم يشرح لـ « لوويس ديكينسون » نظريته فى أن « الخير » و « الشر » لا يستندان إلى أى أساس من الصحة الموضوعية . وبعد مرور بضعة دقائق على هذا الشرح أخذ لوويس ديكينسون يضحك لأن اسم شخص يكرهه راسل ورد فى الحديث الذى دار بينهما ، فأعلن راسل فى نبرة اقتناع أشد ما تكون عنفا : « إنه وغد » .

وهذه هى المفارقة العظيمة فى شخصية راسل ، فكل غرائزه تميل إلى جانب « العقلانيين » كما أنه يوجه كراهيته المشبوبة لأقصى درجة إلى الذين يمجدون العاطفة ، أو أى نوع من الحدس التصوفى على حساب العقل . ولكن لأن راسل أعظم العقلانيين جميعا ، وجد لزاما عليه أن يعترف بأن العقل لا يستطيع إثبات خطأ المتصوفين . وهو نفسه فى بعض لحظاته الخاصة صوفى فى حقيقة الأمر . (غير أنه صوفى من أغرب الأنواع ، فهو صوفى يمقت الغموض والأسرار ، ويكرس حياته لتبديدها) ولا يتنبه الناس فى أغلب الأحيان إلى هذا الجانب من طبيعته بالرغم من أنه كتب فى « التصوف والمنطق » : « لقد شعر أعظم الفلاسفة بالحاجة إلى العلم والتصوف على حد سواء » .

الفصل السادس

نظرية التعريف بالرسم المنطقية

يجب عليّ الآن أن انتقل ، يعترض طريقى كثير من الشكوك والمخاوف ، إلى نظرية التعريف بالرسم عند راسل . وهنا تبرز لنا مرة أخرى صعوبات مروعة عند شرح هذه النظرية فى أى كتاب مكتوب من أجل القارىء العام ، نظرا لأنها ، أساسا ، على درجة بالغة من السهولة واليسر . وكانت أول صياغة صاغها راسل لهذه النظرية – شأنها فى ذلك شأن النتائج المترتبة عليها – متخصصة وعسيرة للغاية . ولكن أى شرح مبسط لها قد يجعلها تبدو أوضح من أن تثير العناية أو الاهتمام . وبالرغم من هذا ، فإنه يجب ألا يتنصل الانسان من أن يحاول أن يقول شيئا بصدد نظريته فى التعريف بالرسم . وهناك اتفاق عام على أن هذه النظرية هى أهم إضافة أسهم بها راسل فى ميدان الفلسفة . ولم يكن هذا رأى راسل وحده ، فقد شاركه فيه حكام أكفاء مثل ج . أ . مور وفيتجنشتين . وذكر مور فى هذا الصدد : « لقد كانت نظرية التعريف بالرسم شيئا جديدا للغاية . إنها أعظم اكتشاف فلسفى قام به راسل . أهم من أى شىء آخر قاله فيما بعد . فهو عمله المجدد الأصيل الذى لم يتأثر فيه بأى إنسان آخر على الإطلاق » .

وعندما يتساءل القارىء المتلهف إلى إجابة ، والذى يستثار اهتمامه بهذه الطريقة ، عن ماهية هذا الاكتشاف العظيم ، فلا مناص من إنه سوف يجد الإجابة مخيبة للآمال بعض الشىء فى بادىء الأمر . ويجب أن يقال له إن نظرية التعريف بالرسم نشأت إلى حد ما بمثابة رد على الفيلسوف النمساوى مينونج الذى شغل باله كثيراً بوضع الأشياء المعينة التى ليس لها وجود . ولنفرض مثلا أنك تقول : « الجبل الذهبى ليس له وجود » ، أو « المربع المستدير ليس له وجود » فهذه العبارات ليست صادقة فحسب ، ولكنها مفيدة كذلك . ويمكن استخدام العبارة الأولى فى إعطاء مكتشف رومانسى ، تضلله الأساطير

والخرافات ، حقيقة واقعية عن العالم . أما العبارة الثانية ، فيمكن أن يستخدمها معلم فى تصحيح آراء أحد تلاميذه الخاطئة بصدد علم الهندسة ، أو على أية حال ، بصدد التعريفات المستعملة فى علم الهندسة . ويحق لنا الآن أن نتساءل : « هل من الممكن أن تتوفر لدينا عبارات صادقة وتنطوى على معنى بصدد لا شىء ؟ » قد نجادل أن كلتا الجملتين تعادلان قولنا : « شىء هو لا شىء » . وهذا هو الحال مع المربع المستدير ولكن ، طبقا لهذا الرأى ، فإن هاتين الجملتين ببساطة يتطابقان فى حين أن الأمر ليس كذلك بكل تأكيد . فإحداهما تخبرنا شيئا عن الجبال الذهبية ، فى حين أن الأخرى تخبرنا شيئا عن المربعات المستديرة . ويبدو أنه لابد أن تكون الجبال الذهبية والمربعات المستديرة موجودة بمعنى ما ، وإلا لما استطعنا أن نتحدث عنها .

وكانت هذه المشكلة التى أثارت اهتمام مينونج ، الذى قرر أن الأشياء مثل الجبال الذهبية والمربعات المستديرة ، حتى إذا لم يكن لها وجود فى الواقع ، فلابد من أنها موجودة بشكل ما ، وأن كان وجودها يختلف فى طريقته عن وجود الأشياء العادية مثل الموائد والكراسى . وإذا كان لمثل هذه الأشياء وجود ، فقد تعين على مينونج أن يجد لها مكانا يضعها فيه . ولهذا خلق مينونج منطقة كاملة من هذه الظلال .

وثار راسل فى وجه هذا المذهب . وأوضح أنه بدلا من أن نقول « أن الجبل الذهبى ليس له وجود » ، فاننا نستطيع أن نقول : « ليس هناك شىء موجود يمكن أن يكون ذهبيا وجبلا » . ويستبعد أى « تحليل » من هذا النوع شبه الجملة « الجبل الذهبى » من الجملة ، كما أنه يستبعد أى سبب للاعتقاد بأن له أى نوع من الوجود . وهذه ، بطبيعة الحال ، بداية نظرية راسل فى التعريف بالرسم مصاغة فى قالب أبسط مما ينبغى . ولكنى اعتقد انها البداية الأساسية .

وأظن أنه يحق تماما للرجل غير المتخصص فى الفلسفة أن يفقد السيطرة على جماح غضبه عند هذه المرحلة . فقد منى أن يتوقع شيئا هاما ، فإذا به يواجه فقط بأن أحد الفلاسفة يظهر لفيلسوف آخر أنه ليس بحاجة إلى أن يتحدث لغوا عن أشياء ليس لها وجود . لقد تمكن راسل من أن يجد حلا للغز محير ، ولكنه من الجائز أنه قد ترك الرجل

العادى عاجزا تماما عن فهم السبب الذى يحدو بأى إنسان أن يشغل باله بالتفكير فى هذا اللغز المحير فى المكان الأول . ويبدو ، سحب الظاهر ، أن كل ما فعله راسل لا يعدو أن يكون ضربا من التلاعب الواضح بعض الشيء بالألفاظ . ومن ثم فقد يشعر الرجل الذكى غير المتخصص فى الفلسفة أن شكوكه بصدد عدم جدوى الفلسفة لها ما يؤكدها إلى أقصى الحدود .

وأول شيء نستطيع إبرازه له هو أن كل تقدم فكرى عظيم يتسم عادة بنفس خاصية الوضوح هذه بعد أن يتوصل إليه الانسان لا قبلها . فعندما أسقط جاليليو أثقاله المختلفة من برج بيزا المائل ، فإنه لم يفعل أكثر مما يستطيع أى طفل أن يفعله . وبالرغم من ذلك ، فقد تألب ضد جاليليو كل الحكماء فى زمنه . ولنأخذ مثالا عصريا أقل فى دوامه من هذا . أن هناك اليوم إجماعا على قبول فكرة كينز الأساسية بصدد نظرية العمالة – التى تتلخص فى إنكار قانون ساى – لدرجة أنه من العسير أن نتصور كيف يمكن لأى إنسان أن يعن له أن يختلف بشأنها . وبالرغم من هذا ، فقد تضور ملايين من الناس جوعا منذ ما يقل عن خمسة وعشرين عاما ، لأن علماء الاقتصاد الأكاديميين وخبراء وزارة الخزانة عن بكرة أبيهم تقريبا فشلوا فى أن يروا ما فيها من صحة .

ويجب علينا أن نذكر ، فيما يتعلق بنظرية التعريف بالرسم عند راسل ، حقيقة تاريخية مفادها أنه حتى إذا لم تكن هذه النظرية قد أثارت العداوة عليها ، فإنها ، على أقل تقدير ، سببت بلبلة تامة بصدد ما كان راسل يتحدث عنه ، وبصدد السر فيما علقه عليها من أهمية . وعرض راسل هذه النظرية فى مقال له بعنوان « فى التبيين » ، نشره لأول مرة فى عام ١٩٠٥ فى مجلة « العقل » كبرى المجلات الفلسفية البريطانية . وكانت فكرة البروفيسور ستاورت محرر « العقل » ، عن المقال سيئة . وليس من شك فى أنه كان سيرفضها لو أنها جاءته من فيلسوف شاب مغمور . ولكن مكانة راسل الدولية فى ذلك الوقت كانت قد بلغت شأوا من شأنه أن يدفع الناشرين إلى قبول ما يكتبه دون أدنى تردد . وعندما نشر المقال فى آخر الأمر ، « لم يستطع أحد » – على حد تعبير ج . أ . مور « أن يفهم حرفا واحدا مما جاء فيها » . وأخبرنى مور بنفسه أنه لم

يفهم نظرية التعريف بالرسم مطلقا « إلا بعد أن تناولها راسل بصورة أوضح فى مقدمة مبادىء الرياضيات » .

ومن السهل والمغرى الآن أن نذهب إلى أن الفلاسفة الذين فشلوا فى فهم راسل – شأنهم فى ذلك شأن علماء الاقتصاد الذين سبقوا كينز – كانوا ببساطة مغفلين . ومن الجلى انه من الخطأ أن نذهب إلى هذا المذهب . ويجدر بنا أن نبحث عن تفسير أكثر أهمية يتجاوز مجرد الصعوبة والغموض اللذين يصاحبان فى أغلب الأحيان أول صياغة لأية فكرة جديدة .

والسبب الذى يجعل التقدم الفكرى العظيم يثير فى أغلب الأحيان اعتراضا عنيفا فى بادىء الأمر رغم أنه يبدو واضحاً جلياً فيما بعد ، يرجع إلى أن هذا التقدم لا يتحدى تفكير كل إنسان فى ذلك الوقت . بل يتحدى الأفكار التى يعتنقها الناس دون أدنى تفكير من جانبهم لدرجة أنهم لا يتنبهون إلى أنهم يعتنقونها . ويتلخص الجهد العسير إلى أقصى حد فى الخروج بهذه المعتقدات من دائرة اللاوعى إلى دائرة الوعى . وإذا تم هذا ، فقد يكون رد الفعل المباشر هو الإحساس بالتضايق الذى تشوبه الحيرة والبلبة من جراء إقدام بعض الناس على تحديها . ولكن ما يترتب على ذلك ساهم نسبياً وإنه لأسهم بكثير ، على سبيل المثال ، أن يعتقد المرء أن الأرض كروية من أن يعتقد أنها مسطحة إذا عنّ له أن يفكر فى هذا الأمر على الإطلاق . فالاعتقاد بأن الأرض مسطحة ينطوى على حشد من المشكلات التى ليس لها حل ، مثل : ما الذى يمنع الأرض من السقوط فى الفضاء ؟ هل الأرض لا نهائية أم أن الإنسان يسقط منها إذا وصل إلى حافتها ؟ كيف يمكن للشمس والقمر بعد اختفائهما فى الغرب – أن يغوصا تحت الأرض ليظهرا من جديد فى الشرق ؟ وكانت الخطوة الأساسية هى تلك التى خطاها أول إنسان عنّ له أن يشك فى الحقيقة الواضحة فى مظهرها وهى أن الأرض مسطحة . ثم تلت هذا فكرة كروية الأرض باعتبارها أمرا طبيعيا . والمفكر العظيم رجل يعرب عن تشككه فى شىء يبدو على درجة من الوضوح من شأنها أن تجعل كل إنسان يسلم به . وقد كان راسل فيلسوفاً عظيماً لأنه كان يتمتع بتلك المقدرة .

وتمثل نظرية التعريف بالرسم تقدما أساسيا من حيث انها أوضحت بجلاء خطأ بعض المعتقدات التى يفترض الناس صحتها الجلية دون أدنى تفكير من جانبهم فيها . ويتلخص الزيف الذى كشفه راسل فى افتراض أن أى لفظ لابد أن يمثل شيئا ، وأن الألفاظ تعنى شيئا شبيها بما تعبر عنه . لقد كان شيئا طبيعيا أن يذهب الناس فيما مضى إلى أن تركيب النحو والصرف فى جملة هو نفس تركيبها المنطقى . وافترض المفكرون أمثال مينونج أن أية جملة عن الجبال الذهبية تقول شيئا عن الجبال الذهبية ، ولهذا ، فإن مثل هذه الجبال الذهبية لابد أن يكون لها وجود ، والا لما أمكن التحدث عنها . وأثبت تحليل راسل خطأ هذا الزعم ، كما أنه أشار كذلك إلى أنه من الجائز أن هناك وسائل عديدة أخرى يمكن للألفاظ وأشكال الجمل أن تضللنا بها .

ولنفرض أننا نقول شيئا عن ونستون تشرشل . لقد كان تشرشل فى أوقات مختلفة من حياته رضيعا يرتفع صوته بالصراخ ، وتلميذا فى مدرسة هارو ، وضابطا صغيرا مزهوا بنفسه ، وفنانا وبناء يضع قوالب الطوب جنبا إلى جنب ، وسياسيا حزبيا ، وواحدا من الساسة العظماء فى العالم . وتصف نفس كلمة تشرشل كل هؤلاء الأفراد المختلفين . وبالرغم من هذا فإن الرضيع المسمى تشرشل كان شخصاً مختلفاً للغاية عن السياسى البالغ من العمر ثمانين عاماً المسمى بنفس هذا الاسم . ومن المحتمل إلا يكون بين الفردين ذرة واحدة مشتركة تربط بين جسديهما . لقد كان هناك شىء مشترك ، أو بعض العلاقة بين تشرشل الرضيع وتشرشل السياسى الكبير السن . ولست أريد الآن أن أدخل فى تساؤل الإدراك العام أن أى شخص إنما يرتكب خطأ جليا إذا ظن أن كلمة تشرشل غير المتغيرة تمثل شخصا غير متغير .

وآمن راسل أننا نرتكب بصفة متكررة أخطاء مشابهة أقل من هذا المثل وضوحا بصدد بعض الألفاظ الأخرى ظنا منا أنه لابد لأية كلمة أن تشير إلى شىء ثابت ومادى نظرا لأنها ثابتة ومحددة .

وأشهر مثال على ذلك هو مذهب « المادة » القديم . فقد نصف مائدة بأنها مصنوعة من الخشب ، وأنها ثقيلة وداكنة ولامعة الخ ... وافترض الناس أن هناك شيئا من المادة له

هذه الخواص المختلفة . ولكن راسل تشكك فيما بعد فى صحة هذا الرأى . وعندما نريد أن نشرح ماهية هذا الشىء المصنوع من الخشب والثقيل والداكن والمع . فاننا فى كل مرة نستخدم كلمة « مائدة » الأمر الذى يخدعنا مفضيا بنا إلى التفكير فى وجود شىء من المادة الدائمة وراء هذه الخواص ، حتى إذا لم يكن لهذا الشىء وجود . وكانت هذه ، كما سنرى ، النتيجة التى توصل إليها راسل فى عام ١٩١٤ وضمنها كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجى » . وبعد انقضاء بعض سنوات نراه يستخدم نفس هذا الأسلوب فى التشكك فى قول « ديكارت » : « إننى أفكر ، إذن فأنا موجود » ، وأن يتشكك فى المفهوم الشائع لمعنى كلمة « أنا » . وكتب راسل يقول : « إننا حين نفترض أن الأفكار تحتاج إلى مفكر فيها ، فإننا نقع فريسة تضليل نحو اللغة وصرفها (أو بمعنى أدق فريسة التراكيب اللغوية ») .

وستعالج هذه النقاط باستفاضة أكبر فى الفصول اللاحقة . ولكننا ذكرنا ما فيه الكفاية كيف يمكن لنظرية التعريف بالرسم ، التى تبدو للوهلة الأولى مجرد تلاعب يستهدف التعبير عن نفس الشىء بألفاظ مختلفة ، أن تكون نقطة انطلاق فى ثورة شاملة تعترى نظريتنا إلى طبيعة الكون . ولعل راسل لخص رأيه أحسن تلخيص عندما قال : « لا تترك نحو اللغة وصرفها يملى ما يشاء على الانطولوجيا » – وبمعنى آخر : لا تتركهما يتحكمان فى آرائنا بصدد ما هو كائن . واقترنت نظرية التعريف بالرسم بشرح دقيق لما نعنيه بالكينونة ، وتفنيد للمحاجة « الانطولوجية » الخاصة بوجود الله . ودعمت هذه النظرية اعتراض راسل على منطق المحمول والموضوع كما كانت لها أهميتها فيما يتعلق بنظرية المعرفة أو ذلك الفرع من الفلسفة الذى يتناول كيفية اكتساب الإنسان للمعرفة . وقام راسل بالتمييز بين ما نعرفه مباشرة عن طريق « التعارف » (*) وما نعرفه معرفة غير مباشرة عن طريق « التعريف بالرسم » .

وقد يبدو غريباً ، فى بادىء الأمر ، أن كل هذا يتمخض عن اكتشاف استخدام الألفاظ استخداماً خاطئا . ولكن عندما نذكر أن كل تفكيرنا تقريبا وكل اتصالاتنا الفكرية

(*) Acquaintance

تقريبا تتم عن طريق الألفاظ ، فإن الدهشة لا تعترينا إلى هذا الحد . ولذلك فانه إذا أسيء استخدامها ، فليس هناك أمل فى أن تكون أفكارنا صحيحة .

صحيح أن النتائج الأولى التى تمخضت عنها نظرية التعريف بالرسم كانت سلبية . فقد بينت هذه النظرية كيف تورط بعض الفلاسفة السابقين فى الخطأ عندما استخلصوا استدلالاتهم الزائفة من الألفاظ وطبقوها على الحقيقة . ولكن راسل استطاع مرة أخرى أن يستخدم هذه الوسائل السلبية للوصول إلى نتائج إيجابية . لأنه ظل يحتفظ بنفس الافتراض أن اللغة تعطينا نوعا من الصورة عن العالم الحقيقى ، إذا نحن تجنبنا الاستدلالات الزائفة ، ولنفكر فى جملة مثل « القط / يوجد على / الحصيرة » . تحتوى هذه الجملة على اسمين وفعل وحرف جر تعبر جميعا عن علاقة معينة ، كما أنها تعطينا وصفا صحيحا لشيئين هما قط وحصيرة تربط بينهما علاقة معينة . وهناك ناحية واحدة فقط تكون فيها عبارة « القط يوجد على الحصيرة » مضللة قليلاً . فالكلمتان « توجد على » تبدوان مادتين ، شأنهما فى ذلك شأن كلمتى « القط والحصيرة » . ولكن كلمتى « توجد على » تمثلان علاقة ، فى حين أن الكلمتين الآخريين تمثلان أشياء فيزيقية . وستعطينا اللغة صورة أفضل للحقيقة إذا نحن كتبنا العبارة ببساطة على النحو التالى :

« القـــــط

الحصيرة »

وآمن راسل لفترة من الوقت أننا إذا لاحظنا بحرص منذ البداية كافة هذه الطرق التى يمكن للألفاظ أن تضللنا بها وأن توحى لنا بالافتراضات الزائفة ، فإننا نستطيع عندئذ أن نتعلم الشيء الكثير عن طبيعة الحقيقة من الألفاظ التى نستخدمها فى وصفها . بل إنه تحدث عن فكرة لغة كاملة تعكس الحقيقة بصورة كاملة . ولكننا سنتصدى لهذه النقطة فيما بعد .

الفصل السابع

الاشتغال بعرض الكتب والمقالات والسياسة

وفى المراحل الأخيرة من كتابه « مبادىء الرياضيات » ، خرج راسل عن القاعدة التى انتهجها لنفسه ، وهى « ألا يفرط فى شىء أبداً ، بما فى ذلك انغماسه فى العمل » ، فنبذ جدول أعماله المنتظم المحدد ، وأجهد نفسه فى العمل المضنى إلى الحد الذى جعله يذكر للبروفيسور ليتل وود ، عالم الرياضيات بجامعة كامبردج أن « مبادىء الرياضيات » استنفد من كيانه ما يجعله يعتقد أحيانا انه لن يصبح نفس الشخص أبدا .

وبلغ ما بذله راسل من جهود ذهنية فى وضع هذا الكتاب من الضخامة مبلغا يجعل المرء يميل إلى الافتراض بأنه لم يجد لديه متسعاً من الوقت لأن يفعل أى شىء آخر ذا بال بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٠ . ولكن واقع الأمر يشير إلى أنه ظل فى خلال هذه الفترة يمارس ما اعتاد عليه من تدبيج المقالات الفلسفية المتناثرة وعرض الكتب والمقالات التى نجدها منشورة فى مجلة « العقل » ، فضلا عن إصدار مطبوعات متخصصة مماثلة . ويبدو أن محرر مجلة « العقل » كان ، كلما تلقى مقالا فلسفياً مكتوباً باللغة الألمانية أو الفرنسية أو الإيطالية يعجز عن فهمه الآخرون ، يبادر بإرساله إلى راسل كإجراء طبيعى . وكان راسل دائما يبادر بالاستجابة إلى طلب المحرر فيبعث إليه بتقييم له يجمع بين السرعة والإتقان .

ويجب أن نذكر فى هذا الصدد أن راسل كان فى أغلب الأحيان ناقداً قاسياً لا يرحم ، وخاصة فى مبدأ عهده بالاشتغال بعرض الكتب والمقالات . وكان أسلوبه فى النقد شبيهاً بأسلوب جراح يقف على منضدة العمليات . وكان تشريحه الدقيق الخالى من العاطفة مدمراً فى بعض الأحيان لمختلف المؤلفين الذين كان النسيان سيطويهم فى غياهبه إلى الأبد ، لو انه لم يذكرهم فيما كتب .

ولعله ، على سبيل المثال ، كان من الأهون على المؤلف السيء الحظ ادموند جوبلوت الذى كتب « مقال عن تصنيف العلوم » أن يتحمل سيلا من السباب والنقد من أن يواجه تلخيص راسل القاسي لعمله بلهجة من يقرر أمرا واقعا : « يبدو أن المقال يتمتع بقليل من المزايا » (*) . وتلقى الدكتور يوليوس سكولتز مؤلف « علم النفس والبديهيات » من راسل إدانات بالغة القسوة لهذا العمل مثل قوله : « إن ملاحظاته عن علم الهندسة لا تعدو أن تكون خليطا من الزيف المنطقى والتخبط التاريخى والأخطاء الرياضية » . وقوله « إن الموضوع نفسه يدعو إلى الالتباس بين المنطق وعلم النفس ، ولا يفعل المؤلف شيئا لتبديد هذا اللبس » .

وإنه لمن العسير علينا أن نوفق بين مثل هذه الانتقادات وبين قدرة راسل الهائلة على الشفقة الانسانية التى كانت تمتد حتى تشمل بعض الفلاسفة السخفاء ، كما أنه من العسير علينا أن نوفق بينها وبين العون الكبير الذى كان دائما على استعداد لتقديمه بسخاء وكرم إلى تلاميذه . وكما وصفه سانتيانا « كان راسل تجسيداً للكرم نفسه فى معاملة أكثر الناس من الناحية الفكرية تفاهة وهواناً فى الشأن ومدعاة لليأس » .

ولو أن راسل سئل عن مبرر لقسوته ، فإنه من المحتمل أن يجيب بقوله : إن الضرورة تقتضى منا أن نقول الصدق بشأن أى كتاب دون أدنى مهادنة ، وأن كل شىء بعد ذلك يجيىء فى المرتبة الثانية . ولعل بياتريس وب قد أعطتنا أصدق وصف لهذا الجانب من شخصية راسل عندما كتبت تقول : « إن شخصيته لا تعرف المهادنة أو التخفيف من وطأة ما يشنه من هجوم ، كما أنها لا تعرف الدوافع المتعددة المختلطة واعتلال البدن والعقل ، والعبارات المتحفظة ، والمشاعر غير الأكيدة تبدو أشياء لا معرفة له بها ، فأية قضية ، فى نظره ، أما صادقة أو كاذبة ، وأية شخصية أما طيبة أو شريرة ، كما أن أى شخص أما محب أو حقود ، وهو أما صادق أو كاذب » .

(*) يعطينا عرض راسل لهذا البحث مثالاً جلياً على حافظته القوية . فقد نشر راسل هذا العرض فى عام ١٨٩٨ ، عندما كان فى السادسة والعشرين من عمره . وقد اختصصت هذا العرض بالذكر فى هذا المقام نظرا لأنه محدود الذيوع والانتشار ، وليس من المحتمل أن يكون أحد قد أشار إليه منذ ظهوره . وعندما قرأت هذه الفقرة فى مسودتها على راسل بصوت مرتفع فى عام ١٩٥٥ ، وهو فى الثالثة والثمانين ، احتج على الفور بأن الفقرة المقتطفة مبتورة ناقصة ، ثم ردد من الذاكرة الفقرة كما وردت فى الأصل تقريباً . « يبدو أن العمل يتمتع بمزايا قليلة ، اللهم إلا ذكر ما اعتمد عليه من مصادر بأمانة غير عادية » وتؤكد لنا ص ٤٣ مثلا أن المعرفة تمنح الانسان أسباب القوة والسلطان ، وهى تشير إلى ما ورد على لسان المسيو أجار فى هذا الصدد على انه قول سابق يمهد لحكمة مسيو جوبلوت الجديدة الغالية .

ولكن نكتته فى تلك الأعوام حتى بقية حياته كانت أحياناً جارحة بلا مسوغ . وفى اعتقادى أن راسل ، شأنه فى ذلك شأن آخرين كثيرين ممن يتميزون بالشعور والحس المرهفين ، قد كون لنفسه فى فترة من حياته ، كشرط ضرورى للبقاء ، طبقة سطحية جلدية سميكة حتى تقيه من الرضوض والقبح ومآسى الحياة الإنسانية . وهذا نفسه ما حدث لشو ، الذى كان فى بدء حياته فى مثل خجل وعصبية راسل تقريباً . ولكن راسل لم يصل مطلقا إلى ما وصل إليه شو من استخدام لاذع الكلم .

وهناك تفسير آخر مفاده أن دعابة راسل كانت من النوع الفائر الجياش الذى غالبا ما يحمل صاحبه على الاسترسال فيها دون تفكير . ويمكننا أن نذهب إلى أن راسل لم يتفوه مطلقا بقول جارح إلا على سبيل المزاح . وراسل ، شأنه فى ذلك شأن إحدى شخصيات أوسكار وايلد التى كانت تستطيع أن تقاوم كل شىء إلا الإغراء ، كان فى استطاعته أن يقاوم كل شىء إلا النكتة . وللفلاسفة ذوى التفكير البطىء بعض العذر عندما يجارون بالشكوى من أنه كان يغير مجرى هجومهم عليه عن طريق إطلاق وهج مدمر من النكتة ، كلما لاح أنهم قد استطاعوا أن يمسكوا بتلابيبه أثناء المناقشة ، تماما كما كان من عادة ونستون تشرشل الالتجاء إلى النكتة الصاخبة كلما وجد نفسه فى مركز بالغ الدقة فى مجلس العموم .

وحتى فى خلال الأعوام التى قضاها راسل فى تأليف « مبادىء الرياضيات » وجد لديه بعض الوقت للاشتغال بالسياسة ، فانضم إلى جماعة للمناقشة معروفة باسم « جماعة الاكفاء » . ويرجع السبب فى هذه التسمية إلى أن الأمل كان يحدو أعضاء الجماعة إلى إظهار كفاءتهم المشتركة . وكان هـ . ج . ويلز عضوا آخر فى هذه الجماعة . ودفعت الدعوة إلى حماية التجارة راسل إلى أن يكتب ويتحدث مدافعا بكل جوارحه عن التجارة الحرة . وفى عام ١٩٠٧ رشح نفسه لانتخابات البرلمان .

وكان هناك انتخاب فرعى فى دائرة ويمبلدون التى بدت لقمة سائغة فى أفواه المحافظين . وشعر مرشح الأحرار (الليبرالى) ، بعد أن أصبح عمدة ، أنه ينبغى عليه أن يمتنع عن الاشتراك فى السياسة الحزبية . ووافق راسل على ترشيح نفسه عن « الاتحاد القومى لجمعيات حصول المرأة على حقوقها الانتخابية » . وكانت هناك فى تلك الفترة

هيئتان تدعوان إلى حصول المرأة على حقوقها الانتخابية . وأكد راسل أنه يمثل الهيئة النسائية التى تؤمن باستخدام الوسائل الدستورية دون سواها .

وأظهر راسل فى هذا الصدد ، مثلما أظهر فى معظم المسائل السياسية ، مقتا للتطرف . فعندما ذكرت مدافعة عنيفة عن حقوق المرأة « أن الجنون يشيع فى نصف كل رجل » ، وافقها على ذلك ، ولكنه أضاف انه يشيع فى « نصفه الحلو » .

وفى ويمبلدون شرح راسل انه يمثل مبادىء الديمقراطية والحرية والعدالة التى تعنى جميعها باعطاء المرأة حقها الانتخابى . وطبقا لما أوردته إحدى الصحف بشأن إحدى الخطب التى ألقاها ، كان راسل يؤيد حكومة الأحرار (الليبرالية) فى شتى المسائل باستثناء موقفها من حقوق المرأة الانتخابية . قالت هذه الصحيفة : « لقد كان ليبراليا كما كان يتخذ موقفا ليبراليا طيلة حياته » . ويمثل الإيمان بالتجارة الحرة أهم جانب فى السياسة الليبرالية .

وبالرغم من أن راسل لم يكن مرشحا رسميا عن حزب الأحرار (الليبرالى) فقد نعم من زعيم هذا الحزب بعطفه الشخصى وتمنياته الطيبة . وكان منافسه هنرى شابلن أحد زعماء المحافظين حينذاك .

ولعل قول راسل « إن مسألة إعطاء المرأة حق التصويت وإن لم تكن أهم موضوع على الإطلاق ، فإنها تكاد أن تكون أهم مسألة تواجه البلاد فى الوقت الحاضر » دلالة على ما وصل إليه الجو السياسى فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى من جدية وصفاء . وبالرغم من أن هذه المشاكل السياسية المثارة حينذاك قد تبدو أقل خطورة من المشكلات الراهنة ، فإن عامة الناس كانت تولى المنازعات السياسية قدرا أكبر مما توليه الآن من اهتمام .

وكانت الحملات الانتخابية حينذاك تستخدم الخطابة من المنصات العامة بدلا من عرض البرامج التليفزيونية الهادئة . وعندما عقد راسل أول اجتماع له تعمدت عصابة من المشاغبين الشوشرة عليه وإرغامه على الصمت معظم الوقت . وحاول منافسوه أن يسخروا من الدعوة إلى حصول المرأة على حقوقها ، وذلك باطلاق سراح فأرين كبيرين بين المستمعين بينما كانت إحدى السيدات المؤيدات له تلقى خطابها بغية دفعهن إلى التصاريح

والصراخ . ووصفت جريدة التيمز الحادث بقولها : « حدث هرج ومرج حتى تم الاجهاز على الفأرين » . ولكن الخطة باءت بالفشل كما ذكرت الجريدة المحلية ويمبلدون بورانيوز ، فبدلا من أن يثيرا الذعر فى نفوس المدافعات عن حقوق المرأة الانتخابية ، أظهر الفأران المرتاعان قدرا أكبر من الإدراك والتمييز عندما اتجها نحو مجموعة صغيرة من الرجال أمام منصة الخطابة ، فلاح عليهم شيء من الاضطراب عند رؤية الفأرين غير المرغوب فيهما . وأمكن التخلص من الفأرين بعد مطاردة قصيرة ، وعاد إلى الرجال هدؤهم الطبيعى مرة أخرى .

ويجب الاعتراف بأن صحيفة ويمبلدون بورانيوز لم تكن تلتزم الحيدة تماما . فقد كانت تقف بجانب راسل تؤيده بكل ما أوتيت من قوة وقدرة على السباب الفاضح الذى كان يميز الحياة السياسية فى ذلك الوقت . ويكفى للدلالة على ذلك أن نسوق بعض عناوينها البارزة : « بعض الأوغاد الجبناء يطلقون سراح الفئران فى ويربل هول » : ، و « السفلة والسوقة يصرخون حتى تبح أصواتهم » و « خطب السيدات البارعة تستحوذ على قلوب المستمعين » و « هجوم يشنه بعض السفلة على مسز راسل فى رينيس بارك » . ووصفت الصحيفة هذه الحادثة الأخيرة على النحو التالى :

« ارتكبت فضيحة نذلة أخرى فى مساء يوم الثلاثاء ، عندما ألقيت بيضة على مسز راسل – السيدة الجذابة التى كانت تشترك اشتراكا حيا فى حملة زوجها الانتخابية – وهى تستقل مركبتها التى انطلقت مبتعدة عن مكان الاجتماع فى رينيس بارك . وأصابتها القذيفة غير البهيجة بين عينيها مباشرة ، وسببت لها ألما ممضاً ، وسرعان ما ظهر ورم كبير فى مكان القذيفة ، وقد قوبلت بالاشمئزاز العظيم وحشية هؤلاء البرابرة ، الذين يبدو أنه ليس لهم مكان حتى بين وحوش جنوب أفريقيا » .

وفى نهاية الأمر ، فاز شابلن على راسل بحصوله على ١٠٢٦٣ صوتاً مقابل ٣٢٩٧ صوتاً .

وفى مايو ١٩١٠ ، بعد أن كاد راسل أن يفرغ من تأليف « مبادىء الرياضيات » بذل محاولة أكثر جدية لانتخابه عضوا فى البرلمان على أساس أنه مرشح رسمى لحزب الأحرار (الليبرالى) . وليس هناك أدل على أن توقع الحرب أو التفكير فيها لم يخطر على بال الكثيرين من أن راسل لم يشر فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة ترشيحه إلى السياسة الخارجية . وهاجم راسل حق مجلس اللوردات فى الاعتراض على التشريعات ، ودافع عن فكرة فرض الضرائب على قيمة الأراضى ، كما دافع عن التجارة الحرة وحقوق المرأة الانتخابية . وبدا نجاحه فى الانتخاب أكيدا لولا أن لجنة الدائرة الانتخابية المحلية اكتشفت أنه لا أدرى . وعندما رفض راسل أن يتردد على الكنيسة حفاظا من جانبه على المظاهر ، تم ترشيح شخص آخر لعضوية البرلمان وفاز فى الانتخاب .

وأنه لما يثير الاهتمام أن نتأمل العواقب التاريخية المحتملة التى كانت ستنجم عن اشتراك راسل فى الحياة العامة فى هذه المرحلة لو أنه أنضم إلى حزب الأحرار الممثل فى البرلمان بزعامة اسكويث كرئيس لوزارة تضم ونستون تشرشل ولويد جورج وهولدان وهربرت صامويل وجون مورلى . وإنى شخصيا اتفق فى الرأى مع تشارلس تريفيليان على أن « شخصية راسل ترفض الحلول الوسطى إلى الحد الذى يمنعه من النجاح كرجل سياسى » .

وفى أثناء الأزمة الدستورية عام ١٩١١ ، وقعت حادثة تقل فى أهميتها عن الحادثة السابقة حين كان مجلس اللوردات يعوق الاصلاحات التى كانت حكومة الأحرار بصدد إصدارها . فقد اقترح البعض منح عدد جديد كاف من الأحرار لقب لورد للتأكد من حصولهم على أغلبية من الأحرار فى مجلس العموم واللوردات . وعندما تقدم البعض باقتراح لمنح راسل لقب لورد رد بأنه يفضل لنفسه لقب هزلى هو اللورد سنوكس . وعندما أثار هذا الرد الدهشة ، أحتد راسل بقوله : « إننى كنت أظن أن الحكومة تريد أن تظهر مجلس اللوردات بمظهر مضحك إلى أقصى حد ممكن » .

والرأى عندى أن راسل يذهب أحيانا ، بسبب جموح شخصيته ، إلى أنه ليست هناك صلة تربط بين آرائه فى الفلسفة وآرائه فى السياسة . وكان راسل مغرما بأن يبين أنه يقترب فى أرائه الفلسفية أشد الاقتراب من هيوم المحافظ . ولكنى أعتقد أن هناك صلة واضحة تماما بين آراء راسل فى الفلسفة وغيرها من الآراء . وكانت إحدى نتائج فلسفته أنه أوضح أن كثيرا من المشكلات الفلسفية التى كان من المظنون فيما مضى أنه يمكن الوصول إلى حل لها عن طريق المنطق ، يمكن الفصل فيها عن طريق المزاج الفردى وحده . وكان من الطبيعى أن المزاج الذى يفضى بصاحبه إلى نتائج معينة فى الفلسفة من شأنه أن يفضى إلى نتائج موازية لها فى السياسة .

وأنه من الطبيعى ، بادىء ذى بدء ، أن نجد فيلسوفاً محللاً يرفض الواحدية مثل راسل يدافع عن الفرد فى وجه الدولة ، فى حين أن هيجل فعل العكس (وبالنظر إلى ما أسهمت به الفلسفة الهيجلية فى خلق الفاشية والشيوعية فأن الاطاحة بهذه الفلسفة فى كل من بريطانيا وأمريكا تنطوى على أهمية تتجاوز ما لها من أهمية أكاديمية) .

وتميل عقلية راسل الفلسفية بكليتها إلى محاولة استبعاد المنهج القبلى وتأكيد المنهج التجريبى ويتميز تفكيره السياسى بنفس هذا الاتجاه على الرغم من أنه يستخدم أحيانا كلمات مجردة مثل « العدل » (*) ومن المستحيل تماما أن نفهم السبب فيما ظهر على آراء راسل من تقلبات كثيرة إلا إذا أدركنا أن معالجته للمسائل السياسية كانت فى العادة تجريبية ، وعملية تنهض على ما يوفره الموقف من أدلة وليس عن مبادىء وأفكار مسبقة قبلية . وقد كان هذا مشروعاً تماماً بل مدعاة للثناء فى عالم تتقلب أحواله من لحظة إلى أخرى ، وتقلب ظروفه المتغيرة كفتى الميزان فى أية محاجة على الدوام .

ويمكن أن يؤدى الإخفاق فى فهم هذه النقطة كذلك إلى إحساس بخيبة الأمل لا مبرر لها فيما يتصل ببعض كتابات راسل السياسية . وقد يزعم البعض بأن مهمة راسل

(*) وهذا أيضا يسير الفهم ، لأن العدل والتحرر الموضوعى من التحيز هما المقابلان الاجتماعيان والسياسيان للبحث عن العمومية الذى يتميز به العالم الرياضى العظيم ، والتى نجد لها أمثلة فى صفحات كتابى « مبادىء الرياضة » و « مبادىء الرياضيات » .

تقتضى منه حل كل مشكلة عن طريق اختراع مذهب فلسفى أو أيديولوجية أو نظرية منمقة يدعى أنها تمثل الحقيقة الخالدة . ولكن بداية الحكمة السياسية هو أن تدرك أنه ليس لمثل هذه النظريات أى وجود .

ولكن يجب أن أذكر فى هذا المقام غرابة ظاهرة يتسم بها راسل . ففى حين أنه يعترف فى بشاشة بكل ما طرأ على تفكيره الفلسفى من تغيرات ، فإنه يميل إلى النظر إلى أية إشارة إلى ما طرأ على تفكيره السياسى من تغير على أنه نقد شخصى موجه إليه ، بالرغم من أن هذه التغيرات التى أصابت فكره السياسى لها ما يبررها أكثر من التغيرات التى أصابت أفكاره الأخرى . واعتقد أن السبب فى هذا يرجع إلى أنه تعمد استبعاد أية اعتبارات أخلاقية أو عملية من مناقشاته التى تتصف بالتشدد الفكرى للمشاكل الفلسفية . وذهب راسل بوجه حق إلى أن الذين يعترضون على تغير الفيلسوف وتطوره إنما يخلطون بين الفلسفة وبين أصولها النابعة من اللاهوت فيعترضون أن النظرية الفلسفية ينبغى أن تتصف بجمود العقيدة اللاهوتية وتحجرها . وأنصب الجانب الملتهب العاطفة من طبيعته ، الذى لم يجد متنفسا فى عمله المتخصص فى المشاكل السياسية والاجتماعية . ولم يتبن الدفاع عن أية قضية سياسية مطلقا إلا إذا حرك مشاعره من الأعماق الرعب من منظر العذاب الانسانى المروع الذى يرى أنه ليس له مسوغ أو ضرورة ، أو حركها تصميم على محاربة الحماقة التى كانت سببا فى وجود هذا العذاب ، وكان انسجامه الفلسفى الواضح ينهض من مبدأه إلى منتهاه على ما اتبعه من منهج ، وما وضع نصب عينيه من غرض ، شأنه فى ذلك شأن الصانع المبدع الذى يجد أقصى درجات الفخر فيما تبدعه يداه ... وكان يشترك فى أحداث السياسة بروح حامل العلم الذى يتصدر الجيش وهو ينوى الدفاع عنه فى وجه كافة الهجمات .

ومهما كانت النتائج التى توصل إليها راسل بشأن أية مشكلة سياسية محددة ، فإنه كان دائماً قادراً على التفكير فى وجهتى نظرها المتعارضتين ثم استعراضهما استعراضاً محايداً . وتنطبق هذه العادة فى رؤية جانبى أية مشكلة على راسل كفيلسوف بمثل ما تنطبق عليه كمفكر سياسى . وقد أسماه هوايتهد ذات مرة بديالوج سقراطى فى حد ذاته .

ومن المحتمل أن يصطدم من يحاول استقصاء التطور الذى طرأ على آراء راسل السياسية ببضعة الغاز . رغم أننى لا أرى أن لهذه الألغاز أية أهمية نظرا للأسباب التى أبديتها . لقد شب راسل وترعرع كليبرالى ثم تأثر بعائلة سيدنى ويب فالتحق بالجمعية الفابية (الذى لم يكن الالتحاق بها فى تلك الأيام يقتضى الانفصال عن حزب الأحرار الليبرالى) . وظل راسل لبعض الوقت مناصراً للاستعمار يؤيد حرب البوير . ولكنه فى أوائل ١٩٠١ ، كما قال فى أحد أحاديثه الإذاعية ، « دخلت فى تجربة لا تختلف عما يسميه الناس المتدينون الولادة الجديدة ... ففى غضون بضعة دقائق غيرت آرائى الخاصة بحرب البوير وقسوة النظام التعليمى وقسوة قانون العقوبات وروح التقاتل التى تشوب العلاقات الشخصية » . ومنذ ذلك الحين نجد أن نظرة راسل السياسية لم تسع أبدا إلى اتخاذ نفس الموقف المبتعد الذى يتجلى فى المحاضرات التى ألقاها فى شبابه عن الاشتراكية الألمانية .

وترجع ولادة راسل الجديدة فى عام ١٩٠١ إلى أنه أصبح : « يدرك فجأة وبصورة حية الوحشة التى يعيش فيها معظم الناس ، ويرغب رغبة متأججة فى إيجاد الوسائل التى تخفف من حدة هذه الوحدة المأساوية » . وانعكست آثار هذا الشعور ، على المستوى الشخصى فى مقال له بعنوان « عبادة الإنسان الحر » لعله أفضل ما كتب راسل من مقالات على الإطلاق . وكل ما سوف أذكره بشأن هذا المقال هو أن أقترح على القارئ ضرورة شراء كتاب « التصوف والمنطق » الذى يضم هذا المقال فيقرأوه فى إحدى طبعاته المعادة ، حتى يكتشف من بين ما يكتشف أن بعض معتقدات راسل لها ما لنصوص العهد الجديد فى الكتاب المقدس من رنين » .

وانفصل راسل عن جماعة الفابيين نظراً لتحمسه المفرط للتجارة الحرة . وكان راسل من ناحية السياسة الخارجية يعارض أى اتفاق مع فرنسا وروسيا ضد ألمانيا . وقد سمع أول دفاع عن هذا الاتفاق من السير ادوارد جراى لأول مرة فى اجتماع عقدته جماعة « الاكفاء المشتركة » فى عام ١٩٠٢ . ورغم هذا ، وصف راسل نفسه فى انتخابات ويمبلدون الفرعية بأنه يؤيد كل السياسة التى تنتهجها حكومة الأحرار . وهناك دليل آخر على أنه كان ، فيما يبدو ، يؤيد سياسة جراى الخارجية .

وفى نوفمبر عام ١٩١١ كان ليونارد وولف قد عاد لتوه من سيلان وجاء إلى كامبردج ليمكث فيها مع ج . أ . مور . ويذكر وولف بصورة حية عن هذه الزيارة إحدى المناسبات التى زار فيها راسل وسانجر معا مور واحتدمت فيما بينهما مناقشة حول سياسة جراى الخارجية . وكان سانجر يعارضها بشدة ومرارة فى حين أن راسل كان يقف منها موقف المدافع .

وفى عام ١٩٥٦ فسر لى راسل هذه الحادثة بأنه كان يؤيد سياسة جراى الخارجية لا لشىء إلا لأنه لم يكن يدرك حقيقتها فى ذلك الوقت فقد كان جراى يدمن الكذب لإخفاء مدى ارتباط بريطانيا بفرنسا . وقال راسل : « لقد كنت أظن أنه إنسان شريف نسبياً ، وإنه كان يتحرى وجه الصدق عندما يلقى بياناً فى البرلمان » .

الفصل الثامن

حياة هـادئة

نستطيع ، فيما أظن ، أن نذهب إلى أن عام ١٩٠١ ، حين أصبح راسل يدرك « فجأة وبصورة حية الوحشة التي يعيش فيها الناس » ، كان إيذانا كذلك ببداية تغير طرأ على آرائه في الزواج . وانتهى به الأمر تدريجيا ، في غضون عدة سنوات ، إلى الإيمان بالحب الطليق ، لا يحدد انطلاقه شيء سوى إنجاب الأطفال .

وتزوج راسل في حياته أربع مرات . وكانت له صداقات أخرى أبعد ما تكون عن الحب الأفلاطوني . ولن يكشف هذا الكتاب النقاب عن هذه العلاقات . وإنني لا أعتقد أن العلاقات الخاصة بين أي رجل وأمرأة تهم أي شخص عداهما . ويجب أن يترك الأمر لراسل وحده ليروي قصة هذا الجانب من حياته . وهو جانب مهم ، وإنه لمن المهم كذلك معرفة الحقائق المجردة ، واستبعاد الأقاويل والشائعات الشريرة . ولكني أزمع أن أقصر جهدي على تلخيص موجز للحقائق التي يستطيع أي إنسان في يومنا الراهن ، أو أي مؤرخ في المستقبل ، أن يعثر عليها فيما تنقله الصحف من إجراءات الطلاق المتنوعة ، وفي المذكرات وكتب السيرة وفي كتابات راسل نفسها . وكتب راسل ، من وقت لآخر ، مقالات عديدة عن الزواج والأخلاق الخاصة بالجنس . وسأناقش ، فيما بعد آراءه التي يتضمنها كتابه « الزواج والأخلاق » المنشور في عام ١٩٢٩ ، وهو أكمل بحث له يتناول هذا الموضوع .

لاحظت بياتريس ويب ، منذ مايو ١٩٠٢ ، أن « العلاقة بين راسل وزوجته الأولى ليست على ما يرام » . وسجلت مفكرتها في العام التالي أن « علاقتهما يشوبها انتفاء التلقائية والتزمت المفجع » . ويبدو أن سرعة بديهة راسل ودعابته لم يتمشيا مع نظرة أليس الجادة التي تميز طائفة الإصلاح (الكويكرز) ، فقد كانت تخاطب الناس بأسلوب

المنتمين إلى هذه الطائفة الذى ينم عن الاحترام المفرط ، كما أنها كانت تشغل نفسها بعمل الخير . وعرف عنها أنها كانت ، عند دخولها فى أية حجرة استقبال ، تبحث عن أبعث شخص فيها على الملل ، يحرص كل الناس على تجنبه فتتحدث إليه .

وبوصف أننا لسنا أطرافا فى هذه المشكلة الشخصية ، فلسنا بحاجة سوى أن نذكر الأثر الناجم عن قرار راسل القاطع الحاسم المميز لشخصيته الذى يتلخص فى أنه من الأفضل ، فى نهاية الأمر ، أن ينفصل عن زوجته نهائيا من أن يتظاهر بالسعادة الزوجية التقليدية التى ليس لها وجود . لقد كان دائما أرستقراطى المزاج من الصعب إرضاؤه . ولكن الوشائج التى تربطه بطبقته ونظرة هذه الطبقة إلى الحياة بدأت تتقطع لإقدامه على الطلاق أولا ، ثم لما كان يقوم به ، فيما بعد ، من دعاية للسلام خلال الحرب العالمية الأولى . ونجم عن ذلك سعيه إلى عقد صداقات مع أناس ثائرين على التقاليد يدينون بأفكار كانت تعتبر حينذاك أفكاراً عصرية .

وكان من العسير للغاية أن تساعده سمعة أخيه السيئة . فقد تحول فرانك راسل إلى البوذية أثناء الطلب فى جامعة أكسفورد ، فطردته كلية باليول . وتزوج فرانك ثلاث مرات ، وزج به فى السجن لاحتفاظه بزوجتين فى وقت واحد (بسبب نقطة قانونية تتعلق بشرعية طلاق أصدرته المحاكم الأمريكية) . وكانت الشائعات تشير إليه باسم « الايرل الشرير » . وطبقا لما يذكره صديقه سانتيانا ، فانه أوشك على الأفلاس بسبب المنازعات فى المحاكم وما تكبدته أعماله التجارية من خسائر . واستمر يعيش فى مصدر للرزق غير مضمون تدره عليه إدارته لعدد مختلف من الشركات غير المستقرة . « ولهذا فقد كان من الطبيعى أن يميل الناس إلى النظر إلى راسل وأخيه على أنهما شاذان بعض الشىء ، ولا يستأهلان غير القليل من الاحترام » .

ولكن هذا كله سابق للأحداث . فانفصال راسل عن أليس لم يتم إلا فى عام ١٩١١ ، ولم يتم طلاقه منها قبل عام ١٩٢١ . ويجدر بنا أن نسجل ، كدين لزوجة راسل الأولى يطوق عنق الأجيال القادمة ، أنه قام بتأليف الكتاب الذى يعتبر عادة أحسن مؤلفاته فى خلال الفترة التى كان يعيش معها تحت سقف واحد . فقد كانت زوجته توفر له الضرورات

الخارجية اللازمة للتفكير الخلاق ، مثل توفير حجرة مكتب فى بيت منتظم الإدارة حيث يستطيع أن يعمل دون انقطاع .

وكتب راسل ذات مرة « أن الحياة الهادئة تميز سيرة العظماء . وليست ملذاتهم من النوع الذى يبدو مثيرا للعالم الخارجى . وأنه لا يمكن ، تحقيق أى عمل عظيم إلا بالجهد العسير المثابر الذى يستنفد كل وقت المرء وانتباهه إلى الحد الذى لا يترك وراءه سوى طاقة ضئيلة لا تسمح له بالانصراف إلى أنواع اللهو والتسلية المجهدة » . وينطبق هذا إلى حد ما على راسل نفسه . فقد كان ، على سبيل المثال ، مغرما بالرقص ، ولكنه أقلع عنه عندما رحل إلى الريف ليدرس الرياضيات . وكان لا يتقن الألعاب الرياضية . وبالرغم من أنه كان يلعب قليلا من (التنس) ، فقد قال : « إن الشخص الوحيد الذى كنت استطيع أن أهزمه هو الفيلسوف ماك تاجارت » .

وفى يونيو ١٩٠٢ ، بعد أن انتهى من وضع « مبادىء الرياضيات » كتب راسل إلى بياتريس وب من كامبردج حيث كان يقيم مع عائلة هوايتهد :

« إن فصل مايو الدراسى فى كامبردج عبارة عن حلقة متصلة لا تنتهى من الحفلات الاجتماعية . ولكنى أضيق ذرعاً بهذه الحفلات المقامة فى الحدائق والحفلات الراقصة ، وما شابهها من لغو وعبث » .

« وإنى أذهب إلى الكلية فى معظم الأحيان ، وأجلس فى الحديقة المخصصة لأساتذة الكلية حتى وقت متأخر ، حيث أرقب الغسق الآفل من خلال أشجار الصفصاف . ومنذ أن انتهيت من تأليف كتابى ، كرست نفسى لما يمكن أن نسميه الصحة العقلية ، ووصلت إلى نتائج طيبة فى هذا الشأن . ولم أقم بأى عمل طوال الأسبوعين الآخرين ، اللهم إلا قراءات مخطوط فى الرياضيات كتبه هوايتهد . ولكنى كنت أقضى كل أيامى خارج البيت ، استمتع بدفء الصيف العائد » .

ولكن يجب أن نذكر أن فكرة راسل المعتادة عن قضاء أجازة غير مجهدة كانت تعنى السير من النمسا إلى إيطاليا ، أو الانضمام إلى جماعة للقراءة تزور منطقة ليك دستريكت ، حيث كان باستطاعته أن يمزج العمل بتسلق الجبال والسباحة .

كان روبرت ترافيليان متزوجا من فتاة هولندية جذابة استطاعت رغم انقضاء سنوات عديدة ، أن تذكر الأيام القليلة التى اشتركت خلالها مع زوجها وراسل فى القيام بجولة للتنزه فى منطقة ويست كنترى . واكتشفت مسز إليزابيث ترافيليان ، التى لم تألف عادة الشبان الانجليز الغريبة حينذاك ، وقد ملأ الرعب قلبها ، أن رفيقيها يتوقعان منها أن تسير مالا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ميلا فى اليوم . ومما زاد الأمر سوءا أن راسل كان يتحدث فى الفلسفة طيلة الوقت ، بدلا من أن ينظر إلى الأشياء فى دعة ويظهر اعجابه بالمناظر الطبيعية . وشرحت مسز ترافيليان الموقف فيما بعد شرحا معقولا فقالت : « اننى لا أستطيع أن أسير وأتفلسف فى نفس الوقت ، فإنه يتعين على الجلوس حتى أتمكن من التفكير فى الفلسفة » . وكانت مسز ترافيليان ، على سبيل الاسترخاء ، تقرأ رواية « ميدلمارش » لـ « جورج اليوت » بصوت مرتفع إلى راسل وزوجها « ترافيليان » . واستمرت هذه السيدة فى السير بشجاعة واستبسال مدة ثلاثة أيام . ولكنها نبذت السير فى اليوم الأخير واستقلت إحدى المركبات .

كان راسل دائماً أنيقاً نظيفاً فى ملبسه تكاد ألا تعلق بملابسه ذرة واحدة من الغبار . وكان يلبس بنيقة منشية بيضاء مصقولة لامعة تزيد فى ارتفاعها عن أية بنيقة أخرى . وبلغ ارتفاعها إلى الحد الذى جعل ذقنه تبدو وكأنها تغوص فيها . ووافق راسل خلال جولة التنزه أن يلبس بنيقة رخوة أثناء النهار . ولكنه كان لا يزال يعنى باستبدالها ببنيقة عالية أثناء الليل حتى إذا كان نزيلا فى أقصى الحانات الصغيرة وأبعدها عن العمران .

(ومرت مسز ترافيليان ، التى تجيد للغاية العزف على الكمنجة بتجربة مربكة عندما قابلت ج . أ . مور لأول مرة . فقد كان مور مغرما جدا بالعزف على البيانو . وطلب منها مور أن تعزف معه بعض السوناتات . وكان لديه إحساس قوى بالايقاع ، وشغف لا يقهر جعله يعتقد أنه ليس هناك شىء يصعب عليه معالجته ، وكان من عادته أن يعزف على البيانو بطريقة تنم عن لهفته على الحياة إلى الحد الذى جعله يبدو أحياناً وكأنه قد نسى الدور الذى تلعبه الكمنجة تماما) .

وكان راسل مغرما بركوب الدراجات كما كان مغرما بالمشى . وفى ١٩٠٢ وقعت له حادثة دراجة فى لندن كادت أن تتودى بحياته . فقد انحشر بين عربة خفيفة يجرها حصان وعربة أخرى ثقيلة .، وبسرعة خطر له أن يصطدم بالعربة الثقيلة حتى ترده بعيدا عنها ، فيسقط تحت العربة الخفيفة التى مرت عليه دون أن تلحق به أذى خطيرا .

كانت جوازات السفر فى تلك الأيام غير معروفة ، وكان الرجل المثقف حينذاك يتنقل بحرية ويشعر بالألفة سواء فى انجلترا أو فى أوربا . وشملت أسفار راسل زيارات قام بها لفلورنسا ليمكث فهيا مع برنارد بيرنسون الذى صحبه على دراجة فى رحلات للتجول فى الريف المحيط بهما . وذكر بيرنسون ، فيما بعد ، أن راسل كان « يتغنى أحيانا بالرياضيات فى طريقه شاعرة ومتصوفة جعلتنى أنصت إليه فى نشوة فاغر الفم » . وكان بيرنسون أقل نجاحا منه فى اثارة أى اهتمام متبادل بأعمال فن الرسم فهو لا يذكر سوى مناسبة واحدة أظهر فيها راسل تقديرا للجمال المنظور . كانا خارجين من فيلا بيرنسون المسماة « ى تلتى » فى اتجاه التلال . وأشار بيرنسون إلى الجمال الذى نظمته عرضا بعض الحصى وقطع الخشب الملقاة إلى جانب الطريق . فتحركت من الأعماق مشاعر راسل برعة وقال : « ولكن هذا تصوف كامل غير منقوص » .

وهناك شواهد أخرى تدل على أن راسل كان أكثر حساسية فى تقديره للمشاهد المنظورة مما كان بيرنسون يعتقد . ولكن الفنون السمعية كانت تستهويه أكثر من الفنون المنظورة ، وخاصة الشعراء الغنائيون . وكان باستطاعته أن يعيد تلاوة نصوص كاملة من شعر شيلى أو سوناتات شكسبير أو من شعراء آخرين كثيرين كما كان يحمل لبليك عاطفة متأججة .

ولم يكن ذلك العصر عصرا ذهبيا للمفكرين الانجليز فيما يتعلق بالاسفار التى يقومون بها فى البلاد الأجنبية فحسب بل أنه كان أيضا عصرا يتمتع أهله بالدخول الكافية والدعة والفرا غ المستفيضين . وكما سجلت بياتريس وب عن نفسها وزوجها سيدنى فى مذكراتها عندما ذهبت لقضاء أسبوع فى بيتشى هيد مع جماعة تضم جراهم والاس وبرنارد شو وتشارلس ترافيليان وهربرت صامويل :

« يا لنا من أناس محظوظين . يتوفر لنا الحب والعمل والأصدقاء وصحة البدن كما يتوفر لنا الاستمتاع بالاجازات كلما شعرنا بالحاجة إليها ! فيالها من حياة مثالية ! » .

وليس فى استطاعة الأجيال اللاحقة أن تلتقط سوى بعض النظرات العابرة إلى هذه الحياة كما تصورها الذكريات المتناثرة التى تسجل إقامة عائلة راسل المشتركة مع عائلة وب ، وعائلة شو لفترات طويلة فى بيوت الريف الحلوة ، وقد انصرفوا جميعا فى الصباح كل إلى عمله . ولكنهم كانوا يكرسون فترة ما بعد الظهر للمشى وتبادل الأحاديث . وهناك ذكريات عن راسل وهو يرقب مأخوذا شو أثناء انصرافه إلى تأليف أحدى مسرحياته وهو يدون أسماء شخصياته على قطع مربعة من الورق يحركها فى تخطيط ومناورة على رقعة شطرنج حتى يذكر نفسه أنه من المفروض أن يكون معتليا خشبة المسرح فى ذلك الوقت . وكان شو فى مناسبة أخرى يتعلم ركوب الدراجات ، فارتطمت دراجته بدراجة راسل وحطمتها . وكان هـ . ج . ويلز يقوم بزيارتهم بصفة متكررة . وأذهل ويلز راسل بقوله أنه بالرغم من إيمانه بالحب الطليق ، فإنه لا ينوى أن يجهر بهذا الرأى حتى يدخر قدرا كافيا من المال من حقوق النشر يمكنه من أن يعيش على ربعه . وكانت هناك نكات لا تنتهى حول الحياة النباتية التى تحياها بياتريس وب وتساؤل عما إذا كانت هذه الحياة النباتية قد هذبت كبائعها أم لا .

كانت مسز وب تتبع فى عناية نظما فى التغذية ، أولها نظام فرض عليها أن تقصر طعامها اليومى على رطل واحد بالتمام والكمال – ٤ أوقيات فى الفطور ، و ٦ أوقيات فى الغداء ، و ٦ أوقيات فى العشاء . وأصبح هذا النظام أشد إحكاما وأكثر تشددا ، لا يسمح لها إلا بتناول أوقيتين بالضبط من الخبز تأكلهما مع بيضة واحدة فى وجبة الفطور وهكذا دواليك . وذات مرة أخبرت راسل أن امتناعها عن تناول الطعام جعلها أكثر روحانية كما جعلها ترى رؤى بديعة . فأجابها راسل بقوله : « نعم . إذا أكلت أقل مما ينبغى فإنك ترين الرؤى ، أما إذا شربت أكثر مما ينبغى ، فإنك تشاهدين الثعابين » .

وكان سيدنى – عقليته الجادة – يضيق أحيانا بدعابة راسل وفكاهته . فقد قال راسل ذات مرة : أن للديموقراطية ميزة واحدة على أقل تقدير تتلخص فى أن نائب البرلمان فى

ظلها لا يمكن أن يكون أكثر غباؤة من ناخبيه ، لانه كلما ازدادت غباوته ، ازدادت غباوة الذين يقومون بانتخابه . واستقبل وب هذه الملحوظة التى يتميز بها أسلوب راسل فى الحديث بجدية تامة وحنق ظاهر .

ويمكن لنا أن نصف أية ملحوظة يبديها راسل بانها شيء شبيه بالنكته التى يطلقها ج . ب . شو . ولكن دعابة راسل كانت تفوق بكثير دعابة شو فى دقتها ونعومتها ، كما كانت ، اللهم إلا فى الحالات التى ينغمس فيها فى السخرية الرقيقة ، تنهض على الاستدلال المنطقى من الحقائق . وقد قال جين نيكور ، الفيلسوف الرياضى الفرنسى ، إن ملاحظات راسل كانت تتصف بتلك الصفة الباعثة على الضحك الخفيف الناجمة عن كونها مستمدة من الحقيقة . وكان شو يحب أن يقف على رأسه فى حين أن راسل يحب أن « يتشقلب » ليستقر فى الموضع الصحيح مرة أخرى . وذكر راسل ذات مرة ، فى واقع الأمر ، انه كان من عادته أن يجد متعة فى الشقلبة بمعناها الحرفى فى صباه .

وكان جلبرت مرى عضوا آخرا فى الجماعة . ويذكر مرى أن راسل كان يشرب عددا من أقداح الشاى يصل إلى الأربعة فى المرة الواحدة وهو يمسك بالقدح بكلتا يديه لتدفئتهما . واشتهر راسل بين أصدقائه بهذه العادة لدرجة أن ج . م . ترافيليان ، الذى أحضر خطيبته فى إحدى المناسبات لتأخذ الشاى معهم لأول مرة ، لم يتمالك نفسه فصاح قائلا : « انظرى يا جانيت . إنه يفعلها » .

ويذكر جلبرت مرى كذلك أن برقية وردت أثناء انشغال راسل بلعب التنيس تعلن أن أخاه فرانك فى ورطة من الورطات التى اعتاد أن يقع فيها ، وأنه بحاجة لمن يدفع له الكفالة المطلوبة . فقال : « تباله . دعنا ننتظر حتى نفرغ من الشوط » .

وفى الأعوام اللاحقة ، أخذ مرى يقارن بين جماعتهم وبين شلى وجودوين ودائرتهما ، فقد كانوا جميعا يتصفون بنفس التشكك والإيمان بالمذهب العقلانى ، كما يذهبون إلى نفس الرأى الذى يفترض خطل العادات السابقة والتقاليد الماضية .

وتوثقت معرفة مرى (الذى تزوج من احدى بنات عم راسل) براسل لأول مرة عندما حضر إلى كامبردج ليقرأ بصوت مرتفع ترجمته لـ « هيبوليتس » . وابتهج راسل بهذه الترجمة وتوجه بعد ذلك إلى مرى ليسأله إذا كان فى إمكانه أن يقترض نسخة من هذه الترجمة . ثم أصبح الاثنان صديقين حميمين . وكانت هذه الصداقة سببا من الأسباب التى دعت راسل وزوجته إلى الانتقال فى عام ١٩٠٥ إلى باجلى وود الواقعة على مشارف أكسفورد حتى يستطيعا رؤية المزيد من عائلة مرى .

ولعل السبب الآخر الذى جذب راسل إلى أكسفورد هو أنه كان يأمل فى الاستمتاع بالمناقشات مع الفلاسفة « المثاليين » الموجودين هناك . ويصعب أحيانا أن نتذكر البطء الشديد فى تقبل الناس لأفكار راسل ومور الجديدة . ويذكر البروفيسور براند بلانشارد من بيل ، الذى التحق بأكسفورد كطالب فى عام ١٩١٣ ، أن الفلسفة المثالية كانت حينذاك « مزدهرة للغاية يصل وهجها الوضاء إلى السمت إلى درجة تطمس أى شىء آخر فى السماء ... » وكانت شخصية برادلى العظيمة « التى كبرت الآن حتى اكتسبت أبعاداً أسطورية » تحلق فوق مسرح الفكر فى أكسفورد . وكانت أكسفورد دون منازع « عاصمة بريطانيا الفلسفية » . ويبدو مثل هذا القول مذهلاً إذا استرجعنا النظر إلى الموقف . ولعله ليس هناك مبالغة فى أن ذلك كان شعور معظم الناس فى ذلك الوقت . ولكن أكسفورد كانت بالنسبة لراسل قلعة معادية يتلذذ بالهجوم عليها .

وكان راسل ، بوجه خاص ، يحمل كراهية مشبوبة لـ ج . أ . سميث من كلية باليول بأكسفورد . وهو فيلسوف يتبع المثالية الهيجلية . وذات مرة بعد أن قال سميث « إن الحقيقة تتكون من أفكار فى عقل المطلق « سأله راسل » هل يعنى هذا أنه إذا توقف المطلق من التفكير فى شعر رأسى فإن الصلع سيصيبها » ؟ وأجاب سميث بصوت رجل أذهلته الصدمة : « إننى أشعر أن الملحوظة التى أبداها مستر راسل تهدف إلى السخرية من قول صادر عن مؤسس الدين الذى نعتنقه ، وهو دين يرى البعض منا أن هالة من القداسة تحيط به ، وفى أحضانه شببنا جميعا وترعرعنا » .

أما راسل فقد استقر رأيه على أن سميث « دعى ومنافق » . وذكر راسل ، فيما بعد ،

ملحوظة تتفق مع ما عرف عن شخصيته بشأن هذا الرجل : « أنه كان يفسد الشباب زاعما أنه يقوّم أخلاقهم ، وذلك بتلقينه الإيمان بأشياء لا نصيب لها من الصحة ، وأملى أن يتلظى فى النار » .

وكان جلبرت مرى وراسل ذات مرة يتجادلان بشأن أحد الاساتذة فى أكسفورد الذى امتدحه مرى . أما راسل فكان متطرفا يرفض أن يسمع كلمة ثناء واحدة عليه . وذكر مرى كيف أن هذا الأستاذ يتمتع بموهبة التغلغل فى عقول تلاميذه وجعلهم يشعرون بأهمية أفكارهم » فقال راسل على الفور : « إنك تعنى انه يخبرهم الأكاذيب حتى يجعلهم يحبونه » .

وكان من عادة راسل كذلك أن يتجادل مع شيلر من كلية كوربوس : فيلسوف البراجماتية البريطانى الرائد . ورغم أنهما كانا يتفقان فى نقد فلسفة أكسفورد المثالية ، فإن راسل كان ينتقد البراجماتية كذلك ، التى وصفها ذات مرة بانها الفلسفة التى تؤمن بأن الحقيقة فى جانب القوة . ويذكر طالب شاب سمع ما احتدم بين راسل وشيلر من جدال ما بين الاثنين من تناقض صارخ . فقد كان المفروض فى فلسفة شيلر أنها إنسانية . ولكن شيلر أثناء الجدال كان متزمتا قاطعا وجافا ، فى حين أن فلسفة راسل كان المفروض فيها أنها باردة ومنطقية . ولكن راسل أثناء الجدال كان يشيع بالدفء والإنسانية .

وانتهى راسل باتخاذ موقف من أكسفورد ينهض على الاحتقار المرح الذى يميز أحيانا أهل كامبردج . وفى حالة راسل نراه يؤكد الأسلوب الذى اعتادته أكسفورد فى إهمال دراسة العلوم . وهو يذكر فى مزاح كيف انه قيل له بنوع من الفخر ، عند زيارته أكسفورد لأول مرة ، أن جامعة أكسفورد أصبحت تضم الآن قسما للعلوم يتكون من محاضر واحد معه فانوس سحرى وشرائح زجاجية توضح صور مشاهير العلماء . كما كانت من عادته أن يقول إن روجر بيكون قام بتجربة ذات مرة ، فزج به فى السجن مدة أربعة عشر عاما . ومنذ ذلك الوقت لم يقم أحد بأية تجربة أخرى فى أكسفورد .

ويقول راسل أن الرجل الوحيد الذى وجده فى أكسفورد قادرا على فهم المنطق الرياضى هو ج . ح . بيرى (الذى ورد ذكره فى « مبادىء الرياضيات ») ، وهو كاتب

مغمور فى بوديان لم يكن له أى نصيب من التقدير الأكاديمى فى الجامعة . وراق بيرى فى عين راسل عندما عرفه بنفسه حاملا إليه لغزا منطقيا مكتوبا فى نظام ونظافة . وطرق هذا الرجل باب راسل وسلمه (فرخا) من الورق كتب عليه « أن البيان الموجود على الصفحة الأخرى زائف » . وعندئذ قلب راسل الصفحة فوجد مكتوبا على الصفحة المقابلة « أن البيان الموجود على الصفحة الأخرى زائف » .

وكان أحد عدادات الغاز فى ذلك الوقت التى تشوه منظر أكسفورد من ناحية الجنوب ، مصدرا للشكوى . ولكن راسل دافع عنه على أساس « انه الشىء الوحيد فى أكسفورد الذى يقصد به إعطاء النور » .

وكانت دعابته أثناء الجدال تضفى أيضاً حياة على اجتماعات الجمعية الارستطاليسية فى لندن . فعندما هاجم راسل كانط بعنفه المعتاد ذات مرة قال شخص سليم الطوية استمرارا للهجوم الذى شنه راسل : « لقد كان كانط بارا بأمه . وعندما يطوى النسيان فلسفته ، سيذكر التاريخ ذلك » . فاجابه راسل على الفور : « إننى لا أستطيع أن أقبل الافتراض الهازل بأن بر المرأ بأمه يزيد فى ندرته عن القدرة الفلسفة العظيمة كالتى يملكها كانط » .

وفى خلال فترة رئاسته للجمعية الارستطاليسية حلق راسل شاربه الذى كان فى لون الموستاردة ، والذى كان أحد معالمه المميزة لصوره الفوتوغرافية المبكرة ، وكان التغير الذى طرأ على مظهره عظيما إلى الحد الذى جعل الناس جميعا لا يتعرفون عليه فى بادىء الأمر أثناء اجتماع الجمعية التالى . وذكر راسل أنه اكتشف لأول مرة عندما أزال شاربه بالمقص والموس أن له فما ساخرا وأن هذا الاكتشاف قد غير شخصيته تماما . وإنى أشعر أنه من الجائز أن هذا القول لا يعدو أن يكون إحدى ملحوظات راسل الهازلة المتفكهة .

ويقال إن إزالة شاربه ترجع إلى رغبة الليدى أوتولين موريل الذى ذاع فيما بعد صيت بيتها الريفى فى جارسنجتون الواقع على مبعدة بضعة أميال فقط من أكسفورد . ومن المحتمل ألا ينساها الناس بسبب صداقتها الوطيدة براسل أساسا . ولكنها كانت فى حد

ذاتها امرأة متميزة يجب أن يرد ذكرها فى أى سجل يؤرخ لهذه الفترة . فضلا عن أنها سيدة فى مثل أرستقراطية راسل . فهى أخت دوق بورتلاند غير الشقيقة . كانت قامتها الطويلة تربو على ستة أقدام يكسو رأسها شعر أسمر ينبض بالحياة ، وكانت تجد لذة فى ارتداء الثياب الصارخة وتلفت الأنظار إليها حيثما حلت . وبعد أن قابلها سانتيانا وصفها بأنها « مخلوق مدهش قامتها طويلة للغاية ، ونحيفة للغاية تصنع حاشية ردائها من الحرير الأزرق » .

وذاعت سمعتها فى الولع بارتداء الثياب ، والسلوك المخالفين للعرف السائد حتى بلغت أبعادا أسطورية بسبب ما نشر من قصص مستفيضة حولها لم يكن لها سند من الصحة فى أغلب الأحيان . ولكنها كانت سيدة واسعة الاطلاع ، تولى الفنون تقديرها . كما كانت عبقريتها الحقيقية تكمن فى اكتشاف المواهب وتشجيعها ، تستضيف فى بيتها أكثر الناس تنوعا واختلافا وأكثرهم إثارة للتفكير وأبعثهم على الاهتمام . وهو دور تفوقت فى آدائه فى بيتها فى جارسنجتون خلال الحرب العالمية الأولى كما سنرى فيما بعد .

ووقعت حادثة لراسل خلال الفترة التى كان يعيش فيها على مقربة من أكسفورد . وهذه الحادثة تميز شخصيته إلى الحد الذى لا يمكن تغافلها . فقد كان عامل زراعى فقير – زاد إدمان الشراب حالته سوءا – يمر بجوار منزل رجل منفر يعيش فى المنطقة المجاورة له . وكتب هذا العامل الفقير على سور البيت عبارة تتضمن قذفا فى صاحبه . وقدم العامل للمحاكمة وحكم عليه بالحبس إذا لم يدفع الغرامة الموقعة عليه . ولم يكن الرجل يملك المال اللازم لدفع هذه الغرامة كما كان معنى الزج به فى السجن فقدان وظيفته ، والتحاق زوجته الحامل بأحد الملاجىء . واكتشف راسل كل هذه الأمور ودافع عن هذا العامل فى الوقت الذى تخلى فيه جميع الناس عنه . وقابل راسل المدعى وهو خارج لتوه من الكنيسة فى يوم الأحد وناشده أن يفرج عن العامل . فرفض الرجل قائلا بلغة أهل الفضيلة إنه يجب إنزال العقاب بالمذنبين ، الأمر الذى اسخط راسل سخطا عنيفا على هذا الضرب من الادعاء المسيحى بالشفقة وجعله يدفع بنفسه الغرامة الموقعة على العامل .

الفصل التاسع

كامبردج وهارفارد

فى أكتوبر من عام ١٩١٠ عاد راسل إلى كلية ترينيتى كمحاضر فى المنطق ومبادىء الرياضيات (بمكافأة قدرها مائتان وعشرة جنيهات فى السنة) . وكانت الفصول التى يدرها ضئيلة فى عدد طلبتها ، ولكنها تميزت بالتفوق . ولم يتجاوز عدد الذين تلقوا دورة محاضراته فى المنطق الرياضى على ثلاثة طلبة فقط هم س . د . برود الفيلسوف ، و أ . هـ . نيفيل عالم الرياضة و هـ . ت . ج . نورتون الذى سبق ج . ب . س . هولدين فى أبحاثه عن تطبيق الرياضيات على مشكلة الوراثة . وتمكن راسل بسبب قلة عدد تلاميذه من أن يتباهى بقوله : « أن مائة فى المائة من تلاميذى يحصلون على منح دراسية » .

وكان ج . م . كينز يحاضر أيضاً فى كامبردج فى ذلك الوقت . وترك هوايتهد كامبردج فى نفس العام الذى عاد فيه راسل إليها . ولكن ج . أ . مور عاد إليها كمحاضر فى العام التالى . وبوصول لودويج فيتجنشتين اكتملت جماعة فلاسفة كامبردج التى قدر لها أن تسود الفكر الفلسفى لعدة أعوام قادمة .

كان فيتجنشتين شابا نمساويا غنيا التحق بجامعة مانشستر كطالب أبحاث فى الهندسة ، فتنه علم الطيران الجديد الملىء بالمغامرة . وأجرى تجاربه على طائرات مصنوعة من الورق . ثم قرر أنه من العبث أن يقوم بتصميم طائرة دون أن يصمم أولا محركا لها . الأمر الذى انتهى به بعد ذلك إلى التفكير فى تصميم محرك . ولكن ذلك اقتضى منه الوصول إلى الصيغة الرياضية االصحيحة . وفى أثناء بحثه عن هذه الصيغة ، استهوته الرياضة إلى الحد الذى جعله ينسى كل شىء عن المحرك . وسأل فيتجنشتين عن رجل ملم بمبادىء الرياضة حتى يستطيع الرجوع إليه ، فاقترح عليه المحيطون به اسم راسل . وهكذا ذهب فيتجنشتين إلى كامبردج لحضور محاضرات راسل وتلقى العلم على يديه .

وفى السنوات التى أعقبت ذلك ، وصف س . د . برود شخصية فيتجنشتين ، فقال : « إنه عبقرى له – لأول وهلة – كل مظاهر دجال » . وكان راسل فى بادىء الأمر يشك فى أن فيتجنشتين لا يعدو أن يكون مهووساً . ومما يدل على ذلك مثلا أن فيتجنشتين عنّ له ذات يوم أن يعبر عن نظرية غريبة مفادها أن كل القضايا التى تؤكد أو تنكر الوجود لا معنى لها . فطرح عليه راسل قضية فحواها : « ليس هناك فرس بحر فى هذه الحجرة فى الوقت الراهن » . ثم شرع يبحث تحت كل الادراج فى قاعة المحاضرات دون أن يعثر على أثر له . ولكن هذا لم يفلح فى إقناع فيتجنشتين .

وحضر فيتجنشتين كذلك المحاضرات التى كان مور يلقيها . وسأل راسل زميله مور عن رأيه فى فيتجنشتين ، فأجاب مور بأنه يكن له الاحترام الشديد . وعندما سأل راسل عن السبب ، رد عليه مور بإجابته التقليدية : « لانه الشخص الوحيد الذى تظهر عليه دلائل الحيرة أثناء محاضراتى » ... وقد كان من عادة فيتجنشتين أن « يقطب جبينه » تقطيبا ينم عن استغراقه فى التفكير وعلى اختلافه فى الرأى فى أغلب الأحيان .

وفى نهاية الفصل الدراسى الأول فى كامبردج ، طلب فيتجنشتين من راسل أن يصارحه برأيه فيه ، فيقول له إذا كان مصابا بالبلاهة التامة ، لأنه قرر أن يهجر الفلسفة إذا كان الأمر كذلك ، ويقفل راجعا إلى دراسة الطيران . وطلب إليه راسل أن يكتب مقالا فى موضوع فلسفى . وبعد أن قرأ راسل أول جملة فى هذا المقال ، أكد لفيتجنشتين ضرورة استمراره فى دراسة الفلسفة .

ولا تترك رسائل فيتجنشتين أدنى شك فى فضل راسل عليه وتشجيعه له . وكان من عادة مور (الذى يقطن فى كلية ترينيتى فى الجانب الآخر من نيفلز كورت) أن يتطلع إلى حجرة راسل المقابلة ليشاهد ضوءا وحيدا يشتعل فيها وسط الظلمة التى تحيط بها ، فيدرك أن فيتجنشتين فى حجرة راسل يتناقش هناك معه فى المنطق .

وكان فيتجنشتين فى بعض الأحيان لا يفعل شيئا أكثر من أن يذرع غرفة راسل جيئة وذهابا فى صمت . وطبقاً لرواية راسل فيما بعد ، كان أول ما يتفوه به فيتجنشتين عند زيارته له أنه يعتزم الانتحار حين يغادر غرفته ، الأمر الذى كان يسبب لراسل شيئا من

الحرج عند محاولته التخلص من ضيفه ليأوى إلى فراشه . وإذا أخذنا فى الاعتبار ما عرف عن راسل من حب للمبالغة ، فإنى أظن أن هذا قد حدث مرة واحدة على أقل تقدير .

وفى بعض الأحيان كانت جدية فيتجنشتين التيوتونية تجعل من العسير عليه أن يفهم راسل ومور . فقد اجتمع ثلاثتهم ذات مرة لتناول القهوة وتبادل الأحاديث . وفجأة التفت راسل إلى مور وقال له : « أنت لا تحبنى يا مور . أليس كذلك ؟ » وفكر مور مليا ثم أجاب : « نعم ، إننى لا أحبك » .

وظل الاثنان يتبادلان الحديث فى أمور شتى . واستبدت الحيرة بفيتجنشتين كما استبد به الانزعاج ، متعجبا كيف يمكن لمور وراسل ، بالرغم من هذا ، أن يحرصا على الالتقاء وأن يجدا متعة فى صحبة أحدهما للآخر . وتمثل تلك الحادثة الصغيرة أصدق تمثيل ما تميزت به شخصيات هؤلاء الرجال الثلاثة .

وكان هناك فى ذلك الوقت حزب كنسى قوى يضم جانبا من أعضاء هيئة التدريس فى ترينيتى . وبدا أن راسل يتلذذ فى مثل شقاوة الصبية بإستثارة هذا الحزب المتدين ومضايقته عن عمد . والتقط راسل فى إحدى المناسبات أثناء وجوده فى حجرة المدرسين ورقة أسئلة تحتوى على عشرة أسئلة ، كتبت فى أسفلها الملحوظة المعتادة أنه يجب على الطالب أن يجيب عن ستة أسئلة منها فقط . فعلق راسل على ذلك بقوله : « نعم . أن ورقة الأسئلة تشبه الوصايا العشر تماما ، من حيث أنه لا ينتظر من الانسان تنفيذ ما يزيد عن ست وصايا منها » .

والانطباع الذى يتركه ما كتبه كينز بعنوان « مذكرتان » بشأن الجو السائد فى كامبردج قبل نشوب الحرب العالمية الأولى هو أن شخصية ج . أ . مور كانت الوحيدة البارزة فيه ، فى حين أن اسم راسل يكاد ألا يذكر سوى على سبيل النقد . وليس هناك أدنى شك ، فى مدى نفوذ مور الهائل فى كامبردج قبل وبعد عودته للتدريس فيها . ولكن من الجائز أن كينز يعطينا انطباعا خاطئا عن راسل يعكس آراء جماعة فى كلية كنجز كان هو زعيما لها ، وأطلق أهل كامبردج الآخرون على هذه الجماعة – على سبيل النقد – اسم « الجماليون » . وقد كان بعض أعضاء هذه الجماعة مكروها لسبب معين .

وهناك ، على أية حال ، دليل عن أن مور كان الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقف على قدم المساواة مع راسل فى الجدال ، باصراره على التساؤل : « هل تعنى ذلك حقا ؟ » وبأسلوبه الذى لا سبيل للإجابة عنه فى هز رأسه بأسى للتعبير عن ملامته وعدم تصديقه . ويرى بعض الذين استمعوا إلى جدالهما فى خلال هذه الفترة أن مور كان يعنى بالبحث عن الحقيقة وحدها ، فى حين أن راسل كان يحب أن يسجل نقاطا تدل على ما يحرزه من انتصارات فى المناظرة . وإنى أرى كذلك أن العيب يكمن فى نزعة راسل التى لا ترعوى إلى النكتة ، تلك النزعة التى جعلته دائما يقول أشياء تهدف إلى إدخال التسلية وإثارة الدهشة وفتح أبواب للجدل ، دون أن ترى مطلقا إلى أن يفهمها الناس فهما حرفيا . ويكفينى مثلا على ذلك أن أشير إلى ملحوظة اقتطفها البعض فعلا وساقها إلى كدليل على عدم إخلاصه ، قال راسل : إن معتقداتى الخاصة بسيطة للغاية فى حقيقة الأمر . ولكنى لا أطرحها أمام الناس ، لانها لا تعطينى فرصة لممارسة قدرتى على التفكه والتنكيت » .

وهذه الملحوظة ، بطبيعة الحال ، تشبه ملحوظة أخرى له ، يقول فيها أنه لو عقد إمتحان مكتوب فى يوم الحشر ، فانه لا يضمن نجاحه فيه . ولكنه يضمن نجاحه إذا كان هذا الامتحان شفويا .

يقول دكتور جونسون إن الطبيعة البشرية تنزع بوجه عام إلى لفت أنظار الناس إليها . ويتعين على كل رجل حكيم أن يبرأ من هذه النزعة ، بل أن يبرأ منها بكل تأكيد . ولست أعتقد أن راسل قد برأ منها أبدا . ولكن ليس فى ذلك ما يدعو أى انسان قيض له أن يستمتع بأحاديثه إلى الأسف .

ويبدو أن شيئا من العداء الكامن المتبادل كان يشوب علاقة كينز وراسل . وذهب كينز إلى أن راسل تردى فى خطأ (تورط فيه كينز نفسه دون شك) حين ظن أن الناس العاديين يتسمون بقدر زائد من العقلانية . وكان راسل ، من الناحية الأخرى ، يجد فى شخصية كينز مسحة ميكيافيلية ، ترجع إلى ما تميز به هذا الرجل من ذكاء جعله يكن قدرا من الاحتقار للناس العاديين . ويرى راسل أن كينز يملك « أمضى وأوضح » عقل قيض له أن يلتقى به . « فقد كانت محاجاته المدمرة التى تفنى ما تقابله فى طريقها من

اعتراضات تنطلق منه بنفس السرعة التى ينطلق بها لسان الأفعى . وفى كل مرة تجادلت معه فيها ، كنت أضطرب أشد الاضطراب وأحس أننى أحمل حياتى بين كفتى . ومن النادر أنى خرجت من المناقشة معه دون أن أشعر بشىء من غفلتى وغباوتى » . ولا تتفق هذه الفكرة ، على أية حال ، مع انطباع ليونارد وولف الذى يشهد بتفوق راسل على كينز فى سرعته فى تسجيل النقاط أثناء النقاش المحتدم بينهما .

وهناك حادثة تستحق الذكر هنا ، وهى المحاضرة الشهيرة عن برجسون التى ألقاها راسل فى جمعية كامبردج المعروفة باسم « المهرطقون » . كانت فلسفة برجسون المتصوفة فى التطور تتمتع حينذاك بالذيوع الهائل . وآلى راسل على نفسه أن يحطم هذه الفلسفة . وكان المستمعون يتوقون إلى سماعه . وغمر كل الحضور إحساس بأهمية تلك المناسبة . ويمكننا أن نجد نص هذه المحاضرة مطبوعا فى كتاب راسل « تاريخ الفلسفة الغربية » . ويتعين على القارىء إذا شاء الاستمتاع بنكهة هذه المحاضرة ، أن يتصور راسل وهو يلقيها بصوته الجاف المحدد الساخر ، وقد تخللها الضحك والتصفيق اللذان استقبل به المستمعون نكاته . وكان لهذه الحادثة شىء من الأهمية فى حياة راسل إذ أنها ساعدته فى أن تجعل منه للمرة الثانية واحدا من الشخصيات الرائدة فى كامبردج ، وخاصة لانها كانت أول نجاح كبير أحرزه كمتحدث فى المحافل العامة .

ونحن نجد آراء راسل الفلسفية فى هذه الفترة مشروحة بوضوح عجيب فى كتابه « مشاكل الفلسفة » الذى كتبه بناء على اقتراح من جلبرت مرى ، ونشرته دار « هوم ينيفرستى ليبرارى » . وكان ذلك الكتاب هاما فى حد ذاته ، يظل حتى الآن وفى كل مكان أفضل مدخل إلى هذا الموضوع . وبالرغم من هذا ، فإنه أمر يبعث فى القارىء المبتدىء شيئا من خيبة الأمل عندما يفرغ من قراءته ويبتهج لقدرته على استيعاب كل ما جاء به ، ليكتشف أن راسل قد غير رأيه تماما فيما بعد بشأن عدد كبير من النقاط الواردة فيه . ولا يتوفر بين أيدينا تلخيص موجز مماثل لما طرأ على أفكاره من تغيرات لاحقة . إذ أنه كلما تقدمت أفكاره ازدادت الفروق فى وجهات نظره دقة ، كما ازدادت التغيرات التى طرأت عليها تعقيدا . ولا يستطيع المرء تلخيص فلسفته باقران اسمه بمذهب فلسفى معين كما هو الحال أحيانا مع ديكارت وباركلى مثلا .

ومن المعتاد أن نجد فيلسوفا عظيما يتخذ لنفسه موقفا يثير الاهتمام أو التحدى – فى أيام شبابه النسبى غالبا – بحيث يصبح هذا الموقف مقترنا باسمه وسببا فى ذيوع صيته . ثم يدفعه الغرور الإنسانى العادى إلى الاستمساك بما اتخذه من موقف طيلة حياته دون أن يجرى عليه أية تعديلات سوى تلك التى يجريها وهو كاره فى أضيق الحدود . ولم يكن راسل ، شأنه فى ذلك شأن كل البشر ، مجردا من الضعف الإنسانى . فقد ذهب فى خواطره ذات مرة إلى أن كل نشاط غير عادى يرجع إلى درجة غير عادية من الغرور والخيلاء . ولكنه كان – على غير العادة – معصوما من الغرور الذى يدفع معظم الفلاسفة إلى التقيد بفلسفاتهم . فهو على استعداد لأن يضع نظرية جديدة يفخر بنسبتها إليه ، ثم لا يلبث أن ينبذها بعد مضى عام أو ما ينيف . كما أنه على استعداد لتمزيق مبادئه وتغييرها بنفس الضراوة التى يقوم بها معظم الفلاسفة الآخرين على تمزيق المبادىء التى يدعو إليها منافسوهم .

ويرجع هذا إلى رغبته المتأججة العارمة فى الوصول إلى الحقيقة . وقد يكون هناك ، مرة أخرى ، تفسير فرعى لهذا النهج يسهل فهمه من الناحية الإنسانية . فقد استطاع راسل أن يحقق لنفسه الخلود قبل أن يبلغ منتصف عمره الفكرى ، وأصبح يحتل مكانة أكيدة بوصفه مفكرا أدخل أعظم التطورات فى علم المنطق منذ عهد الاغريق . ولهذا ، فإنه عندما أولى الفلسفة العامة إهتمامه ، لم يكن هناك ما يدعوه عن وعى أو غير وعى إلى خلق مذهب فلسفى يتميز به ، وأن يدعم هذا المذهب ويحصنه فى وجه كل الهجمات . ويعطينا ولعه بالنكات الثاقبة المستثيرة انطباعا زائفا بتزمته المتحرش . ولكن الدراسة المتعمقة تبين لنا تحفظاته الحريصة وتوصيفاته الدائمة ، كما تبين أنه يرى فى أى وقت المحاجات التى تعارض وجهة نظره بجلاء لا يقل عن الجلاء الذى يراها به فاقدوه ، مبديا استعداده لإعادة النظر فى أية أفكار جديدة مهما كان مصدرها .

وبالرغم من كل ما طرأ على موقفه من تغير ، فإن المنهج الذى كان يتبعه يتصف بالانسجام دائما ، وهو منهج معروف بـ « نصل أوكام » ، الذى يقوم على مبدأ يتلخص فى أنه لا ينبغى مضاعفة الأشياء إذا لم يكن هناك ما يدعو لذلك . (ويقول أوكام فى هذا

الشـأن : « من العبث أن نستـخـدم الأكثـر إذا كـان استـخـدام الأقل يكفى ») . ويرجع استـعـمـال راسل لـ « نصل أوكـام » إلى عـمله فى الفلسـفـة الرياضـيـة ونظرية التـعـريف بالرسم . فمثلا ، هـل يوجد شيء اسمه العدد (٢) ؟ كان راسل فى بادئ الأمر يعتقد أنه له وجود مثل وجود الفكرة الأفلاطونية فى السماء . ولكنه فيما بعد التصق بالواقع بعد أن قام بتعريفه المشـهور للإعداد كأصناف الأصناف ، وأعلن أن العدد (٢) هو ببساطة صنف كل الازواج ، وانه ليس هـناك عـدد (٢) تصوفى يقتـرن بكل زوج من الأزواج . وشـبـيـهـا بذلك ، فـإن طول ٢ قـدم هـو ببـسـاطة صنف جـمـيع الأشـيـاء التى طولهـا ٢ قدم ، ولسنا بحاجة إلى أن نتخيل مقياسا للقدم موجودا فى السماء ينطبق على كل هذه الأشياء .

ولهـذه النقطة بعض الأهمـيـة بالنسـبـة للدين ترجـع إلى تداخل الأفـلاطونيـة فى صلب اللاهوت المسـيـحى . فهناك صلة تجمع بين الإيمان بالاعـداد السـرمدية والايمان بمقيـاس للقدم موجود فى السماء والايمان بالحياة الأخرى .

لقد أوضح راسل فى نظرية التعريف بالرسم أن جـملة تحـتوى على شبه الجملة مثل « الجبل الذهـبى » يمكن أن يكون لها معنى دون أن تصدق شبه العبارة هذه على الواقع . وأطلق راسل على مثل شبه الجمل هذه « الرموز الناقصـة » وبعد أن قام راسل بتعريف الاعداد بأنها أصناف الأصناف ، قرر أن الرموز التى تمثل الاعداد والأصناف هى « رموز ناقصة » بنفس الطريقة . وبعدئذ استبعد راسل ، متأثرا فى ذلك بهوايتهد ، النقط ولحظات الزمن الخ ...

ويقترن منهج التحليل بـ « نصل أوكـام » . وبطريقة فجة ، يمكننا القول بأن التكنيك الذى يتبـعـه راسل كفيلسـوف فـيمـا يتعلق بالكون يتلخص فى استـبعـاد كل شـىء يمكن الاستغناء عنه ، ثم يقوم بتمزيق ما تبقى إلى قطع صغيرة بقدر الامكان حتى يرى بالضبط مـا يبقى فى نهاية الأمر ، ومـا توصل إليه فى النهاية هو « معطيات الحـواس » ... أدركنا بالحـواس لبقـع الألـوان المختلفة فى اتجـاهــات مـختلفة الخ ... وأطلـق راسـل عليهـا اسم « معطيات الحواس الصلبة » (*) وهى أكثر المعارف التى تقوم على المشاهدة والتجربة يقينا .

(*) Hard data

والمشكلة هى كيف نصل إلى وجود العامل الطبيعى بعد أن نبدأ بمثل معطيات الحواس هذه التى تقوم على المشاهدة والتجربة .

وعلى سبيل الايضاح المحدد ، دعنا ننظر إلى منضدة . فالفلاسفة يجدون دائما – لسبب ما – متعة فى الحديث عن المناضد ، وقد تحدث راسل عن المناضد فى كل من « مشاكل الفلسفة » وكتابه التالى « معرفتنا بالعالم الخارجى » ويوضح لنا التناقض فيما ذكره بشأن المناضد فى كل من هذين الكتابين ما طرء على أفكاره من تغير توضيحا دقيقا .

ففى كتابه « مشاكل الفلسفة » ، لم يخالجه شك ، بعد نقاش طويل ، فى أن أصحاب الفلسفة المثالية يجانبهم الصواب ، وأن المنضدة التى كان يكتب عليه لها وجود فى الواقع . اما فى « معرفتنا بالعالم الخارجى » ، فنحن نجد انه يستخدم أحد استعمالاته لـ « نصل أوكام » المذهلة للغاية . فهو يسأل : ماذا نعرف عن المنضدة فى حقيقة الأمر ؟ انها تقدم لنا بعض الظواهر المعينة عند النظر إليها ، كما انها تصدر أصواتا معينة عند النقر عليها ، وتعطينا ملمسا معينا عندما نضع أصابعنا عليها . فلماذا نفترض اذن وجود منضدة ميتافيزيقية مكونة من « مادة » تقبع وراء هذه الظواهر ؟ وهكذا وصل راسل إلى رأى ينطوى فى مظهره على المفارقة ، مفادة أن « كل جوانب أى شىء حقيقية ، فى حين أن الشىء نفسه لا يعدو أن يكون بناء منطقيا (*) » .

وسرعان ما وجد راسل صعوبات فى الوصول إلى المنضدة كـ « بناء منطقى » يستند إلى « معطيات الحواس الصلبة » وحدها وتعين عليه أن يضيف المزيد من المعرفة غير اليقينية – وهو ما أطلق عليه اسم « معطيات الحواس الناعمة (**) » وفضلا عن معطيات الحواس أضطر راسل إلى الاعتراف بما يمكن تسميته بـ « معطيات الحواس غير المحسوسة (***) » ، أو ظواهر المنضدة من مكان حيث لا يوجد فيه من ينظر إليها . واننى لن استرسل فى هذا المقام فى الكتابة عن برنامجه فى البناء المنطقى ، نظرا لشدة

Logical construction (*)

Soft data (**)

Sensibilia (***)

تخصصه . وأظن أنه يثير اهتمام القارىء العادى فقط عندما نتبين انه يفضى - كما سنرى فيما بعد - إلى « الواحدية المحايدة » ، أو الاعتقاد بأنه ليس هناك فرق جوهرى بين العقل والمادة .

ولكنى سأذكر فى نفس الوقت نقطتين فقط بصدد برنامجه فى البناء المنطقى . ولنبدأ أولا بالدافع الرئيسى الكامن وراءه . أراد راسل أن يستبعد أية حاجة إلى الاستدلال غير الأكيد المستمد من الظواهر على الأشياء الفيزيقية ، وذلك بتعريف الأشياء الفيزيقية عن طريق ظواهرها ، بنفس الأسلوب الذى اتبعه فى تعريف العدد (٢) بأنه « صنف الازواج » . وبهذا تمكن راسل من وصف علم الفيزياء بلغة الأشياء التى نعرفها ، بدلا من الحديث عن أشياء لا نعرفها ، ولكن هناك صعوبة جلية واحدة فيتعريف المنضدة بأنها صنف ظواهرها . فالصنف يعنى مجموعة . ونحن نسأل بطبيعة الحال عن السبب الذى يجعل « معطيات الحواس » تجتمع لتشكل منضدة على هذا النحو . وسأذكر فيما بعد المزيد بهذا الصدد .

وقد يظن القارىء فى بادىء الأمر أن استخدام راسل « نصل أوكام » وأن برنامجه فى « البناء المنطقى » ، نموذجان يمثلان الجانب الفنى من الفلسفة الذى لا يثير اهتمام أحد غير الفلاسفة المتخصصين . وقد اعترف راسل ذات مرة بأنه استمد أحد دوافعه الثانوية من مجرد المتعة التى يجدها فى المهارة الفنية التى يتطلبها تشييد صرح كبير على أساس غاية فى الضآلة . وهى متعة وصفها راسل بأنها لذة « صنع فطائر فلسفية من الطين » . ولكن استخدام « نصل أوكام » يقودنا فى الواقع إلى ما قد يكون أكثر ممالك الفكر سحرا وفتنة ، حيث يتداخل العلم مع الفلسفة وحيث يستطيع كل منهما أن يدفع الآخر قدما إلى الأمام . والعلم الحديث يتبع منهج راسل فى استبعاد كل ما يمكن استبعاده . فقد تخلصت نظرية النسبية مثلا من فكرة « الاثير » السائدة فى القرن التاسع عشر ، كما أنها تخلصت من فكرة الزمان والمكان المطلقين . وفيما بعد ، نبذت النظرية الذرية شكل الذرة الخيالى على أنها صورة مصغرة للنظام الشمسى ، وذهبت إلى أننا لا نعرف شيئا عن الذرة اللهم إلا حين تنبعث منها طاقة يمكن ملاحظتها .

كتب راسل « معرفتنا بالعالم الخارجي » بهدف إلقائه كمحاضرات لوويل فى جامعة هارفارد عام ١٩١٤ . ولكنه قام بالقاء هذه المحاضرات فى كامبردج أولا فى بداية ذلك العام كنوع من التجربة التمهيدية . وكان س . ك . أوجدن الذى اشتهر باختراعه « أساسيات اللغة الانجليزية » محررا لمجلة كامبردج حينذاك . ورأى أوجدن أن الناس كانوا على علم بمحاضرات راسل سلفا . ونجم عن ذلك أن ستين أو سبعين شخصا جاءوا لحضورها ، الأمر الذى دعا إلى فتح الباب ذى الضلفتين الذى يفصل بين الحجرة وقاعة المحاضرات ، حتى يمكن استقبال جمهرة الحاضرين . وكان راسل الذى اعتاد أن يلقى محاضراته الجامعية فى حجرات دراسية صغيرة لا يزال خجولا ولا يثق بنفسه كمتحدث – إلى الحد الذى جعله بادي التردد يكاد أن ينكص على عقبيه عندما وصل وشاهد حجم الحضور الكبير . ومما يذكر عن هذه المناسبة أنه تصادف وجود أوجدن خلفه مباشرة . وبدا كما لو كان أوجدن يدفع به دفعا إلى داخل قاعة المحاضرات .

وعندما أخذ راسل يلقى محاضرته ، ورأى ما قوبلت به دعاباته من ترحاب ، بدأ يطمئن تدريجيا . وأصابت محاضرته نفس النجاح الذى أصابته فيما بعد فى جامعة هارفارد .

ومن الطريق أن نتوقف قليلا فى هذا المقام كى نذكر شيئا عن زيارته لأمريكا التى سبقت مباشرة سنوات الحرب العالمية الأولى المأساوية . ومن الطريف كذلك أن نسجل هنا أن راسل امتدح الأمريكان (فى ذلك الوقت على أية حال) لما أظهروه من استعداد لتقبل الأفكار الجديدة . وقال راسل فى هذا الصدد : « إن من حاول أن يقدم فلسفة جديدة إلى جامعة أكسفورد أو السوربون أو جامعات أمريكا تعتريه الدهشة لما يبديه الأمريكان من استعداد يفوق استعداد الانجليز والفرنسيين للتفكير فى إطار غير مألوف » .

وإلى جانب محاضرات لوويل ألقى راسل سلسلة من المحاضرات فى « المنطق الرمزى » . ودعا طلبته فى تناول الشاى معه وتبادل الآراء بعيدا عن الكلفة . وكتب راسل حينذاك من هارفارد يقول إن طلبته الأمريكان ليس بينهم من يثير الاهتمام أو يملك المقدرة باستثناء طالبين أحدهما يونانى اسمه رافائيل ديموس ، الذى أصبح أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد وثانيهما ت . س . اليوت .

وكتب إليوت وصفه الخاص براسل فى قصيدته المسماة « مستر أبوليناكس » . وذكر اليوت عندما تقدم به العمر أنه وجد قدرا كبيراً من اللهو الممتع فى دراسة المنطق الرمزى تحت إشراف راسل . كما قال : « بدا لى أن هذه الدراسة ليست لها أية علاقة بالواقع . ولكن معالجة تلك الرموز الصغيرة العجيبة أعطتنى إحساسا باللذة والقوة معا » . ويذكر إليوت كذلك أن راسل نفسه كان « ممتعا للغاية » كمدرس للفلسفة نظرا « لخلو شخصيته من الرغبة فى مظاهر الفخامة ولسهولة الاتصال به » . وكان معظم أساتذة الفلسفة الأمريكان حينذاك ينتهجون نهج أقرانهم من الألمان الذين تعودوا على الابتعاد كلما كان لهذا الابتعاد سبيل رغبة منهم فى الظهور بمظهر العميق .

وبعد أن عاد راسل إلى انجلترا ، ترك ت . س . إليوت أمريكا ليستقر فى الأراضى الانجليزية . وذات يوم خرج راسل من بيته لشراء لبن يشربه مع الشاى ، فالتقى بأليوت مصادفة فى الشارع على مقربة من المتحف البريطانى . ورجع الاثنان معا إلى شقة راسل الواقعة فى شارع بيورى . وعندما تزوج إليوت استضافه راسل مع زوجته فى بيته نظرا لضيق مواردهما . وقام راسل بتقديم اليوت إلى سيدنى واترلو الذى كان مندوبا عن مجلة « مونيست » ومجلة فلسفية أمريكية أخرى فى بريطانيا ، مما أتاح لاليوت فرصة العلم فى عرض الكتب الفلسفية . واستأجر راسل فيما بعد كوخا فى مارلو حتى يوفره كسكن لعائلة اليوت .

وكان إليوت أحيانا يقرأ قصائده لراسل بصوت مرتفع . والحق يقال إن راسل كان واحداً من أول الذين اكتشفوا جودتها . ومن الجائز أن تكون الأحاديث التى تبادلها راسل واليوت قد أوحت إلى اليوت ببعض الأفكار التى ضمنها أشعاره . والذى لا شك فيه أن هناك أوجه شبه بينها وبين كتابات راسل . وعندما نشر راسل « التصوف والمنطق » فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، صرح بأن عرض اليوت له فى مجلة « ذى نيشن » هو العرض الوحيد الذى يدل على التفهم .

الفصل العاشر
الحرب العالمية الأولى

كتب كينز فى مذكراته يصف الحالة الفكرية السائدة فى كامبردج قبل نشوب الحرب العالمية الأولى يقول : « كان « برتى » بصفة خاصة صاحب رأيين متناقضين بصورة مضحكة . فقد كان من رأيه أن شئون الإنسان تجرى ، فى واقع الأمر ، على نهج غير عاقل إلى أبعد الحدود ، فى حين أن علاج هذا هين يسير للغاية ، طالما أنه يسير بها على هدى من العقل » .

ولست على يقين من أن هذه الصورة تمثل أسلوب راسل فى الحديث تمثيلا صادقا . ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك . ولكن ما من شك فى أن النقد الذى يوجهه كينز يثير الدهشة ، نظرا لأن راسل تبين ، على أقل تقدير ، منذ اللحظة التى اندلعت فيها ألسنة الحرب فى أغسطس من عام ١٩١٤ أن الصواب يجانب الكثير من أفكاره السابقة ، وأن الناس ليسوا عقلانيين بقدر ما كان يعتقد ، الأمر الذى حدا به إلى تغيير أسلوب تفكيره وطريقة حياته تغييرا جذريا . ولكن الحرب لم تكن تعنى بالنسبة لكينز وبعض أصدقائه فى جماعة « البلومزبرى » ما عاناه راسل من امتحان فى الفكر والشعور . وكانت الحرب بالنسبة لكينز تعنى حصوله على منصب يثير الاهتمام فى وزارة الخزانة وإعفاءه من الخدمة العسكرية . ومن الواضح أنه كان سعيدا بالطريقة التى مكنته بها الحرب من الحصول على مركزه المرموق فى المجتمع ، وأتاحت له الفرصة لعقد صداقات بين علية القوم أمثال أسكويث عندما كان رئيسا للوزارة . وسأل راسل كينز ذات مرة كيف يمكنه الجمع بين العطف على معترضى الضمير (*) واستمراره فى العمل بوزارة الخزانة فى آن واحد (فقد كان العمل بوزارة الخزانة ، فى نظر راسل ، يتلخص فى توضيح أرخص

(*) Conscientious objectors

السبل الممكنة لقتل الألمان ، أى « تحقيق أكبر عدد من القتلى بأقل قدر من النفقات » ، فلم يحر كينز جوابا .

وبالرغم من أن الكثيرين من أصدقاء كينز المنتمين إلى جماعة البلومزبرى كانوا من « معترضى الضمير » ، فإنهم لم يصلوا فى اعتراضهم إلى الحد الذى يفضى بهم إلى السجن . وكانوا يضمنون إعفاءهم من الخدمة العسكرية عن طريق العمل فى فلاحة الأراضى . لقد كانوا يمقتون الحرب دون أن يبذلوا من جانبهم الجهد المضنى للوقوف المباشر فى وجهها أو ما تجلبه عليهم معاداتهم الصريحة للحرب من عار . ومن ثم فقد حاولوا تجاهلها وكرسوا أنفسهم للكتابة أو الرسم أو مجرد الكلام .

ويمكن - دون مجافاة للحق - تلخيص موقفهم بسرد قصة ذلك الشاب الأنيق الذى التقت به فى الطريق سيدة عجوز غاضبة فبادأته بالحديث قائلة : « ألا تحس بالخجل وأنت لا ترتدى الزى العسكرى ، فى حين أن الشبان الآخرين يحاربون ذودا عن المدنية ؟ » فكان رده : « سيدتى أنا المدنية التى يحاربون من أجلها » . ولو يكن هذا ، بكل تأكيد ، موقف راسل بالرغم أن لديه - أكثر من أى شخص آخر - مبررات كثيرة لاتخاذ مثل هذا الموقف .

وكان أول أثر تركته الحرب فى راسل أن غشيته صدمة من اليأس والهلع . وبعد انقضاء أيام قليلة على نشوب الحرب ، تناول راسل العشاء مع زوجة تشارلس سانجر فى مطعم شيب حيث لاحظا أن كل من يقابلهم - ومن بينهم ايدى مارش سكرتير تشرشل الخاص - تغمرهم الفرحة بالمعركة ويتنبأون بتحقيق نصر سريع . وبينما كان يسير بعد ذلك مع مسز سانجر على كورنيش التيمس ، قال راسل أنه لا يطيق الحرب . وتحدث عن التقاعد ورغبته فى التزام العزلة . وظلت الحرب دائما تمثل بالنسبة لراسل علامة مميزة فى طريق حياته وقال ذات مرة : « إن الحياة فى هذه الأيام هى الجحيم بعينه . كم وددت أن أموت قبل ١٩١٤ » .

وعلى أية حال ، فإنه سرعان ما تبدلت حالته النفسية من اليأس السلبى إلى التمرد الإيجابى ضد الحرب ، مما جعل منه لأول مرة شخصية معروفة . وكان من بين الاهتمامات

التى تعرض لها راسل دائما اتهامه بالتناقض لأنه عارض الحرب العالمية الأولى فى حين أنه أيد الحرب العالمية الثانية . ولكنه ليس هناك من شك على الإطلاق أن نقاده جانبهم الصواب هذه المرة . فقد كان راسل محقا فيما ذهب إليه من أن « الحرب أسوأ من أن نلقى هزيمتنا على يد القيصر ، ولكن أن يهزمنا هتلر ، فذلك أسوأ من الحرب » . إن راسل لم يقل أبدا أن الحرب تنطوى على خطأ أخلاقى تحت كافة الظروف . ومن ثم فإن معارضته لها لم تكن مسألة مبدأ .

هذه هى النقطة الأساسية فى العلاقة التى تربط بين فلسفته وكتاباته التى تعالج المشاكل الإنسانية والمدخل الضرورى لفهم هذه الكتابات . ولابد لنا أن نتذكر أن سانتيانا كان قد أقنع راسل قبيل عام ١٩١٤ أن القيم الأخلاقية ليس لها وجود موضوعى . فكلمتا « خير » و « شرير » لا تعدوان أن تكونا مجرد تعبير ذاتى عما نحب أو نكره . ويجب علينا أن نذكر أيضا أن راسل قد أكد لنا أن ما يستطيع المنطق أن يحققه محدود . وأن كل جدل عقلى إن هو إلا مسألة افتراضية ، ترى على النحو التالى : « إذا أردت أن تصل إلى نتيجة معينة ، فعليك أن تفعل كذا وكذا ... » .

ولذلك ، فإن راسل لم يكن فى استطاعته أن يدين الحرب على أساس عقلى محض أو على أساس أخلاقى بحت . وتعين عليه أن يعتمد فى نقاشه لهذا الموضوع ولكل موضوع سياسى أو اجتماعى آخر على مزيج من الدعاية العاطفية (فيما يتعلق بالغايات) وعلى الجدل العلمى والمنطقى (فيما يتعلق بالوسائل) .

ويوضح لنا هذا الخليط الغريب من العواطف المتأججة والخلو من المشاعر لماذا يسهل على الناس إساءة فهم راسل أو تفسيره . ومما زاد من إساءة فهمه أنه شخصيا لم يكن دائما يحرص بالاحتفاظ بالفرق بين هاتين الحالتين المتناقضتين واضحا ، كما أنه لم يقتصر دائما فى إبداء آرائه على تخصصه كفيلسوف . وكان دوما يتسخدم كلمتى « خير » و « شرير » فى كتاباته ، كما لو كان لهاتين الكلمتين قدر من المعنى الموضوعى . فقد قال : « إن التعليم الخاطىء يمكن أن يؤدى إلى قلب كامل للقيم لدرجة أن الخير يعتبر شرا » . وكان راسل يستخدم دائما كلمات شجعت على الاعتقاد الخاطىء بأنه عقلانى من الطراز

القديم يبالغ فى أهمية العقل . فقد كتب ، على سبيل المثال ، يقول : « إننى لا يمكن أن أشك أن العقل سينتصر ، إن آجلا أو عاجلا ، على الدوافع النفسية العمياء التى تقود الأمم الآن إلى الحروب » .

ولابد أنه كان يعنى بكلمة « العقل » شيئا شبيها بـ « ضبط النفس » أو « المصلحة الذاتية المستنيرة » لأنه كان يعنى أساسا أنه يمكن التغلب على النوازع الشريرة عن طريق تشجيع الدوافع الطيبة .

وأنه من الظلم بعض الشىء ، بطبيعة الحال ، أن نواجه فيلسوفا ببضع عبارات نستمدها من كتاباته غير المتخصصة التى تشيع بين عامة الناس لنبين أنها تتعارض مع آرائه التى أمعن فيها النظر ومحصها فى كتاباته المتخصصة . وليس هناك شك فى أن راسل سيدافع عن نفسه بقوله أنه يستخدم كلمتى « خير » و « شرير » بمعناهما الشائع كأوصاف قصيرة مناسبة يسهل على القراء فهمها ، تماما كما يستطيع عالم فى الفلك فى الأوقات التى لا يباشر فيها مهام وظيفته أن يتحدث عن « شروق الشمس » و « غروبها » دون أن يدعونا هذا إلى اتهامه بأن لا يفهم كوبرنيكس . ولكنى أظن أن موقف راسل يتضمن شيئا أكبر من هذا النوع من التناقض اللفظى . لقد كنت أشعر دائما شعورا أكيدا أن راسل لا يؤمن مطلقا ، فى قرارة نفسه ، بفلسفته الأخلاقية الرسمية التى عبر عنها فى كتاباته ، الأمر الذى أفضى إلى وجود تناقض داخلى كان يدركه أحيانا دون أن يتمكن من أن يجد له حلا على الإطلاق . وعندما احتج على سياسة قتل الشباب بالجملة ، لم يكن يعنى مجرد كراهيته الذاتية لها . وبرزت آراؤه الحقيقية بوضوح كاف فى أسلوب حديثه وكتابته ومسلكه .

وهناك ميل للاعتقاد بأن راسل عندما يؤلف كتبا تعالج موضوعات يفهمها عامة الناس فإن مستواها يقل عن مستوى مؤلفاته فى الفلسفة الرياضية . ولكن راسل نفسه يرى غير هذا فقد تضمنت الحروب السياسية والاجتماعية التى خاضها والتى اتسمت بحدة الحروب الصليبية وعنفوانها – جهدا متأجج العاطفة استغرق كل وجدانه . وقد لا تكون الصعاب الفكرية التى جابهته عند تأليف كتبه العامة هى نفس الصعوبات التى واجهته عند تأليف

كتبه المتخصصة ، ولكنه جابه عند تأليف كتبه العامة صعوبات إضافية تتمثل فى الشعور الذى يلتهب بالخيال ، كما تتمثل فى حث الناس على الاقتناع بها . ومنذ عام ١٩١٤ شعر راسل أن الحياة الأكاديمية البحتة لا تكفى لإرضائه .

وقال راسل فيما بعد : « إن أى عمل قيض لى أن أقوم به لم يستغرق على كل حواسى ، وخامرنى فيه من التردد ما لم يخامرنى فى الدعوة إلى السلام التى تحمست لها خلال الحرب . ولأول مرة فى حياتى أجد شيئا أفعله يستغرق كل كيانى » . وهكذا ألقى راسل بنفسه فى خضم الدعاية ضد الحرب متحديا تيار الرأى العام الجارف حينذاك :

« لا تساير الجموع فى فعل الشر ....

إن الإرادة القوية مرغوب فيها قبل كل شىء

حتى تصارع كل إرادة شريرة

تبغى مرضاة رفاق السوء وتعارض صيحات جموع الناس

وتدفع أمامنا نية الأمراء الطيبة كأنها قش تذروه الرياح

ولم يكن راسل مواليا لألمانيا . فكراهيته للقيصر والعسكرية البروسية ترجع إلى زيارته لبرلين عام ١٨٩٥ . وكتب يقول أنه « أبعد ما يكون عن كراهية انجلترا . فإننى أحرص على انجلترا أكثر من أى شىء آخر فيما عدا الحق » . ويقول راسل أيضا إن اللوم على اندلاع الحرب يقع على عاتق ألمانيا أكثر من الحلفاء ، وأنه كان يريد النصر للحلفاء . ولكن الحرب كانت وبالا بلغ من الضخامة بحيث أنه فضل السلام غير الحاسم على إطالة الصراع لأجل غير محدود .

بالرغم من هذا ، فقد فرق راسل بين أنواع الحروب فى مقال له بعنوان « أخلاقيات الحرب » قائلا : إن هناك بعض الحروب التى يمكن تبريرها ، فهزيمة الهنود الحمر على أيدى المستعمرين الأمريكيين تمثل « حرب استعمار » لها ما يبررها ، نظرا لأن المستوطنين الجدد كانوا يمثلون حضارة أرقى . ويستطرد راسل قائلا : « لو حكمنا بالنتائج ، فإننا

لا يمكن أن نأسف على حدوث مثل هذه الحروب » . وليس هناك شيء يدعو إلى مضايقة أنصار السلام ومناهضى الاستعمار أكثر من هذا . وتعطينا صراحة راسل وإخلاصه فى التعبير عن وجهة نظره هذه مثلا واضحا ليس على أسلوبه النفعى فى معالجة الموضوعات فحسب ، بل على موهبته فى إدخال الأمانة الفكرية على أى نقاش سياسى .

وكمثال على حرب المبادىء المشروعة أورد راسل حرب الهولنديين فى عهد شارل الثانى . وفى مناقشته لحروب « الدفاع عن النفس » التى نادرا ما تكون مشروعة كتب راسل : « أنه لا يمكننا أن ندمر ألمانيا حتى بتحقيق نصر عسكرى كامل عليها ، وبالعكس من ذلك لا يمكن لألمانيا أن تدمر انجلترا حتى لو تم إغراق أسطولنا واحتل الألمان لندن . فالحضارة الانجليزية واللغة الانجليزية والمنتجات الانجليزية ستظل قائمة . ومن ناحية السياسة العملية ، سيصبح من المستحيل تماما على الألمان أن يمارسوا طغيانهم فى انجلترا » .

ومن بين الحروب التى تشنها الدول بدعوى الحفاظ على هيبتها والتى لا يمكن تبريرها على الإطلاق ، يسوق راسل الحرب العالمية الأولى . ويقول راسل فى هذا الشأن : « عندما يتقاتل كلبان فى الشارع ، فإن أحدا لا يتصور أن هناك ما يدفعهما إلى ذلك سوى الغريزة كما أنه لا يتصور أن الغايات النبيلة السامية هى التى تحركهما . فهما يتشاجران لمجرد أن شيئا يتعلق برائحة كل منهما يستثير الآخر . وما يصدق على الكلاب فى الشارع يصدق أيضا على الأمم فى هذه الحروب » .

ويجب ألا نقرأ كل هذا دون الإشارة الواعية لنوع ألمانيا التى ظهرت أيام هتلر . وعلينا ألا ننسى أن راسل وغيره من الناس قد استبعدوا من تصوراتهم تماما أن تحاول أية دولة إبادة أو استعباد عدوهم الذى ألحقت به الهزيمة ، وهو أمر يذكرنا فى جلاء بموقف حضارى انصرم من العالم دون رجعة . وفيما بعد ، يبرر راسل دعوته إلى السلام بأن الحرب العالمية الأولى هى التى أدت إلى فظائع الحكم الشمولى وبشاعات الحرب العالمية الثانية .

وفى عام ١٩١٥ تنبأ راسل أنه بعد أن تلحق بألمانيا الهزيمة فإن « المواطن الألمانى

العادى سيعقد العزم على أن يكون أكثر استعدادا فى المرة القادمة وسيصغى بإخلاص أكبر لنصائح العسكريين » .

وبالطبع ، سرعان ما وجد راسل نفسه متضافرا مع غيره من أنصار السلام على الرغم من الاختلافات فى الرأى بينه وبين الداعين لمبادىء السلام التقليدية الراسخة . وكان د . هــ . لورانس الذى ذهب للإقامة معه فى كامبردج واحدا منهم . ويذكر لنا كينز بعد انقضاء فترة طويلة كيف أن راسل طلب إليه أن يتناول الفطور مع لورانس ، وكيف التزم لورانس الصمت كل الوقت فى حين أنه وراسل تبادلا معظم ما دار أثناء الجلسة من حديث . ويضيف كينز أن لورانس : كان مكتئبا نكد المزاج منذ البداية يتكلم قليلا جدا فيما عدا بعض التعبيرات غير الواضحة التى تنم فى برم وضجر عن اختلافه فى الرأى » . وبطبيعة الحال ، وجد لورانس أنه ينفر من العقلانية والأسلوب الكلبى (الذى يشك فى دوافع البشر ويسخر من نواياهم) اللذين بلغا أوجهما فى كامبردج حينذاك .

وتبادل لورانس وراسل طائفة كبيرة من الرسائل . وأنه لما يعكس شخصيتهما أن راسل احتفظ بخطابات لورانس ، فى حين أن لورانس لم يعبأ بالاحتفاظ بالرسائل التى أرسلها راسل إليه . وتعكس هذه الرسائل المتبادلة العداوة المتزايدة التى لم يكن هناك سبيل للتخفيف من حدتها بين دقة راسل الفكرية وعاطفة لورانس وفقدانه الثقة بالديموقراطية . (وفى رأى راسل أن « لورانس كان فاشيا قبل أن تظهر الفلسفة الفاشية إلى الوجود) . وعبثا حاول لورانس أن يكسب تأييد راسل لإضرام نار ثورة اجتماعية تؤمم الصناعات « بضربة واحدة قاضية » ، يستطيع الإنسان بعدها أن يبدأ مغامراته لاكتشاف عالم المرأة المجهول » . ولذا كتب لورانس إلى راسل يقول : « دعنا نفترق ونصبح غرباء مرة أخرى » . ثم أخبره فى شىء من الشذوذ والغرابة : « إنك ببساطة ملىء بالرغبات المكبوتة . وكما ذكرت لى امرأة حضرت أحد اجتماعاتك : « لقد بدا غريبا أن يتحدث (راسل) عن السلام والحب ، ووجهه ينطق بكل هذا الشر » .

وعلى أية حال ، استمر راسل فى صلته بغيره من دعاة السلام وانضم إلى لجنة « منظمة مناهضة التجنيد » وهى المنظمة الدعائية الرئيسية لأنصار السلام .

وكان راسل من الناحية الفكرية مصدر إلهام لمعترضى الضمير يتحدث ويكتب لجريدة « الزعامة العمالية » ويتولى أعمالها الصحفية الروتينية المملة ، كما كان أيضا حلقة اتصال بين معترضى الضمير فى « منظمة مناهضة التجنيد » الذين أثاروا سخط الناس عليهم بدعايتهم النشيطة ضد الحرب وبين معترضى الضمير فى جماعة البلومزبرى التى سبق ذكرها الذين وجدوا أثناء الحرب ملاذاً لهم يلتجئون إليه فى الاجتماعات التى تنظمها الليدى أولولين موريل التى تزعم زوجها فيليب موريل حركة أنصار السلام فى البرلمان بوصفه نائبا من الأحرار .

وكانت الليدى موريل تدعو معترضى الضمير المنبوذين من المجتمع إلى منزلها فى ٤٤ ميدان بدفورد ، حيث يجتمعون فى قاعة فسيحة تتكون من غرفتين متداخلتين فى الطابق الأول بأضوائها الهادئة ولوحاتها العصرية والزهور التى تزدان بها جوانبها . وفى هذه القاعة كانوا يتبادلون الحديث وهم يدخنون ويحتسون القهوة ، ويستمعون إلى أنغام موسيقى الحجرة ويرقصون وهم يرتدون (البلوفرات) وبنطلونات مصنوعة من الأقمشة القطنية . ولم يكن راسل يشترك فى الرقص معهم بل كان يجلس ويتحدث تحيط به حلقة من المستمعين المتحمسين .

وكانت الحفلات التى تقيمها الليدى أولولين موريل بمنزلها فى جارسنجتون مانور بالقرب من أكسفورد تفوق الحفلات السابقة فى أهميتها حيث استطاع بعض معترضى الضمير الحصول على إعفائهم من التجنيد بالقيام ببعض أعمال الفلاحة فى مزرعة فيليب موريل . وكان الضيوف يقضون معظم أوقاتهم فى أحاديث لا تنتهى . وكثيرا ما كانوا يغيرون هذا الروتين بالخروج للتريض مشيا على الأقدام .

واعتادت الليدى أولولين موريل أن تدخل البهجة فى نفوس الحاضرين أثناء انشغالهم بالحديث بانصرافها إلى شغل مفارش الحرير فى ألوان واضحة التباين بإبرة الكروشيه . وأهدت الليدى موريل إلى د . هـ . لورانس مفرشا صارخ الألوان بشكل غير عادى . وكان اشتراكها فى المناقشات محدودا ولكنه كان دوما واضحا وصريحا . وحدث ذات مرة أثناء انهماكها فى شغل مفرش للسرير بينما كان كلايف بل وآخرون يتحدثون بما اعتادوا من

أسلوب بارع ذكى أن استدار بل وقال لها معاتبا : « إنك لا تصغين يا أوتولين » ، فأجابته وهى تواصل شغل إبرة الكروشيه : « إن الحديث لا يستحق الإصغاء إليه » .

ووجد بعض المدعوين فى جارسنجتون كذلك أن راسل محدث متعب أحيانا لما تتصف به مجادلاته من تدفق وسرعة وصلابة . وهناك إشارة فى أحد خطابات ليتون ستراتشى إلى « أن برتى استخدم كعادته منشاره العقلى الدائرى الذى لا يكف عن نشر كل ما يتناوله من موضوعات وأنى لم أستطع قط أن أشعر أنى على سجيتى معه . وفى اعتقادى أنه يكرهنى . لماذا ؟ » .

ولم ينقطع راسل مع معظم المفكرين الآخرين الداعين للسلام عن زيارة جارسنجتون . وقد عاش كل من ليتون ستراتشى والدوس هكسلى هناك فترة من الوقت . وأصبحت جارسنجتون ملجأ لكثير من الكتاب الشبان الموهوبين الذين شجعتهم الليدى موريل وقدمت لهم العون . ولكن بعضهم ألف فيما بعد كتبا تتضمن نقدا وهجاء لها . فنحن نجد مثلا تصويرا كاريكاتوريا لها وللحفلات التى تقيمها فى جارسنجتون فى كتاب الدوس هكسلى « أصفر كروم » (*) .

وشرح راسل فيما بعد الطريقة التى هاجم بها بعض الكتاب ليدى أوتولين ، قائلا : أنه كان لابد من أن تعاقب على شدة طيبتها معهم . فالناس لا يطيقون أن يكونوا مدينين لأحد ، وهم دائما يطعنون فى أصحاب الفضل عليهم للتقليل من شعورهم بالفضل نحوهم . وهذا قانون من قوانين الطبيعة البشرية .

وكان كينز زائرا آخر من زوار جارسنجتون . وبينما كان راسل محور انتباه الحاضرين ، كان كينز « يجلس فى هدوء ويشترك فى الحديث بين الحين والآخر بصوت ناعم خفيض . وكانت دعوة أوتولين موريل لمستر أسكويث رئيس الوزراء بمثابة إضافة غير ملائمة إلى المدعوين ، ولكنه كان يجد متعة فى كل الأحاديث التى تمتلىء بالنكتة والدعابة

(*) تصور « أصفر كروم » أيضا أستاذا ينسب إليه هكسلى أقوالا جادة هى فى واقع الأمر بعض النكات التى أطلقها راسل .

وصحبة النساء الجذابة التى تتوفر فى جارسنجتون دائما . وكان أسكويث يعامل دائما بدون تكلف أو رسميات . ولم يكن من المستطاع فى أى مكان آخر من انجلترا أن تسمع خادمة جديدة تقدم الزائرين معلنة وصول مستر كينز وجنتلمان آخر » ، وليس هذا الجنتلمان الآخر سوى رئيس الوزراء .

وكان هناك غير هؤلاء زوار بارزون أيضا ، ففى إحدى المناسبات التاريخية قامت الليدى أوتولين بطلاء حجرة الجلوس بلون صناديق البريد الحمراء . ثم قررت أن منظر الحجرة سيصبح أفضل إذا طليت (ضلف) الأبواب بلون الذهب ، وكان معها فى ذلك الوقت راسل والأسقف جور ، أسقف أكسفورد . وما كان منها إلا أنها صممت على أن يساعدها هذان الرجلان فى الطلاء . وابستدارت لجور قائلة : « تعال أيها الأسقف . فإنك ترتدى مريلتان . وهكذا اشترك راسل والأسقف فى الطلاء جنبا إلى جنب . وقيل إن راسل أثبت أنه أفضل من الأسقف فى ذلك العمل .

وفى الوقت الذى كان راسل يكتسب أصدقاء ومعجبين جدد بسبب دعوته للسلام ، نراه يتعرض للعداء المتزايد من جانب الحكومة وزملائه من أعضاء هيئة التدريس فى جامعة كامبريدج . وغالبا ما كانت نكتته الذكية تضايق أنصار الحرب فى كلية ترينيتى وتوجعهم . ولاحظ راسل أنه عندما كان يتناول طعامه فى الكلية ، كان زملاؤه من الأساتذة يتحاشون المائدة التى يجلس إليها . وحدث ذات مرة أن قال أ . أ . هوسمان لـ أ . هـ . نيفيل العالم الرياضى : « لو أننى كنت أميرا للسلام لاخترت سفيرا أقل منه إستفزازا لتمثيلى » . وعلى الرغم من أن لويس ديكنسون الرقيق كان من أنصار السلام المقتنعين بمبادئهم مثل راسل تماما ، فإنه لم يثر من العداوة بين زملائه من الأساتذة فى كلية كنجز ما أثاره راسل .

وكان المدرسون الشبان فى كلية ترينيتى يؤمنون بحق راسل فى حرية التعبير عما يريد . ولكن نظرا لأنهم كانوا حينذاك قد تركوا الجامعة ليشتركوا فى القتال ، فإنهم لم يتمكنوا من أن يقولوا ذلك إلا فيما بعد . وكان الأساتذة القدامى الذين لم يتحركوا من

أماكنهم – كما يحدث فى أغلب الأحيان – أكثر الناس رغبة فى إشعال نار الحرب وبعدا عن التسامح . ومما يؤسف له أن ماك تاجارت كان أشد المناصرين للحرب غلواء . وسنحت لأنصار السلام فرصة حين أثيرت قضية ايفريت (*) .

فقد استدعى الجيش للتجنيد واحدا من معترضى الضمير اسمه ارنست ايفريت ثم حكم عليه بسنتين مع الأشغال الشاقة لعصيانه الأوامر . وأصدرت « منظمة مناهضة التجنيد » منشورا تحتج على هذا الحكم . وألقى القبض على ستة رجال لتوزيعهم هذا المنشور ، ولذلك كتب راسل خطابا لجريدة التيمز يقول فيه : « أحب أن يعرف الناس أننى الذى كتبت هذا المنشور . وإذا كان هناك من يقدم للمحاكمة ، فإننى المسئول الأول » .

وحوكم راسل أمام اللورد مايور (العمدة) فى مانشيون هاوس فى ١٥ يونيو عام ١٩١٦ بتهمة التصريح « بأقوال من المحتمل أن تسىء إلى التجنيد والنظام فى قوات صاحب الجلالة المسلحة » . وكان لظهور الليدى أوتولين موريل أثناء إجراءات المحاكمة بمعطفها الكاشمير المتعدد الألوان وقبعتها الجميلة الزاهية وقع لطيف فى نفوس الحاضرين . ولكن السخط استبد بها لأن المحكمة أمرتها – بعد أن وجدت مكانا على الدرج تجلس فيه – بالوقوف لأنه لا ينبغى على الناس أن « يرقدوا فى أى مكان » .

وقام راسل بالدفاع عن نفسه قائلا – على سبيل المثال – إن الغرض من المنشور هو توضيح أن من يخرج عن النظام يتعرض للسجن لمدة بسنتين مع الأشغال الشاقة ، فهل هذا يشجع الناس على مقاومة النظام ؟ » وكان منطقه الحاد مدمرا لكل ما يعترض سبيله ، لدرجة أن الحكومة صادرت تقريرا نشرته « ن . س . ف » (منظمة مناهضة التجنيد) يتضمن نص الخطاب الذى ألقاه كما يتضمن إجراءات المحاكمة . ولكن المحكمة أدانت راسل وحكمت عليه بغرامة قدرها مائة جنيه .

(*) يستثنى ج . أ . مور من هذا . فقد اقترح ساخرا أنه ينبغى إلغاء القداس من كنيسة ترينيتى الصغيرة ، نظرا لأنه من الواضح أن الآية المسيحية التى تقول « أحبوا أعداءكم » آية هدامة .

وبناء عليه قرر مجلس كلية ترينيتى بالإجماع فى ١١ يوليو ١٩١٦ طرد راسل من التدريس فيها . وفى تلك الأيام كان – كما هو دائما – أكثر حساسية مما بدا فى ظاهره . وآلمه طرده من الكلية إلى الحد الذى جعله يرفع اسمه من سجلاتها ، أى أنه قطع علاقته بها تماما . وقد أدى التوتر الناجم عن تحمل راسل العداء العام المستمر ونفور الناس منه إلى أنه أصبح فى حالة من شأنها أن تسبب له الوخز ، كما أنه سبب لغيره الوخز . وذكر راسل بعد ذلك بسنوات . « إن كل الزملاء فى ترينيتى كانوا يكرهوننى » وهى عبارة لم أستطع الحصول على ما يؤيدها تأييدا كاملا من زملائه الأحياء (وهذه العبارة لا تنطبق بالتأكيد على هاردى وجيمس وارد اللذين كانا أستاذين لراسل فى الفلسفة حين كان طالبا) . وفى الحقيقة كان الرأى السائد بعد الحرب على الأقل أن ماك تاجارت هو الذى فقد الاحترام بسلوكه نحو راسل .

واستمر راسل فى دعايته من أجل السلام . وأعد للنشر تحت عنوان « مبادىء إعادة البناء الاجتماعى » سلسلة من المحاضرات كان قد ألقاها فى مستهل ذلك العام . وتضمنت هذه المحاضرات أفكارا راديكالية ليس عن الحرب فحسب ، بل عن التعليم والزواج وموضوعات أخرى سأناقش رأية فيها فيما بعد .

وفى بداية الحرب استرعى انتباه راسل شىء واحد بصفة خاصة ، وهو أن الناس بدوا كأنهم يستمتعون بها . وعلق على ذلك لروبرت ترفليان الذى اقترح عليه أن يقرأ ما كتبه برنارد هارت عن « سيكولوجية الجنون » . وكانت نظرية هارت تقوم على أسس علم النفس الفرويدى مع التركيز على الدوافع اللاشعورية . وأدرك راسل أنه شخصيا قد توصل إلى ما يشبه نظرية فرويد مستقلا عن فرويد . وكما ذكرنا قبل ذلك ، توصل راسل إلى اللاشعور عندما أدرك أنه يمكنه أن ينشغل بمشكلة ثم يدعها جانبا ليكتشف بعد ذلك أن عقله قد وجد حلا لها . وقرر راسل أن السلام مستحيل طالما أن هناك أنظمة للتعليم تعبىء الناس بالنوازع اللاشعورية للقتال والحرب وتبعا لذلك ، فلابد من إعادة النظر فى كل مقومات البناء الاجتماعى ومراجعته .

وكتب ليتون ستراتشى وصفا لما تتميز به محاضرات راسل ، فقال : « بالأمس توجهت إلى قاعة كاكستون المروعة بالرغم من أننى كنت على حافة الموت أكثر من أى وقت مضى . ولكن الأمر كان يستحق كل ما تجشمت من عناء . إن طريقته فى تمزيق كل شىء رائعة حقا – ابتداء من الحكومات والأديان والقوانين والملكية حتى الذوق السليم نفسه – كلها تتهاوى كما تتهاوى قطع الخشب فى لعبة القنانى الخشبية . إنها لمنظر بديع . وبالرغم من هذا فإن آراءه البناءة رائعة للغاية . فهو يعيد تركيب جميع الأجزاء المتهاوية ويقيم منها بناء راسخا متينا مضيئا أمام العقول . إننى لا أعتقد أن هناك على الأرض فى وقتنا هذا إنسانا هائلا مروعا مثله » .

وقال راسل فى حديثه عن الحرب إن أسلم طريق يسلكه الجانبان المحاربان هو التوصل فورا لإقرار السلام بأفضل الشروط الممكنة .

وإذا كان إلقاء المحاضرات وتأليف كتاب على هذا المنوال شيئا ، فإن نشره فى عام ١٩١٦ كان شيئا آخر . ولم يساعده على نشره سوى صلته بستانلى انوين ، وهو ناشر من أنصار السلام .

وآلت دار النشر الين وانوين فى أوائل يوليو ١٩١٤ إلى انوين – الذى أصبح فيما بعد السير ستانلى انوين وعميد الناشرين البريطانيين . وتسلم انوين – الذى كان فى بادىء الأمر مجرد واحد من أربعة مديرين – هذه الدار بالاشتراك مع آخرين يساهمون بأموالهم لقاء فوائد محددة ثابتة .

وتأثر انوين ببعض مقالات راسل التى كتبها أثناء الحرب إلى الحد الذى جعله يكتب إليه مستفسرا عما إذا كانت لديه مادة كافية لإصدار كتاب . ورد عليه راسل بأن أرسل إليه مخطوطة « مبادىء إعادة بناء التنظيم الاجتماعى » . وابتهج انوين بالكتاب بينما تضايق المديرون الثلاثة الآخرون منه بحيث أصبحوا يمثلون الأغلبية بنسبة ٣ إلى ١ . والتجأ انوين إلى حيلة تنطوى على الدهاء فقد اقترح إرسال المخطوطة إلى البروفيسور مويرهيد محرر « المكتبة الفلسفية » حتى يتخذ قرارا فى شأن الكتاب . وكان زملاء انوين المديرين على يقين من أن مويرهيد سيرفض الكتاب فوافقوا على هذا الاقتراح . ولكن

انوين كان واثقا من أن مويرهيد سيقبل الكتاب . واتضح أنه كان على صواب . فقد ذلك مويرهيد فى تقريره ما معناه أنه يكاد ألا يوافق على كل ما جاء فى الكتاب ، ولكنه يرى أن للكتاب من الأهمية البالغة ما يقتضى نشره .

ولا زال للكتاب حتى اليوم أهميته البالغة .

وكان نشر هذا الكتاب بمثابة علامة مميزة فى مستقبل راسل ، لأنه كان أول كتاب له يبين أنه يستطيع أن يبيع كتاباته على نطاق واسع بين القراء العاديين . وظل بقية حياته يكتب ليس كفيلسوف يؤلف لأساتذة الجامعات فحسب ، ولكن ككتبى يستحوذ على قلوب الناس ويدافع عن السعادة الإنسانية . وكتب راسل يقول : « لقد جعلتنى الحرب أشعر بأهمية البناء الرهيبة وتشييد الأشياء الإيجابية . إننى لا أريد أن أظل صوتا صارخا فى البرية . إننى أود أن أصبح صوتا يسمعه الناس ويستجيبون له ، وأن أقول أشياء يهتم الناس بسماعها » .

وكان كتاب « مبادىء إعادة البناء الاجتماعى » بداية علاقة بين راسل وستانلى انوين . وهى علاقة كانت لها أهميتها بالنسبة لكليهما ، واستمرت طول الحياة مع وجود تعامل لراسل مع غيره من الناشرين من وقت لآخر .

وكان انوين رجل أعمال من النوع الذى كان شائعا فى القرن التاسع عشر يجمع بين اسمى المبادىء الأخلاقية مع أشد حاسة تجارية . وعرف عنه بصفة خاصة دقته الشديدة فى تسويق كتبه فى الأسواق الخارجية . وقد قضى فترة تمرسه بأعمال النشر والتدرب عليها فى ألمانيا . وقام بزيارات شخصية فى جميع أنحاء العالم . وقد وضع انوين بنفسه قائمة دقيقة التفاصيل عن تجار الكتب البعيدين - على أساس المعلومات التى استقاها من هذه الرحلات - فى نظام مفهرس للبطاقات .

وكان راسل قد أصبح يتمتع بذيوع الصيت فى مجال تخصصه فى أوربا وأمريكا . ولكن الفضل يرجع إلى انوين فى ذيوع شهرة راسل بين عامة القراء فى خارج بريطانيا فقد جعله هذا الناشر أكثر الفلاسفة البريطانيين شعبية فى ألمانيا كما جعل كتبه أكثر

الكتب توزيعا في بلاد مثل الهند واليابان . وجاء وقت أصبح فيه بعض الفلاسفة الآخرين يحظون في بريطانيا بإعجاب يزيد عن الإعجاب الذي يحظى راسل به ، تبعا للتغير المستمر الذي يطرأ على (الموضة) الفكرية والذي تتميز به الدوائر الأكاديمية . ولكن شهرة راسل الدولية ظلت دوما لا نظير لها .

وبطبيعة الحال ، يمكن القول بأن أعمال راسل الفلسفية الخالدة لا تدين بأي فضل لأي ناشر . ولكن بدون انوين ما كانت كتاباته لعامة الناس ، بالتأكيد ، لتجد هذا الجمهور الواسع . واستطاعت هذه الكتابات بدورها عن طريق إثارة الاهتمام به كإنسان أن تشجع الناس على دراسة أعماله الفنية المتخصصة . فلولا الإلهام الذي يوحي به معلم عظيم لما اهتم بالميتافيزيقا غير عدد ضئيل من الناس . وقد جذب سحر شخصية راسل آلاف الناس في جميع أنحاء العالم نحو دراسة الفلسفة من وانج في الصين حتى كوين في أمريكا ، وهكذا انتشر نسل راسل في مجال الفكر وتضاعف في كل مكان بينما انحصر مريدو فيتجنشتين وهوايتهد في دائرة ضيقة مختارة من الأتباع والتلاميذ .

الفصل الحادى عشر

سجين بركستون

وعلى أية حال . فإنه فى عام ١٩١٦ ، كانت شهرة راسل العالمية وثناء الأجيال عليه أقل أهمية من الناحية العملية - بعد طرده من كلية ترينيتى - من مشكلة الحصول على عمل . ووجهت إليه الدعوة لكى يحاضر فى جامعة هارفارد . ولكن وزارة الخارجية رفضت منحه جواز سفر إلى أمريكا . وقرر أن يلتجىء إلى احتراف إلقاء المحاضرات العامة فى بريطانيا . ولكنه بعد أن أعد برنامجا عن « المبادىء الفلسفية للسياسة » اصطدم بأوامر بالغة الغباوة أصدرتها وزارة الحربية التى أبلغته أنه يستطيع أن يحاضر فى المدن الداخلية مثل مانشستر . ولكنه لا يمكن أن يحاضر فى المناطق المحظورة ، التى ضمت المدن الساحلية بشكل خاص . ومن الناحية النظرية ، كانت الفكرة وراء هذا الحظر أنه هو أو مستمعيه قد يتشجعون على إرسال إشارات لاسلكية للزوارق الحربية الألمانية .

وكان ذلك الحظر واضح الغباوة لدرجة أن تشارلز تريفيليان قدم استجوابا للويد جورج فى هذا الشأن . وأجاب لويد على ذلك بأن أحاديث راسل « تتدخل دون شك فى مواصلة الحرب ... ولدينا معلومات من مصادر وثيقة للغاية أن المستر برتراند راسل على وشك القيام بإلقاء سلسلة من المحاضرات من شأنها أن تتدخل بصورة خطيرة فى تعبئة جنود الجيش » .

ورد راسل على هذا الاتهام بقوله : « إننى آمل أن تكون المخابرات أكثر دقة فى معلوماتها عن الألمان عما كانت بالنسبة للمعلومات التى تتعلق بى » . وتساءل عن السبب فى السماح له بإلقاء المحاضرات فى مانشستر إذا كانت خطرة فعلا .

ومن السهل حقا أن نفهم كيف كانت الحكومة تبدو وكأنها فقدت صوابها بالنسبة

لراسل . فقد كانت تخشى بصفة خاصة أن تسبب أحاديثه الإضرابات بين عمال الذخيرة ، إذ إنه كان الرجل الوحيد فى حركة أنصار السلام الذى يحظى اسمه بالمهابة والتقدير ، كما أن تخطيه بسن التجنيد كان دليلا على موضوعية الموقف الذى اتخذه . ومن ثم أصبح تأييده ، فى ذلك الوقت لشبان غير معروفين من أمثال فينر بروكواى ، وكليفورد ألن بالغ الأهمية . فقد كان لهم البطل والمستشار والرفيق .

وكان كليفورد ألن ، الذى أصبح لفترة صديق راسل الحميم ، الرجل الذى استطاع فعلا تحويل معترضى الضمير إلى كيان متكامل . كان كليفورد رئيسا يثير الإعجاب لهذه الجماعة ، ملما بكل المشاكل التى تواجه مختلف الشبان من أنصار السلام ، كما كان خطيبا ممتازا . وقد وقفت إصابته بالسل عائقا فى سبيل طموحه السياسى الذى زادت من سوئه فترات سجنه الطويلة كواحد من معترضى الضمير . وقد رفض كليفورد الخدمة البديلة للخدمة العسكرية مثل العمل فى فلاحة الأرض . ولم يفهم أحد مواهبه ولا الصعوبات التى اعترضت طريقه ، بل أن أحدا لم يبذل جهدا لتشجيعه فى شبابه مثلما فعل راسل .

ولعل الخطاب الذى أرسله راسل إلى ألن بعد الإفراج عنه من السجن مباشرة يعكس لنا جانبا من حرارة الحب الإنسانى فى طبيعة راسل الذى يختفى وراء ما يبدو عليه أمام الناس من نكتة وحضور بديهة دقيق جاف .

عزيزى ألن ،

إن خبر إطلاق سراحك بسعادة لا يمكن التعبير عنها . إننى لا أستطيع أن أخبرك مقدار سرورى العظيم ، وسآتى لرؤيتك بمجرد أن يسمح لى الطبيب بذلك .

ألن العزيز ، لقد كانت فترة سجنك أمرا مزعجا لكل الذين يهتمون بك . إن الكثير آت قبل مرور وقت طويل – استرح سعيدا حتى تتحسن صحتك . فالأمور فى طريقها إلى النضوج . وسيكون أمامك أن تفعل كثيرا من الأشياء المدهشة فيما بعد . ب.ر.

وفى لحظات الاكتئاب كان راسل يروح عن أصدقائه الشبان قائلا : « هذا هو التاريخ ونحن نساعد فى صنعه » . وعندما جادل أمين صندوق « منظمة مناهضى التجنيد » أن

إنتاج الضمائر لا يجب أن يكون من شأننا » ، أزاح راسل كل التردد جانبا وهو يصيح : « يا للسماء ، لقد كنت أفعل ذلك لعدة سنين » .

وذهب راسل ذات مرة مع كليفورد ألن لتناول الغداء مع لويد جورج – وكان اللقاء به غير ناجح . وحين أراد الرجلان أن يحدثاه عن تحسين معاملة معترضى الضمير ، قال لهما لويد جورج أنه ليس لديه وقت لمناقشة هذه المسائل سوى فترة الغداء . وقبل راسل ضيافة لويد جورج عن كره ولكنه رفض أن يدخن أو يشرب . (رغم انه كان حينذاك قد تخلى عن إقلاعه التام عن تناول المسكرات وتدخين السجائر) . وعندما أعلن الملك جورج الخامس أنه سيمتنع عن الشراب خلال فترة الحرب ، قرر راسل أن يفعل العكس وأن يتخلى عن امتناعه الكامل عن المسكرات .

وقد قام فينر بروكواى ، الذى أصبح فيما بعد عضوا اشتراكيا بارزا فى البرلمان ، بتلخيص ذكرياته عن راسل فى فترة نشاطه فى « منظمة مناهضى التجنيد » ، بقوله : « لم يكن راسل فى غرور شو ورغبته الاستعراضية ، ولكنه كان له نفس ولع شو بتحطيم الأصنام الزائفة » . وفى رأى بروكواى : « كان راسل ممتعا . تملأه روح الدعابة مثل عفريت ذكى وشقى لا سبيل إلى كبح جماحه . وكان فى تلك الفترة يعانى من الضيق المالى . ووصل إلى اللجان متأخرا أكثر من مرة لأنه لم يكن فى جيبه أجرة الأوتوبيس . ولعل ذلك كان يرجع أحيانا إلى نسيانه للأمور الدنيوية » . واتضح مرة أن راسل كان قد قابل شحاذا له قصة تدل على الحظ العاثر ، وهو يتجه إلى أحد الاجتماعات ، فأفرغ له كل ما فى جيبه ثم اضطر إلى السير على الأقدام .

وعرف راسل أحيانا بين لجنة « منظمة مناهضى التجنيد » بميفستوفوليس أو ميفستو (أى الشيطان) بسبب عظام خديه المرتفعة ووجهه الضيق ، والطريقة التى كان يستمتع بها بالمؤامرات التى يحيكها والخطط التى يدبرها للتمويه على رجال البوليس .

ونظرا لأنهم كانوا يخشون أن يقمع البوليس « منظمة مناهضى التجنيد » ، فقد كان لديهم تنظيم سرى كامل آخر له نظام محكم للأسماء الحركية . وحدث ذات مرة أن ترك فينر بروكواى حقيبة صغيرة تحتوى على كل خططهم السرية فى تاكسى . وسلمت هذه

الحقيبة إلى قسم البوليس . وعندما أعلن هذا الخبر فى اجتماع اللجنة قال راسل : « أقترح أن نرجأ الاجتماع ونتوجه إلى سكوتلاند يارد وبذلك نوفر على البوليس مشقة القبض علينا » . ولكن هذه الحقيبة التى تحتوى على الأوراق أعيدت سالمة إليهم . إذ كان لأحد أعضاء اللجنة أخ من كبار موظفى البوليس .

وكان لـ « منظمة مناهضى التجنيد » مكتب أضافى . وذات يوم بينما هم مجتمعون وصل إليهم خبر بأن مكتبهم الرئيسى يتعرض لحملة تفتيش من البوليس . وكان هناك ستة مخبرين فى الشارع . واستمتع راسل بما نجم عن ذلك من اضطراب . وقال : « إنهم يبحثون عنا . دعهم يلقون القبض علينا فى منزل لورد » ، ولذلك ، فقد شحن أعضاء اللجنة فى ثلاثة تاكسيات واتجه بهم إلى منزل أخيه فرانك فى جوردون سكوير ، وهو يفكر فى مرح فيما سوف يقوله الأيرل راسل إذا جاء البوليس للقبض على أخيه الأصغر هناك . ولم يستطع راسل أن يخفى خيبة أمله عندما وجد الأيرل خارج المنزل ، وأن البوليس لم يحضر بالمرة .

وكان السبب الذى أفضى به فى نهاية الأمر إلى السجن هو مقال نشرته « ذى تريبونال » وهى الجريدة الأسبوعية التى كانت « منظمة مناهضى التجنيد » تصدرها . كان راسل على استعداد دائما لأن يكتب أى شىء من أجل « منظمة مناهضى التجنيد » بتوقيعه أو بدون توقيعه . وفى أواخر ١٩١٧ قرر راسل الانسحاب من الاشتراك فى نشاط الدعوة إلى إنهاء الحرب إيمانا منه فى ذلك الوقت بأنه من الأهم أن ينتظر ويعمل من أجل السلام البناء بعد أن تضع الحرب أوزارها . ولكنه عندما احتاجت « ذى تريبيونال » إلى مقال للصفحة الأولى بصورة عاجلة ، كان راسل كعادته على استعداد لاجابة الطلب . فى هذا المقال كتب راسل يقول : « ما لم يتوصل إلى إقرار السلام سريعا ، فإن الجوع سيصيب أوربا كلها . وسيقاتل الناس بعضهم بعضا للحصول على أبسط ضروريات الحياة » .

« حينئذ ، فإن الحامية الأمريكية التى ستكون قد أحتلت إنجلترا وفرنسا – سواء أثبتا كفاءتهما ضد الألمان أم لا – ستصبح بلا شك قادرة على إرهاب المضربين وهو عمل اعتاد الجيش الأمريكى على القيام به فى بلاده .

« ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية . فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار ، وأنهم يعيشون دون انتهاج سياسة ثابتة مستقرة مدخلين العزاء إلى أنفسهم بالجهل والثرثرة العاطفية الرخيصة » .

وبالتأكيد ، يبدو هذا التعليق على الجيش الأمريكى خفيفا ملطفا إذا قورن ببعض ما قيل بحرية ضد الأمريكان منذ ذلك الحين . والاشارة إلى قمع الاضرابات تستند فى الحقيقة إلى تقرير رسمى للكونجرس . ومن الصعب أن نقول إذا كانت الحكومة البريطانية قد أستاءت من هجوم راسل على الأمريكان أكثر من استيائها من هجومه عليها . ولكن هجوم راسل على الأمريكان كان العذر الذى تعللت به الحكومة البريطانية لاتخاذ إجراء من شأنه أن تنفس به عن الضيق الذى عانت منه من جراء هجومه عليها .

وظهر المقال فى ٣ يناير ١٩١٨ وبعد ذلك بشهر تقريبا زار مخبران راسل ذات صباح ووجداه فى الحمام وسألاه إذا كان كاتب المقال ، فأكد لهما ذلك .

وقدم راسل للمحاكمة فى بوستريت حيث غصت المحكمة بجمع من أصدقائه المرموقين . وقرأ ممثل الادعاء فقرات من مقال راسل فى « ذى تريبيونال » . ولكنه لم يحدث التأثير الذى كان يرجوه . ووصل إلى الفقرة التى تقول : « ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار » . وهنا ضج الحاضرون من أصدقاء راسل بالضحك . وقطب المدعى جبينه بشدة وقرأ الفقرة للمرة الثانية بصوت أكثر استهجانا . فضج المكان بالضحك مرة أخرى ، ولكن هذا الضحك المدوى فى قاعة المحكمة لم يستطع أن ينقذ راسل . وحكم عليه القاضى سير جون ديكنسون بالسجن ستة شهور مع حبسه فى الدرجة الثانية .

وعلق ديكنسون على موقف راسل وهو ينطق بالحكم قائلا : « يبدو أن مستر راسل قد فقد كل إحساس بالتهذيب والحكم الصائب . وتمادى إلى الحد الذى أهان فيه عمدا ومع سبق الإصرار جيش أمة عظيمة حليفة لنا ... والإساءة التى ارتكبها تدعو إلى الاحتقار الشديد » .

وعلق راسل على كلام ديكنسون فى خطاب كتبه فى اليوم التالى : « لقد كان القاضى قاسيا عنيفا بدرجة لا يمكن تصديقه. ولم يحدث أبدا أننى واجهت كراهية مشبوبة مثل تلك الكراهية التى أظهرها نحوى . لقد كان بوده لو أنه استطاع أن يشنقنى ويجرنى ويقطعنى أربا » .

وقد ورد وصف آخر لاجراءات المحاكمة فى خطاب كتبه ليتون ستراتشى قال فيه : « إنه لأمر مفضوح حقا . كما أنه شرير ويبعث على التقزز عموما . منظر حشرة مثل السير جون ديكنسون وهو يوبخ برتى ويتهمه باللأخلاقية ويرسله إلى السجن . وخرجنا من قاعة المحكمة - جيمس سترتيشى وأنا - وأسناننا تصطك غضبا - أن حدوث مثل هذه الفظاعات تجعل المرء يفقد الأمل » ولكن راسل نفسه قال بعد ذلك وهو يسترجع سنى الحربى « إننى لا أستطيع أن أشكو من الطريقة التى عاملتنى بها السلطات . ولم أبذل من ناحيتى أى جهد على الاطلاق للمصالحة ، الأمر الذى اضطرهم إلى اتخاذ إجراء ضدى » .

واستأنف راسل ، ولكن المحكمة أيدت الحكم الصادر بحبسه ستة أشهر . وهكذا نقل راسل فى مايو ١٩١٨ فى تاكسى إلى سجن بركستون . وقد تأسف بعد ذلك على انه فاتته تجربة نقله فى « عربة المسجونين » . وسجل فى سجن بركستون تحت رقم ٢٩١٧ وباسم راسل (ب) .

وبفضل تدخل جلبرت مرى وآخرين تم نقل راسل بناء على استئنافه إلى سجن من الدرجة الأولى حيث استثمر وقته فى القراءة والكتابة . وأجبر فرانك راسل السلطات على السماح لأخيه بالحصول على كل ما يريد . ووضعت اليزابيث زوجة فرانك - مؤلفة كتاب « اليزابيث وحديقتها الألمانية » - فى زنزانته أثاثا مريحا - مكتبا وكرسيا وسجادة . فضلا عن أنه كان يتلقى دائما الكتب والزهور .

وكانت زنزانة راسل أوسع من المعتاد . وكان عليه أن يدفع إيجارا أسبوعيا لها قدره ٢ شلن و ٦ بنسات . وكان من أول ما قام به راسل فى السجن أنه توجه إلى حاكم

السجن – وهو جندى سابق محترم يدعى كابتن هاينز – وسأله بجدية ووقار عن عقوبة من يتأخر فى دفع الإيجار ، ذاكرا أنه إذا كانت العقوبة هى الطرد من السجن ، فإنه لن يدفع بنسا واحدا .

وعهدت إلى زميل له من المساجين مهمة تنظيف زنزانته . وقد أثلج صدر راسل عندما أخبره هذا الزميل أنه « جرب جميع السجون فوجد أن سجن بركستون أحسن سجون لندن » . وقال راسل فى معرض الحديث عن رفاقه فى السجن : « إن الحياة هنا فى السجن مثل الحياة على عابرة محيطات يخالط فيها المرء عددا من الناس المتوسطين ويعجز عن أن يلوذ بالفرار إلا فى حجرته على ظهر السفينة . ولست أرى أية علامة تدل على أنهم دون المتوسط فيما عدا أنه من المحتمل أنهم يفتقرون إلى قوة الإرادة – ذلك إذا كان المرء يستطيع أن يحكم عليهم من وجوههم » .

وقال أحد حراس السجن لراسل بفخر واعتزاز إنه عضو فى « حزب العمال المستقل » وإن الفرع الذى يتبعه قد وافق على قرار يطالب بإطلاق سراحه .

وسمح لراسل باضاءة نور حجرته حتى العاشرة مساء بدلا من الثامنة وبطريقته المنظمة التى عرف بها ، نظم راسل روتين حياته اليومية فى السجن ، فخصص أربع ساعات يقضيها فى الكتابة عن الفلسفة وأربع ساعات أخرى فى القراءة فيها . ثم أربع ساعات ثانية فى قراءات عامة – يقضيها فى قراءات متنوعة من فولتير إلى تشيكوف ، من تاريخ الثورة الفرنسية إلى كتب الرحلات عن الأمازون والتبت مع بعض الروايات البوليسية المثيرة أحيانا .

وكان الحرمان الوحيد الذى عانى منه راسل هو منعه من التدخين – الذى كاد أن يكون التغير الوحيد الذى طرأ على حياته (باستثناء المرض) على مدى ستين سنة متصلة قضاها راسل فى التدخين ، فضلا عن شوقه لرؤية أصدقائه . وكان يأكل الشيكولاتة بدلا من التدخين . ونظرا لأنه كان يسمح بأن يزوره ثلاثة أصدقاء معا كل أسبوع ، فقد كان ينظم أصدقاءه بدقة فى جماعات تتكون كل منها من ثلاثة أشخاص بحيث تتفق مشاربهم ويستطيعون الاستمتاع باللقاء معا .

وكانت زيارة راسل فى السجن تجربة لا تمحى من الذاكرة بالنسبة لأولئك الذين توفر لهم ذلك الحظ النادر فى رؤيتـه . وفى إحدى المناسبات اتفق فرانك راسل مع الليدى أوتولين موريل وجلاديس ويندر – وهى موظفة فى « منظمة مناهضى التجنيد » – على الالتقاء على الكورنيش ليأخذوا الترام إلى سجن بركستون . وكانت الليدى أوتولين موريل أولى من لحق بالآنسة ريندر . وجاءت وهى ترتدى فستانا رائعا من ثلاث طبقات من التافتاه الملونة ترصع الفضة أطرافه العليا وتتحلى بقلادة من اللؤلؤ من طراز مارى انطوانيت . وجاء بعدها فرانك مرتديا قبعة عالية ومعطف الفراك الطويل . وصعد ثلاثتهم إلى أعلى الترام وسط نظرات الانبهار من كل الركاب الموجودين الذين أنصتوا فيما يشبه السحر إلى فرانك وهو يتحدث بأعلى صوته عن تجاربه الشخصية عندما أرسل إلى السجن بتهمة تعدد الزوجات .

وذكر ت . س . إليوت أيضا أمه ذهب إلى زيارة راسل مع فرانك راسل وديزموند ماكرثى . وجلسوا جميعا يتحدثون تحت تكعيبة فى فناء السجن – وكانهم فى عربة بولمان – والحارس يرقبهم من مسافة محسوبة بدقة .

وكان راسل يستعد لهذه الزيارات بأعداد قوائم طويلة بالأشياء التى يريد أن يسأل أو يتحدث عنها . ولكن عندما يصل أصدقاؤه فعلا ، فانه كان فى العادة ينسى فى شدة انفعاله ما كان يريد أن يقول . وكتب راسل إلى جلاديس ريندر يقول : « تذكرى أن ما يريده المرء هو الأخبار عن أصدقائه . إننى أحصل على أخبار السياسة من الصحف وأستطيع أن أنتج العواطف والنكات فى مقر السجن . ولكنى أستقى أخبار الأصدقاء من الزيارات والخطابات » . وردت عليه مس ريندر بخطاب ملىء للغاية بالخوض فى القيل والقال عن أناس أشارت إليهم بالحروف الأولى من أسمائهم لدرجة أن مأمور السجن صادره ظنا منه أن هذه الحروف قد تمثل شفرة معقدة .

وفى السجن وضع راسل الأعمال الفلسفية التالية « مقدمة الفلسفة الرياضية » ، وعرض طويل لكتاب ديوى « مقالات فى المنطق التجريبى » كما أنه أمضى وقتا فى قراءاته التمهيدية فيما يتصل بالبحث الذى انتهى به إلى وضع كتابه عن « تحليل العقل » . وكان

مـأمـور السـجن الكابـتن هـاينز يراقب أى مـخطوط يرسله للخـارج . وتعب هذا المأمـور جدا وهو يقرأ بجهد جهيد « مقدمة الفلسفة الرياضية » وهو كتاب لا تسهل قراءته كما توحى بذلك كلمة « مقدمة » . وعندما تعثر مـأمور السجن فى قراءته منذ البداية ، قال أنه يكفيه أن يقدم راسل له تأكيدا شخصيا بأن الكتاب لا يحوى أفكارا هدامة . وكان أنصار السلام متفاهمين على أن يفعلوا دائما كل ما فى وسعهم لعرقلة الأمور أمام المسئولين . ولكن راسل قرر أن فرض الفلسفة الرياضية فرضا إجباريا على مـأمور السجن يعتبر تطبيقا مبالغا فيه لهذا المبدأ . ومن ثم فقد قدم إليه التأكيد المطلوب .

وإنه ليصعب علينا ألا نظهر شيئا من العطف على كابتن هاينز الذى لم يعرف قط ماذا يفعل بالضبط إزاء ضيفه الممتاز . وذات مرة أرسل إليه ديزموند مكارثى يقول إن راسل يرغب فى عصفور كناريا فى قفص . واستدعى المأمور راسل وسأله إذا كان الأمر كذلك . فأجابه راسل بقوله : « لا ، إن ما أريده هو قرد من نوع الأورانج تانج » (لأنه كما أوضح فى خطاب له لجلاديس ريندر كان يأمل أن يلقى هذا القرد ضوءا على العقل فى أصله وكما يتمثل فى مجلس الوزراء) . وكلما شاهد راسل مـأمور السجن تعمد أن يطلق النكات محاولا أن يجعله يضحك كى يسلى نفسه بمنظر المأمور وهو يغالب نفسه للمحافظة على صرامة وجهه .

ويخالج المرء شعور بأن السجن قد ترك فى نفسه أثرا عميقا على الرغم من كل ما أظهره راسل من مدح واستخفاف تماما مثلما أحس عندما طردته كلية ترينيتى . وفى الأيام الأولى كتب راسل يقول : « لقد تتابعت الأيام رتيبة . ولكنها كانت مقبولة إلي حد ما . وأعتقد أننى أخطأت الهدف عندما لم أتحول إلى راهب يتبع أحد أنظمة الرهبنة التى تستغرق فى التأمل » . ولكن شيئا من شعوره الحقيقى تكشف فى أحد خطاباته التى هربها خارج السجن . « آه . أليس رائعا أن تتمكن من المشىء عبر الحقول وأن تشاهد الأفق وتتحدث بحرية وأن تكون مع أصدقاء ... إننى مستقر فى هذا الوجود وأنعم بشىء من الهدوء . ولكنى أنعم بالاستقرار والهدوء فى هذا الوجود فقط لأنه سينتهى حالا . إن كل أنواع المباهج تلوح أمام خيلتى – وفوق كل هذه المباهج الحديث ثم الحديث ثم الحديث .

إننى لم أعرف قط كيف يتعطش الإنسان للحديث . لقد استفدت من الوقت الذى أمضيته هنا . إذ إنى قرأت كثيرا وفكرت كثيرا وازددت تماسكا . إننى أتفجر بالحيوية – ولكنى أتشوق إلى الحضارة والحديث المتحضر . كما أنى أشتاق إلى البحر والانطلاق الوحشى وإلى الريح . إننى أكره أن أكون مرتبا نظيفا مثل كتاب فى مكتبة لا يرتادها للقراءة أحد . إن السجن شىء فى مثل هذه القطاعة . تصور أنك كتاب لذيذ اشتراه مليونير ووضعه مجلدا مع كتب كثيرة غيره مجلدة بنفس الطريقة ، وأغلق عليه فى رف وراء لوح من زجاج ، حيث يصبح مجرد صورة لكمال النظام دون أن يسمح لأى فوضوى ، بالاطلاع عليه – هذا هو ما أحس به – ولكن الآن بسرعان ما سوف يتمكن أحد من الإصرار على قراءته » .

وبعد إطلاق سراح راسل فى سبتمبر ١٩١٧ كتب لكليفورد ألن قائلا : « لقد خرجت من السجن بحساسية غريبة مفرطة جعلتنى أظن أن كل واحد يكرهنى » ولكنه أضاف أن هذا الشعور يزايله بسرعة وأنه سيصبح فى القريب العاجل شخصا عاديا وقويا . ولحسن الحظ أن هذا التنبوء تحقق . ولا يمكننى أن أنهى هذا الفصل بصورة أفضل من أن أذيله بشىء مما كتبه راسل قبل مغادرته السجن مباشرة . وهو شىء سيظل من أجمل الشواهد على حرية النفس البشرية :

« ليس هناك أبدا مكان كالسجن لتزاحم الصور – التى تترای واحدة تلو الأخرى ملحة على – صور الصباح المبكر فى جبال الألب مع الجليد الذى يغطى أشجار الصنوبر العبقة والمراعى المرتفعه تلمع بالندى – وبحيرة جاردا كما يراها المرء لأول وهلة وهو يقبل من أعلى الجبال ، كوميض ناء بعيد من أسفل تتراقص ، وتتلألأ فى ضوء الشمس مثل عينى غجرية أسبانية ضاحكة مجنونة – العاصفة الرعدية فى البحر الأبيض المتوسط بين لجج الماء البنفسجية الداكنة . وجبال كورسيكا فى إشراق الشمس من الخلف البعيد وجزر صقلية فى غروب الشمس فاتنة حالمة لدرجة أنك تتصور أنها ستختفى عن الانظار قبل أن تصل إليها . فتبدو وكأنها جزر علوية لا يمكن أن تتحقق فى عالمنا الفانى . ورائحة بركة الريحان فى سكاى . وذكريات غروب الشمس منذ أمد بعيد . كلها تعود بالذاكرة إلى أيام

الطفولة . إننى أستطيع الآن وكأنه بالأمس القريب أن أسمع نداء رجل فى شارع من شوارع باريس يبيع « الخرشوف أخضر وجميل » رغم انه مضت على سماع ندائه أربع وعشرون سنة تكاد أن تكون كاملة باليوم . وبغض النظر عن ذكريات الطفولة ، فانى أتذكر صفا من أشجار اللاركس بعد هطول الأمطار وقد تعلقت بكل فرع من فروعها قطرة مطر . وانني أستطيع أن أسمع حفيف الريح بأعلى أشجار الغاب فى منتصف ليالى الصيف – كل شيء حر وجميل يرد إلى خاطرى إن أجلا أم عاجلا .

« ما جدوى حبس الجسد ما دام العقل طليقا ؟ لقد عشت وأنا هنا بين جدران السجن خارج حياتى الخاصة فى البرازيل والصين والتبت والثورة الفرنسية . وفى هذه المغامرات نسيت السجن الذى يحبس فيه العالم نفسه فى هذه اللحظة . إننى حر وسيكون العالم حرا كذلك » .

الفصل الثانى عشر

تحليل العقل

شغل راسل نفسه بعد أن خرج من السجن - على حد قوله - بـ « الزحف عائدا إلى عالم الفلسفة » . وكان أول عمل له هو إلقاء سلسلة من المحاضرات فى لندن ، أعاد إلقاءها فى بكين ، ثم نشرت فى نهاية الأمر تحت عنوان « تحليل العقل » وهو عمل كان قد بدأ العمل فيه فى سجن بركستون .

وكان لهذه المحاضرات بداية غريبة . فعلى الرغم من أن راسل كان قد ورث مبلغا من المال يكفى لأن يمده بدخل مستقل صغير ، إلا أنه كاد أن يبدد كل ما لديه من مال بالتدريج على مر السنين . فقد دفع على سبيل المثال نفقات منح دراسية فى مدرسة لندن للاقتصاد استفاد منها يوما ما توم جونز الذى اشتهر فيما بعد بأنه سكرتير لأربعة رؤساء وزارة .

واتضح من كتاب راسل « مبادئ إعادة البناء الاجتماعى » أن بوسعه أن يكتسب قوته كمؤلف شعبى يكتب لعامة الناس . ولكن نظرا لرفع سن التجنيد ، فقد كان من الممكن استدعاؤه للخدمة العسكرية إذا لم يتم إعفاؤه منها بسبب اشتغاله بالتدريس . وفى أواخر عام ١٩١٨ أنشأ مجموعة من أصدقائه فيما بينهم صندوقا خاصا لإمداد راسل بما يكفيه فى معاشه لمدة ثلاثة سنوات يهب فيها نفسه للبحث العلمى وإلقاء المحاضرات . وكانت أولى نتائج هذا الصندوق هى ما حصل عليه من أجر مقابل محاضراته عن « تحليل العقل » (*) . وبمجرد أن انتهت الحرب طالب راسل بإلغاء صندوق المساعدة وقال انه

(*) تثير فينا القائمة الأصلية للمساهمين فى هذا الصندوق شيئا من حب الاستطلاع فهى تضم الأسماء التالية : تشارلس سانجر ، ويلدون كار ، لوسى سيككوكس ، سيجفريد ساسون ، تشارلس تريفيليان ، ليدى أوتولين موريل ، الأمير أنتونيو بيليسكو ، ج . م . كينز ، ريندل هاريس ، س . ج . أ . نورتون ، جيمس وارد .

يفضل أن يكسب قوته عن طريق الكتابة . بل أنه استطاع فى أواخر ١٩١٩ أن يقرض مبلغ ٤٠ جنيها استرلينيا لكليفورد ألن الذى قاسمه شقته فى بتاترسى لبعض الوقت . وكان هذا المبلغ أكثر مما طلبه ألن ، غير أن راسل قال : « أعرف أن الإنسان ينتقص من تقديره لما يحتاج إليه فى مثل هذه الظروف . فأنا على الأقل أفعل ذلك » . وقال أيضا : « أستطيع دائما أن استغنى عن بعض المال باستثناء شهر ديسمبر الذى أدفع فيه أقساط التأمين » .

لقد رأينا كيف نادى راسل فى سجنه بحرية الروح الإنسانية وقدرة العقل على التحرك دون قيود حتى وإن كان الجسد مكبلا بالأغلال . وقال فى هذا الشأن : « أننى حر ولسوف يكون العالم حرا كذلك » . ولكن راسل انصرف فى نفس الوقت للتوصل إلى فلسفة تكاد بمقتضاها الأفكار التى تدور فى عقله ألا تكون حرة . بل أيضا ألا يكون لعقله وجود بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، كما أن أى فرق فى النوع بين العقل والمادة لا يعدو أن يكون وهما صارخا .

وفى أبريل ١٩١٩ قال راسل لكلفورد ألن : « نظرا لأن الآلهة تدرك أننى أحاول أن أثبت أنه ليس هناك شىء اسمه العقل ، فقد جعلتنى أصاب ببرد ليعطينى فى الوقت الحاضر دليلا شخصيا على صحة مبحثى » .

وبدقة أكثر ، فان مبحثه فى « تحليل العقل » يتمثل فى « أن المادة ليست مادية والعقل ليس عقليا بالقدر الذى نفترضه بوجه عام » .... « يبدو أن العقل والمادة خليط مشترك . وتكمن المادة (*) التى يتكون هذا الخليط منها بمعنى ما بين الاثنين ، وبمعنى آخر فى منزلة أعلى منهما كما لو كانت سلفا مشتركا لهما » .

ويدين هذا النوع من الفلسفة الذى استحدث فى أمريكا تحت اسم « الواحدية المحايدة » بالفضل الكثير إلى وليم جيمس . ويمكن أن نذكر راسل فى هذا الوقت لهذا النوع من الفلسفة كمثال على شىء كان يصر دائما عليه ، وهو التمييز الكامل بين

(*) Substance

آرائه الفنية المخصصة كفيلسوف وبين كتاباته السياسية واليومية . وليس فى هذا أى تناقض منطقى . فمن المسموح به استخدام كلمة « حر » بطريقة مختلفة فى الفلسفة عنها فى السياق البلاغى . إذ لا يعرف أحد بالضبط معنى هذه الكلمة على أية حال . وحتى من يؤمن « بالواحدية المحايدة » قلما يستطيع أن يتجنب استعمال كلمتى « عقل ، جسد » فى حديثه العادى ، الأمر الذى ينتهى بالقارئ العادى لتفسيرهما بطريقة عادية .

والحديث العادى ، كما يرى راسل ، هو الأصل فى سوء الفهم ، فنحن حين نقول إن المنضدة « بنية اللون » فأننا نفترض ضرورة وجود منضدة من مادة . بيد أن ما نعرفه فى الحقيقة هو أن هناك معطيات حسية هى بقعة بنية اللون . وعندما نقول : « أنا أفكر » ، فأننا نفترض وجود « أنا » تفكر ، بينما كل ما نعرفه هو أن هناك تجربة مفكرة (*) وكتب راسل يقول : « أن الذات » – المقصود بها فى هذه الحالة راسل نفسه – « يتضح أنها وهم منطقى تماما كالنقط واللحظات فى علم الرياضة . ونحن نستخدمه ليس لأننا نتبينه بالملاحظة ، ولكن لأنه مناسب من الناحية اللغوية وتتطلبه قواعد اللغة . وكما قال راسل فى محاضراته عن « الذرية المنطقية » التى ألقاها فى أوائل عام ١٩١٨ « إن الشخص سلسلة معينة من الخبرات والتجارب » (**) .

وكان هدف راسل فى « تحليل العقل » ، كما يقول ، « هو أن أخضع العقل لنفس النوع من التحليل الذى طبقته على المادة فى كتاب « معرفتنا بالعالم الخارجى » وفيه عالج راسل قطعة من المادة على أنها بناء منطقى (***) يقوم على الأحاسيس (****) ، وقرر أن الأحاسيس ، ومعطيات الحواس شيء واحد .

(*) An experience of thinking

(**) A certain series of experience

(***) Logical construction

(****) Sensations

وكانت هذه الخطوة الثانية أصعب خطوة بالنسبة له فى الوصول إلى « الواحدية المحايدة » .

وقد أصر راسل فى كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجى » على التمييز بين (١) إحساسنا الذى هو حدث ذهنى يتمثل فى إدراكنا لشىء حسى (٢) الشىء الحسى الذى ندركه عن طريق الاحساس » . ويعد راسل التجاهل لهذا الفرق تجاهلا عن جزء من اقتناعه الذى يدحض به آراء باركلى ويسخر به من بيرجسون . وما يأخذه عليهما هو انهما خلط بين الذات والموضوع بطرق شتى . وقال بعض المثاليين فى هذا الشأن أنه إذا كان كل ما نعرفه عن المنضدة لا يعد وأن يكون فكرتنا عنها فى اذهاننا ، فإن المنضدة نفسها تكون ذهنية بوجه ما . وكتب راسل يقول : « لا يستطيع أن يقبل مذهب بيرجسون فى الحدسية سوى من لا يميز بوضوح بين الذات والموضوع » .

غير أن التخلى عن هذا التمييز هو ما يتسم به أسلوب راسل فى معالجة الأمور ، فبعد أن يكون قد أولى خطا يتتبعه فى البحث والاستقصاء كل تفكيره ، نراه يستمر فيه مهما كانت نتائجه كريهة على أفكاره المسبقة الأصلية .

ويبدو أنه اضطر إلى إعادة النظر فى المسألة كلها وتوصل إلى الواحدية المحايدة والتطابق بين الإحساس ومعطيات الحواس عن طريق الاتجاهات المعاصرة فى علم النفس والفيزياء . وكان راسل على علم تام بأبحاث الدكتور واطسون والسلوكيين ورأيهم القائل بأن الإنسان كله جسد وليس عقلا . فالأفكار على سبيل المثال ليست سوى ردود فعل حركية أولية بسيطة فى الحنجرة . وفى نفس الوقت كان أينشتين يحدث تغييرا فى وجهة النظر التقليدية عن الكتلة والمادة . وهكذا فإنه طبقاً لما توصل إليه علم النفس والفيزياء الحديث ، فقد أصبح العقل أكثر اعتمادا على المادة ، بينما أصبحت المادة أقل مادية عن ذى قبل . وظهرت « الواحدية المحايدة » على أنها نقطة التقاء طبيعية بين هذه الاتجاهات .

وبعد أن دلل راسل على أن الأشياء المادية « بناء » (*) يقوم على معطيات الحواس وقرر أن المعطيات الحسية للون البنى والاحساس برؤية اللون البنى هما نفس الشىء ، اتجه هذا الفيلسوف نحو توضيح أن العقل « بناء » يستخدم نفس مكونات الأشياء المادية الفيزيقية . وقال : إن الفيزياء من ناحية كونها علما يقوم على المشاهدة والتجربة وليس خيالا منطقيا تعنى بدراسة جزئيات من نفس نوع الجزئيات تماما التى يدرسها علم النفس تحت اسم الاحساسات (**) .

وترتب على ذلك أن توصل راسل إلى فلسفة تمثل الجهد الدؤوب الصبور من ذلك النوع الذى لا نتنبه إليه فى أغلب الأحيان بسبب لمعان نكتته ووهج دعابته . وهى أنه إذا كانت وظيفة العقل الوحيدة أن يحصل على الاحساسات ، وإذا كان الوعى يتمثل ببساطة فى رؤية الأشياء وسماعها ولمسها ، عندئذ يمكن إثبات « الواحدية المحايدة » بصورة كاملة . ويمكن النظر إلى كل من العقل والمادة على أنهما بناءان يقومان على الإحساسات (أو معطيات الحواس) مجمعة بطرق مختلفة . غير أن العقول تحتوى أيضا على معتقدات ورغبات وذاكرات وهكذا . ولو كانت كل هذه الأشياء أبنيه تتكون من الإحساسات ، لأمكن بنجاح إثبات الواحدية المحايدة بحذافيرها . وكان يمكن لبعض الفلاسفة أن يعتقد أن هذا يجب أن يكون ممكنا لمجرد الاحساس الغريزى بأن مثل هذه الفلسفة المذهلة فى دقتها ونظامها المتناسق لابد وأن تكون صحيحة .

وعلى سبيل المثال ، كان فيتجنشتين الشاب ينساق وراء نظرية كهذه على هذا النحو دون أن يتوقف لفحص التفاصيل ومعرفة ما إذا كانت هذه النظرية يمكن العمل بها

(*) construction

(**) أن صنف كل ظواهر كرسى فى حجرة كما يراه سائر الناس المختلفين فيها – حسب شرح راسل فى قاعة المحاضرات – يعطى شيئا ينتمى إلى علم الفيزياء . أما صنف ظواهر كل الكراسى المختلفة – إذا نظر إليها من منظور معين – يعطى شيئا ينتمى إلى علم النفس .

أم لا . غير أن راسل فى « تحليل العقل » حاول أن يدرس هذه الوظائف الإضافية للعقل الواحدة تلو الآخر ليرى هل يمكن للواحدية المحايدة أن تجد تفسيرا لها . وأصاب راسل فى ذلك نجاحا كبيرا ، إلا إنه لم يسمح لرغباته المسبقة أن تخدعه وتجعله يظن أن نجاحه كان كاملا . ومن ثم فإنه بدلا من أن يصل إلى تعميمات مرضية كاملة انتهى به الأمر إلى نظرية غير محكمة مفككة الأطراف ، ينقصها التناسق ، وأعرف بأنه هو نفسه لا يرضى دائما عما وصل إليه من نتائج .

وفسر راسل بعض الوظائف الإضافية للعقل على أساس النظرية السلوكية وقرر على سبيل المثال أن الرغبة دورة سلوكية تنبع من الاحساس بعدم الراحة . « إن العنصر البدائى غير المدرك (*) فى الرغبة يبدو أنه دفع لا جذب ، دافع للبعد عن الواقع أكثر من كونه جذابا نحو المثال » .

وعندما بدأ راسل فى دراسة الإيمان والذاكرة والخيال واجه صعوبات أكبر . وعلى الرغم من أنه قد ردها جميعا إلى مركبات من الإحساسات (**) ، فإنه خالف السلوكيين باعترافه بالاستبطان والصور الذهنية . وجاء فى خطاب له : « يقول السلوكيون إن الصور الذهنية هى حركات صغيرة للسان والزور وهما ينطقان الكلمات فى صمت . وهذا هراء واضح » .

وهكذا بقى أمام راسل عنصران فى العقل لا يمكن ردهما لشىء ، وهما الإحساسات والصور الذهنية . غير أن الصور الذهنية لا تختلف فى جوهرها عن الإحساسات ، تماما كما تتشابه « معطيات الحواس غير المحسوسة » (إن وجدت) فى طبيعتها مع الإحساسات » . إن العقل بناء من الصور الذهنية والإحساسات ، كما أن المادة بناء مستمد من الإحساسات وربما معطيات الحواس غير المحسوسة . وبذلك تكون الإحساسات « هى نقطة تقاطع العقل مع المادة » .

(*) Non-cognitive

(**) Complexes of Sensations

وهكذا نجح راسل إلى هذا الحد فى القضاء على الاختلافات الجوهرية بين العقل والمادة . بيد أن نوعا آخر من الثنائية بدأ يظهر أمامه . فقد تكون الرغبة دورة سلوكية غير أنه كان من الضرورى تفسير لماذا يتميز سلوك الأدميين بالقدرة على التعلم من التجارب والخبرات . وتعين على راسل أن يفسر لماذا يخشى النار الطفل الذى اكتوى بها من قبل ويتصرف طبقا لهذا ، بينما لا تفعل ذلك قطعة من الخبز المقدد . وكان رد راسل على ذلك أن القوانين السببية النفسية تختلف عن القوانين السببية الفيزيقية . والفرق الجوهرى بينهما هو أن الوحدة السببية (*) فى علم النفس ليست حدثا واحدا وإنما حدثين أو أكثر اختفى أحدهما أو أحدها (فى المثال المشار إليه حدث حرق الطفل فيما سبق) .

ومن الجلى أن راسل كان يود أن يوضح أنه يمكن رد القوانين النفسية ، بقدر أكبر من المعرفة ، إلى قوانين فيزيقية . ولكنه اعترف بصراحته المعهودة بأنه لا يعرف إذا كان فى وسعه أن يفعل ذلك . وهكذا بقيت أمامه ثنائية رئيسية لعلها أكثر إقلاقا للإدراك العام الفلسفى من الثنائية الأصلية بين العقل والمادة .

واستمرت فلسفة راسل عن الواحدية المحايدة فى التطور خلال السنوات التالية . غير أننى سأذكر هناك بعض الشكوك والاقتراحات التى تقوم على أساس الإدراك العام . وذلك فيما يتعلق بموقفه فى كتابه « تحليل العقل » .

أولا : نظرا لأنه لم ينجح فى الوصول إلى واحدية محايدة كاملة ، فإنى أعتقد أنه كان يجدر به أن يعيد النظر فى بعض الخطوات التى اتخذها للوصول إليها ، وبخاصة تحليله للرغبة . ولست أظن أن ما يقوله يمكن تنفيذه . ولكنى أفضل ونحن بصدد تفسير لماذا صعد سير ادموند هيلارى جبل افرست أن نقول

(*) Causal unit

إنـه كان يريد أن يصـعـد إلى قـمـة الجبل ، لا أن نقول أنه كان يشعر بعدم الراحـة أسفله .

(أصبح راسل فيمـا بعد يميل إلى الموافقة على أن نظريته عن الرغبـة فى « تحليل العقل » قد لا تكون سليمـة . ولكنه لم يكن يوافق على أن النظرية السليمة تقتضى إرجاع « الأنا » إلى مكانتها السابقة .

ثانيـا : إن السبب الرئيسى الذى اسـتند إليـه راسـل فى إنكار النفـس هـو عـجـزه عن أن يجد الدليل عليـها القائم على المشاهدة والتجربة . فالأفكار تتضـمن خـبرة التفكير ولكنها لا تتضمن « الأنا » التى تفكر . ولقد فقدت هذه المحاجة شيئا من قوتها بعد أن أصـبح راسل أكـثـر اسـتـعـدادا للاعـتـراف بل وتـأكـيـد حـدود مـذهـب المشـاهـدة والتجربة .

ثالثا : يجب الاعتراف بأن فضل راسل فى إثبات وجود تناسق (*) بين العقل والمادة كان له فـائدة عظيـمـة . فـقد دفـعـه ذلك إلى رفض التـوازى النفـسى – المادى (**) ، وإلى الاعتقاد تبعا لذلك بـأن العقل يمكن أن يتفاعل مع المادة ، وبالعكس . ولقد سـهلت الواحدية المحايدة كثيرا من قبول وجهة النظر التى تقوم على الإدراك العام بمشكلة العلاقـة بين العقل والجسـد ، والتى أعتقـد أنهـا واضـحـة الصـحـة وانهـا أقـرب إلى الحقيقة من معظم الفلسفات .

ويجـدر بى أيضـا أن أعـاود الحديث هنا عن مـحـاضـرات راسل عن الذرية المنطقية ، التى سبق الإشارة إليها . وتستمد هذه المحاضرات مادتها من أفكار أثارتها مناقشاته فى المنطـق مع فيـتـجشـتين ، وفى فـترة الحرب أكمل فيتجنشـيتين كتابه « رسـالة فى فلسـفـة المنطق » أثناء خدمته فى الجيش النمساوى . وفى حوالى ١٩١٩ تقابل راسل وفيتجنشتين

(*) Symmetry

(**) Psycho-physical parallelism

فى لاهاى لمناقشة هذا الكتاب ، الذى نشر لأول مرة باللغة الألمانية ثم صدرت له ترجمة بالإنجليزية فى عام ١٩٢٢ (*) .

وكتب راسل مقدمة لهذا الكتاب أثارت غضب فيتجشتين الشديد ، قائلا إنها تسىء تقديم أفكاره . وعلى قدر ما أعرف كان فيتجشتين يرفض دائما تفسير أى شخص آخر – غير نفسه – لآرائه . والواقع أن هناك شكا فى مدى نجاحه فى شرح آرائه بنفسه .

وكان أنجب تلامذة راسل وفيتجشتين هو فرانك رامزى الذى كانت وفاته المبكرة المحزنة سببا فى عدم انتهائه من عمله الأصيل المبتكر . وذات مرة ضاق فرانك ذرعا بالمناقشات التى لا تنتهى المحتدمة فى جامعة كامبردج حول تفسير « رسالة » فيتجشتين وقرر أن يذهب إليه فى النمسا حيث آثر اعتزال الحياة لبضعة أعوام ليسأله مباشرة عما يعنيه فى بعض الفقرات الغامضة من كتابه . غير أنه منى بشىء من خيبة الأمل عندما أجابه فيتجشتين بأنه لا يذكرها .

ولن أحاول فى الوقت الحاضر أن أكتب شيئا عن « رسالة » فيتجشتين بالرغم مما لها من أهمية قصوى . ولكنى سأكتفى بأن اذكر ما أعتقد أنه أهم فكرة تقاسمها فيتجشتين مع راسل فى ذلك الوقت ، والتى أعتقد أنه ليس هناك شك فى نسبتها إلى راسل ، نظرا لأنه يمكننا أن نتتبع أصلها فى « مبادىء الرياضيات » وفى أعمال راسل السابقة عن هذا الكتاب .

وتتلخص هذه الفكرة فى تأكيد « البناء » (**) . ومثال ذلك ما ذكرناه من قبل عن النظرية التى تذهب إلى أن الجملة لها نفس الحقيقة التى تصفها . ولكن هذه الفكرة أوسع من هذا فى مدى أهميتها . وانى أورد فى هذا الصدد فقرة كتبها راسل فى « مقدمة الفلسفة الرياضية » .

(*) حيث إن أحد الكتاب قد ذكر أن راسل مسئول عن الترجمة ، فإنه يجدر بنا أن نسجل أنه لم تكن له علاقة بها . ولكن لا سبيل إلى إنكار أن الأخطاء التى وردت فيها والتى زادت من غموض الكتاب بالنسبة للقراء الانجليز زيادة كبيرة قد ساعدت سمعة « فيتجنشتين » على اكتساب صفة العمق .

(**) Structure

« غالبا ما يقال إن الظواهر ذاتية غير أن سببها يرجع إلى الأشياء فى حد ذاتها وحيث تقدم هذه الفروض ، فإننا نفترض بوجه عام أننا لا نستطيع أن نعرف إلا القليل جدا عن المقابل الموضوعى لها . والواقع على أية حال أنه لو كانت هذه الفروض – كما وردت – صحيحة ، فإن مقابلاتها الموضوعية سوف تكون عالما له نفس بناء عالم الظواهر ويسمح لنا بأن نستدل من الظواهر حقيقة كل القضايا التى يمكن أن نضعها بشكل مجرد والتى نعرف أنها تصدق على الظواهر » .

ولم تكن هذه الفكرة على نفس القدر من الأهمية من وجهة نظر فلسفة راسل فى ذلك الحين . غير أنها أصبحت ذات أهمية كبرى بعد عودته إلى وجهة النظر العادية عن العالم الخارجى ، الذى هو سبب مدركاتنا الحسية . والمعرفة التى نحصل عليها عن طريق مدركات الحواس هى معرفة ببنائها لا يمكن التعبير عنها إلا فى صياغات رياضية مجردة . وهنا نصل إلى مملكة من السحر والفتنة تتلاقى فيها الفلسفة بالعلم . فالعلم الحديث بعد أن أتفق مع راسل فى محاولة استبعاد ذلك النوع من الموجودات التى لا تخضع للملاحظة والتى أقصاها بنصل أو كام أتفق معه أيضا على أن معرفة البناء هى الشيء الوحيد الذى يتبقى .

ولكن يشعر القارىء بالاقتناع فيما يتعلق بهذه النقطة ، فليس عليه إلا أن يلاحظ كيف كان ادنجتون يكثر من اقتطاف هذه الفقرة من كتابات راسل التى أشرنا إليها فيما سبق . وقد يرجع القارىء إلى ما كتبه سكرود ينجر تحت عنوان « العلم والمذهب الانسانى » حتى يجد مثالا ميسورا آخر على أهمية البناء بالنسبة للعلماء . وفيه يذهب سكرود ينجر إلى أن التفرد يحدده البناء وليس هوية المادة . وأعود على سبيل المثال إلى توضيحى السابق فأقول إننا نستطيع أن نذهب إلى أن تشرشل الشاب وتشرشل السياسى العجوز يتميزان بتشابه معين فى البناء .

الفصل الثالث عشر
زيارة للاتحاد السوفييتى

لقد اتسم الفكر اليسارى فى بريطانيا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بانحرافين رئيسيين . أولهما هو الاقتناع بأن الحرب العالمية الثانية تعنى نهاية الحضارة الغربية ، وأن أية محاولة للدفاع عديمة الجدوى ، وثانيهما الاعتقاد اعتقادا حسن النية أن أى شخص يؤمن أن قادة روسيا السوفيتية كانوا طغاة شموليين غلاظ القلوب إنما هو من المحافظين الرجعيين . ولقد أدى انتشار الخطأ الأول إلى انتصار هتلر فى عام ١٩٤٠ . وكاد أن ينجم عن الخطأ الثانى فقدان السلام فى سنوات ما بعد ١٩٤٥ .

ولا يمكن تبرئة راسل من ارتكاب الخطأ الأول كما سنرى فيما بعد . ولكنه كان بريئا تماما من ارتكاب الخطأ الثانى . ويكاد راسل أن يكون فريدا بين الراديكاليين البريطانيين فى مواجهة الحقيقة بالنسبة لروسيا .

وساعدت الحرب العالمية الأولى على تحول راسل من الليبرالية إلى الاشتراكية . ويرجع تحوله أساسا إلى المحاجة التى تذهب إلى أن الرأسمالية تؤدى إلى الحروب . وأعلن راسل ، شأنه فى ذلك شأن الماركسيين ، أن النظام الرأسمالى القائم مقضى عليه حتما ... ولكنه عندما دافع عن الاشتراكية فى ذلك الوقت كان يعنى الاشتراكية الحرفية (*) أو الاشتراكية النقابية (**) (السندكالية) ، فقد كان يريد أن تدار الصناعات بواسطة العاملين فيها وليس عن طريق الحكومة . ولكن الاشتراكى فى يومنا الراهن هو الشخص الذى يبتهج بتوسيع نشاط الدولة ومجال عملياتها . وكان راسل يرى أنه لا محيص من زيادة بعض سلطات الدولة . ولكنه كان ينظر إلى ذلك على أنه شر لابد منه . وقد اعترف

(*) Guild Socialism .

(**) Syndicalism

بأنه يميل بالمزاج نحو الفوضوية . ووصف سلطة الدولة المتزاينة ، كواحد من الأسباب الرئيسية للشقاء الإنسانى فى العالم الحديث . (وفوق كل شىء ، كان النشاط الأساسى للدولة فى تلك السنوات يتلخص فى صناعة الحرب) . وتنبأ صائبا أن التأميم أو إحلال الدولة محل صاحب العمل الخاص سيجعل العامل الفرد أقل فى قدرته على السيطرة على عمله مما هو عليه الآن .

وفى محاضرة ألقاها فى مانشستر عام ١٩١٦ تحت عنوان « ثغرات الاشتراكية » ، أظهر راسل مرة أخرى موهبته فى التنبؤ الصحيح . أن العيب الأساسى فى اشتراكية الدولة هو اعتقادها فى إمكانية الإصلاح بمجرد تغيير جهاز الدولة . ولكن التأميم لن يقضى على الشرور الموجودة فى الصناعة إذا لم يصاحبه تغيير فى نظرة الإنسان إلى الأمور .

ويقول راسل : إن سلطة الموظف الرسمى « خطر عظيم متزايد فى الدولة الحديثة ... إن حب السلطة حافز على درجة قصوى من الخطورة ، وذلك لأن الدليل الأكيد الوحيد على امتلاك السلطة يتلخص فى منع الآخرين من القيام بما يبغون عمله » .

ومما يؤسف له أن الإنسان فى أيامنا الراهنة يقرن مثل هذه الانتقادات الموجهة إلى بيروقراطية الدولة بمعارضى الاشتراكية . ولكنه منذ أربعين عاما كان هناك عدد كبير من الاشتراكيين الحرفيين الآخرين يشاركون راسل فى تفكيره . وحتى الماركسيين كانوا يرون فى « زوال الدولة » مثلهم الأعلى الذى يأملون فى تحقيقه فى نهاية الأمر . وقد كان الإعجاب غير المتمعن وغير المدقق بروسيا السوفيتية هو الذى أقنع المفكرين اليساريين أن اشتراكية الدولة هى الأسلوب الاشتراكى الوحيد الذى يمكن أخذه فى الاعتبار . وبالتأكيد ، فإن الدولة فى روسيا لم يبد عليها أية علامات « الزوال » ، الأمر الذى حدا بالاشتراكيين البريطانيين أن يذهبوا إلى أن روسيا لابد أن تكون على صواب . وهكذا ارتفع التأميم – الذى كان حتى بالنسبة للنظرية الماركسية مجرد غاية إلى وسيلة – حتى أصبح غاية فى حد ذاته .

حقيقة أن راسل – مثله فى ذلك مثل بقية الاشتراكيين – بدأ بإزجاء التحية المتحمسة

للثورة الروسية . ففى يناير ١٩١٨ كتب لكليفورد ألن يقول : « إن العالم مكان ملعون . ولينين وتروتسكى هما الجانب المشرق الوحيد فيه » . ثم كتب بعد وقت قصير يقول : « إن كل يوم يمر يملأ العالم بالأمل . إن البلاشفة يدخلون البهجة إلى نفسى ، ومن السهل على أن ألتمس لهم العذر فى طردهم المجلس الانتخابى إذا كان يشبه مجلس العموم عندنا بأية صورة . عجبى من نجاحهم : لقد حركوا الثورة فى النمسا وألمانيا ، بل أنهم جعلوا بعض الانجليز يفكرون ، ولكنهم لن ينجحوا أبدا فى دفع أمريكا إلى التفكير .

ويختلف راسل عن غيره من التقدميين فى أن إعجابه بروسيا السوفيتية لم يستمر بعد زيارته لها .

قام راسل بزيارة الاتحاد السوفيتى فى صيف ١٩٢٠ عندما دعى كعضو غير رسمى فى وفد عمالى ضم كليفورد ألن ودكتورهادن جست (الذى أصبح لورد هادن جست فيما بعد) ومسز فيليب سنودن . ومكثوا فى روسيا من ١٩ مايو إلى ١٦ يونيو . ووصلوا إليها فى حالة من الحماس البالغ إلى الحد الذى جعلهم ينفجرون تلقائيا فى انشاد « الانترناشيونال » و « العلم الأحمر » الشيوعيين عندما وقعت أنظارهم لأول مرة على العلم السوفيتى وهو يرفرف على الحدود .

وتذكر راسل فيما بعد هذه الزيارة قائلا : « كنت على استعداد لتحَمل الصعاب الجسدية ، والمتاعب والقذارة والجوع فى سبيل الأمل الرائع للإنسانية . وليس من شك أن رفاقنا الشيوعيين رأوا – وهم مصيبون فى ذلك – أننا لا نستحق مثل هذه المعاملة . فبعد أن عبرنا الحدود أقاموا لنا وليمتين وقدموا لنا فطورا جيدا وعددا من السيجار من أرقى الأصناف ، وقضينا ليلة فى حجرة نوم بالغة الروعة فى قصر احتفظ بكل بذخ العهد البائد » .

وعلى أية حال ، لم تكن الأحوال أحيانا بمثل هذا البذخ . وكان راسل يتسلى عندما يرى أن رفاقه من نقابات العمال أكثر منه ضيقا حين يجدون بقا فى أسرة الفندق الذى ينزلون فيه . وعزا راسل مناعته ضد قرصات البق إلى امتلاء دمه بالنيكوتين .

وسافر الوفد فى قطارات خاصة زينت بالأعلام الحمراء وأغصان الشجر الخضراء والشعارات الكثيرة عن الثورة الاجتماعية والبروليتاريا فى العالم . وفى أول استقبال عام لهم عزف نشيد الانترناشيونال الشيوعى لا أقل من سبعة عشرة مرة لتحية كل قادم جديد من الشخصيات الهامة ، وبعد الانتهاء من إلقاء الكلمات ، وخلقت مسز سنودن نوعا من تلطف الجو عندما تساهلت فى الاستمساك بمبدأ الامتناع عن الخمور لتكريم ضيوفها وشربت من الفودكا ما جعلها تفاجىء هادن جست بإظهار شىء من الهيام نحوه .

وذات مساء انضم إليهم تروتسكى وهم يشاهدون عرضا فى الأوبرا باعتباره قائد جيش عاد منتصرا من الجبهة البولندية . وعندما تم تقديمه إلى واحد من معترضى الضمير من أعضاء الوفد ، علق تروتسكى قائلا : « إننا لا يمكن أن نقبل هنا أحدا ممن يبشرون بالسلام ويريدون إيقاف الحرب » . ولكن هذا التشدد زايل تروتسكى بعد ذلك ، فقد مال على مسز سنودن أثناء أداء أحد مناظر الحب الرقيقة على المسرح وهو يقول : « ها هى اللغة العالمية العظيمة » .

وقد سجل راسل حينذاك وصفا لتروتسكى فقال إنه : يترك انطباعا نابليونيا للغاية . عيناه لامعتان ، قامته عسكرية ، خاطف الذكاء ساحر الشخصية . أدهشنى أنه حسن المنظر إلى أقصى حد . وسحره للنساء لا يقاوم . وهو حبيب لطيف المعشر طالما أن جذوة حبه لم تخمد . وشعرت أنه يتمتع بروح الدعابة والمرح طالما أن شيئا لا يعكر صفو مزاجه بأى شكل من الأشكال ، معدوم الشفقة ولكنه غير قاس ، وله شعر مموج رائع ، وزهوه أعظم من حبه للسلطة ، إنه زهو فنان أو ممثل .

واشتملت أسفار الوفد على رحلة فى نهر الفورجا بدأت من نجنى نوفجورود . وكانت الليالى قارصة البرودة ، وأوشك كليفورد ألن على أن يموت بالالتهاب الرئوى ، وبالتهاب فى الغشاء المحيط بالرئة . وكتب راسل وصفا للرحلة - نشره فى جزء من كتاب « مشكلة الصين » - اعتبره أفضل قطعة كتبها نثرا .

ولأن راسل لم يكن مبعوثا رسميا ، فإنه استطاع أن يتغيب عن بعض الاحتفالات الرسمية وأن يقابل الناس العاديين فى الشوارع والقرى . (والتقى ببعض الروس ممن

كانوا مسجونى حرب فى ألمانيا ، والذين استطاع أن يتحدث إليهم باللغة الألمانية) .
وحاول راسل أن يتعلم بعض الأمور مثل الإجراءات المتبعة لشراء شمسية من الجمعيات السوفيتية فى موسكو ، « الأمر الذى اتضح أنه يبلغ من العسر ما تبلغه محاولة الولوج إلى غوامض الكون وأسراره » . وشاهد طوابير من النساء المتعبات ينتظرن بصبر خارج محلات الخبز الحكومية ليحصلن على مقرراتهن من الخبز الأسود ، وارتاع راسل لما وجده من فقر وبؤس شأنه فى ذلك شأن بقية أعضاء الوفد . وقد ذكرت مسز سنودن فيما بعد أنه على الرغم من أن أعضاء الوفد قد خرجوا جميعا وهم يرتدون أقدم ملابسهم عن عمد فقد ظن الروس أنهم « يرتدون ملابس الأمراء » وأداروا أجسام هؤلاء الأعضاء بهدف إظهار الإعجاب بهم كما كانوا يتحسسون معاطفهم وملابسهم ويربتون عليها .

ولكن راسل لاحظ أنه ليس هناك إقبال على تعاطى المسكرات . أو أن تعاطى المسكرات « كان محدودا للغاية بحيث لم يلحظه أحد منا » كما كانت الدعارة فى موسكو أقل بكثير جدا منها فى أية عاصمة أخرى . وكانت النساء فى مأمن من المعاكسات أكثر من أى مكان آخر فى العالم . وقال راسل : « إن الانطباع العام الذى تتركه الحياة هناك يعطى صورة لنشاط منظم فاضل » .

وانتهى راسل فى الواقع إلى أن البلاشفة يشبهون إلى حد ما البيورتيانيين المتزمتين فى مجال الأخلاق ، ولعلنا نجد فى هذه المقارنة ظلما قليلا للبيوريتانيين . ولكنه يجب أن نذكر أن راسل نفسه كان يمقت البيورتيانيين مقتا مشبوبا بكل جوارحه ، الأمر الذى لم يكن يتسنى حدوثه لو لم يكن راسل نفسه بيورتيانيا . وقال : « يكاد شكل الحكومة السوفيتية أن يطابق تماما شكل الحكومة التى أقامها كرومويل فى انجلترا فى القرن السابع عشر . فكلاهما ينتميان إلى مرحلة تتشابه إلى حد ما فى التطور الاقتصادى فى ظل نظام إقطاعى متداع وطبقة متوسطة تنشأ بالتدريج . وشعب أمى فى غالبيته . كما أن الجيش الأحمر يقابل جيش القديسين عند كرومويل يقوده رجال يتم اختيارهم على أساس قوة اقتناعهم بالعقيدة » .

واجتمع راسل فى الكرملين مع لينين الذى قال أنه يود أن يرى حكومة للعمال تقام

فى لندن وأنه يريد من الشيوعيين البريطانيين أن يعملوا من أجل تحقيق ذلك . ولكنه ببساطة كان يهدف من وراء ذلك إلى كشف عدم جدوى الحياة البرلمانية . وعندما قال راسل أنه من الممكن تحقيق الاشتراكية فى انجلترا دون الالتجاء إلى سفك الدماء ، « أزاح لينين هذا الرأى جانبا على أنه خيالى » . وكان من الواضح أن لينين ليست لديه فكرة عن موقف العمال البريطانيين الذى حال دون شن حرب شاملة ضد روسيا السوفيتية .

ووجد راسل لينين على طرف نقيض من تروتسكى . ويقول راسل فى وصف لينين : « ليس هناك شىء فى مسلكه أو مظهره يوحى بأنه الرجل صاحب السلطة . وهو ينظر إلى زائره عن كثب مغمضا إحدى عينيه نصف إغماضة » .

وغادر الكثيرون من أعضاء الوفد روسيا وهم فى حالة خيبة أمل مريرة وأفاقوا من أحلامهم . وقد نقلت مسز سنودن عن أحدهم قوله « تكاد ألا توجد فى روسيا اشتراكية جديرة بهذا الاسم ويعيش الناس فى بؤس تام » . كما كتبت هى بصراحة عن « الشقاء الذى يتحمله شعب روسيا البائس » . ولكن عند عودة الآخرين من أعضاء الوفد إلى أرض الوطن استقبلتهم الجماهير فى اجتماعاتها الشعبية بحفاوة منتشية وهى تتعطش لسماع المديح لروسيا ، الأمر الذى أغراهم بأن يقدموا تقارير عن الحالة فى روسيا تزيد فى إشراقها عن الواقع الذى بدأ يخبو فى ذاكرتهم . أما بالنسبة لراسل فقد شرع يكتب تحليلا نقديا أمعن فيه النظر تحت عنوان « تطبيق البلشفية ونظريتها » .

واستطاع راسل أن يعيد طبع هذا الكتاب بدون تعديلات تقريبا فى عام ١٩٤٩ . وهو مثال مدهش على دقة ملاحظته السياسية ، وقدرته على التنبوء الذى يصمد أمام مرور الزمن . ولكن راسل فى الحقيقة لم يكن مناهضا للبلشفية تماما كما استخلص بعض الناس من تصريحات له صدرت فيما بعد مثل التلخيص الذى أعده عام ١٩٤٣ عن زيارته لروسيا والذى يقول فيه : « عندما ذهبت هناك فى عام ١٩٢٠ لم أجد شيئا يثير الحب أو الاعجاب » . وكان كتابه فى بعض فقراته أقل عداء للاتحاد السوفيتى ولينين من الكتاب الذى ألفته مسز سنودن . ويعطى كتاب راسل فى بادىء الأمر انطباعا بتقلب صاحبه الغريب بين لعن البلاشفة والثناء عليهم بسبب حرصه على أن يقدم كلا الجانبين السىء والطيب فى عدل وموضوعية .

ويتضح لناشيء من الانقسام الفكرى الذى عاناه راسل فيما يتعلق بروسيا فى ذلك الوقت فى خطاب له يقول فيه :

« أنحيت على نفسى بالائمة لأنى لم أحبها . فقد كانت لها كل سمات البداية الفنية . كانت قبيحة ومتوحشة ولكنها مليئة بالطاقة البناءة والإيمان بقيمة ما تصنع ... » .

« لقد كنت فى ذلك الجو تعسا تعاسة لا حد لها – تخنقنى نفعيته وعدم مبالاته بالحب والجمال والحياة النابضة . انه لا يمكننى أن أعطى احتياجات الإنسان الجسدية باعتباره حيوانا فقط ذلك الاهتمام الذى أعطاه رجال السلطة هناك لها . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أننى لم أقضى نصف عمرى فى عوز وجوع كما حدث لكثيرين منهم . ولكنى أتساءل : « هل يؤدى الجوع والعوز بالضرورة إلى الحكمة ؟ هل يجعلان الإنسان قادرا بدرجات متفاوتة على إدراك المجتمع المثالى الذى لابد أن يكون مصدر إلهام كل مصلح ؟ » .

« اننى لا أستطيع أن أتخلى عن الاعتقاد بأن الجور والعوز يضيقان الأفق أكثر مما يوسعانه . ولكن يظل هناك شك يقلقنى وإنى أجد نفسى ممزقا إلى نصفين » .

وكانت النقطة الأساسية فى كتاب « تطبيق البلشفية ونظريتها » : هى أن يوضح أن الاشتراكيين البريطانيين كانوا مخطئين فى اعتقادهم بأن «ديكتاتورية البروليتاريا » ليست سوى شكل جديد للحكومة النيابية . وأصر راسل على تسمية الديكتاتورية باسمها الحقيقى ، وهو الديكتاتورية فى حين أن كلمة « بروليتاريا » تستخدم بمفهوم مضحك (يذكرنا بشخصية ديكنز المعروفة المستر بيكويك) للدلالة على الحزب الشيوعى .

وقال راسل إنه فى ظل حكم الديكتاتوريين البلاشفة ، « كانت المعارضة تسحق بدون رحمة ودون جفول باستخدام أساليب البوليس القيصرى الذى استمر كثير من أفراده يقومون بعملهم القديم » . وبعد ما رآه فى الحرب ، فانه لم يعد يقبل – كما كان يقبل عندما حاضر عن ألمانيا فى عام ١٨٩٦ ، فكرة وجود مزايا معوضة فى الحماس المحموم الذى يصاحب التعصب والتزمت فى الاستمساك بالآراء القاطعة . « إن الاحتكاك بمن

لا يعتريهم شك قد زاد من شكوكى ألف مرة ليس بالنسبة للاشتراكية نفسها ولكن بالنسبة إلى حكمة الاستمساك الراسخ بعقيدة رسوخا يجعل الناس على استعداد لأن ينشروا البؤس والشقاء من أجل ذيوعها » .

وتتلخص النتيجة التى توصل إليها راسل فى أن « الشخص الذى يؤمن مثلى بأن العقل الحر هو المحرك الرئيسى فى التقدم البشرى ، لا يمكنه سوى أن يعترض على البلشفية اعتراضا رئيسيا ، بقدر ما يعترض على كنيسة روما . إن الآمال التى تلهم الشيوعية هى فى أساسها جديرة بالإعجاب مثل الآمال التى تثيرها « موعظة المسيح على الجبل » . ولكن الناس يستمسكون بكلا الشيوعية وموعظة المسيح على الجبل استمساكا متعصبا بما يجعل من المحتمل أن يحدثا ضررا متساويا » .

وأعتقد أن راسل كان أول من تنبه ووضح أن الشيوعية شكل من أشكال العقيدة وهى عقيدة يمكن استخدامها كالمسيحية فى تبرير الاضطهاد (ولعلنا نذكر أنه وصف الماركسية على أنها عقيدة منذ الوقت الذى كتب فيه « الديموقراطية الاشتراكية فى ألمانيا ») . وفيما يتعلق بالنظرية البلشفية ، فقد استكمل راسل نقده لها الذى بدأه فى عام ١٨٩٦ . فقال : إن الماركسيين ركزوا أكثر من اللازم على الدوافع الاقتصادية ولم يهتموا بالقدر الكافى بقوة القومية والدين والكبرياء وحب السلطة . ثم عاد يؤكد من جديد أن نوع الاشتراكية المناسب لبريطانيا ليس الشيوعية ولكنه الاشتراكية الحرفية أو الحكم الذاتى فى الصناعة .

كانت ذلك أحد جوانب الصورة يتمثل فى تلخيص موقفه المناهض للنظام السوفيتى . أما عن الجانب الآخر فقد كتب راسل يقول : « إن روسيا ليست على استعداد لأى شكل من أشكال الديموقراطية ... وهى تحتاج إلى حكومة قوية ... وفى روسيا تصبح الأساليب البلشفية أمرا لا محيص عنه بصورة أو بأخرى ،

وهكذا ظل راسل طيلة الوقت يتأرجح بين إدانة النظام السوفيتى وتخفيف الحكم الذى يصدره عليه شارحا أسباب الاتهام والدفاع . وفى إحدى الصفحات نراه يكتب : « لا يمكننى أن أشارك البلاشفة آمالهم . إننى أنظر إلى البلشفية على أنها أوهام مأساوية قدر لها أن تجلب إلى العالم قرونا من الظلمة والعنف غير المجدى » . ولكننا نراه يكتب فى

صفحة أخرى : « إننى أومن بأن الاشتراكية ضرورية للعالم كما أومن بأن بطولة روسيا قد ألهمت الناس بطريقة لازمة لتحقيق الاشتراكية فى المستقبل » .

وبالرغم من المحاولات التى بذلها حتى يكون عادلا فى حكمه على الشيوعيين فقد استقبل الاشتراكيون البريطانيون كتابه بكراهية مشبوبة . فقد كان هناك شعور بأنه حتى لو كان نقده على حق ، فإنه كان ينبغى عليه ألا يصرح بهذا النقد لأنه سيساعد أى محافظ يرغب فى مهاجمة روسيا السوفيتية لأسباب رجعية .

وقد كان نقده سببا لإثارة المشكلة الخاصة بموقف المفكر فى السياسة وكيف يمكن له أن يجمع بين حب الحق والنشاط السياسى التنظيمى .

وكانت هذه المشكلة بالنسبة لراسل حادة بصفة خاصة . وظل يتأرجح بين هذين الشعورين المتعارضين . وآمن راسل بالعقل الفرد المستقل وليس بعواطف الغوغاء الهوجاء . وكتب يقول : « إن روسيا زادتنى إيمانا بأن كل ما هو خير يوجد فى الأفراد وليس فى المجتمعات » . وقد ذكر ذات مرة « أن الشىء الوحيد الذى أخشاه هو القطيع » . وبالرغم من ذلك ، فقد كان يتوق إلى الصداقة والمودة . وبالنسبة له فإن حب الحق وحب رفاقه من بنى البشر يسيران جنبا إلى جنب . وإنه لأمر طبيعى لرجل فريد فى حبه للحق أن يكون فريدا كذلك فى حبه للبشر . وقد كتب أثناء الحرب يقول : « إننى أشعر هذه الأيام بأن الإنسانية حيوان أبكم يثير الشفقة والرثاء مصاب بجرح مفتوح تنزف منه الدماء وتغيض منه الحياة فتذوى معها حياتى ، إذا لم أستطع أن أصبح عديم الشعور فى هذه الفترة من الزمان . وإننى أجد فى الأنانية راحة من الشعور بالشفقة الذى لا يطاق . ولكنها راحة مؤقتة فقط . فإن حياة الإنسان ليست حياة ما لم ترتبط بحياة العالم » . ووجد راسل فى العلاقات الإنسانية – شأنه فى ذلك شأن الفلسفة – أن مذهب الذرية الصارم أمر مستحيل ... ومن ثم فقد سعى دائما إلى أن يربط نفسه فى الحركات السياسية بأصدقاء يعتقد أنهم يشاركونه الرأى ويحاول أن ينظر إلى اختلافه معهم على أنه مسألة غير هامة نسبيا .

وقال ذات مرة : « لقد ظللت طيلة حياتى أتوق إلى الشعور بالاتحاد مع مجموعات

كبيرة من بنى البشر ... ذلك الشعور الذى يحس به أفراد الجماهير المتحمسة . وفى أغلب الأحيان كان شوقى إلى هذا الشعور قويا إلى الحد الذى أدى بى إلى أن أخدع نفسى . لقد تصورت نفسى على هذا النحو من الترتيب ليبراليا ثم اشتراكيا ثم داعيا للسلام . ولكنى لم أكن أيا من هذه الأشياء بأى معنى عميق ، فقد كان عقلى الشكاك يهمس بالشكوك فى أذنى عندما كنت أتشوق إلى صمته .. كنت أخبر طائفة الكويكر (الإصلاح) المؤمنين بالسلام أننى أعتقد أن هناك كثيرامن الحروب فى التاريخ التى لها ما يبررها . كما أخبر الاشتراكيين بفزعى من طغيان الدولة » .

ويبدو أن الحل الوحيد لمشكلة المفكر الذى يشترك فى السياسة يكمن فى أن يكون نشاطه غير حزبى من ناحية وغير متفرغ من ناحية أخرى . وكما أن الحرب من الخطورة بحيث لا يجب أن تترك للجنرالات ، فإن المشاكل السياسية من الخطورة بحيث لا يجب تركها للسياسيين المحترفين لأنهم أنفسهم هم الأشخاص الذين تحول مهنتهم بينهم وبين مناقشة هذه المسائل بصدق . ومن الملاحظ أن راسل كان فى العادة على صواب فى آرائه السياسية عندما كان يختلف مع كل الناس . كما كان التوفيق لا يحالفه عندما يقترب اقترابا شديدا من أية وجهة نظر سياسية متفق عليها .

وهناك نقطة أخرى لابد من الاعتراف بها وهى أنه حين يتناول فيلسوف أو عالم فى كتاباته الموضوعات السياسية ، فإنه ينبغى الحكم على كتاباته بمقاييس تختلف عن المقاييس التى نحكم بها على أعماله المتخصصة . وقد أكد راسل ذلك بنفسه المرة تلو المرة . ففى فترة من فترات الحرب مثلا اقترح راسل نظرية فحواها أنه يجب أن نقصر ما نبشر به فى السياسة على ما يمكن أن نضعه موضع التنفيذ فحسب : « فاننى مثلا أومن بانتهاج الأساليب العلمية فى التناسل ، ولكنى لا أرى ما يدعو إلى التبشير بهذا فى الوقت الحاضر » . وكان راسل يحرص على أن يردد أن كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعى » « لم يكن يقصد به أن يكون إضافة للعلم ، ولكنه يخدم غرضا عمليا تماما » . وهو لم يكتبه بوصفه فيلسوفا ولكنه كتبه بوصفه « إنسانا يشقى بأحوال العالم » . وبالرغم من تصريحات راسل فى هذا الصدد ، فإن ذيوع صيته قد دعا الناس أحيانا إلى الانبهار

به وبأعماله التى تستغلق على إفهامهم ، إلى الحد الذى جعلهم يخافون حتى من نقد الأعمال التى يفهمونها .

وقد أكد استقبال الكتاب الذى تناول فيه راسل روسيا السوفيتية الصعاب التى يجدها المرء عندما يريد أن يجمع بين قول الصدق ومحاولة الاحتفاظ بالارتباطات السياسية فى نفس الوقت . وبعد أن خسر راسل كثيرا من صداقاته بسبب اعتراضه على الحرب ، نراه الآن كذلك يفقد كثيرامن صداقاته الجديدة بين دعاة السلام بسبب معارضته لروسيا . فقد كانت هذه المعارضة مثلا سببا فى بداية انفصام وشائج الصداقة التى تربطه بكليفورد ألن الذى كتب إلى إليزابيث راسل بمجرد عودة الوفد من روسيا : « ستجدين أنى وبرتى بالذات مثار لاهتمامك فى الوقت الحاضر ، لأننا نتقاتل قتالا مريرا ... مثل قطتين – لأول مرة فى حياتنا – حول روسيا » .

وكانت معارضته لروسيا أيضا سببا فى خلافه مع تشارلس تريفليان الذى دافع أثناء الحرب عن قضيته فى مجلس العموم ضد لويد جورج .

وليس من شك أن النقد الذى وجهه الاشتراكيون البريطانيون إلى راسل لم يكن بالقوة التى كان يعتقد أنه عليها . فقد بلغت حساسيته حدا جعله يميل دائما إلى الظن بأن الناس يتخذون منه موقفا معاديا أكثر مما كان فى واقع الأمر ، ولكن هذا النقد كان يكفى لاعطائه شعورا بالعزلة السياسية فى عالم يناصبه العداء .

الفصل الرابع عشر

الصين بلاد ممتعة

عندما كان راسل في السجن فكر فى العودة إلى جامعة كامبردج بعد الحرب لإلقاء المحاضرات فيها بصورة غير رسمية . وقال : « لازلت أريد أن أعلم الشباب وأتعامل معه ولكنى لا أريد مطلقا أن أنتمى مرة أخرى إلى الجامعة بصفة رسمية . وإنى أتنبأ لنفسى بمستقبل بهيج – مثل أبيلارد – كفيلسوف غير مرتبط بوظيفة معينة » . وتحدث عن رغبته فى الترويج لمجموعة محاضرات يلقيها فى الميتافيزيقا : « يفهمها الجميع باستثناء دارسى الفلسفة » . وفى نهاية عام ١٩١٩ قبل مع ذلك عرضا بعودته إلى وظيفته السابقة فى كلية ترينيتى . وقدم راسل إلى هذه الكلية طلبا للحصول على إجازة لمدة عام عندما طلبت إليه جامعة بكين الحكومية أن يحاضر فيها ، ثم استقال ثانية من العمل بكلية ترينيتى ، لأنه لم يشأ أن يحتدم جدل جديد حول طلاقه من زوجته الأولى الذى كان وشيك الوقوع . وظن راسل أن هذا سوف يسبب ارتباكا وحيرة للذين دافعوا عنه عندما فصل عام ١٩١٦ وعملوا على عودته إلى وظيفته التى فقدها .

وكان لراسل فى تلك الأعوام صديقتان حميمتان بالذات . وفى وقت من الأوقات تلخصت مهمة كليفورد ألن عندما كان يعيش مع راسل ونفر من أصدقائهما الآخرين فى إحدى المزارع فى التأكد من أن واحدة من هاتين الصديقتين قد استقلت القطار قبيل وصول صديقة راسل الأخرى خشية أن يلتقيا . وكانت إحدى هاتين الصديقتين دورا بلاك ، التى أصبحت زوجة راسل الثانية . كانت دورا فتاة تتمتع بقدرة فائقة وحيوية ونشاط فائقين ، وتعتنق آراء كانت تعتبر حينذاك خارجة عن العرف والتقاليد إلى أبعد الحدود . وفى إحدى المناسبات سمع راسل وقع أقدامها على الدرج الخارجى وهى فى طريقها إليه فالتفت إلى صديق له قائلا : « لا تتركنى بمفردى معها » ، ولكن دورا رافقت راسل عندما

ذهب فى عام ١٩١٩ إلى لاهاى لرؤية فيتجنشتين وسافرت معه إلى الصين فى عام ١٩٢٠ .

وأثمرت زيارة راسل للشرق الأقصى ، فألف كتابا بعنوان « مشكلة الصين » ، وهو كتاب يضارع « تطبيق البلشفية ونظريتها » فى دقة ملاحظته وذكاء تحليلاته . واستطاع الكتابان أن يصمدا صمودا مشرفا أمام اختبار الزمن . وقد وصف لى أحد الثقات فى شئون الصين هو البروفيسور س . ب . فيتزجرالد « مشكلة الصين » بأنه « كتاب ممتاز إذا قسناه بأى مستوى » . وبأنه كتاب يتميز « بالفطنة والمقدرة الذكية على استكناه المستقبل » والنقطة الوحيدة التى ثبت فيها حتى الآن أن راسل كان مخطئا هو بتنبئه بإقامة شكل من أشكال الحكم الفيدرالى فى الصين .

وقد أكد راسل أن الصين سوف تكون لها أهمية فى الشئون الدولية فى وقت كان من العسير فيه إقناع معظم رجال الحكومة البريطانية - بما فى ذلك وزارة الخارجية - أن يظهروا أى اهتمام بها . وأوضح أن الضغط السكانى كان يدفع اليابان نحو النعرة القومية والعدوان . وقال : « إنه لم يتم تحديد النسل ، فإن الكارثة ستحدث حتما إن عاجلا أم أجلا » . ورأى بجلاء ضرورة أن تتخلى الصين عن أسلوبها التقليدى فى الحياة وأن تذكى الروح الوطنية والعسكرية إذا شاءت أن تتجنب الغزو العسكرى . إلا انه رأى الخطر فى هذا وأن الصين قد تتجاوز الحدود فى هذا الصدد . وحذر من أن الصينيين - بالرغم من هدوئهم المعتاد - يمكن أن يكونوا قادرين على « الهياج المتوحش » . وقال إن : « المرء يستطيع أن يتصور قطاعا منهم يؤمن بالبلشفية إيمانا متعصبا » .

ويتلخص رأيه فى أن « جميع الدول الكبرى دون استثناء لها مصالح تتعارض مع مصالح الصين فى المدى الطويل ... ويجب على الصينيين أن يبحثوا عن خلاصهم فى قوتهم ومناعتهم الخاصة وليس فى البر والإحسان الذى تقدمه إليها أية دولة أجنبية . وهناك خوف كبير من أن يصبح الصينيون - وهم يقومون بتدعيم أنفسهم للمحافظة على استقلالهم - أقوياء إلى الحد الذى يبدأون معه فى انتهاج سياسة استعمارية .

وليست هناك حاجة لأن نقول إن راسل كان ينظر إلى هذا التغيير المحتمل فى الصين بمقت شديد ، ويصف المعارك التى حارب فيها قواد الحرب الصينيون بعضهم البعض

حينذاك بقوله : « كان كل من الجانبين يولى الأدبار . وكان النصر من نصيب الجانب الذى يكتشف أولا هرب الجانب الآخر » وفى حقيقة الأمر ، راق لراسل كل شىء وجده فى الصين تقريبا . وانحصر نقده الوحيد ضد أمور مثل الشح والفساد وشىء من غلظة القلب . وكان رأيه الذى استخلصه بوجه عام في جانب الحضارة الصينية بصورة كاملة . فقد رأى أن « الصين والصينيين ممتعون للغاية » . واعتبر الصين « أمة فنانة ، لها فضائل الفنان ورذائله » . وصرح بقوله : « إن لدى الصينيين ما نتعلمه منهم بقدر ما لدينا مما يتعلمون منا ، غير أن فرصنا فى التعلم منهم تقل عن فرصهم بكثير » .

وفى الصين تخلص راسل لفترة ما من آثار إيمانه الفكتورى اللاشعورى بالتقدم ، ومن افتراض أن أية فكرة جديدة لابد وأن تكون أفضل من الفكرة القديمة . ووجد نفسه لأول مرة فى حياته محافظا ، بمعنى أنه وجد نفسه معجبا بحضارة فى سبيلها إلى الزوال ، ويندم على اختفائها . واشتكى راسل من أن أصدقاءه الصينيين حريصون أكثر مما ينبغى على تأثيث منازلهم بالأثاث الغربى الردئ وعلى محاكاة الأفكار الغربية . أما راسل فقد ابتهج عندما اشترى بعض الأثاث الصينى القديم . ولكن المترجم الصينى الذى كان يرافقه نظرا إلى ما يشتريه باشمئزاز قائلا : « إن له رائحة بوذية » .

ويقول البروفيسور شوارتز بجامعة هارفارد الذى ظهرت كتاباته عن الصين بعد أن نشر راسل كتابه عنها : « إن الكثيرين من الطليعة المنصفة أثار حنقهم ما رأوه فيه من ميل صبيانى مشاكس لأن يجد قيما تستحق التقدير فى الحضارة الصينية التقليدية ، وتنبأ راسل نفسه فى قتامة وتشاؤم بأنه سيأتى وقت « يكون فيه الفرق الوحيد بين الشرق والغرب هو أن الشرق سيصبح أكثر غربية » .

ومن الأمور المشوقة بالنسبة لأولئك الذين يذهبون إلى أن راسل كان دائما فى قرارة نفسه ارستقراطيا ليبراليا من القرن الثامن عشر – الأمر الذى لا يعتبر نقدا بالضرورة – أن نذكر بعض الفضائل التقليدية التى امتدح الصينيين من أجلها . فقد مدحهم لتسامحهم ووقارهم ومناعتهم ضد الاستثارة والاستفزاز وخلوهم الظاهرى من العواطف المتأججة الهوجاء ، وتفضيلهم لأن يقولوا أقل مما يعنون – وهذه جميعاً فضائل إنجليزية . وتقترن

الفضائل الأخيرة بالأرستقراطية الإنجليزية على وجه الخصوص . ولاحظ راسل كذلك أن « الصينيين – شأنهم فى ذلك شأن الإنجليز – يحبون الحلول الوسطى » . وأن النكتة يمكن أن تخفف من حدة المنازعات . وأن الصينيين – مثل الإنجليز – يؤمنون بالإتيكيت (السلوك المهذب) أكثر من إيمانهم بالأخلاق . وهم لا يؤمنون بمبادىء دينية لا تقبل النقاش أو الجدل ولكنهم يتبعون قواعد راسخة ثابتة للسلوك . ودافع راسل عن مبدأ « دعه يعمل » (وهو دفاع قمين بأن يصدر عن ليبرالى إنجليزى من القرن الثامن عشر) قائلا : « إن تسعة أعشار النشاط الذى تقوم به الحكومة الحديثة نشاط ضار . ولهذا ، فكلما تحقق هذا النشاط بصورة أسوأ ، كان ذلك أفضل . وفى الصين حيث الحكومة كسولة وفاسدة وغبية ، فإن هناك قدرا من الحرية الفردية التى فقدها بقية العالم تماما » .

وبالرغم من هذا فقد رأى راسل فى الصين – مثلما رأى فى روسيا – وجهى المسألة . فلم يمنعه ثناؤه على « دعه يعمل » من أن يقول فى كتابه «مشكلة الصين » إن « هناك حاجات كثيرة تؤيد اشتراكية الدولة أو على وجه الدقة ما يسميه لينين رأسمالية الدولة فى بلد متخلف اقتصاديا دون أن يكون متخلفا من الناحية الثقافية » . وأيد راسل ملكية الدولة للسكك الحديدية والمناجم فى الصين (إلا إنه اقترح أن تؤجل ملكية الدولة للمناجم مؤقتا ، نظرا إلى تطور التعدين تطورا سريعا) . ويبدو أن آراءه تحركت بصورة أكبر فى اتجاه الاشتراكية الأرثوذكسية التقليدية حين عاد إلى إنجلترا وكتب « مشاكل الصين » أكثر مما كان عليه وهو لا يزال فى بكين . ووفقا لما ذكره البروفيسور شوارتز فإنه :

« خلال الجزء الأخير من عام ١٩٢٠ أثار برتراند راسل وصحفى صينى شاب اسمه تشانج تونج ، جدلا عنيفا بما ذهبا إليه من أن جذور البؤس الذى تعانى منه الصين تكمن فى فقرها وانخفاض إنتاجيتها ، وأن هذا الفقر لا يمكن التخفيف من حدته إلا عن طريق التصنيع ، وليس عن طريق مناقشة هذا المبدأ أو ذاك . وأنه مهما اشتد اعتراض المرء على الرأسمالية على أساس أخلاقى ، فإنه يبدو أن الرأسمالية وحدها هى التى تستطيع أن تحقق مثل هذا التصنيع » .

ولعل الخلاف بين أتباع أى من النظامين : الاشتراكى أو الرأسمالى لم يكن له أهمية

الإيمان بضرورة التصنيع بصورة أو أخرى . ورأى راسل أن مشكلة الصين ذات شقين . فقد كان عليها من ناحية أن تتسلح بدرجة تكفى لرد أى عدوان عليها ، دون أن تصطبغ بأية صبغة عسكرية ، كما كان عليها من ناحية أخرى أن تطبق الأساليب العلمية حتى تتمكن من الانتصار على الفقر دون أن تكتسب رذائل التصنيع فى الغرب . وكان يشك فى إمكانية تحقيق أى منهما . غير أن طرح اقتراحاته الخاصة لحل المشكلة الثانية - وهى مشكلة الجمع بين التكنيك العلمى واحترام القيم الإنسانية - فى كتابه «مستقبل الحضارة الصناعية » الذى ألفه بالاشتراك مع دورا بلاك (وقد استوحيا أفكار هذاالكتاب من زيارتيهما المنفصلتين لروسيا ، حيث أظهرت دورا إعجابها المتحمس بالبلشفية) ومن زيارتهما معا للصين .

وفيما يتعلق بالصين ، فقد علق راسل آماله على سون يات سن الذى وصفه بأنه الاستثناء الوحيد للقاعدة التى تقول : « بأن سادة الحرب الصينيين ليسوا سوى قطاع طرق طموحين » . وشبه راسل نظرة سون يات سن بنظرة الليبراليين الإنجليز الذين عفا عليهم الدهر ، فقال : إنه كان يهدف إلى التخفيف من حدة الفقر وليس إلى الثورة الاقتصادية . وقد قال راسل فى وقت كانت فيه وزارة الخارجية البريطانية ببلاهتها التى لا تصدق (والتى كانت تتميز بها سياستها نحو الصين حينذاك أثناء ظهور ماو) تنصرف إلى تأييد أحد منافسى سون يات سن ، وتبذل قصارى جهدها لزعزعة الثقة بسون والإساءة إلى سمعته .

وبعد أن سجلنا فكرة راسل عن الصين والصينيين ، فإنه مما يدعو إلى التشويق أن نسأل عن فكرة الصينيين عنه . ترك راسل فيهم أثرا بالغا ، فقد استمعوا لأول مرة إلى أرستقراطى إنجليزى على استعداد لانتقاد الاستعمار البريطانى . كما أنهم التقوا لأول مرة بأجنبى على استعداد لأن يفكر فى مشاكل الصين من وجهة نظر الصينيين أنفسهم . وقيل : إن سون يات سن صرح أن راسل كان الإنجليزى الوحيد الذى فهم الصين . وبدأ طلبة جامعة بكين الذين ملأ الحماس قلوبهم إعداد مجلة خاصة باسم « مجلة راسل » لنشر أفكاره . ويجب أن نذكر فى هذا الصدد أن الصينيين يكنون للعلماء الممتازين نفس

الاحترام العميق الذى تكنه الدول الأخرى لنجوم الرياضة والسينما . وقد نجد فى الصين حتى يومنا الراهن أناسا يقدرون بريطانيا تقديرا كبيرا بسبب فهم راسل لمشاكلهم .

وكان جون ديوى موجودا فى الصين فى نفس الوقت الذى كان فيه راسل هناك . وطبقا لما يقوله البروفيسور شوارتز : « بينما كان تأثير راسل محدودا سريع الزوال ، فإن ديوى ترك أثرا باقيا على تفكير الصينيين » . غير أن هذا الرأى الخاص بتأثير راسل لا يجد تأييدا كاملا من البروفيسور فيتزجيرالد الذى ذهب أول مرة إلى بكين فى وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٣ ، الأمر الذى يجعله فى وضع يمكنه من الحكم فى هذا الشأن ، ويبدو أن أثر ديوى كان فى حقيقة الأمر قاصرا على الكومنتانج .

وثمة آخرون كانت شكواهم تتلخص فى أن تأثير راسل لم يكن ضئيلا للغاية ، بل إنه كان كبيرا للغاية . وكان المبشرون أقوى من تعرضوا له بالنقد . فعندما نظمت رابطة الصين الفتاة سلسلة من المحاضرات عن الدين فى بكين قال انه يمكن أن يكون الملحد رجلا ذا مبادىء أخلاقية سامية . وأن الأخلاق تصبح نفاقا عندما ترتبط بالدين أكثر مما ينبغى . ورأى المبشرون أيضا أنه من المؤسف أن تجد نساء الصين – فى الوقت الذى يتعلمن فيه أسلوب الحياة الغربية – رحلة راسل بصحبة دورا بلاك أمام أعينهم كمثل على هذا الأسلوب . ولا يجد هذا النقد كذلك قبولا لدى البروفيسور فيتزجرالد الذى يقول إن الشابات الصينيات المتحررات فى ذلك الوقت لم يكن بحاجة إلى تشجيع . ولاحظ راسل بنفسه فى زيارة له لمدرسة فى بكين لتدريب البنات كى يصبحن مدرسات « أن روح البحث الحرالتى تشيع بين هذه الفتيات قمينة بأن تثير فزع معظم ناظرات المدارس البريطانية » .

وكانت زيارته للصين أكبر من أن تكون فترة عابرة فى حياته . فقد كادت هذه الزيارة أن تقضى عليه ، إذ إنه أنهك نفسه فى إلقاء المحاضرات المتتابعة فى قاعات بكين الباردة والتى تكثر فيها تيارات الهواء ، ثم أصابته نوبة من الرعشة بعد انقضاء يوم واحد على سفره بالسيارة إلى الجبال الغربية وسباحته فى حمام الكبريت الساخن . وعند عودته إلى بكين تبين أنه مصاب بالتهاب رئوى حاد . وبدأت مضاعفات المرض ونفذت الإصابة إلى الرئتين فبقى لعدة أسابيع طريح الفراش فى المستشفى الألمانى بين الحياة والموت .

وأرسلت مجموعة من الروس الموجودين فى بكين هدايا من الشمبانيا والقشدة المربوبة إلى المستشفى قائلة : « إن راسل يجب أن يعيش لأن الثورة ستكون فى حاجة إليه » ، وبذلك ظهر خطؤهم المؤسف فيما يتعلق باتجاه آرائه ، ووصل وفد من حكماء الصين الذين كانوا أكثر تشاؤما ليقولوا إنه سيحظى بأرفع شرف بدفنه فى محراب يبنى خصيصا له بجوار البحيرة الغربية وهى مثوى الشعراء والعلماء من السلف ، كما طلبوا إلى المسئولين فى المستشفى أن يسمحوا لهم بسماع آخر كلمات يفوه بها الفيلسوف المحتضر .

ونحن نسمع قصصا كثيرة عن المتشككين الذين يعودون إلى الإيمان التقليدى الراسخ فى أواخر حياتهم . ولكن راسل واجه الموت بشجاعة تخلو من الندم وبسخرية مرحة . فهو يفيق للحظة من هلوسة الحمى ليقول لأطبائه متحديا : « إننى على ما يرام ، وأنا لم أشعر فى حياتى قط بأنى أحسن حالا من حالتى الآن » . وسأل دورا عن موعد حلول عيد ميلادها ، ثم علق قائلاً : « يجدر بك أن تشترى هدية لنفسك باسمى الآن فقد تفيض روحى قبل أن يحل عيد ميلادك » . وقال لها إنها إذا احتاجت للمال ، فليس عليها سوى أن تنشر إعلانا فى الصحف تقول فيه : « لقد مات راسل ونحن بحاجة للمال لدفن الكلب العجوز » .

وقال أحد الأطباء فيما بعد وهو ينحى على راسل باللائمة قائلا : إنه كان « يسلك مسلك الفيلسوف الحق » طالما بلغ به الضعف مبلغا حال بينه وبين الكلام . « ولكنك (مخاطبا راسل) كنت تلقى نكتة فى كل مرة تفيق فيها » .

ونشر الصحفيون اليابانيون بالفعل أنباء عن موته . وعندما وصلت الأنباء إلى إنجلترا رفض فرانك راسل أن يصدقها معلنا بقوة : « أن الحكاية كلام فارغ من أصلها . فإن برتى لن يموت فى الصين دون أن يخبرنى » . ولكن الآخرين لم تساورهم فى صحة النبأ ما ساوره من شكوك . وبعد أن أنقذ الأطباء الألمان فى بكين حياته فى نهاية الأمر أتيح لراسل أن يتمتع بامتياز ، فقد تسنى له أن يقرأ بعض إعلانات الوفيات التى خرجت تنعيه إلى الناس .

وكانت دورا بلاك تقوم بتمريض راسل بكل إخلاص ووفاء طيلة فترة مرضه وفى الوقت الذى لم تكن تمكث فيه بجواره فى الحجرة بالفعل ، كانت تنتظر خارجها فى الممر وبتتناول طعامها على كرسى هناك . وعجبت دورا من تزايد شهيتها للطعام ، ولكنها أدركت فيما بعد أنها حامل وأنها سوف تنجب لراسل وريثا .

ووقعت حادثة تستحق الذكر اعترضت رحلة عودتهما إلى بريطانيا تبين منها أن راسل لم يكن يتصف بالاستسلام الذى قد نتوقعه من فيلسوف مجرد يعتنق آراء تدعو إلى السلام . كان راسل ودورا بلاك يهبطان بعض درجات سلم فى اليابان عندما فاجأهما بعض مصورى الصحف بتسليط ضوء فلاش الكاميرات الخاطف على وجهيهما . وكادت المفاجأة أن تجعل دورا تتعثر فى مشيتها وتسقط ، فهاج راسل وثار لدرجة أنه هجم على المصورين بعصاه وفرقهم .

الفصل الخامس عشر

مرشح فى شيلسى ومحاضر فى أمريكا

بعد أن عاد راسل من الصين ، تزوج من دورا واستقر معها فى المنزل رقم ٣١ شارع سيدنى بشيلسى حيث أنجبا طفليهما . وخلال فترة زواجه الثانى ، أو خلال السنوات العشر التالية تقريبا ، اقترب راسل أكثر من ذى قبل من آراء حزب العمال التقليدية . واعتبر الاشتراكيون أن انتقاداته للإمبرايالية البريطانية فى الصين بمثابة تكفير من جانبه عن الانتقادات السابقة التى وجهها ضد روسيا السوفيتية .

ورشح راسل نفسه للبرلمان عن حزب العمال فى شيلسى فى الانتخابات العامة فى ١٩٢٢ ثم فى ١٩٢٣ . وكانت شيلسى فى ذلك الوقت معقلا من معاقل المحافظين . وكان نائبها هو السير صمويل هور الذى أصبح فيما بعد اللورد « تمبل وود » .

وكان منزل راسل رقم ٣١ فى شارع سيدنى يستخدم كمقر لجنة حزب العمال . وكتب مراسل لصحيفة التيمز بعد زيارة له للمنزل يقول : « هناك مجموعة مختارة من العمال الذين يعملون بحماس فى الدور الأرضى » بينما « تحمل الأشياء الموجودة حولى بصورة تبعث على السرور لمسات الذوق الجميل الذى يتمتع به صاحب المنزل » . وكانت هذه إشارة لقطع الأثاث والسجاجيد التى أحضرها راسل معه من بكين . وبعد أن أعلن راسل تأييده لسياسة حزب العمال حول كل النقاط ، بدأ حملته باجتماع ظافر فى قاعة بلدية مدينة تشيلسى . دعا راسل فيه إلى فرض ضريبة على رأس المال ، وإلى تأميم المناجم والسكك الحديدية ، وعارض تخفيض ميزانية التعليم ، وانتقد معاهدة فرساى . وقوبل راسل بتصفيق حاد عندما خاطب المجتمعين قائلا : « مواطنى الدائرة الانتخابية

التى سأمثلها مستقبلا » وعندما قال راسل : « من المحتمل جدا أن الآخرين سيقولون لكم إننى لست وطنياً » ، صاح صوت أحد الحاضرين يرد عليه قائلا : « إنك جنتلمان » . وأدى التهليل لراسل إلى تعطيل سير الاجتماع لبضعة دقائق .

وانتقد راسل سياسة تمويل « المخامرات الرجعية » فى روسيا . وقال إن الاعتراف بروسيا السوفيتية سيكون من بين الأعمال الأولى للحكومة إذا فاز حزب العمال فى الانتخابات .

وقد منى راسل بالهزيمة فى كلا الانتخابين . وحصل منافسه على ١٣٤٣٧ صوتا مقابل ٤٥١٣ صوتا له فى انتخاب ١٩٢٢ ، بينما حصل منافسه على ١٠٤٦١ صوتا مقابل ٥٠٤٧ صوتا فى انتخاب عام ١٩٢٣ . وبالرغم من ذلك فقد كان الحماس لراسل شديدا . وهلل له الناس وحملوه على الأعناق بعد إعلان نتائج الانتخابات ، بينما خرج منافسه صامويل هور من باب خلفى ليتجنب الجمهور وكان هور قد أصبح غير محبوب على المستوى الشعبى بصفة خاصة عندما اكتشف الناس أنه فى الوقت الذى عارض فيه زيادة الضريبة المفروضة على الخمور الغازية ، أيد زيادة الضريبة على البيرة . وفى ذات مرة كان أحد المتحدثين الذين يؤيدونه – وهو شاب يتكلم بلهجة أكسفورد الرّفيعة للغاية ، يرد على الأسئلة الموجهة إليه وما أن قال هذا الشاب بلهجته هذه « أما بالنسبة للبيه ، (يقصد البيرة التى ابتلع حرف الراء فيها عند نطقها بلهجة أكسفورد الراقية) ، حتى سمعت على التو صيحة صادرة من أحد الحاضرين تسخر من طريقته فى نطق الكلمات قائلة : « هيه ، هيه (*) وبعد ذلك فصاعدا ، تعرضت كل الخطب التى يلقيها هور لأن تقاطعها صيحات الاستهجان مقلدة لهجة أكسفورد التى كان يتحدث بها مؤيده الشاب : « هيه – هيه ... بيه ، بيه » .

وكانت الهزيمة التى لحقت براسل شيئا متوقعا . وهو أمر يكاد ألا يدعو للأسف ، كما هو الحال مع فشله فى دخول البرلمان فى عام ١٩١٠ ، ويكفى ذكر حادثة واحدة

(*) أى « اسمعوا اسمعوا » منطوقة بحذف الراء من كلمة Hear الإنجليزية .

وقعت فى شيلسى للتأكيد بأنه لم يكن باستطاعته أن يحقق نجاحا كبيرا فى ميدان العمل السياسى ، فقد أصيب عضو بحزب العمال كان يقوم بجولة زيارات للدعاية – بإصابات طفيفة – عندما سقط من فوق مجموعة متصلة من السلالم . وأشار بعض الناس على راسل أن يقوم بزيارة هذا العضو وهو على فراش المرض حتى يترك فى نفس هذا الرجل انطباعا جميلا . كما أشاروا عليه أن يأخذ معه بعض الزهور له ، وأن يحضر هذه الزيارة مصور صحفى لتسجيل هذه المجاملة الاجتماعية ، ولكن راسل رفض رفضا لا مهادنة فيه أن يظهر غير ما يبطن ، قائلا : « إننى لا أحبه ولن أذهب لزيارته » .

وهناك حادثة أخرى يجدر ذكرها في هذا الصدد ترجع إلى الفترة التى كان يشارك فيها كليفورد ألان نفس الشقة . وأوضح راسل لألن ذات مرة أنه بما أنهما يتخذان موقف أبطال الشعب فى السياسة ، فإنه يتعين عليهما أن يهتما بعض الشىء بما تهتم به جماهير الشعب ، وقال راسل إنه من المشين على هذاالأساس أن أحداً منهما لم يسبق له مشاهدة سباق الدربى للخيول . وقرر الاثنان أن الواجب يحتم عليهما أن يتوجها إلى ابسوم لحضور يوم الدربى القادم ، ولكن عندما حان الوقت بالفعل كان كلاهما قد نسيا كل ما يتعلق بهذا الموضوع .

وبالرغم من أن راسل لم يرشح نفسه مرة أخرى فى الانتخابات العامة عام ١٩٢٤ ، فإن قرينته رشحت نفسها مكانه . وظل المنزل رقم ٣١ بشارع سيدنى بمثابة نقطة منيعة للاشتراكيين بشكل ما تقع فى قلب شيلسى التى كان للمحافظين السيادة فيها . وكان من المعتاد حينذاك أن يظل راسل فى الطابق العلوى من المنزل وهو يكتب على مكتبه ، بينما دورا زوجته فى الطابق السفلى تقوم فى نشاط بإدارة اجتماعات اللجنة الانتخابية أو تنظيم حملات الدعاية لمنظمات مختلفة مثل رابطة العمال لتحديد النسل . وذات مرة ، قام عضو غاضب من حزب المحافظين بإلقاء الطماطم من خلال نافذة منزل راسل .

ومما أدى إلى اللبس خلال هذه الأعوام أن أليس راسل (زوجته الأولى) ، كانت فى نفس الوقت تقيم فى منزل سانت ليوناردز تيراس . ومن ثم كانت هناك فى تشيلسى امرأتان تحملان اسم مسز راسل ، وكلتاهما عضو فى حزب العمال فى تشيلسى . ولهما عدد كبير مشترك من الأصدقاء . ولذلك كان يتم اتخاذ ترتيبات محكمة للتأكد من أن الاثنتين لن تتقابلا . وكان ذلك يحدث على سبيل المثال فى الحفلات المسائية المتقشفة التى كانت أسرة سانجر تقيمها فى منزلها بشارع أوكلى .

وفى إحدى الحملات الانتخابية التى كان راسل يقوم بها ، قابله ليونارد وولف ، وهو بصحبة زوجته دورا فى حفل عشاء . وذكر راسل فى حديثه أنه كان يقوم بجولة للدعاية الانتخابية ظهر ذلك اليوم . فقال له وولف بأسلوب من لا يفكر ، وبالطريقة التى يمكن بها أن تخرج من المرء نكتة بصورة تلقائية مفاجئة : « أرجو ألا تكون قد نسيت أن تمر فى هذه الجولة على سانت ليوناردز تيراس » . وعندئذ سكت وولف كما لو كان قد خرس لسانه فجأة ، وقد روعه ما تفوه به كما روعه التعبير الذى لاحظه يرتسم على وجه دورا . وخيم على المكان صمت عميق . ثم أدرك راسل روح الدعابة التى ينطوى عليها الموقف . ونظر إلى وولف وبدأ يضحك فجأة .

ولولا انعدام المرارة التام من مشاعر كلا الزوجتين فيما يتعلق بفسخ زواج راسل الأول ، لما أمكنهما أن يعيشا معا فى تشيلسى . ولم تتغير أبدا مشاعر أليس تجاه راسل وكانت دائما تتوق لمعرفة أخباره . وفى الواقع عندما نشرت الليدى كونستانس مالسون كتابا أشارت فيه إلى صداقتها مع راسل ، أخذت أليس نسخة من هذا الكتاب إلى مسز سانجر ، التى كانت ترقد حينذاك على سرير المرض فى المستشفى وأعطته لها كى تقرأه ، وهى تعلق على ذلك بقولها : « أعتقد أن هذا قد يهمك » .

وكان من بين العبارات التى كتبت فى وصف راسل بعد عودته من الصين ما كتبته بياتريس ويب التى التقت به قبل حلول يوم ميلاده الخمسين بشهور قليلة ، فى الوقت الذى لم يكن قد شفى فيه بعد من المرض الذى أصابه فى بكين . ووصفته

مسز ويب بقولها : « إنه شاخ قبل الأوان » . وأنه « يلعب دور ملاك ساقط له دعابة الشيطان ميفستوفيليس وحضور بديهته » . وأنه « لا يشعر بالسلام سواء مع نفسه أو مع العالم » . ولكنها أضافت أنه بالرغم من « نضوب حيويته » ، فإنه يبدو مفكرا لامعا أكثر من أى وقت مضى . وهو متهكم حاضر البديهة كلبى فى موقفه من الحياة . وتفوق مفارقاته اللاذعة فى عدائها ونفاد صبرها مفارقات جورج برنارد شو . وهو لا يبدو جادا أبدا ، ويبنى وجهات نظره فى الاقتصاد والسياسة وفق هواه وحسب ما يحب أو يكره .

واستطردت مسز ويب تقول : « وهو يظن أنه يعتقد اعتقادا - يكاد أن يصل إلى درجة الإيمان الملتهب - فى الدعوة للسلام المصحوبة بالاعتقاد فى حرية المرء أن يفعل ما يريد . ولكننى أشك فى ذلك . والرأى عندى أنه على سبيل المثال إذا نشبت حرب عقائدية ، فإنه سينحاز إلى صف التمرد العلمانى ، إذ إن الإيمان الدينى مع الاتجاه الأخلاقى البيوريتانى يمثلان العيب المشين فى نظره » .

ويدلنا نوع إعجابهما على الصفات التى تميز شخصيتهما . ففى حين أظهر راسل إعجابه بالصين ، أبدت بياتريس إعجابها باليابان . وقد احتدم جدال عنيف بينهما فى هذا الصدد . ويبدو أن راسل شرع عن عمد فى استفزازها بكيله الثناء على الصين ما أمكن له ذلك ، إلى حد أنه أثنى على عدم اكتراث الصينيين بالعلم . وكتبت بياتريس ويب بصورة تثير الدهشة بعض الشيء تقول إن راسل : « ليس لديه اهتمام بالأسلوب العلمى . بل إنه قد يعارض تطبيق العلم فى المجتمع على أساس أن هذا قد يعنى فرض ضابط على إرادة بعض هؤلاء الذين يرغبون فى فعل أى شيء يحلو لهم بدون مراعاة أن يكون للآخرين مثل هذه الحريات » .

وبعد عودة راسل من الصين ، كاد أن يعتمد تماما على قلمه لكسب قوته . وبالإضافة إلى ما كتبه عن الفلسفة كان عليه أن يصدر فيضا من المقالات والكتب لكى

يواصل معيشته . (وعندما أرسل أ . هـ . نيفيل له مسودة مقدمة الكتاب الذى أصدره تحت عنوان : « مقدمة نقدية للهندسة التحليلية » ، قال له راسل مرحا : « إننى سوف أشترى كتابك بالتأكيد إلا إذا أصبحت لفاقتى نزيلا فى ملجأ المعوزين ») . وغالبا ما كانت كتابات راسل التى تلقى « رواجا » بين عامة الناس ذات أهمية أكبر مما يمكن الحكم عليه من النكات التى أطلقها راسل نفسه عن هذه الكتابات . فقد كان على سبيل المثال يقول : « إننى أتقاضى أجرى عن الكتابة على أساس عدد الكلمات ، ولهذا فإنى أختار دائما أقصر الكلمات الممكنة » .

وكتب راسل كثيرا من مقالاته لمجلة « نيو ليدر » التى كانت تصدر عن حزب العمال المستقل تتناول موضوعات تتراوح بين العلوم المبسطة بصورة يستسيغها غير المتخصصين إلى نقد السياسة البريطانية فى الصين . وفى ذلك الوقت وصلت مجلة « نيو ليدر » تحت رئاسة تحرير هـ . ن . بريلسفورد إلى مستوى لم يسبق أن وصلت إليه صحافة الجناح اليسارى من قبل ، حيث كان من بين الذين أسهموا في كتابات مقالاتها ، بالإضافة إلى راسل ، كل من ويلز وشو وكينز وجوليان هكسلى . وبالرغم من أن مشاهير كتاب المقالات فى المجلات والصحف هوائيون ويصعب التعامل معهم فى غالب الأمر ، إلا أنه من الشيق أن نلاحظ هنا أن راسل كان بمثابة نموذج للكاتب الذى يرغب فيه أى رئيس تحرير . فقد كانت مقالاته تصل دائما فى المواعيد المحددة لها ، مكتوبة بخط يسهل قراءته . وتكاد صفحات مخطوطاته النظيفة أن تخلو تماما من أية تصحيحات كما أنها كانت بالطول المطلوب تماما ، أو تحمل علامات موضوعة بعناية على فقرات معينة يمكن للمحرر حذفها إذا رغب فى ذلك .

(وبنفس الأسلوب عندما أصبح راسل أبرز المتحدثين فى الإذاعة والتليفزيون ، كان يصل بصورة لا تتغير إلى الأستوديو فى مواعيده المحددة تماما) .

وقد وجد راسل مصدرا جديدا للدخل عن طريق القيام بجولات لإلقاء المحاضرات فى أمريكا ، البلد الذى بدأ يعرفه معرفة وثيقة .

وعلق راسل ذات مرة في سنى حياته المتأخرة أنه يريد أن يكتب على شاهد قبره الكلمات التالية : « عاش ست سنوات فى أمريكا ولم يكتب كتابا واحدا عنها » . ونظرا لأن راسل ألف كتبا عن كل شىء تقريبا ، فإن إغفاله تأليف كتاب عن أمريكا قد يبدو غريبا ، ويكاد ينطوى على قلة الذوق ، ومن حسن الحظ أنه يتضح لنا أنه عوض هذا النقص إذا نحن اجتهدنا فى التنقيب بين كتاباته الصحفية المنسية إلى جانب إشاراته المتفرقة عن أمريكا فى كتبه المختلفة . وبعد مضى ست سنوات على إقامة راسل فى الولايات المتحدة التى بدأت قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، كان راسل قد ألف الحياة الأمريكية بحيث خبا اهتمامه الأصلى بها ، رغم أنها بدت غريبة عليه فى أول الأمر . ولكن راسل سجل خلال الزيارات الأولى التى قام بها ، وخصوصا خلال جولات المحاضرات التى ألقاها فى العشرينات من هذا القرن ، عدة انطباعات يجدر جمعها هنا ووضعها إلى جوار دراساته المعاصرة عن كل من روسيا والصين .

وكانت كتاباته الأولى عن أمريكا ، كما أكد هو نفسه ، مجرد انطباعات سطحية . ولكننى لا أستطيع مقاومة إغراء الاقتباس من إحدى المقالات المبكرة له المنشورة فى « نيو ليدر » كمثال مناسب للدعاية الذكية التى كان راسل – مثل فولتير – ينثرها فى إسراف غير مبال شأنه فى ذلك شأن رجل يعرف أن لديه فيضا كبيرا من الدعابات الذكية التى لا ينضب لها معين . (وعندما ذكرت لراسل المقالات التى نشرها فى « نيو ليدر » بعد انقضاء عدة سنوات على كتابتها ، كان قد نسى تماما أنه كتبها فى يوم من الأيام) . وكتب راسل بعد أن عاد من أمريكا فى عام ١٩٢٤ يقول :

« هناك نقطتان فقط أستطيع أن أتحدث عنهما عن تجربة كافية . النقطة الأولى أن القطارات تقوم وتصل فى مواعيدها بصورة مثيرة للدهشة ، والنقطة الثانية أن الناس هناك مولعون إما بإلقاء المحاضرات أو حضورها ، الأمر الذى يعد غير مفهوم تماما بالنسبة لرجل إنجليزى . ففى إنجلترا إذا أعجب الناس بمؤلف فإنهم يقرأون كتبه . أما فى أمريكا فهم يريدون الاستماع إليه وهو يحاضر دون أن يخطر على بالهم أن يقرأوا له .

« ومن المستحيل على المرء فى أمريكا أن يقرأ إلا فى القطار وذلك بسبب رنين

التليفون . فكل فرد هناك عنده تليفون وهو يرن طيلة النهار ومعظم الليل . وهذا يجعل المناقشة والتفكير والقراءة أمورا غير ممكنة . ومن ثم فإننا نجد أن أوجه النشاط هذه مهملة إلى حد ما » .

وهنا قد يضيف ناقد حديث للحياة الأمريكية أنه حتى يمكن جعل ملاحظات راسل ملاحظات معاصرة ، فإن ذلك بعدة سنوات عندما أخذ فى كتاب « الحرية والتنظيم » يتعقب أثر كثير من الصفات الأمريكية المميزة التى أرجعها إلى القيم النفعية التى تتميز بها حضارتها الجديدة الرائدة . وفى أمريكا انصرف الرجال إلى جمال المال أو مقاتلة الهنود الحمر إلى درجة أن الثقافة أصبحت من الشئون الخاصة بالنساء تماما . وكتب راسل فى هذا الصدد يقول : « وحيث إن معظم النساء لم يمارسن الرسم بالزيت أو الأدب أو الفلسفة ممارسة احتراف ، بل اكتفين بإظهار الاهتمام الذكى بهذه الموضوعات جميعا ، أصبحت كل هذه الموضوعات تتسم بنوع من السطحية تضافرها المحاضرات التى يتلقاها الناس فى بداية حياتهم المبكرة » .

ولاحظ راسل أن « الموضة التى أصبحت سائدة فى أمريكا هى أن تقوم النساء بقراءة (أو التظاهر بقراءة) بعض الكتب المعينة كل شهر . وبعضهن يقرأن هذه الكتب بالفعل . وبعضهن يكتفين بقراءة الفصل الأول منها وبعضهن الآخر يقرأن عرضا لهذه الكتب . ولكنهن جميعا يحتفظن بهذه الكتب على مناضدهن . وحيث إنه لم يحدث أبدا أن اختارت نوادى قراءة الكتب مسرحيتى « هاملت » أو « الملك لير » ككتاب الشهر ، فإن القراءة تقتصر تماما على الكتب الحديثة المحدودة القيمة ولا تمتد إطلاقا إلى روائع وأمهات الكتب » .

واشتكى راسل من أن « انشغال الرجل الأمريكى المفرط بما هو نافع يتضح لنا أيضا من افتقار اللهجة الأمريكية إلى الجمال » . وقال إن معظم الأمريكان يعتقدون أن المرء إذا أوضح ما يعنيه ، فليست لأى شىء آخر أية أهمية . ويقول راسل فى هذا الشأن : « إن الشىء الحسن الوحيد فى اللغة الأمريكية هو لهجتها الدارجة . ومن حسن الحظ أن هذه اللهجة هى بالذات الشىء الذى يميل الإنجليز ميلا شديدا إلى تقليده » .

وهناك انطباع آخر خرج به راسل من الزيارة التى قام بها للولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٢٤ هو « أن عدد اليهود فى أمريكا وشغلهم لمراكز بارزة هناك أمر يثير الدهشة ..... لقد خيل لى أن أفضل الأشياء فى مجالات السياسة والفكر والفن فى جميع أنحاء الولاية الشرقية من ابتكار اليهود وصنعهم ... ونظرا لامتيازهم وكثرة عددهم ، فإن هناك شعورا بالعداء للسامية قويا للغاية ، الأمر الذى يصيب الزائر الإنجليزى بالدهشة » . وفيما يتعلق بمشكلة التفرقة بين البيض والسود ، كتب راسل يقول : « إن الطريقة التى يتحدث بها أهل الجنوب عن الزنوج حتى يومنا الراهن طريقة فظيعة للغاية لدرجة أنه يصعب على المرء أن يتحملها وأن يبقى معهم فى نفس الحجرة » .

وقال راسل إن أمريكا تهب نفسها للمساواة الديموقراطية من الناحية النظرية ؛ ولكنها من الناحية العملية تمارس الجور الناجم عن حكم الأثرياء .

وحيث إن الميزان الاجتماعى فى أمريكا يتذبذب باستمرار ، فقد « أصبحت كل مشاعر الاستعلاء الاجتماعى أشد اضطرابا مما هى عليه فى المجتمعات التى يسودها نظام اجتماعى ثابت . وعلاوة على ذلك ، فإن قدرة العقل على أن يفكر بلغة النقود هى المقياس المقبول للحكم على رجاحته » . وأصبح رجال الأعمال الأمريكيون يشعرون من جراء حالة السوق بنفس القلق الذى يساور الطلبة بسبب الامتحانات . « وإذا خسر الأمريكى نقوده ، فمعنى ذلك أنه قد رسب فى الامتحان » . وحيث إن « كل أمريكى يفضل الحصول على فائدة قدرها ٨٪ من عملية استثمار غير مضمونة عن الحصول على فائدة قدرها ٤٪ من عملية مضمونة » ، فإن نتيجة ذلك شعوره بالقلق وتوتر الأعصاب .

وكتب راسل يقول إن الرجل الأمريكى « قد يشعر بالسخط نتيجة شعوره اللاواعى بحاجته إلى بعض الأشياء . فالأمريكيون ، على سبيل المثال ، يحتاجون إلى الراحة ؛ ولكنهم لا يعرفون أنهم يحتاجون إليها ، وأعتقد أن هذا يقدم جانبا كبيرا من التفسير لموجة انتشار الجريمة فى الولايات المتحدة » .

ويعلق راسل قائلا أنه لاحظ عند الزيارة التى قام بها لهارفارد فى عام ١٩١٤ أن الحشمة والتحفظ فى الكلام كانا أوضح فى أمريكا منهما فى إنجلترا ، غير أن الموقف قد انعكس الآن نتيجة لانتشار التحليل النفسى فى أمريكا ، ومن ناحية أخرى ازداد تأثير مؤسسات الأعمال الكبيرة على التدريس فى الجامعات الأمريكية ، وبالتالى أصبح لدى المثقفين الأمريكيين « حريات شخصية واجتماعية مدهشة ولكنها مصحوبة بعبودية عامة كاملة » .

وقال راسل : إن مجلس إدارة جامعة هارفارد منع بعض الناس من أصحاب وجهات النظر الليبرالية من الحديث فى اتحاد هارفارد ، ونجم عن ذلك أنه اشترك فى ملاحاة – هى واحدة من المجادلات العامة القليلة – استطاع فيها خصومه الانتصار عليه . فقد أنكر لويل مدير هذه الجامعة أن مؤسسات الأعمال الكبيرة تمارس « سيطرة شريرة » عليها ، كما ذهب إلى ذلك راسل ، وأدلى بملاحظة قصيرة تنم عن حضور البديهة مفاداها أنه فى الوقت الذى فقد فيه راسل منصبه فى كامبردج فى عام ١٩١٦ ، احتفظت هارفارد بأستاذ ألمانى بين هيئة التدريس فيها خلال فترة الحرب .

وكان راسل واحدا من أوائل الإنجليز الذين اعترفوا منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٢ بأن أمريكا أقوى من أية دولة أخرى ، وتنبأ بأن أمريكا ستبدأ فى انتهاج سياسة إمبريالية – لن تسعى فيها إلى السيطرة على الأرض بقدر ما تسعى إلى التحكم فى اقتصاديات الشعوب . وقال راسل لمستمعيه الأمريكان إن « حكومة واشنجطون لا تحكم أمريكا . فإن البترول ومورجان هما اللذان يحكمانها . إن إمبراطورية المال الأمريكية التى تسيطر على العالم كله سيطرة تتسم بالقسوة وضيق الأفق إلى أقصى حد ، تضعنا أمام كابوس فى المستقبل المرعب » (*) .

وعندما عاد راسل إلى بريطانيا تنبأ بأن الدولة الرأسمالية مثل أمريكا سوف تعامل

(*) أكد راسل فيما بعد أن حكم روزفلت كان يختلف إلى حد كبير فى هذا الصدد .

بريطانيا العظمى إذا سلكت سبيل الاشتراكية بنفس الطريقة التى عاملت بها بريطانيا روسيا السوفيتية ، وأن أمريكا ستمنع عن بريطانيا القمح والامدادات الأخرى . ولهذا السبب فإن الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق سوى على النطاق الدولى . وكتب يقول : « لنفرض أننا أقمنا اشتراكية على مستوى الوطن فى بريطانيا وخسرنا امبرطوريتنا معها ، فإننا لن نحصل على البترول ، وسنتحول جميعا إلى طبقة البروليتاريا ، ونضطر للعمل من أجل أمريكا ... ومن ثم فإن الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع أمريكا فى الوقت الحاضر ، بل ولأجل غير مسمى ، أمر ضرورى ضرورة مطلقة » .

وكتب راسل يقول : « إن بريطانيا يجب أن يكون لها بحرية قوية ، وأن تحتفظ بمخزون من البترول يكفى احتياجاتها لمدة ستة أشهر . إن الدولية هدفنا ، ولكننا سنعجز عن الوصول إلى هدفنا إلا إذا توفر لدينا دفاع بحرى كاف يقف فى وجه شركة ستاندرد أويل وكوميتيه دى فورج التى لن تتركنا فى راحة إلا إذا كنا أقوياء » .

ومن الغريب أن نجد راسل يطالب بإيجاد بحرية بريطانية قوية . وهو دليل على أنه ، حتى فى تلك السنوات ، لم يكن داعية سلام تقليديا ثابتا كما أنه لم يكن اشتراكيا تقليديا ثابتا . بل أنه أمر يثير الاهتمام أكثر من هذا أن نراه يلقى خطابا قبل ذلك بزمن قصير ، يناقش فيه مكانة أمريكا فى العالم من وجهة نظر طويلة الأمد وبأسلوب مختلف ، ويصل فيه إلى نتائج مغايرة تماما .

فقد ذكر راسل فى المحاضرة التى القاها فى الجمعية الفابية فى أكتوبر ١٩٢٣ حول نتائج التقدم العلمى « يبدو أن أفضل أمل من المحتمل أن يتحقق هو أن تقوم مجموعة واحدة (أحسب أنها أمريكا) بانتزاع النصر على غيرها ، الأمر الذى يؤدى إلى قيام منظمة دولية تقف أمريكا على رأسها كدولة رأسمالية بينما تقوم الدول الأخرى بدور البروليتاريا . وإذا أمكن خلق منظمة دولية ، مهما بلغ اضطهادها وجورها ، فإنه سيصبح من الممكن مرة أخرى العودة إلى تحقيق التقدم المنظم » . وقد كان هذا خيطا فكريا تكرر ظهوره كثيرا فى كتابات برتراند راسل .

إن بعض الصفحات السابقة فى هذا الكتاب قد تفسر على أساس أن راسل كان ينتقد أمريكا بصفة دائمة . ولكن هذا قد يرجع إلى أننا نجد فى اقتباس عبارات النقد متعة أكبر من اقتباس عبارات المديح . كما أن عبارات النقد تتضمن عادة قدرا أكبر من الأهمية . وهناك كثير من النقاط فى أمريكا التى حازت القبول لدى راسل . فقد اعترف راسل بوجه خاص بأن الدبلوماسية الأمريكية تفوق دبلوماسية أى من الدول الأخرى على الرغم من انتقاداته المرة التى وجهها إلى عمليات التمويل الدولية الأمريكية . وعلى سبيل المثال أوضح راسل التناقض بين السجل « المشين » لما ارتكبته كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا فى الصين وبين السياسة الكريمة والليبرالية التى انتهجتها أمريكا هناك . ولكن راسل شاهد فى الصين أيضا ، كما شاهدت بنفسى بعد ذلك بما ينيف عن عشرين عاما ، أنه يبدو أن الأمريكيين هناك غير قادرين على تقدير الحضارة الصينية . وقد أعرب راسل عن ذلك عندما كتب يقول : « ما المذهب الأمريكى فى الحياة ؟ اعتقد أن الأمريكى سيرد على هذا السؤال بقوله إنه العيشة النظيفة والتفكير النظيف والحيوية . ويعنى هذا فى مجال التطبيق العملى استبدال الفن بالترتيب وحسن النظام والجمال بالنظافة والفلسفة بالوعظ الأخلاقى ، والمحظيات بالمومسات (حيث إنه من الأسهل إخفاء علاقة المرء بهن) ، واستبدال الهدوء المصاحب لقضاء وقت الفراغ الذى يستمتع به الصين المثقف بجو عام يشعر فيه المرء بأنه مشغول بصورة مخيفة » .

وقد نلاحظ أخيرا قدرة راسل على معرفة ما يكمن فى ضمير الغيب . فقد تنبأ فى وقت مبكر يرجع إلى نوفمبر ١٩٢٦بأن العالم سيدخل فى عصر جديد تدور فيه حروب التعصب بين الفلسفتين المتطاحنتين اللتين تدين بهما الدولتان الكبيرتان الوحيدتان فى هذا العصر وهما روسيا وأمريكا . حيث تمثل الأولى المذهب الشيوعى والثانية المذهب الفردى . وذهب راسل فى كتابه « مقالات متشككة » المنشور فى عام ١٩٢٨ أنه « قدتجىء فترة طويلة ينشطر فيها العالم بالفعل بين أمريكا وروسيا حيث تسيطر أمريكا على أوربا الغربية والدول التى كانت تابعة للأمبراطورية البريطانية ثم أصبحت تتمتع الآن بالحكم الذاتى ، بينما تفرض روسيا سيطرتها على كل آسيا .

وربما كانت أكثر النقاط إثارة للاهتمام - كما يتضح لنا من كتابات راسل عن أمريكا خلال هذه السنوات - هو أن الانتقادات الأساسية التى وجهها ضد أمريكا تسير على نفس النهج الذى سارت عليه انتقاداته ضد روسيا السوفيتيه . ففى كلتا الحالتين اشتكى راسل من إفراط كل من هاتين الدولتين فى الاتجاه النفعى والافتقار إلى حب الجمال . وقارن راسل البلاشفة بالبيوريتانيين المتزمتين من الناحية الأخلاقية . وكثيرا ما أعاد إلى الأذهان الأسس البيوريتانية التى تقوم عليها أمريكا . وكتب راسل فى هذا الصدد يقول : « إن أمريكا - شأنها فى ذلك شأن روسيا - هى بلد الفلاحين الورعين الاتقياء » .

وقال راسل إن أخطر الأشياء فى كل من أمريكا وروسيا هى انتفاء التسامح . ففى أمريكا نجد « طغيان القطيع » الناتج عن السلالة البيوريتانية التى ينحدر منها الأمريكيون والظروف القاسية التى يواجهها الرواد الذين استوطنوا الأراضى الأمريكية وظروف الهجرة إليها ، الأمر الذى أدى إلى الالتجاء إلى أساليب الدفاع « للمحافظة على التقاليد الأمريكية من أن تنجرف وتضيع كما تضيع مياه النهر فى الرمال . أما روسيا فيسودها من الناحية الأخرى طغيان الأقلية القائم على النظرية الماركسية » .

وهناك إيمان لا حدود له فى كل من الدولتين بقوة الإنسان ومقدرته بمساعدة الآلة على تشكيل عوامل البيئة المحيطة به . وكان راسل يبدى إعجابه فى بعض الأحيان بهذا الاتجاه المتفائل ولكنه كان يخشى الموقف الفطرى الذى ينطوى عليه هذا التفاؤل والذى وجده ينعكس على الفلسفة القومية . وقد انتقد راسل مذهب « الأداة » الذى نادى به ديوى بسبب ما ينطوى عليه من انتفاء الورع فيه من الناحية الكونية . ويمثل هذا النقد فى واقع الأمر جانبا من شكواه من ماركس . وقد تضايق ديوى منه ضيقا شديدا عندما أخبره راسل أن هناك كثيرا من العوامل المشتركة بين مذهب الأداء الذى ينادى به وبين كتاب ماركس « بحث حول فيرباخ » .

ولأن راسل كان فيلسوفا لا يقصر اهتماماته على قاعة المحاضرات ، فقد كان يذهب إلى دور السينما ليشاهد الأفلام الأمريكية ووجد أن أفكار هوليوود مرتبطة بالفلسفة الأمريكية البراجماتية . وكتب يقول : « إن الهدف لا يتمثل فى إنتاج شىء يتمشى مع

الحقيقة ، بل إنتاج شيء يدخل على المرء السعادة بتمشية مع أحلام اليقظة » . وقد أدرك راسل إمكانيات السينما - التي لا يمكن سبر غورها - كشكل من أشكال الفن . وقال راسل : « لعله من أشد أمثلة البربرية الفنية تمزيقا لنياط القلب أن يخرج الأفلام السينمائية مثل هؤلاء الرجال الجهلة الأغبياء لتستميل أكثر قطاعات الناس جهلا وغباوة » . وبالرغم من أن بعض الأفلام التي انتجتها هوليود في السنوات التالية لم تكن تدور حول تصوير أحلام اليقظة على مستوى « قصص الجان الخيالية وحكايات الأطفال » ، إلا أن انتقادات راسل كانت صحيحة فيما يتعلق بما قدمته السينما في هوليوود في العشرينات وأوائل الثلاثينات . ولا يمكننا أن ننحي عليه باللائمة ، لأنه لم يواصل عادة التردد على السينما بعد ذلك .

أما بالنسبة لراسل نفسه فقد اعترف بأن أبسط الأشياء التي شاهدها في الأفلام كانت تدخل عليه السرور . وكتب في هذا الشأن يقول : « إنني أحب أن أرى منظر سباق بين سيارة وقطار اكسبريس ، وأنعم برؤية منظر شرير الفيلم وهو يصر بأسنانه لأنه فشل على التوفي إصابة سائق السيارة برصاصته . كما أني استمتع بمنظر الرجال وهم يسقطون من فوق ناطحات السحاب لا ينقذهم من الموت سوى تعلقهم بأسلاك البرق » .

الفصل السادس عشر

راسل والنسبية

من بين خصال السير ستانلى انوين ، بوصفه رجل أعمال حاذق ، إحجامه عن الخروج عن الطريق الذى أختطه لنفسه ، كى يقوم بالدعاية للكتب التى يبيعها غيره من الناشرين . ومعنى هذا فى واقع الحال أن قائمة مؤلفات راسل كما نجدها فى صدر الكتب التى نشرتها دار ألين وأنوين تخلو أحيانا من أسماء الكتب التى نشرها له بعض الناشرين الآخرين . ولعل كتابيه «مبادىء الرياضة» و «مشكلات الفلسفة» لا يحتاجان إلى إعلان من أى ناشر يذكرنا بوجودهما . ولكن النسيان أوشك أن يطوى بعض كتبه الأخرى ، ومن بينها كتب فى العلوم حثه س.ك أوجدن على تأليفها حتى ينشرها له كيجان بول وهى : «ألف باء الذرات» و «ألف باء النسبية» ، كما أنه نشر مقالات فى «نيوليدر» التى يملكها بريلزفورد ، جمعها فى كتب تحت عنوان : «إيكاروس أو مستقبل العلم» ، و «تحليل العقل» . (وقد صدر الكتاب الأخير للمرة الثانية بعد سنوات عديدة من نفاد طبعته عن دار النشر ألين وأنوين فى بريطانيا عام ١٩٥٤) .

وحين يكتب المرء عن راسل ، فإنه يجد نفس الصعوبة التى يجدها عندما يعالج روائى العصر الفيكتورى الذين يدخلون فى رواياتهم عشرات من الشخصيات المختلفة وينسجون خيوط ثلاث أو أربع حبكات روائية أساسية أو فرعية فى آن واحد . وبعد أن يصف هؤلاء الروائيون ما يجرى لإحدى الشخصيات تجدهم دوما يتركونها ليلا حقوا أفعال شخصية أخرى . وهكذا كانت شخصية راسل تنضوى على عدد كبير من الشخصيات المختلفة فى نفس الوقت تتساوى جميعاً فيما تثير من اهتمام . وبعد أن أفردنا فصلين أو ثلاثة فصول تناولنا فيها راسل كرحالة وعالم سوسيولوجى وكسياسى

ومحاضر ، يجدر بنا الآن أن نعود إلى تصوير سريع لأوجه نشاطه فى نفس الفترة باعتباره عالما وفيلسوفا .

لقد كان راسل فريدا بين الفلاسفة المعاصرين فى مدى معرفته بالعلوم . ولكنى أعتقد أنه كان فى أغلب الأحيان يعبر عن أسفه لأنه لم يكرس مزيدا من وقته لدراستها ، وخصوصا حين أدرك لأول مرة أهمية نظرية النسبية التى وضعها أينشتين . وفى مقدورنا أن نذكر تاريخ هذه الفترة بشىء من التحديد .

ففى مايو عام ١٩١٩ حدث كسوف الشمس التاريخى الذى كان دليلاً نقديا يؤكد صحة نظرية اينشتين . وبلغت الملاحظات بشأن هذا الكسوف من الدقة مبلغا جعل نتائجها تستغرق شهورا فى استخلاصها .

وكان راسل يعيش فى تلك الفترة فى بيت ريفى مع جماعة من الأصدقاء كان بينهم ج.أ. ليتلوود عالم الرياضيات فى جامعة كامبردج . وكان ليتلوود قد قرأ لتوه ما كتبه ادنجتون فى موضوع النسبية وتحدث إلى راسل بشأنها . وبلغ الحماس والتشوق وشد الانتباه الذى صاحب انتظار ظهور نتائج الملاحظات الخاصة بالكسوف مبلغا جعل ليتلوود يرسل برقية إلى ادنجتون يسأله فيها عما حدث . وأجابه ادنجتون بأن الأمر لا يزال مبكرا لدرجة يتعذر عليه التأكد من صحة النتائج ، وأن كانت النتائج الأولى تبشر بالخير .

واضطرب قلب راسل وهو ينصت إلى ليتلوود حين حدثه عن النسبية . وصاح بأسلوبه الذى تميز به فى التقليل فى معظم الأحيان من شأن إنجازاته وفلسفته عموما قائلا : «ليتنى لم أنفق كل هذه الأعوام من عمرى على قاذورات» .

وسرعان ما انصرف عقل راسل إلى التفكير فيما تنطوى عليه أفكار اينشتين من مضمونات فلسفية . وخلال زيارته للصين ، انصرف راسل إلى دراسة المعادلات الخاصة بنظرية النسبية حتى يألف ما تتضمنه من رياضيات . ووضع خطة لتأليف

كتاب تحت عنوان «تحليل المادة» . وعند عودته إلى بلاده ، كان إنشغاله فى بادىء الأمر بالسياسة والصحافة عائقا فى سبيل تنفيذ خطته . ولكن لحسن الحظ اقترح عليه س.ك. أوجدن أن يكسب عيشه عن طريق آخر هو الكتابه العلمية المبسطة التى يفهمها عامة الناس . وكانت نتيجة ذلك أن كتب راسل «ألف باء الذرات» و«ألف باء النسبية» .

ولا يزال كتابه «ألف باء الذرات» ، الذى نشر عام ١٩٢٣ ، يتميز بتنبوئه المبكر بالطاقة الذرية . وكتب راسل يقول : «إذا استطاع الإنسان أن يستخدم مصدر هذه الطاقة بطريقة تجارية ، فإنه من المحتمل عندما يحين الأوان أنها ستحل محل أى مصدرآخر للطاقة . ويستحيل علينا أن نبالغ فيما قد يكون لها من أثر ثورى فى ممارسة الصناعة وفى نظريات الفيزياء» . وقال راسل – وهو يشير إلى البحث فى تركيب الذرة : «من المحتمل أنها ستستخدم فى نهاية الأمر فى صناعة متفجرات وقذائف تفوق فى قدرتها على التدمير أية متفجرات أو قذائف قيض لها أن تخترع حتى الآن» .

وظهر كتاب «ألف باء الذرات» فى عام ١٩٢٥ وانزعج ليتلوود بعض الشىء عندما ترامى إلى سمعه أن راسل يؤلف كتابا شعبيا فى النسبية . على أن راسل قد نجح فى تبسيطها دون تزييفها ، وفى تقديم أسهل مدخل إلى هذا الموضوع حتى الآن .

(ولكتاب «ألف باء النسبية» أهمية خاصة بالنسبة لى لأنه كان أول كتاب قرأته فى حياتى لراسل . ولا زلت أذكر أنى حصلت على نسخة منه – وأنا صبى – من مكتبة بلدية سيدنى وكيف وجدت نفسى أعيش فى عالم مسحور أغفله كل من علمونى باستثناء مدرس واحد . وكانت زوجتى فى المستقبل حينذاك تلميذة فى برايتون تقرأ كتب راسل عن المشاكل الاجتماعية فى ضوء مشغل بطارية تحت البطاطين بعد أن يحين موعد إطفاء الأنوار الكهربائية وأنى وزوجتى نمثلان إلى حد ما جزءاً من سحر راسل الذى فتن الكثيرين فى جيلنا) .

ولم ينشر «تحليل المادة» وهو دراسة فلسفية مكتملة ، إلا فى عام ١٩٢٧ . وكان من عادة راسل أن يقوم بكتابة أعماله الشعبية خلال الشتاء فى تشيلسى فى حين أنه يكتب أعماله المتخصصة فى كورنوال خلال فترة الصيف . وظل ينتج سيلا مستمرا من الكتابات ، لم يكن من الممكن أن يتجه لولا موهبته الخارقة فى التركيز - ولعله اكتسب هذه الموهبة خلال عمله المبكر فى الرياضيات . واعتاد أن يجلس إلى مكتبه يملأ الصفحة تلو الصفحة ويضعها على وجهها بعد الانتهاء منها فى نظام تحت ما يتلوها من صفحات دون أن يضايقه أن يلعب الأطفال حوله أثناء العمل . وذات مرة رأى ضيف نزل عليه فى كورنوال - وقد فتن به - أنه لم يلاحظ أثناء انكبابه على عمله حتي وجود زنبور يدور حول رأسه ، ولكن راسل وجد أن ذكر اسمه فى الحديث كان يشتت انتباهه . وقد أوضح فى هذا الصدد بأسلوبه الذى يميزه عن الآخرين أن ذلك يدل على أنه ليس عمليا فى حقيقة الأمر أن يحب الإنسان جيرانه مثلما يحب نفسه» . (وكانت نصيحته الواقعية هى : «لا تحاول أن تعيش دون غرور لأن ذلك مستحيل ، ولكن تخير المستمعين المطلوبين الذين تجد الإعجاب بك لديهم») .

وفى كتابه «تحليل المادة» ، وصف راسل «الأحداث» - متبعا نظرية النسبية - باعتبارها المادة الخام التى تصنع البناء المنطقى لكل من العقل والمادة . وهناك تطور آخر طرأ على موقفه فى «تحليل العقل» وهو أنه بدأ فى نبذ فكرة القوانين السببية المختلفة لكل من العقل والمادة . وكان راسل يأمل فى إمكانية تفسير أشياء مثل «الذاكرة» ، عن طريق ما يطرأ على تركيب المخ من تغير طفيف لا يتناول ما هيته . وهكذا أصبح العقل والمادة أكثر تشابها عما كان يؤمن به فيما سبق فى مذهبه «الواحدية المحايدة» .

وعبر راسل عن أفكاره بلغة يفهمها عامة الناس فقال : «إن العقل والمادة شيئان مرتبطان إلي حد يكاد يجعل من غير المفيد أن نميز بينهما» . فالغدة الأنفية على سبيل المثال تؤثر علي التطور العقلى . وتنشأ هذه الغدة بسبب عادات التنفس السيئة وتنشأ هذه العادات بدورها بسبب القلق العقلى . «فكل شيء يعمل فى شكل دائرى هكذا» .

ونحن نجد هنا توازيا بين «الواحدية المحايدة» عند راسل وبين آرائه فى الدين بالرغم من أنه وصل إلى كل منهما فى استقلال تام . فمبادىء الدين وخاصة فكرة خلود الروح بعد إندثار الجسد تنهض فى العادة على التمييز المطلق بين الروح والجسد . وقد قال راسل ذات مرة : «إن التمييز بين العقل والمادة دخل مجال الفلسفة عن طريق الدين» . وهناك أيضا توازن بين ما سبق وبين آراء راسل فى الجنس فقد استمدت نظرة العصر الفيكتورى إلى الجنس التى كان يهاجمها جذورها من التقاليد المسيحية التى تذهب إلى أن الروح شىء سام فى حين أن الجسد شىء خسيس .

وبالرغم من أن «تحليل المادة» كتاب هام للغاية ويفيد قارئه فائدة عظيمة ، فسوف أقول القليل عنه فى هذا المجال . فكثير من أجزائه التى تبعث على الاهتمام أكثر من سواها يتسم بالتخصص . وأفضل سبيل لمناقشة كثير من الأفكار الفلسفية الجديدة التى يحتويها هذا الكتاب هو الانتظار ريثما نناقش فيما بعد كتابه «المعرفة الانسانية» حيث تبلغ هذه الأفكار ذروتها . ويعترف راسل مثلا فى كتابه «تحليل المادة» بأن العلم يحتاج إلى «مسلمات أو مصادرات»(*) كما أنه أدخل فيه «الخطوط السببية التى يمكن فصلها»(**) التى أصبحت إحدى مصادرات كتابه «المعرفة الإنسانية» فى عام ١٩٤٨ . وإنى أعتقد أن «المعرفة الإنسانية» كان سيسهل فهمه كثيرا لولا أنه تصادف نفاد طبعة كتابه «تحليل المادة» قبل نشره بأعوام .

وسوف أضيف هنا مجرد نقاط قليلة واضحة بعض الشىء .

وبادىء ذى بدء ، فإن صياغة راسل الجديدة لفكرة «الواحدية المحايدة» كانت تتفق مع وجهة نظر العلم الحديث كما يراه كثير من العلماء المحدثين . وما فعله راسل فى حقيقة الأمر هو أنه استخدم النظريات العلمية الجديدة من أجل استجلاء الخلط الفلسفى الذى استمر قروناً بصدد العقل والمادة ، والمثالية والواقعية ، تماما مثلما

(*) Postulates .

(**) Separable causal lines .

استخدم فيما مضى التقدم الذي أحرزته الرياضيات فى استجلاء ما شاب كانط وهيجل من تشويش .

ثانيا ، من الواضح أن الكون كما رآه راسل فى «تحليل المادة» أشد تماسكا بكثير من فلسفته التي وضعها عندما تمرد لأول مرة ضد برادلى . وفى الحقيقة تبدو آراؤه الجديدة لأول وهلة شبيهة بآراء هوايتهدالذى أنكر كذلك وجود أية ثنائية أساسية بين العقل والمادة .

ولم يواصل راسل سيره فى هذا الطريق حتى يصل كما فعل هوايتهد إلى فلسفة تطورية متصوفة تشبه إلى حد ما فلسفة برجسون . لقد قال هوايتهد فى مطلع أيامه : إنها قاعدة مأمونة العواقب عند التطبيق أنه حين يكتب مؤلف رياضى أو فلسفى بعمق غائم ينتفى منه الوضوح ، فإن حديثه لا يعدو أن يكون هراء» . ولكنه يبدو أنه هو نفسه قد نسى أن يطبق هذه القاعدة فيما بعد : وسوف لا أناقش فلسفته فى هذا المقام متعللا فى ذلك بعذرين ممتازين . أولهما : أن خلافه مع راسل قد بدأ بنقطة فنية متخصصة . ثانيهما : أننى لم أستطع مطلقا أن أكمل قراءة كتابه «العملية والحقيقة» . فقد توقفت محاولتى فى هذا السبيل منذ بضعة أعوام عندما علمت أن كلا من راسل و ج.أ . مور لم يقرأه كذلك . وأنى أكتفى بآراء صديقى المغوار البروفيسور ويتز الذى درسه بالتفصيل ويقول إنه شبيه للغاية بفلسفة ليبنتز بعد أن أدخلت عليها تغييرات بحيث تتفق مع الاستعمال العصرى ، كما أنى اعتمد على آراء مس انسكومب أبرز تلاميذ فيتجنشتين فى يومنا الراهن ، التى تدين كتاب «العملية والحقيقة» بتلك الصراحة الكبيرة التى تفوق صراحة الرجال والتى تتسم بها المرأة حين تشتغل بالفلسفة .

وبالرغم من هذا ، فيخامرنى شعور غير مريح أنه نقد مشروع يوجه إلى فلسفة راسل حين نقول أنها فلسفة استاتيكية أكثر من اللازم . ومع هذا فإنى لا أعرف أكثر من أى إنسان آخر كيف استطيع إدخال حقائق التطور والعملية(*) دون أن نتورط فى أخطار ادخال عنصر التصوف فيها .

(*) Process .

وإنها لنقطة غريبة بالتأكيد فيما يتعلق براسل أنه – عندما يناقش علم الأحياء وفلاسفة التطور الذين يكرههم – ينكر على الفلسفة انشغالها بالنتائج الخاصة التى يصل إليها علم معين ، فى حين أنه يهتم اهتماما شديدا بنتائج علمى الفيزياء والفسيولوجيا . وهو لم يؤكد أية أهمية مستمدة من علم الأحياء الا عندما أصدر كتابه ، «المعرفة الانسانية» فى عام ١٩٤٨ .

وعمل مذهب راسل فى «الواحدية المحايدة» الشيء الكثير – كما ذكرنا من قبل – للقضاء على المشكلة الفلسفية القديمة الخاصة بالعلاقة بين العقل والجسد . ولكنى لا أعتقد أنه حقق نجاحا كبيرا فى مشكلة لا تقل قدما هى مشكلة الجبر والاختيار ، التى بدأ يتأملها فى صباه فى حديقة بمبروك لودج . وهى مشكلة تثير التساؤل فى كيف يكون العقل حرا إذا كانت القوانين السلمية تحكم الجسد .

واشتركت فى مجادلات متنوعة معه تتصل بهذا الموضوع كنت فيه مثلاً أشير بفخر إلى إقلاعى عن التدخين كمثل واضح على حرية الاختيار ، فأجاب بقوله : «إننى لا أنكر شعورك بالزهو الأخلاقى ، ولكنى أنكر أنك قد فعلت ما هو جدير به» . ولم يحرز النقاش بيننا تقدما أكبر من هذا بكثير ، كما يحدث فى معظم المناقشات التى تدور فى هذا الموضوع . وأظن أنه من الممكن أنه لم يفهم وجهة نظرى . وبدا أحيانا أنه يفترض أن كل إنسان يؤمن بحرية الاختيار لابد وأن يكون إيمانه فى هذا الصدد راجعا إلى أسباب عاطفية أو أخلاقية أو لاهوتية . وأظن أنه من المرجح أننى لم أنجح من ناحيتى فى فهم وجهة نظره . ولكنه من الجدير أن أبين أنه كان يميز بين «الحتمية والقدرية»(*) . وفى كتاباته وأحاديثه الإذاعية الأخيرة التى تتناول الموضوعات السياسية ، نجد أنه يشن حربا عنيفة على الموقف الذى يرى أن الحروب بمعنى ما حتمية الوقوع . وأكد راسل مرارا وتكرارا أن الإنسانية تستطيع أن تختار بين الحياة والدمار.

(*) Determinism and Fatalism .

ونذكر فى خاتمة هذا الفصل جانبا سارا على وجه الخصوص من جوانب «تحليل المادة» . وينم هذا الجانب عن التوصل إلى شىء من التصالح والتوفيق بين راسل والسلطات الموجودة فى كلية ترينتى نظرا لأنه استخدم كثيرا من مادته عندما القى «محاضرات تارنر» بناء على دعوة منها له . ويمكننى أن أذكر كذلك فى هذا المقام مناسبة أخرى معروفة فى جامعة كامبردج عندما تقدم فيتجنشتين ببحثه المسمى «تراكتا كوس» للحصول به على درجة الدكتوراه منها . وبالرغم من أن حصول فيتجنشتين على الدكتوراه كان أمرا مفروغا منه ، فقد تعين مراعاة الرسميات الشكلية . ولهذا عين راسل و ج.أ. مور الذى أصبح أستاذا للفلسفة لإجراء الامتحان له .

وحين تذكر فيتجنشتين هذه المناسبة فيما بعد نجده يقول «عندما ذهبت إلى لجنة الامتحان أصابنى ذعر شديد» . واشترك ثلاثتهم فى دردشة لطيفة كتلك التي تدور بين الأصدقاء القدامى . ثم التفت راسل – إلى مور قائلا : «استمر . يتعين عليك أن تسأله بعض الأسئلة – فأنت الأستاذ» . واشتركوا فى نقاش لم يدم طويلا حاول راسل فيه دون نجاح أن يقنع فيتجنشتين أن هناك شيئا من التناقض بين مبدأه الذى يذهب فيه إلى أن ما يمكن للموضوعات الفلسفية أن تتوصل إليه شىء ضئيل للغاية وبين دعواه أنه قد توصل إلى حقائق محددة بشأنها لا سبيل إلى تفنيدها . وانتهت مناقشة رسالة «التراكتاكوس» نهاية ودية لطيفة عندما وضع فيتجنشتين ذراعا على كتف كل من ممتحنيه وهو يقول «لا تنزعجا . فأنا أعرف أنكما لن تفهماها أبدا» .

الفصل السابع عشر

مدرسة بيكون هيل

كانت آراء راسل أثناء فترة زواجه الثاني ، كما سبق أن ذكرنا ، أكثر خروجا عن العرف المألوف مما كانت عليه قبل هذه الفترة أو بعدها . فعلى سبيل المثال كان راسل في هذه الفترة من حياته متشددا للغاية فى الطريقة التى انتقد بها المسيحية التقليدية الجامدة .

وبالرغم من أنه امتدح بعض التعاليم التى تبشر بها أسفار الإنجيل ، إلا أنه قال : إن المسيح يعد أقل شأنا من كل من بوذا وسقراط فيما يتعلق بالحكمة والفضيلة . واشتكى راسل من أن المسيح كان «يشعر بغضب ورغبة فى الانتقام ضد من لا يتعظ بمواعظه» . وشن راسل هجوما خاصا على فكرة الجحيم . وكتب يقول فى هذا الصدد: «الواقع إننى لا أعتقد أن أى شخص يتمتع بقدر مناسب من الإشفاق والعطف يبث فى العالم مثل هذه المخاوف المرعبة» . وأعرب راسل عن اعتقاده فى أن المسيح أظهر «نوعا من السرور فى تأمل العويل وصرير الأسنان ، وإلا لما تكررت الإشارة إليهما كثيراً .

وعلى أية حال ، ظل اهتمام راسل الرئيسى لعدة سنوات ينصب على التربية . وقد أثارت المدرسة الخارجة عن التقاليد التى افتتحها بالاشتراك مع دورا راسل فى عام ١٩٢٧ ، والتى كان طفلاهما من بين تلاميذها ، قدرا كبيرا من الضجة الصحفية التى ضخمت ما هو تافه وطمست ما هو مهم فى هذه المدرسة . ولقد كان هناك انطباع خاطىء عن آراء راسل ، يرجع إلى حد ما ، إلى الخلط بينهما وبين آراء دورا راسل ، التى كانت أكثر تطرفا منه فى الرأى ، ويرجع أيضا إلى المشاكل العملية التى ظهرت فى إدارة المدرسة التى فشلت لأسباب لا علاقة لها بصوب أفكار راسل أو خطئها وهى أسباب أعطت نقاده فرصة لنسج الأساطير المثيرة حوله .

ومن بين الحكايات المألوفة التى راجت فى أمريكا ، والتي يشك المرء فى صحتها حكاية تروى كيف أن القس المقيم فى المنطقة توجه ذات يوم إلى باب المدرسة ، فخرجت فتاة صغيرة وقد تجردت من كل ملابسها . فتلعثم القس قائلا : «يا إلهى» وردت الفتاة عليه وهى تغلق الباب «ليس لله وجود» .

ولهذا ، فسأتحدث بعض الشىء عن الظروف التى بدأ فيما إهتمام راسل بالتربية ، وعن تجاربة الفعلية فى المدرسة حتى نمهد الطريق قبل أن نحاول تقييم نظرياته . بدأ اهتمام راسل حتى قبل ميلاد طفليه يتجه إلى التربية مع نشوب الحرب العالمية الأولي وقد خصص راسل فصلا عن هذا الموضوع فى كتابه «مبادىء إعادة البناءالاجتماعى» وأقام راسل حجتيه الرئيسيتين ضد المدارس التقليدية فى هذا الوقت وفيما بعد على أساس معاداته للروح العسكرية .

وتنهض حجته الأولى على أن الحروب فى واقع الأمر تنم عن الغباوة الشديدة ، لدرجة أنه لا يمكن لأى إنسان عاقل أن يشترك فيها . ومن ثم فقد تعين على المدارس الإنجليزية الراقية أن تشجع الغباوة حتى تخرج رجالا يرغبون فى القتال . وكتب راسل يقول : «إن حدة الايمان بعقيدة ما هى التى تخلق الكفاءة فى القتال ويكون النصر من نصيب هؤلاء الذين يعتقدون اعتقادا جازما فى أمور من الواضح أن الشك فى صحتها هو الاتجاه العاقل الوحيد» . ولهذا السبب نرى أن القائمين بالتربية «يحدثون الالتواء فى طبيعة الطفل ، ويشلون نظرته الحرة إلى الأشياء ويشجعون مكبوتاته بهدف الحد من نمو الأفكار الجديدة لديه» .

واستمد راسل حجته الثانية من اعتقاده بأن معظم الناس يتمتعون بالحرب ،كما أنه استمدها من دراسته لعلم النفس بناء على هذا الاعتقاد . وأعلن راسل أن الحروب ترجع أساسا إلى النوازع المجنونة المدمرة التى تكمن فى العقل اللاواعى عند الذين لم تحسن تربيتهم فى مراحل المهد والطفولة والمراهقة ، وقاده هذا إلى أن ينتقد الفكرة «البالية» التى تنادى بالاعتماد على قوة الارادة للسيطرة على الرغبات السيئة ، وكتب

فى هذا الصدد بأسلوب يكاد أن يكون نفس الأسلوب الفرويدى قائلا : «إن الرغبات السيئة التى تشبه نهرا أقيم سد على مجراه تجد منفذا آخر لم تلحظه عين الأرادة الساهرة ، والنظريات التى تبرر القسوة تستمد مصدرها بصورة دائمة تقريبا من رغبة ما ، حولتها الإرادة عن مجراها الطبيعى ، إلى مجرى خفى ، حيث تعاود الظهور فى آخر الآمر» . وكتب راسل يقول : إنه على النقيض من ذلك ، يرعى هدف التربية الاخلاقية الحديثة إلى جعل السلوك الجيد مظهرا من مظاهر العادة لا يعتمد بالضرورة على التحكم فى النفس .

وبدا أن راسل يدافع ، فى واقع الأمر ، عما يمكن تسميته بالأخلاق دون ذرف الدموع ، أى دون معاناة أو ألم ، إذ أنه يرى أن عملية اكتساب العادات الجيدة نفسها لا بد أن تتم بدون تحمل أية مشاق . وقال راسل : إن النظام ليس ضروريا لكل شيء بالصورة التى يحلو لعامة الناس أن يعتقدوا . وفى رأية «أن الطفل الذى يتعرض لعوامل القهر والارغام بأى شكل من الأشكال ، يميل إلى الاستجابة بشعور من المقت والكراهية ، فإذا لم يتمكن من أن ينفس عن هذه الكراهية بحرية ، فإنها تسمم عليه حياته من الداخل ، وقد تستقر فى أعمال عقله اللاواعى مما يكون له نتائج متعددة وغريبة فى سنوات حياته التالية» . والتربية التقليدية فى نظر راسل : «قد أنضبت حياة العقل والعواطف حتى يتسنى لها تدعيم ارادة الفرد وتقويتها» .

وقد تذبذبت آراء راسل التربوبة بصورة مستمرة بين النظريات التى استمدها من علماء النفس المحدثين وبين السداد والرشاد اللذين هداه تفكيره إليهما ، ويمكن بسهولة تفسير اتجاه ميوله التعليمية نحو آراء فرويد بالأثر الذى أحدثته عليه الحرب العالمية الأولى . فقد بدا له أن فرويد يقدم تفسيرا لما صدمه وأثار فيه الحيرة إزاء سلوك البشر كما أنه يشير إلى مخرج فى هذا الصدد يتلخص فى تحرر الانسان من مكبوتاته . ولكن راسل لم يكن يعتقد فى هذا المخرج حقيقة . وكان يضطر دائما إلى الاعتراف بأن الانجازات التى حققها فى حياته كانت نتيجة ممارسته لقدر هائل من ضبط النفس

وترويضـهـا وقـوة الارادة ، وأنه لـم يكن مـن الممكن لأى قـدر من تشكيل العـادات فى مـرحلة الطفـولة أن يصـيغ شـخـصـيـتـه بالصـورة التى تمكنه من إنتـاج «مـبـادىء الرياضيات» ، كما أن راسل لم يكن يعجب بافتقار البعض إلى قوة الارادة . والواقع أن راسل كتب فى «مبادىء إعادة البناء الاجتماعى» يقول : «هناك نوع من النظام يعد ضروريا لتحقيق كل الإنجازات تقريباً» ، كما كتب أيضا يقول إن «النجاح فى خلق النظام العقلى هو الميزة الرئيسية التى تتسم بها التربية العليا التقليدية» .

وعلى أية حال ، عندما أقام راسل مع زوجته دورا مدرستهما الخاصة التى عرفت باسم مدرسة بيكون هيل فى تليجراف هاوس بالقرب من هارتنج التى استأجرا مبناها من فرانك راسل ، فقد كانت الفكرة الرئيسية من وراء إنشاء هذه المدرسة تنصب على توفير الحرية للنشء وتجنب ما يتعرض له من عوامل الكبت . وفى بادىء الأمر كان حضور الحصص إجباريا ولكن راسل اقتنع فيما بعد - وهو غير راغب فى ذلك تماما - بالتخلى حتى عن هذه القاعدة .

وقال راسل عن أطفال هذه المدرسة : إننا نسمح لهم بأن يتصرفوا بوقاحة وأن يستخدموا أية ألفاظ يريدون استخدامها - وإلا فإن الأشياء التى يرغبون فى التعبير عنها دون أن يستطيعوا التفوه بها ستنعكس بصورة ضارة عليهم وتسمم حياتهم من الداخل . فإذا أرادوا أن ينعتونى أو ينعتوا أساتذتهم بالغباوة لم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ما يريدون .. وليس هناك عائق يمنعهم من إظهار عدم احترامهم تجاه من يكبرونهم سنا ومقاماً .

وأدلى راسل بملاحظة قال فيها : «عندما نترك الأطفال على سجيتهم فيما يتعلق بالألفاظ التى يستخدمونها ، فإنهم يتفوهون ، بين الحين والاخر ، بهذه الأشياء التى تؤكد كتب فرويد أنه لا بد وأنهم يفكرون فيها . ففى أثناء نزهاتهم ، على سبيل المثال ، قد يسمعهم المرء وهم يعلقون (بألفاظ أكثر صراحة) بأن شكل الشجرة يشبه رمز عضو الذكور . وهكذا» ويعتقد راسل أن السياسة البديلة ، وهى سياسة الحظر التى

تتلخص فى قول الكبار للطفل «صه . أنه من العيب أن تتفوه بهذه الألفاظ» تؤدى إلى الكبت والاضطرابات النفسية .

وكانت المسرحية التى يقوم التلاميذ بتمثيلها فى كل فترة دراسية مظهر من مظاهر هذه المدرسة ، وفى هذه التمثيلية كان كل ممثل فيها يؤلف الدور الذى يلعبه . وأوضح راسل أن هذه التمثيليات كانت تتراوح بين الكوميديا والتراجيديا الدامية . ويقول فى هذا الصدد : «كان التلاميذ يصرون على أن يموت الجميع فى نهاية المسرحية . ولكنهم الآن يكتفون عموما بجريمة قتل واحدة ، وكان زوار المدرسة فى بعض الأحيان يندهشون بعض الشىء عندما يرون صبية وفتيات تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة وهم يكتبون ويمثلون تمثيليات تناقش بجدية مشاكل الزواج ، والحب المتحرر الطليق .. إلخ ، كما كان أطفال المدرسة يكتبون أيضا الشعر بصورة تعاونية . وعندما لاحظ أحد الزوار قائلا : إن ذلك أمر غريب إلى حد ما ، رد راسل عليه بقوله : «هل لى أن أذكر لك أن هوميروس والنسخة المعتمدة من الكتاب المقدس لم يكونا نتاجا لعبقرية فردية ، وأنه من الجائز أن هناك مبالغة فى هذا العصر فى تأكيد فردية الفنان» .

ومن المحتمل أن تكون دورا راسل هى صاحبة الفضل الأكبر فى إقامة هذه المدرسة . ولكن راسل نفسه استغرق فى دراسة سلوك الأطفال . ومن المؤكد أن راسل هو الفيلسوف الكبير الوحيد – باستثناء لوك – الذى لم يكتف فقط بتكريس قدر كبير من الوقت لتعليم فتاة صغيرة كيف تتناول وجبات طعامها وكيف تستخدم «قصرتيها» ، بل أنه سجل أيضا الأساليب التى كان يتبعها تفصيلا ، وقدم نصائح عملية مفيدة للغاية فيما يتعلق بمثل هذه الأمور . وكتب راسل ، وهو يشعر بزهو الانتصار ، إلى والدى طفلة تبلغ من العمر أربعة أعوام ، يقول :

«إن جينى فى حالة مدهشة وطيبة للغاية . وهي تأكل كميات هائلة . وأحشاؤها تفرغ ما فيها كل يوم (وغالبا ما تفرغ ما فى أحشائها مرتين فى اليوم الواحد) بصورة

مرضية تماما وبدون أن تتناول أى دواء . وإذا كان يحق لى أن أقول هذا دون إفراط فى الزهو ، فإننى أعتبره انتصارا للعلم أساسا» .

«وفى بادىء الأمر اعتادت أن تكون صعبة المراس . ولكننا كنا نقبل على الفور ، وعلى علاته ، أى عدم رغبة لديها لتناول الطعام ، وفى حالات كثيرة كان امتناعها عن تناول الطعام مجرد كلام . وسرعان ما غيرت التكتيك الذى تتبعه . دون أن أصبحت الآن تعرف أننا نعلم أنها تأكل كثيرا ، فإنها تلتهم كل ما يمكنها أن تصل إليه من طعام .

«ولكن فيما يتعلق بالإمساك ، فقد كنا نعتقد أنه يرجع لاسباب سيكلولوجية . (انظر ما يتردد فى كتابات فرويد هنا وهناك) . وقد رفضنا فى أول الأمر أن نعطيها كتابا تتصفحة أثناء عملية التفريغ ، حتى تزيد من رغبتها فى أن تنتهى منها سريعا . وعندما ذكرت أنها لا تستطيع الانتهاء من قضاء حاجتها ، قلنا لها أنها لا تزال أصغر من أن تتقن مثل هذه الأشياء اتقانا تاما . وربطنا أمامها بين ذلك وبين قدرتها على القفز والسباحة وهى مجالات استطاعت أن تحرز فيها تقدما سريعا . وأكدت النتيجة صحة تشخيصنا ، حيث أنها أصبحت تجد فخرا فى نجاحها فى قضاء حاجتها . وقد أدى هذا إلى تحسن كبير فى صحتها ومعنوياتها التى أصبحت الآن مدهشة . ويؤكد لى هذا ما اعتقد فيه من سلامة علم النفس الحديث للاطفال» .

ومع ذلك ، فلم تكن النتائج التى توصل إليها راسل نتائج سعيدة تماما . ومن أكبر المشاكل التى واجهته مشكلة الحصول على المدرسين المناسبين لمدرسته . فعلي سبيل المثال ، كان المدرسون يتجاهلون أفكار راسل العاقلة الخاصة بضرورة امتناعهم عن حث الطفل على تناول الطعام . وأوضحت دورا راسل لأحد الزوار أنها اضطرت إلى طرد المشرفة ، لأنها ضبطتها متلبسة بخلق عقدة المراحيض (أى التفريغ) عند الأطفال عندما تنهاهم عن استخدام «القصرية» أمام الناس .

ومع ذلك ، فإن السبب الحقيقى الذى جعل من المستحيل على هذه المدرسة أن تنجح، هو أنها أصبحت ملاذا طبيعيا للأطفال الذين يصعب مراسهم بصفة خاصة والذين استبعدتهم المنشئات التعليمية الأكثر اتباعا لنظم التعليم التقليدية . ومع مثل هؤلاء الأطفال ، فإن محاولة السماح لهم بالنمو الحر كانت بالضرورة تؤدى إلى خلق الفوضى وإقامة مجمع للشياطين . وكان الزوار يندهشون للتناقض القائم بين راسل نفسه الذى كان كعهده دائما – لا يزال يعتنى بنظافته وحسن هندامه عناية لا مزيد عليها – وبين الانطباع العام بالقذارة وعدم النظام الذى أوحت به هذه المدرسة فى تيلجراف هاوس . وكان سقف حجرة الطعام مرشوقا بقطع الطعام نتيجة لأن الأطفال كانوا يمسكون بالفطائر ويتبارون فيمن سيستطيع أن يلصق أكبر قطعة منها فى السقف .

وقد حذرت إدارة المدرسة الأطفال من إشعال النيران فى شجيرات الجولق . وبمجرد أن وجه هذا التحذير إليهم ، قام طفلان على الفور باضرام النار فيها . وبادرت المدرسة بطرد أحدهما – وهو صبى – واستبعاده منها . أما الطفل الاخر فكان فتاة . وكان من المستحيل الالتجاء إلي نفس الاجراء معها ، نظرا لأن والدتها كانت فى ذلك الوقت فى طريق عودتها من مصر إلى إنجلترا . وأخذ راسل هذه الفتاة إلى سريرها ، وأغلق بالمفتاح على كل ما تحتاج إليه من ملابس . وعندما اعترضت الفتاة على هذا الاجراء من جانبه ، قال لها راسل : «إذا تركتك تنهضين من سريرك ، فقد تشعلين النار مرة ثانية أليس كذلك ؟» ، فاعترفت الفتاة قائلة : «نعم . قد أفعل ذلك» . وهكذا اضطرت الفتاة إلى ملازمة الفراش حتى عادت أمها .

وفى الوقت نفسه ، كانت المدرسة تعانى بصفة مستديمة من الصعوبات المالية، فقد ، بلغت خسائرها أكثر من ١٠٠٠ جنيه سنويا ، ولم يكن لدي برتراند ودورا راسل أية خبرة فى المجال العملى بالإدارة المدرسية . وأصيبت المدرسة بنكسة تلو النكسة . وكانا قد استأجرا دار تيليجراف هاوس مفروشة من فرانك راسل ، ولكن فرانك قام

بنقل معظم ما فيها من أثاث . واكتشف راسل وزوجته أن إمدادات المياه ليست كافية . واقتضت زيادتها تكاليف باهظة وبات على راسل أن يتجشم عبئا مضاعفا . فقد تعين عليه من ناحية ، أن يحاول أن يدير المدرسة - إلي درجة الاهتمام بالتفاصيل الخاصة الصغيرة مثل تكليف أصحاب المحلات بارسال طلبات المدرسة ، كما تعين عليه من ناحية أخرى أن يعمل لكسب المال اللازم لتغطية مصروفات المدرسة ، وذلك عن طريق كتابة المقالات . أو القيام بجولات فى أمريكا لالقاء المحاضرات هناك .

وظل انتاجه هائلا فى وفرته . قال راسل لأحد الذين أجروا حديثا معه فى عام ١٩٣٠ : «إننى لم أمسك بالقلم منذ أن بدأت فى تنفيذ مشروع المدرسة ، أى منذ أكثر من ثلاث سنوات مضت . وأنا أملى بأقصى سرعة يمكن لمن يقوم بعملية الاختزال أن يكتب بها . وإنى لا أراجع مطلقا أية كلمة أمليها . ويبلغ مجموع ما أمليه فى اليوم ثلاثة آلاف كلمة . وكان من عادتى أن أعمل فى الصباح فقط . فإذا وجدت أننى لم أتم فى الصباح كمية العمل التى أقوم بها كل يوم ، فإننى فى بعض الأحيان أواصل العمل بعد الظهر . وإننى أخطط كل شيء سلفا . ولذلك فقبل أن أبدأ يكون كل شيء قد انتهى . وعندما يكون مطلوبا منى أن أكتب كتابا من ٦٠,٠٠٠ كلمة ، فإننى أبدأ فيه قبل حلول موعد تسليمه للناشرين بعشرين يوما ... وأنا أكتب كل ما أكتب للحصول على المال . ولا يضايقنى أن أكتب المقالات السريعة التافهة وإنى لا أنظر إلى هذه الكتابات التافهة من علياء المشاعر السامقة » .

وكانت المدرسة تعانى من كثرة الزوار والمتفرجين الوافدين عليها ، الأمر الذى اضطر راسل إلى استبدال العبارة المعلقة فى لوحة إعلانات المدرسة من : «الناظر ... موجود فى بيته كل يوم أربعاء من الساعة ٢,٣٠ إلى الساعة ٥ «إلى» الزوار يقابلون الناظر بناء على موعد سابق» . وبمضى الوقت ازداد اعتكاف راسل فى حجرته الواقعة فى برج دار تيلجراف هاوس حيث كان الأطفال يصعدون إليه فى بعض الأحيان لتلقى دروسهم . وحتى يومنا الراهن ، فإنه يمكن لمن استمع إلى شرحه فى التاريخ حينذاك

أن يذكر ما شعر به من متعة .

وانتهت علاقة راسل بالمدرسة عند فسخ زواجه الثانى . ولكن دورا واصلت إدارة المدرسة حتى بداية الحرب العالمية الثانية .

وبطبيعة الحال ، كان موقف راسل ودورا من التربية الجنسية سببا فى إثارة معظم الاهتمام بالمدرسة . وسوف أناقش هذا الأمر فى الفصل التالى . وفيما يتعلق بمشاكل التربية الأخرى ، فإن الانطباع الذى تعطيه كتابات راسل اليوم ، إذا وضعناها فى مواجهة المحاولة التى بذلها كى يضع أفكاره موضع التنفيذ العملى ، هو فى العادة انطباع بالاعتدال والادراك السليم . وكان راسل يرى - كما هو الحال بالنسبة لموضوعات عديدة أخرى - أن لأغلب الأمور وجهين - يقوم هو بنفسه بعرضهما علينا - كما كان يرى أن الوصول إلى الحقيقة ليس أبدا بمثل هذه السهولة التى يظنها معظم المنظرين .

كان راسل لا يوافق على فكرة العقاب ، كما كان يعترض على توقيع العقوبات البدنية تحت أية ظروف . ويقول فى هذا الصدد : «كلما وجهت صفعة لطفل ، فإن خليطا معقدا من العواطف المتقدة المتنازعة يغلى فى داخلة» . ولكن راسل كان يدرك دائما أنه «لامفر من فرض بعض القيود على مبدأ الحرية المطلقة إذا أردنا من الأطفال أن يتعلموا شيئا» . وأوضح راسل فى كتاباته اللاحقة عن التربية الوسائل التى يجب الحد بها من الحرية لتحقيق النظافة والمواظبة واحترام ممتلكات الغير، ولتحقيق روتين يومى منتظم كاف لاعطاء الطفل الشعور بالأمن . ومن الواجب دائما أن يكون هناك بعض التدخل من جانب الراشدين ، ولو على الأقل لمنع الأطفال من «الفتونة» على من يصغرونهم سنا وكمثال على الاستخدام المشروع للضغط على الصغار فى هذا الشأن ، يصف لنا راسل كيف تمكن هو نفسه من معالجة طفل من خوف من البحر خوفا ليس له ما يبرره عقلا ، وكيف علمه أن يستمتع بالاستحمام عن طريق الامساك به فى الماء بالرغم مما أبداه من مقاومة موضحا له أنه لم يلحق به أذى كنتيجة لذلك .

وظل راسل أحيانا يظهر احتراما مبالغا فيه نحو ما ينادى به فرويد وعلماء النفس المحدثين . فقد كتب يقول : «أظن أن دراسة علم النفس ، وخصوصا علم نفس الأطفال تجعل من الممكن حقا تنشئه أناس فاضلين ..» ولكن على الرغم من أنه كان دائما حترم الطريقة التى كان يشجع بها فرويد الناس على أن يتحدثوا بأمانة فى أمور الجنس ، وعلى الرغم من أنه كان يتفق معه على وجود اللاوعى ، إلا أنه لم يقبل وجهة نظره التى ترى أن الجنس هو كل شىء فيه(*) . ولكن ملاحظته العملية للأطفال جعلته لا يكن سوى القليل من الاحترام لأسوأ السخافات المضحكة التى تردى فيها الفرويديون . وقال راسل انهم بالغوا فى أهمية الجنس خلال سنوات العمر الأولى . وأعلن أن عقدة أوديب ليس لها وجود الا فى الحالات «النادرة والمرضية» . ولم ير بأى شكل من الأشكال أنه من الخطأ أن يقبل الأباء أطفالهم ويدللونهم . وخالف راسل نظريات فرويد التى ترى رموزا جنسية فى لعب الأطفال .

وكان راسل يحرص أشد الحرص على عدم تشجيع الروح العسكرية لدرجة أنه قال : إن التدريب على الشجاعة الجسمانية ينبغى أن يتم عن طريق التصدى للقوى غير الحية وتحديها ، وليس عن طريق المنافسة . فرياضة تسلق الجبال فى نظره أفضل من كرة القدم . وقال : إنه ينبغى ألا يرى الأطفال آباءهم وهم يقتلون أى شىء ، ولو كان ما يقتلونه زنبورا أو أفعى . وأما بالنسبة لمرتكبى الأثام والجرائم من بنى البشر ، فينبغى علينا ألا نكرههم بل أن نشفق عليهم بروح علمية موضوعية . وإذا رجعنا بأفكارنا القهقرى ، فإن هذه التعاليم تبدو غريبة فى عالم شاهد ظهور هتلر وموسولينى وستالين . لقد كان راسل متخلفا عن زمانه تارة وسابقا عنه تارة أخرى ولعلنا نجد له

(*) فهناك ، على سبيل المثال ، الرغبة فى البقاء على قيد الحياة . فقد كتب راسل يقول : «إن فرويد لا يضع فى الاعتبار أن معظمنا يفضل البقاء على قيدة الحياة على الموت » ويرد على اتباع فرويد الذين يبالغون فى تحمسهم لآرائه والذين عرضوا وصفا تفصيليا لما يدور فى اللاوعى بالأسلوب الفرويدى المعروف ، قائلا : «إن كل ما تذهبون إليه يقوم على الافتراض . وليس فى استطاعتكم إثباته» .

شيئاً من العذر إذا تذكرنا أن هتلر كان فى ذلك الوقت مثيرا للفتن مغموراً وأن راسل لم يذهب إلى الحد الذى ذهب إليه التربويون الآخرون من دعاة السلام فى العشرينات من هذا القرن فقد قال : إنه لا ينبغى أن تخفى عن أعين الأطفال أن هناك قسوة فى هذا العالم . كما أنه بعد مناقشة طويلة ، قرر أنه ليس هناك خطأ فى أن نقص عليهم قصصا خيالية عن الجن والعفاريت تنطوى على مضمونات سادية .

وقال راسل : إنه من الطبيعى أن يعيش الأطفال فى الخيال حياة أسلافهم المتوحشين رغم بعد هذه الحياة عنهم ، والطفل الذى يشعر بالمتعة لسماعة قصة بلو بيرد وهو يطيح برءوس زوجاته ، ويتقمص فى الخيال شخصية بلو بيرد يرضى فى نفسه غريزة النزوع نحو السلطة ، ويمكنه فى حياته المستقبلة أن يشبع نفس هذه الغريزة بطرق مفيدة خلاقة . ولكنه إذا تم القضاء على هذه الغريزة ، وهى لاتزال فى مهدها فى مرحلة الطفولة ، فإن الطفل سيصبح عندما يكبر شخصا كسولا فاقد الروح ويتسم «بالطيبة المستضعفة المخنثة» .

ويتضح من هذا الاستنتاج الذي توصل إليه راسل أنه لا يتمتع بقدرمدهش من الإدراك السليم فحسب ، بل أنه قد أخذ يبتعد عن آراء فرويد ، فمن المفروض أن من يدين بالفرويدية تماما ينكر أن غريزة السلطة المحيطة لدى الطفل من شأنها أن تنتهى إلى الذبول أو الضمور . بل سيذهب إلى أنها ستجد منفذا ملتويا لها .

وبالرغم من أن راسل تنبأ بأنه سيكون هناك اتجاه متزايد إلى قيام الدولة برعاية الأطفال بدلا من آبائهم ، الا أنه يقول : «إننى لست متأكدا تماما من أن هذا سيكون أمرا حسنا» . وكان راسل واحدا من الذين يحبذون مدارس الحضانه بشدة ، ولكنه لم يتفق مع أصحاب تلك النظريات التربوية التى ترى أن مدارس الحضانة يجب أن تتيح للأطفال فرص اللعب والمرح فقط دون الاهتمام بالعمل ، وأنه يجب عدم تعليم الأطفال أى شيء على الإطلاق . بل يفترض أن الطفل الذى يبلغ من العمر خمسة أعوام ، يجب أن يعرف كيف يقرأ ويكتب ، ومن الجائز أن يكون قد تعلم لغة ثانية عند بلوغه سن السابعة .

ويعتبر الاشتراكيون البريطانيون المحدثون بعض جوانب تفكير راسل آراء رجعية ، اقترح راسل أن يتم اختيار الصبية الذين يصلحون لمواصلة التعليم الجامعى فى الثانية عشرة من العمر بدون إجراء مزيد من الامتحانات لهم ، كما حث أيضا على إرسال الأطفال الذين يتمتعون بقدر غير عادى من الذكاء إلى مدارس خاصة . وقد تم فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية تطبيق نظام تعليمى يميل إلي هذا الاتجاه . وأصبح قبول طلبة المدارس الثانوية قاصرا على هؤلاء الذين يتم إختيارهم عن طريق إجراء اختيارات خاصة تعقد لهم وهم بين الحادية عشر والثانية عشرة . وكانت هذه المدراس الثانوية هى تقريبا الطريق الوحيد الذى يمكن للطلبة الفقراء أن يسلكوه حتى يصلوا إلى الجامعة ، وإن كانت هناك امتحانات أخرى تعقد لهم قبل التحاقهم بها . ولكن سرعان ما حدث هجوم على هذا النظام على أساس أنه ينبغى ألا يتقرر مستقبل الطفل فى مثل هذه المرحلة المبكرة ، وأن قصر القبول فى المدارس الثانوية على الصبية الأذكياء يشبه فى سوئه قصر القبول فيها على هؤلاء الذين يستطيع آباؤهم دفع نفقات تعليمهم ، وأنه تحقيقا لمبادىء المساواة ، ينبغى اختلاط كل الأطفال فى «مدارس شاملة» كبيرة .

وقد رد راسل على مثل هذا النوع من الحجج رداً مفحمًا وقاطعًا قبل ذلك بعدة سنوات . فقد كتب فى «التربية والنظام الاجتماعى» يقول :

«يمكننا أن نجنب الأطفال الأذكياء قدراً كبيراً لا داعى له من الألم والاحتكاك إذا نحن لم نرغمهم على الاختلاط اختلاطاً وثيقا بزملائهم الأغبياء . وهناك فكرة تقول إن الاحتكاك بين مختلف فئات الطلبة فى شبابهم كفيل بإعدادهم لحياتهم المستقبلية . ويبدو لى أن هذه الفكرة لا تعدو أن تكون سخفا ، فليس هناك فرد يعيش فى مراحل حياته التالية على انتهائه من التعليم بين جميع ومختلف الفئات . وليس هناك ما يضطر الذين يعيشون على المراهنة على الخيل مثلا على أن يعيشوا بين القساوسة ، كما أنه ليس هناك ما يرغم القساوسة على أن يعيشوا بين هؤلاء المراهنين» .

وكتب راسل فى عام ١٩٢٨ يعزو ضآلة الإنجازات الفنية والثقافية فى أمريكا ، إذا قورنت بما أمكن تحقيقه فى فرنسا ، إلى الطريقة المتبعة فى فرنسا فى إرسال الطلبة النابهين بشكل ملحوظ إلى مدارس منفصلة خاصة بهم .

ولم يخف راسل أيضا حقيقة تتلخص فى أنه من المرجح أن يصبح أطفال الآباء الأذكياء أكثر تفوقا من أطفال الآباء الأغبياء . وفى هذا الصدد تعارضت آراء راسل تماما مرة أخرى مع نظام المنح الذى طبق فى بريطانيا ، والذي يجد بمقتضاه أبناء المهنيين صعوبة فى الحصول على التعليم الجامعى أكثر من الصعوبة التى يجدها أبناء الموظفين الكتابيين والعمال غير المهرة .

وكما توضح الأمثلة التى سبق أن أوردناها ، فإن كتب راسل فى التربية لا تزال ، فى يومنا الراهن تحتفظ بتأثيرها وتلقى الاهتمام . وبالرغم من أن بعض آرائه قد أصبحت تلقى الاستجابة الآن على أنها أمور طبيعية ، إلا أن بعض الاصلاحات الأخرى التى اقترحها لا تزال فى انتظار أن توضع موضع التنفيذ . وانتقد راسل على سبيل المثال المبالغة فى الاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة . (بل أنه ذهب ذات مرة ، وإن لم يكن يفعل ذلك دائما ، إلى حد القول بأن الوقت الذى قضاه فى دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة «كاد أن يكون هباء تماما» . وعلى أية حال ، كان المصلحون فى مجال التربية فى انجلترا مشغولين للغاية بتقرير أى الطلبة يحق لهم الالتحاق بأية مدارس لدرجة أنهم لم يولوا المواد التى يتعلمها الطلبة عندما يلتحقون بهذه المدارس سوى قدر ضئيل من اهتمامهم ، الأمر الذى جعل الثقافة الكلاسيكية القديمة لا تزال تعتبر مادة رئيسية فى مناهج المدارس الخاصة ومنح التعليم الجامعى .

الفصل الثامن عشر

الزواج والأخلاق

إننى من وجهة نظر معينة أشعر بالسرور وأنا أبدأ فى كتابة موضوع هذا الفصل ، وذلك لأننى أعتقد أن راسل جانبه الصواب فيما يتعلق بهذا الموضوع . وقد يصيب الألم القارىء المتيقظ حين يكتشف أنى أعتقد (وهذا أمر يدعو للأسف فى بعض الأحيان) أن راسل كان على حق فيما يتعلق بمعظم الموضوعات التى تناولها . وإنى أعلم أن هذا أمر يؤسف له ، وأنه من الأصوب فى كتاب من هذا النوع أن يلقي المرء من عليائه بين الحين والآخر ببعض كلمات قليلة من النقد والتجريح حتى يخلق انطباعا بالحيدة والنأى عن التحيز . وإننى أشعر بالأسف لعجزى عن أن أفعل ذلك . ومما يؤسف له أن أحدا حتى الآن لم يستطع أن يفند النتائج التى توصل إليها راسل فى معظم النقاط التى تعرض لها ، كما أن معظم نقاده لا يقدمون سوى السخافات . ولكننى عندما أتناول موضوع الجنس والزواج ، فإن آرائى وآراءه تتعارض على خط مستقيم . وأعتقد أن أفكاره فى هذا الموضوع تستند إلى خطأين أساسيين .

إن كتابات راسل عن العلاقات الجنسية و«تحرير المرأة» لا تشكل سوى قطاع واحد صغير من أعماله ، وهو قطاع ليست له على الاطلاق أهمية إنجازاته العظيمة فى مجال الفكر . ولكن ليس هناك أى موضوع آخر كتب فيه راسل أثار اهتماما بين عامة الناس وترك أثرا مباشرا أكثر من هذا الموضوع . لقد غير راسل أكثر من أى فرد آخر من نظرة جيل جديد بأسره إلي أخلاقيات الجنس ، وشاهد فى حياته كيف انتهت قضية حقوق المرأة إلى أن تصبح جزءا راسخا من قوانين البلاد وعادتها ، بعد أن كان الناس فى وقت ما ينظرون إليها على أنها حملة يشنها نفر من الشواذ والمهاويس .

ومنذ بضعة سنوات قليلة كنت أناقش مع جلبرت مرى القضايا التقدمية المختلفة التى أشترك مع راسل فى الدفاع عنها فى أوائل القرن العشرين ، وهي قضايا تتناول الدعوة إلى العالمية وحرية التجارة حتى حركة منع المسكرات . وخرج الدكتور مرى من هذه المناقشة بنتيجة مؤسفة ، وهي أن القضية الوحيدة . من بين كل هذه القضايا التى قيض لها أن تنجح هى قضية حقوق المرأة .

وثمة سبب آخر يدعونا إلي مناقشة آراء راسل فى الجنس والزواج ، وهو أنها تعطي مثلا واضحا لخطأ يتكرر فى فلسفته ، فقد كان راسل كلما اندفع بحماس ملتهب فى مناقشة أى موضوع يجنح إلى الإفتراض بأن كل ما يقوله خصومه فى هذا الجدل يجانبه الصواب ، وبالرغم من أن خصومه كانوا عادة على خطأ بالفعل ، إلا أنهم لم يكونوا مخطئين على الدوام فى كل ما يذهبون إليه .

ويتلخص خطأ راسل الأساسى الأول فى أنه أشار ضمنا إلى أنه ليس فى الجنس شيء غريب ، وأن أى جو من الغموض قد يحيط به لا يرجع سوى إلي اتجاه دعاة الأخلاق الذين يشيعون الجهل فى العصر الفيكتورى – وقد كان راسل يمقتهم – إلى إضفاء هذا الغموض على الجنس ، وكان هؤلاء يعتقدون أنه يجب ترك الأطفال فى حالة جهل مصطنع عن الجنس . ولكن راسل اتجه إلى الطرف النقيض ، وكتب كما لو كان فى الامكان ذكر كل شيء عن الجنس للأطفال . وتساءل راسل قائلا إنه إذا كان من الممكن استجلاء الغموض عن شيء رائع مثل الرياضيات ، فلماذا لا يمكن استجلاؤه فيما يتصل بالجنس أيضا . ولست أستطيع أن أوجه نقدا لراسل فى هذا الشأن أشد من قولى إن موقفه هذا يذكر المرء بستالين .

فقد كتب ستالين يقول : «إن مادية ماركس الفلسفية ترى أنه يمكننا معرفة كل شيء تماما عن هذا العالم وقوانينه . وليست هناك فى العالم أشياء لا يمكن معرفتها ، ولكن هناك فقط أشياء لا تزال مجهولة حتى الآن . ولكن سوف يتم كشف النقاب عنها ومعرفتها عن طريق جهود العلم والممارسة .

وفى كلمات تذكرنا بكلماتب ستالين ، كتب راسل عن الجنس يقول : «إن الشيء الهام هو أن تخلق بأسرع ما يمكن الشعور بأن الغموض الذى يكتنف الجنس لا يرجع سوى إلي الجهل به ، وهو جهل يمكن تبديده عن طريق الصبر والجهد العقلى . وكتب يقول : «ينبغى علينا أن نتناول الجنس بنفس الأسلوب الذى نعالج به حقائق الحياة العادية المألوفة تماما كما لو كنا نشرح مثلا كيف يمكن لمياه الصودا أن تدخل سيفون الزجاجة الخاصة بها» . إن الأسلوب الذى يمكن به علاج صبى من اهتماماته المخلة بالآداب هو أن نغرقه بسيل من المعلومات حتى «يشعر بأنه لم يعد هناك ما يجب معرفته ، وأنه ليس فيما عرفه بالفعل ما يثير» . ويجب محاربة الخرافات القائمة على الخوف من الموت بنفس الأسلوب ، بمعنى أنه يجب أن نصف الموت «كما لو كان أكثر الأشياء التى نتخيلها ألفة» . وكتب راسل ينصح الآباء والأمهات قائلا : «افعلوا كل ما فى وسعكم حتى تجعلوا الطفل يشعر أنه ليس هناك أى غموض حول الجنس وحتى تتركوا فى نفسه الانطباع بأن الأمر ليس فيه ما يثير إلى حد ما .. ».

والتعليق الوحيد الذى يمكن لى أن أعقب به على هذا الموقف هو أننى أعتقد فى استحالته . وإذا أخبرنى أى شخص أنه ليس هناك شيء غريب حول الجنس ، وأن عملية إنتاج الأطفال ليس منها ما يثير الدهشة أكثر مما تثيره فينا عملية إنتاج السيارات ، فيكفينى للرد عليه أن أقول إننى لا أصدقه . وإذا حاول أى شخص أن يوحى الينا بأن الحياة والموت موضوعان يبعثان على الملل نوعا ما ، فكل ما أستطيع أن أقوله فى هذا الشأن هو أنه ليس هناك من يعتقد هذا حقا ولو للحظة واحدة وأن راسل هو آخر من يعتقد فيه .

ويبدو لى واضحاً ، دون حاجة إلى إقامة الدليل على ذلك ، أن أسرار الحياة والموت ليست مجهولة فحسب ، بل أنها يمكن أن تظل أشياء ليس هناك سبيل إلى إدراك كنهها .

وقد يأمل راسل والآخرون فى أنه سيمكنه فى يوم من الأيام الوصول بعلم الأحياء وعلم النفس إلى مستوى العلوم الطبيعية . ولكن ليس هناك سبب مؤكد يدعونا إلى الاعتقاد فى إمكانية هذا . وإذا كان راسل يعنى ضمنا غير ما أقول ، فإن موقفه سوف يتعارض مع اللاأدرية التى ترفض الجزم والتزمت والتى تتسم به كل نظرته الفلسفية . وإذا كان راسل يرى أنه بالرغم من كل ما نجهله عن الموت والحياة فإنه من السليم أن نعلم الآخرين أنه ليس هناك شىء مثير للدهشة حول كل منهما ، فإن رأية سوف يتعارض مع معتقداته الحقة حول الدور الصحيح الذى يجب على كل من التلاميذ والمعلمين أن يضطلعوا به . فعلى سبيل المثال ، كتب راسل فى «مبادىء إعادة البناء الاجتماعى» أن المدرس الحق يجب أن يتمتع بالقدرة على الشعور «بالتبجيل» ، وأنه يجب عليه أن يشعر فى كل ما هو حى ، خصوصا بنى البشر ، والأطفال منهم بالذات ، بوجود شىء مقدس . لا يمكن تعريفه وليست له حدود ، شىء مستقل قائم بذاته له قيمة تثير الغرابة والعجب ، يتمثل فيه مبدأ الحياة النامى ، ويتجسد فيه جزء من حركة العالم الخرساء التى تسعى جاهدة نحو استكمال أسباب الحياة» . وكتب راسل بصدد الأطفال : «يجب علينا ألا نصد فيهم أبدا حب الاستطلاع» . ولكنه من الواضح أننا لا نشجع حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة بخصوص أى موضوع عندما نشير ضمنا إلى أنه يخلو من الافادة والتشويق .

وهدة لماذا تردى راسل عندما نشر كتابه «عن التعليم» فى ١٩٢٩ فى وهدة اتخاذ موقف يمكن مقارنته – فى مجال واحد على الأقل – بموقف ستالين؟ لقد كان أحد الأسباب – كما سبق أن لاحظنا – هو اقترابه أكثر من أى وقت آخر من الفكر التقدمى التقليدى خلال هذه السنوات . وربما يرجع السبب الثانى إلى حد ما إلى موقفه الفلسفى العام ، إذ إنه لم يكن قد توصل بعد توصلا كاملا إلى أفكاره المتعلقة بحدود المعرفة العلمية ولكنه لايمكننا أن نفهم السبب الرئيسى فى هذا الصدد . كما هو الحال غالبا فى كل من كتاباته الفلسفية وكتاباته التى تشيع بين عامة الناس ، إلا إذا علمنا

شيئاً عن خصومه وطبيعة الشرور التى كان يهاجمها .

ونحن نجد أن الدين والأخلاق التقليدية قد أقاما صرحا عالياً من الخرافات والمحرمات والعرف والبؤس والعقول المنحرفة والحياة التعسة على أساس أن الجنس شيء غريب وأن هناك خوفا من الموت فى أغلب الأحيان . وبلغت رغبة راسل فى تقويض هذا الصرح حدا جعله يريد إنكار ما قامت عليه من أساس . ولأن الغموض قد أدى إلى الخرافات ، فإنه أراد أن يلغى وجود الغموض . ولأنه يمكن للأخلاق التقليدية أن تخلق البؤس ، فقد أراد أن يلغى وجودها . وكان راسل يكتب فى بعض الأحيان كما لو كان موقف العصر الفكتورى من الجنس لا يمثل سوى صورة للانحراف العقلى يمكن علاجه عن طريق التعليم الصحيح ، وهو ينسى أحيانا أن الجنس كان ملفوفا أبدا فى طيات التقاليد والمحرمات فى كل زمان ومكان ، لأنه يمثل شيئا قويا وغريبا يثير من المشاكل ما يعجز حتى أكثر الناس حكمه عن تقديم الحلول لها .

وكان راسل فى خطئه الأول يتفق مع ستالين ، فى حين أنه فى خطئه الثانى – الذي يكاد أن يكون أكثر سوءا – قد اتفق مع برنارد شو . ولقد عبر شو عن هذا الخطأ عندما جعل إحدى شخصياته تقول إن الرجل ما هو الا أمرأة ، وإن المرأة ما هى الا رجل . «مع اختلاف بسيط لديهم إلا فى بعض المناسبات الخاصة» . وكتب راسل يقول : «إن الفرق الوحيد الذى أعرفه بين الرجال والنساء هو فرق لا يمكن التعبير عنه بكلمات مطبوعة» ، دون أن يعطينا قط أى توضيح مفصل لهذه الملاحظة التى تتسم بخصائص أسلوبه . وفى الواقع ، فإنه يمكننا أن نجد فى كتاباته أقوالا تتعارض مع هذه الرأى . ولكننى أعتقد أن راسل ، شأنه فى ذلك شأن بقية التقدميين فى عصره كان يقع فى العادة تحت تأثير الفكرة التى تتلخص فى هذه العبارة الغامضة : «المساواة بين الجنسين» .

قد يكون النساء أقل شأنا من الرجال ، وربما كن أرفع شأنا ، ولعلهن خليط من هذا وذاك ، ولكن الشيء الوحيد المؤكد تماما هو أن النساء لا يتساوين

مـــع الرجال . وهناك على سبيل المثال دلائل كثيرة تشير إلى أن النساء ، لأسباب تتعلق بالتشريح ووظائف الأعضاء ،، هـن فـى المتوسط أقل قدرة من الرجـال فـى كثير مـن الانجـازات الجسمانيـة والعقلية وفيما يتعلـق بالقـوة الجسمانية ، فـإن هذا أمر تؤكده الاختبارات العملية . وقد نتوقـع أن إدراك هـذه الحقيقة من جانب دعاة الحركـة النسائية التـى تطالب بمساواة المـرأة بالرجل يجعلهم يشعـرون ببعض الشكوك إزاء مـوقـفـهم . ولكنه على العكس من ذلك نجـد أنهم يستـغلـون صعـوبـة التوصل إلى معايير يمكن بهـا قياس القـدرات العقليـة فيؤكدون فى رقـة ولطف دون أن يستنـدوا فـى ذلك إلـى أية أدلـة عـلى الأطلاق – أن الجنس الناعـم – رغـم أنه أضعف من الناحية الجسمانية ، يتساوى مع الرجال من ناحية القدرات العقلية .

وكان راسل أمينا بالقدر الكافى لأن يسلم بأن النساء يظهرن على وجه العموم ذكـاء أقل مما يظهره الرجـال . وبوصـفـه واحديا مـحـايدا يميل إلى الأخذ بالمذهب السلوكى فى علم النفس ، كان يمكنه أن يجد تفسيرا سهلا لهذا فى القول .. بنوع من العلاقة المتبادلة بين القدرات الجسمانية والعقلية . ولكنه بدلا من ذلك ، خرج بدعوة غريبة مفادها أن السبب الرئيسى الذى يجعل النساء أقل ذكاء من الرجال هو أن حب استطلاعهن بشأن الجنس تعرض للكبت الفعال فى شبابهن أكثر مما تعرض له الرجال . ولست أعتقد أن هذا يفسر تفسيراً مرضياً ندرة وجود الفيلسوفات والرياضيات والعالمات نسبياً بين النساء .

إن تكريس راسل كل جهده لقضية المساواة بين الجنسين مثل يثير الاهتمام على وقوع أكثر المفكرين استقلالا تحت التأثير اللاواعى للمناخ الثقافى فى عصره . وهناك أيضا جانب الولاء الطويل الأمد للمبدأ ، خاصة وأن والده ، وج.س . ميل ، الذى كان راسل يعتبره بطلا فى مرحلة صباه ، قد تعرضا للسخرية على أساس انهما رائدان من رواد الحركة النسائية ، فضلا عن أن أحد عناصر التقاليد الليبرالية التي تربى راسل فى ظلها يتمثل فى مناصرة الضعيف على القوى ، وفوق كل شىء إن الايمان

بعدم المساواة بين الرجل والمرأة كان جزءا لا يتجزأ من نظرة العصر الفيكتورى إلى الحياة ، تلك النظرة التى ثار راسل في وجهها(*) .

ولاحظ راسل أن الخيانة الزوجية تنتشر بصورة تقليدية بين الأزواج أكثر منها بين الزوجات ، ورأى أنه ليست هناك أسباب صحيحة - سواء كانت فسيولوجية أو سيكولوجية - وراء هذا الاختلاف . وبدا له أنه حتى يصبح الطرفان متكافئين ، فإنه ينبغى على الزوجات أن يخون أزواجهن مثلما يخون الأزواج زوجاتهم . و اقترح راسل أنه يجب عدم اعتبار الزواج أمر يحتم استبعاد العلاقات الجنسية الخارجة عن نطاقه وأنه ينبغى على الأزواج بدلا من كبح جماح رغباتهم فى خيانة زوجاتهم ، أن يكتفوا بالحد من مشاعر الغيرة تجاه أية خيانات مماثلة ترتكبها هذه الزوجات . وقال راسل : إن الخيانة الزوجية يجب الا تعتبر فى حد ذاتها سبباً يبيح الطلاق .

وكتب يقول : «إن الكثير منا يعتقد أن محاولة فرض الزواج بواحدة بصورة متشددة (وهو الأمر الذى لم ينجح أبدا) تسبب كثيرا من البؤس (الذى يمكن تجنبه) شأنها فى ذلك شأن الشرور السياسية والاقتصادية» .. وبين كل أشكال الحرص ، ربما يعد الحرص فى الحب أكثر العوامل المدمرة للسعادة الحقة .

ويتمشى هذا الرأى مع المحاجة الرئيسية التى ساقها فى كتابه «مبادىء إعادة البناء الاجتماعى» . ومفادها أنه يجدر بنا تشجيع الدوافع الخلاقة وعدم تشجيع نوازع التملك . ورأى راسل أنه إذا كان فرض الضوابط أمرا ضروريا ، فإنه ينبغى علينا ألا نضع الضوابط على عاطفة الحب الطليق الممتع ، بل على عاطفة الغيرة السلبية المقيدة .

(*) أكد راسل إن لا يدعو إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ، بل أنه يدعو فقط إلى المساواة بينهما فى الحقوق . كما أكد أن دفاعه عن المساواة فى الحقوق غير مستمد من أى مبدأ قبلى ، بل مستمد من المذهب النفعى الذى يدعو إلى تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس . ولست آظن أن هذا يؤثر على المحاجة التى أسوقها تأثيرا كبيرا ، لآن لدى فيما أعتقد تحيز مشابه ضد الحديث عن «الحقوق المتساوية» اللهم إلا إذا تحدثنا عن هذه الحقوق بمعنى جلى واضح .

ولكنى أطمئن أن هذا الرأى الجذاب قد فشل فى أن يضع فى اعتباره أن التحكم فى الأفعال إسهل من التحكم فى العواطف .

ليس من المستحيل بالنسبة لرجل يشعر بالرغبة الجنسية أن يعف عن أداء العمل الجنسى ، كما أنه ليس من المستحيل بالنسبة لرجل يشتبه فى خيانة زوجته له أن يمتنع عن قتلها . ومثل هذه الأمثلة التى تدل على ضبط النفس تحدث كل يوم مع أناس عاديين وسلوك عطيل يمثل الاستثناء لا القاعدة ، ولكن الأمر يحتاج إلى قديس غير عادى للغاية أو إلى حالة استثنائية للغاية من البرود الجنسي ، حتى لا يشعر المرء فى المقام الأول بنوازع الجنس أو عواطف الغيرة . والنقد الوحيد الذى نحتاج لتوجيهه إلى نوع الزيجات التى اقترحها راسل ، هو أن مثل هذه الزيجات لا ينجح ، لأنه لا يمكن فى واقع الأمر القضاء على مشاعر الغيرة والتعاسة فيما يتعلق بعامة الناس .

وقد يكون راسل مخطئا فى هذه النقطة ، ليس لأن آراءه متقدمة أكثر مما ينبغى ، ولكن لأنها تقليدية أكثر مما ينبغى . وربما كان راسل فى ثنائه على الأزواج والزوجات الذين يستطيعون النظر إلى خيانات بعضهم البعض برباطة جأش متأثرا بصورة لا شعورية بالاعتقاد الأرستقراطى فى أن إظهار العواطف ينم عن سوء السلوك . لقد ظن الذين كانوا يمارسون التجارب فى شئون الجنس فى العشرينات والذين كانوا يفخرون بفسقهم العرضى وبعدهم عن الإحساس بالغيرة ، أنهم يمثلون قمة العصرية فى التفكير والتحرر من المحرمات . ولكنهم فى واقع الأمر كانوا يمثلون قمة التقليد الأرستقراطى الراسخ القدم الذى يمجد ضبط النفس .

من السهل والواضح معا أن يوجه المرء نقده إلى راسل عندما كان يكتب عن المشاكل الانسانية على أساس أنه يغالى فى استخدام المنطق والعقلانية إلى درجة أنه وجد من الصعب عليه أن يفهم مدى لاعقلانية سلوك الناس . وليس لهذا النقد ما يبرره عادة كما سبق لى أن أوضحت . وإن كنت أعتقد أنه من الصحيح أن راسل كان عاجزا

عن فـهم الحـاجـة التى يسـتند إليـهـا الزواج التـقليـدى . ويرجع ذلك ببـسـاطة إلى لاعقلانيتـهـا ومـا فـيـهـا من مفـارقة فضـلا عمـا فيـهـا من غموض . إذ إنه مما يتسم باللاعقلانية أن يقطع المرء وعدا بأن يحب امرأة واحدة بعينها مدى الحياة ، فى الوقت الذى يزخر فيه العالم بنساء أخريات لم يقابلهن بعد ، قد يرقن فى نظره ، ولكن الحياة تسير على ما هى عليه ، لأن عدد المحبين الذين يستغرقون فى قدر كاف من الحب يكفى لتجاهل هذه الحقيقة الواضحة . وتكمن فضيلة الزواج بواحدة فى هذه المفارقة ، فهو يوفر للمتزوجين الحرية بنفس القدر الذى يقيد به حريتهم . وعندما يكون الوفاء فى الحب أمرا مؤكدا بصورة قاطعة ، فإنه يحق لكل من الزوجين أن يستمتع بأية صداقات يريدها الجنس الآخر . ويحق له أن يسافر بمفرده ، وأن تكون له إهتماماته المختلفة الخاصة به . والافإن حرية الأزواج سوف تصبح ، إن عاجلا أم آجلا ، حبيسة داخل أسوار من الشك والغيرة .

ولم يكن راسل يدعـو إلى أية نظرية دون أن يكون مـسـتـعـدا لأن يراها توضع موضع التنفيذ . وذكر لصديقة متزوجة أنه ليس هناك سبب يدعو إلى أن يكون لها عشيق ، فضـلا عن أنه كان يطبق نظرياته على نفسه (والواقع أن جيلبرت مرى أعرب لى عن رأيه ذات مـرة – وكان ذلك إلى حد ما أسلوبه الذى يتميـز به – وهو أن راسل تخلى عن تقاليد الزواج بواحدة ، لأنه لما كان قد قرر بالجدل العقلى أنه يحبذ الحرية فى الحب ، فقد شعر لزاما عليه أن يضع ما يحبذه موضع التنفيذ . وقد سأل شخص راسل ذات مـرة إذا كـان لا يرى أنه يقسـو على النسـاء اللائى يهـوينه ، واللائى يفتـر اهتمام راسل بهن فيمـا بعد ، فرد عليه راسل متسـاءلا ، «لماذا ؟ انهن يستطعن هن الأخـريات أن يجـدن رجـالاً آخـرين» . وتعبـر هذه الملاحظة عن التـواضع الذى يمكن للعظمـاء أن يتصفوا به . ويبدو ببسـاطة أنه لم يخطر على بال راسل أن أي رجل آخر يمكن أن يكون بديلا لايبعث على الرضـا ، ولم يدرك أى فرق فى السرعة التى يستطيع بها الرجال والنساء ، كقاعدة عامة ، تغيير الشخص الذى يوجهون عاطفة الحب نحوه .

وفى فترة من فترات حياته الزوجية مع دورا ضرب راسل مثلا حيًّا على وضع نظرياته موضع التنفيذ ، إلى حد أنه سمح لواحد من عشاق دورا أن يعيش معهما تحت سقف واحد .

وهناك قاعدة تلتزم بها من قبيل الشرف الصحافة والخطابات فى بريطانيا . وتقضى هذه القاعدة عند الكتابة عن إجراءات الطلاق على الاقتصار على الجوهريات فقط . وإننى أنوى اتباع هذا التقليد وسأقتصر فيما أكتبه عن فسخ زواج راسل الثانى على ملخص قصير لما ورد فى هذا الصدد فى صحيفة التايمز الصادرة فى هذا الوقت ذكرت دعوى الطلاق التى رفعتها دورا أن راسل يخونها مع مارجورى سبنس ، وهى طالبة فى جامعة أكسفورد كانت قد التحقت بعمل لدى أسرة راسل ، وساعدت راسل فى أبحاثه فيما بعد . وقد اتضح أثناء النظر فى الدعوى أن دورا أنجبت أربعة أطفال ، من زواجها من راسل ، منهم اثنين فقط من راسل نفسه . (وقد أكد لنا راسل فى كتاباته أنه لا ينبغى للعلاقات الجنسية التى تنشأ خارج نطاق الزواج أن تؤدى إلى إنجاب الأطفال) . واعترفت دورا بالزنا مع رجلين ، ولكن قيل : إن «كلتا الحالتين المتعلقين بحياتها الزوجية قد سبقتها حالتان على الأقل من حالات الزنا من جانب زوجها» . وكان هناك إشكال قانونى فى حالة انفصال سابقة أثارت اهتمام رجال المحاماة ، ولكنها لا تهمنا فى هذا المقام . وقد تم فسخ زواج راسل بدورا فى عام ١٩٣٥ . ثم تزوج باتريشيا سبنس(*) فى يناير ١٩٣٦ ، وأنجب منها طفلهما الوحيد فى العام التالي .

وهناك نقطة قد لا تكون واضحة تماماً للعيان يجدر التنويه بها . وهى أن انتهاء زواج راسل نفسه بالطلاق لايثبت فى حد ذاته أن نظرياته خاطئة ، تماما كما أن

(*) غيرت مارجورى سبنس اسمها إلى باتريشيا دون أن تشرك أحدا معها فى اجراءات التغيير القانونية . وكان أصدقاؤها يطلقون عليها اسم بيتر ومن ثم نشأت تلك الاشارات – التى تدعو إلى الخلط بعض الشيء – الوارد فى تصدير بعض كتب راسل إلى ما تلقاه من عون ومساعدة على يدى شخص يشير إليه تارة باسم بيتر سبنس وتارة أخرى باسم باتريشيا راسل .

حدوث أى طلاق آخر لايثبت خطأ الزواج التقليدى .

لقد انتقدت فى الصفحات السابقة ما ذكره راسل عن الزواج ، ولكنه يجب أن نعالج آراءه الخاصة بتحبيذ التجارب الجنسية قبل الزواج معالجة مستقلة . وقد كتب راسل يقول : ليس من المرغوب فيه أن يقدم الرجل أو المرأة على عملية الزواج الجاد التى يقصد بها أن تؤدى إلى إنجاب الأطفال بدون أن يكون لها تجارب جنسية سابقة . وقد أصبحت وجهة النظر هذه - وأن كانت لا تزال مثار كثير من الجدل - تجد قبولا على نطاق واسع فى كثير من البلاد .

وأثنى راسل على الكتاب الذى ألفه ليون بلوم رئيس الوزراء الفرنسى الاشتراكى الذي دعا فيه إلى أن يكون للفتيات نفس حق الشبان فى ممارسة الاباحية الجنسية . وقد دافع راسل عن هذا الرأى على أساس ما يقتضيه «العدل» . وأعرب عن أسفه ، لأنه ليس هناك رئيس وزراء بريطاني يجرؤ على نشر مثل هذا الرأي . كان بلوم يعتقد أن غرائز كل من الجنسين تتميز بالنزعة الاباحية فى مرحلة الشباب ، ولكنها تتجه نحو الاقتصار فى الزواج على واحدة فى الثلاثين من العمر ، وهو الوقت الذي ينبغى عقد الزواج فيه . وكان نقد راسل الوحيد للكتاب هو أن الشك يخالجه فى مجيء هذه الرغبة فى الاقتصار على زوجة واحدة أو زوج واحد فى أية فترة من حياة الانسان .

ويتلخص أشهر رأي من آراء راسل الجنسية فى أن حياة معظم طلبة الجامعة - تكون أفضل - «سواء من الناحية الفكرية أو الأخلاقية» إذا عقدوا زيجات مؤقتة دون إنجاب أطفال . وكتب يقول : «إن هذا سوف يقدم مخرجا للدافع الجنسى ، دون ممارسة الجنس فى قلق أو فى الخفاء . وهى ممارسة لن تكون مرتزقة أو عارضة كما أنها من نوع ليس من شأنه أن يضيع وقت الطلبة الذى ينبغى تكريسه للعمل . وحتى الآن لم تنظر أية سلطات جامعية إلى هذا الاقتراح بعين العطف .

أما فيما يتعلق بغرائزى الخاصة بى ، فإنها من الطراز العتيق ولا تثق بأى شيء

يتسم بهذا القدر من المنطق الذى يتسم به اقتراح راسل هذا . ولكنه لا يمكننا هنا أن نقيم نفس الدليل العملى ضد ما يذهب إليه . إن السبب الرئيسى الذى يعلل رد الفعل الذى ظهر ضد آراء راسل حول الزواج هو أن هذه الآراء لم تؤد إلى نتائج سعيدة . وإذا كان هناك أى رد فعل ضد آرائه الخاصة باباحة العلاقات الجنسية قبل الزواج ، فإن السبب يرجع أساسا إلى الرخاء الاقتصادى الذى حدث بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبح من الممكن معه أن تتم الزيجات فى سن مبكرة بكثير عن السن الذى كانت تتم فيه فى سنوات الكساد الاقتصاد ، وهى السنوات التى أصدر فيها راسل كتاباته فى هذا الموضوع .

فضلا عن أن الظروف المتغيرة أثرت أيضا على دعوة راسل الخاصة بعدم حرمان النساء غير المتزوجات من الأمومة بسبب تقريع الرأي العام ولومه . ففى الوقت الذى كتب فيه راسل كان عدد النساء اللائى بلغن سن الزواج يفوق عدد الرجال الذين فى نفس السن ، بحيث أن الزواج بواحدة فقط كان يعنى حتما أنه سيكون هناك فائض من النساء .وانقلب هذا الوضع فى بريطانيا على أية حال بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبح عدد الرجال فى سن الزواج أكثر من عدد النساء اللائى فى نفس السن .

ولست أستطيع أن أنهى هذا التعليق على آراء راسل دون أن أؤكد الفضل الذى ندين له به بسبب ما قدم به من عمل عظيم فى ميدان التحطيم . وربما كان أفضل اشادة بنجاحه هو أن قله من الناس الآن تدرك ما كانت عليه طبيعة الأفكار القديمة ويجب أن نكرر أن راسل كان يقاتل ضد أوضاع قاسية لا يمكن الدفاع عنها حيث كان يتم فرض الجهل الجنسى بصورة متعمدة ، إلى حد أن الصبى كان يظن أن التغيرات التى تطرأ عليه فى فترة البلوغ هى أعراض مرض مروع ، وإلى حد أن الفتاة كان يمكن أن تتزوج دون أن تعرف أى شىء عما يحدد فى ليلة الزفاف ، وحيث كانت النساء يتعلمن أن ينظرن إلى الجنس ، ليس على أساس أنه مصدر للمتعة ، بل على أساس أنه واجب مؤ لم من واجبات الزواج ، وحيث وصل التحشم إلى درجة تغطية

أرجل البيانو بستائر من الجوخ حتى لا تظهر أرجل الجنس الناعم . وحيث كان الغموض المصطنع يثير الفضول المريض ، وحيث كان الزيف يسير جنبا إلى جنب مع التعاسة . وحيث لم يكن فى الإمكان التوصل إلى مخرج من محنة زواج بائس الا عن طريق إثبات قانونى معقد لحدوث الزنا ، وحيث كانت أخلاقيات الجنس الصارمة يصحبها قبول للدعارة وغض الطرف عنها . إن ثورة راسل على التقاليد لم تقض على كل هذه المساوىء وذلك لأنه – فيما أعتقد – لم يقدر كل الأسباب التى تكمن وراء هذه المساوىء ، ولكن العلاقات القائمة بين الرجال والنساء لا يمكن أن تعانى مرة أخرى من بعض الشرور التى هاجمها . ولا تزال آراؤه فى نقاط كثيرة – على أقل تقدير – أمثلة عليا فى التسامح وتقدير الظروف ينبغى أن نسعى إلى تحقيقهما حتى يومنا الراهن .

الفصل التاسع عشر

المؤلف الذى لا يكل

أظهر الخطاب الذى كتبه راسل لشارلس سانجر فى عام ١٩٢٩ شيئا من الخجل من شعوره بالحنين إلى الصداقة ، فقد كتب فى هذا الخطاب يقول : يؤسفنى للغاية أن أسمع أنك مريض إلى هذا الحد .. عزيزى شارلى ، أعتقد أننى لم أعبر أبدا عن عواطف الود العميق الذى أشعر به نحوك . ولكنى أحسب أنك على علم بها . «ومات سانجر بعد ذلك بمدة قصيرة» وأحزن راسل أرملته بعض الشىء برفضه المأثور عنه لأن يهادن – فقد امتنع عن حضور الجنازة لأنه علم أنه ستصحبها مراسيم دينية . وبوفاة كل من سانجر وكرومبتون لويلين دافيز والليدى موريل ، قضى كل أصدقائه المقربين إليه تقريبا وقد توفيت الليدى أوتولين فى عام ١٩٣٨ بعد أن أصيبت بالصمم فى آخر حياتها . ولكنها واصلت ، بعطفها المأثور عنها ، تنظيم ندوات الصالون التى تعقدها كل يوم خميس ، لمجرد أنها أرادت أن تتيح للناس الذين يبعثون على التشويق والاهتمام فرصة الالتقاء السار بعضهم البعض ، وإن لم يكن فى وسعهم – بسبب صممها – أن يوفروا لها سوى القليل من السرور .

وفقد راسل بعضا من أصدقائه الفلاسفة أيضا ، ولم يستطع راسل أن يساير تصوف فيتجنشتين الذى أظهره فى الأجزاء الأخيرة من كتابه الذى يحمل عنوان «تراكتاكوس» ووصل الأمر بهما إلى الحد الذى قال له فيتجنشتين بطريقة حادة وفورة فى يوم من الأيام . «لن يكون هناك حديث بيننا بعد الآن» .

وظهر خلاف راسل مع هوايتهد حتى قبل أن يدب الخلاف بينهما فى الرأى حول الفلسفة . ولعل هذا الخلاف قد بدأ عندما تجادل راسل في إحدى المناسبات مع

هوايتهد وزوجته حول الحب الطليق من كافة القيود . وأعتقد أنه يمكننا أن نفترض أن راسل كان يعرض آراءه بأسلوب أشد ما يكون استثارة واستفزازا . فازداد هوايتهد سخطا على راسل ثم صاح أخيرا يقول له : «برتى ، إنك أرستقراطى ، ولكنك لست جنتلمان» . وقد علقت مسز هوايتهد ذات مرة بقولها : إنه من المؤسف حقا بالنسبة لراسل أنه كان يتمتع بدخل مستقل فى سنى حياته الأولى ، مما مكنه من أن يفعل كما يحلو له ، بدلا من أن يلتحق بوظيفة أكاديمية تفرض عليه النظام .

ومن المحتمل أن يكون هوايتهد قد استاء لأن كثيرا من الناس أرجعوا معظم الفضل فى تأليف «مبادئ الرياضيات» إلى راسل . فضلا عن أنه ظن أن راسل نشر – سابقا لأونه – بعض أفكارة عن «البناء»(*) فى كتابه «معرفتنا بالعالم الخارجى» ، بالرغم من أن راسل أشار إشارة كاملة إلى الفضل الذى يدين به له .

كما أنه نشب بينهما خلاف آخر حول الدعوة إلى السلام والحرب العالمية الأولى ، خاصة وأن ابن هوايتهد الأصغر قتل فى هذه الحرب ، ومن الجائز أن هوايتهد لم يفق تماما من هول هذه الفجيعة . وسافر هوايتهد إلى أمريكا حيث حاضر كأستاذ للفلسفة فى جامعة هارفارد . وكان هوايتهد ينظر من منصبه إلى جولة المحاضرات التى قام بها راسل فى أمريكا على أنها عمل لا يليق بالكرامة إلى حد ما . وشعر بالاهانة كذلك من جراء حادثة سوء تفاهم تثير الضحك . فقد دعا راسل إلى تناول الغداء معه ، فى هارفارد . ولكن شخصا فى شركة الوكلاء التى تكفلت بتنظيم جولة المحاضرات التى قام بها راسل فتح خطاب الدعوة . وشعر هوايتهد بالغضب الشديد عندما تلقى ردا يطلب منه دفع رسم مقابل ارتباط راسل بأن يتناول الغداء معه . وبطبيعة الحال ، ظل راسل يجهل تماما ما حدث .

وفقد راسل بعض الأصدقاء الآخرين أيضا . فقد ابتعد ت.س . اليوت وراسل عن بعضهما البعض عندما حول اليوت إهتماماته من الفلسفة إلى الكنيسة . وفى مجال

(*) Constructions .

السياسة ، كان راسل لايوافق على قيام كليفورد ألن بتأييد رامزى ماكدونالد فى تشكيل حكومة وطنية ، وقبوله لقب لورد . وبالرغم من أن روبرت تريفليان أقنع راسل بأن يذهب إليه ، ويتحدث معه يحدوه فى ذلك الأمل فى التوفيق بينهما ، فقد باء اجتماع راسل به بالفشل ، إلى حد أن الليدى ألن ذكرت فيما بعد أنها كانت لا تريد مطلقا أن تقابل راسل مرة أخرى . ومن ناحية أخرى ، اختلف راسل مع بعض الناس الآخرين لاعتقاده أنهم ينحازون إلى اليسار أكثر مما ينبغى .

ولم يكن راسل على علاقة ودية للغاية مع ج.د.هـ. كول الذى كان يمثل قوة فكرية أساسية تحرك حزب العمال (وقد ذكر راسل ذات مرة ، أثناء الحرب العالمية الأولى أنه يأمل الا يكون له نفس التأثير على كول مثل التأثير الذى كان لجودوين على مالثوس) . . أما وب وزوجته اللذان كانا فى أول الأمر يشار كان راسل شكوكه نحو روسيا السوفيتية ، فقد قاما بزيارة الاتحاد السوفيتى تخليا بعدها عما كان يساورهما من شكوك . وأصدرا كتابا يداهنان فيه هذا البلد ، مما كان له أثر كبير فى تشكيل آراء الجناح اليسارى . كما اختلف راسل مع برنارد شو اختلافا نهائيا لا رجعة فيه بسبب ما أظهره شو من إعجاب بالنظام الستالينى . ووصف راسل شو بأنه «قاس ، وضيق الأفق وسخيف» . وعلق بأن شو أحب روسيا ، لأنه عندما ذهب إليها وجد الأمور سيئة كما كان يتوقع» .

واعترى علاقة راسل بشارلس تريفيليان شىء من الفتور ، فقد كان تريفليان يعترض على موقفة الذى ينتقد البلشفية ، وفى نفس الوقت أبدى ج.م. تريفليان اعتراضه على آراه راسل فى الزواج والأخلاق . ولعل هذا يعكس افتقار تريفليان إلى التفهم الانسانى ، وقد كان هذا نقطة الضعف الكبرى فيه كمؤرخ ، وبذلك لم يعد هناك سوى روبرت تريفيان وعقيلته اليزابيت اللذين ظلا يتعاطفان مع راسل . وكتب راسل بأسلوبه الذى تميز به بعد زيارة قام بها لروبرت تريفليان وعقيلته فى شينولدز وهو منزلها الذى يقع فى سرى بالقرب من ليث هيل :

«نويت أن أكتب لكما معبراً عن مدى استمتاعي بزيارتي لبيتكما ، ثم نويت أن أكتب لكما تعبيراً عن شكرى على بيجاماتى ، ونويت بعد ذلك أن أكتب لكما معتذرا عن إننى لم أفعل أياً من هذه الأشياء ، وسأطلب شيئا من الميزانية المخصصة لرصف الطرق لتحسين الطريق المفضى إلى الجحيم» .

وظل راسل يقيم مع زوجته الثالثة باتريشيا راسل فى تيلجراف هاوس ولكنه انتقل معها فيما بعد إلي كيدلنجتون بالقرب من أكسفورد حيث عقد راسل صداقة جديدة . فقد كان أحد جيرانهما هو الدكتور جون بيكر عالم الأحياء المبرز . واعتاد راسل بعد أن يكد فى عمله طول النهار أن يذهب إليه كل مساء ، كما كان الدكتور بيكر يذهب فى بعض الأحيان إلى راسل بعد العشاء ليتسلى معه فى بعض الألعاب المنزلية . وتعلم راسل من بيكر لعبة الأب جنكنز(*) التى اعتاد راسل أن يلعبها بقدر كبير من السرور والاستمتاع . وكانا أيضا يشتركان مع الآخرين فى لعبة يتعين فيها على كل فرد أن يعطى كل فرد آخر درجات تتراوح من صفر إلى عشرين على عدد من الصفات مثل الذكاء والأمانة وهكذا . وكانت هذه اللعبة تجرى عادة دون أن يعرف أحد من المسئول عن إعطاء الدرجات المختلفة . ولكن راسل كانت له طريقته الخاصة فى اللعبة التى يكتشف بها المشتركون فى اللعبة فى النهاية من الذى أعطى لهم الدرجات وعن ماذا .

وذات مرة أصاب بيكر شىء من الضيق عندما اكتشف أن راسل أعطى أطفاله درجات فى الذكاء أعلى من التى أعطاها له ، وأعطى راسل عشرين درجة لبيكر عن الإخلاص وصفر عن الكياسة ، قائلا إن هاتين الصفتين تتعارضان تماماً . ومن ثم فإن درجتيهما معا ستكون عشرين .

وفى أثناء الثلاثينات كان لايزال على راسل أن يكسب قوته عن طريق العمل الذى لا يكل فى التأليف والكتابة للصحف بالرغم مما تعرض له من أسباب القلق وعانى منه من اعتلال صحته . (وقد ظهرت ميزة تحصيله العلمى الهائل ، من الناحية العملية ،

(*) Up-Jenkins .

عندما وجد نفسه فريسة مرض خطير خلال رحلة قام بها لأسبانيا فوصف الأعراض التى شعر بها للطبيب الأسبانى باللغة اللاتينية) . ونذكر من بين كتبه التى تلقى الرواج أكثر من غيرها والتى قام بتأليفها فى هذه الفترة «غزو السعادة» ، «فى مدح الكسل» «النظرة العلمية» و «الدين والعلم» .

وكثيرا ما أنكر راسل أن الفلسفة يمكن أو ينبغى أن تكون مصدرا للعزاء والارشاد الأخلاقى . وكتب راسل ذات مرة يقول : «إن عزاء الفلسفة الوحيد الذى أعرفه هو عزاء يستمده المرء من ممارسة الفلسفة ، وهو نفس العزاء الذى يستمده من فعل أى شىء آخر» . وقال إنه غالبا ما وجد نفسه يشعر بأن الحياة عبث لا طائل منه . ولكن الفلسفة لم تساعده أبدا على التغلب على هذا الشعور ، بل كان يتغلب عليه بسبب الحاجة الملحة إلى عمل شىء ما ، كأن يمرض أحد أطفاله مثلا ، فيضطر للعناية به . وعلى أية حال لقد عاش راسل طويلا بالقدر الذى يمكنه من أن يقدم نصائح قائمة على الخبرة بشأن بعض مشاكل الحياة ، وكانت هذه النصائح تتمشى بصورة وطيدة مع الاتجاه العام لفلسفته كما أنها - بهذه المناسبة - تتمشى مع تعاليم كثير من الأديان .

وقد حث راسل الناس على أن يهربوا من الانشغال بالذات والتفكير فيها عن طريق تأمل أشياء أعظم منها . والنصيحة التالية ، على سبيل المثال ، مفيدة وبسيطة للغاية يقدمها راسل فى كتاب «غزو السعادة» إلى هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون فكاكا من إحساسهم بالقلق . فقد كتب فى هذا الصدد يقول : «عندما يتهددك وقوع مكروه ، تصور فى جدية وتدبر أسوأ شىء يمكن أن يحل بك من جرائه . وبعد أن تنظر إلى هذا المكروه المحتمل الوقوع وجها لوجه ، قدم إلى نفسك أسبابا وجيهة تدعوك إلى الاعتقاد بأنه مهما كان هذا المكروة ، فإنه - على أية حال - ليس بشعا بالدرجة التى كنت تتوقعها . ومثل هذه الأسباب موجودة دائما ، حيث إن ما يحدث للمرء على أسوأ تقدير ليست له أهمية بالنسبة لنظام الكون . وحين تجابه بثبات لبعض الوقت أسوأ احتمال يمكن أن يحدث وبعد أن تقول لنفسك عن إقتناع حقيقى : «حسنا ، إن هذا لن

يهم كثيرا على أية حال» ، فسوف تجد أن القلق الذى يعتريك قد يتضائل إلى حد كبير للغاية » .

وتشير كتابات راسل فى أغلب الأحيان إلى تفاهة الانسان إذا قورن بالكون . وحمل راسل وجهة نظره هذه إلى حد أبعد – وأعتقد أنه يغالى فيما يذهب إليه فى كتابه «الدين والعلم» ، فقد كتب يقول : «إذا كانت غاية الكون هى تحقيق تطور العقل ، فينبغى أن نرمى هذا الكون بافتقاره إلى الكفاءة إلى حد ما ، لأنه استغرق مثل هذا الوقت الطويل فى خلق ذلك القدر الضئيل من التطور العقلى . وقد يبدو من الغريب أن تظهر الحياة وليدة الصدفة ، ولكن الصدف قمينة بأن تحدث فى مثل هذا الكون الفسيح» . وقد تكون هناك أسباب وجيهة يمكن الاستناد عليها لانكار أن للكون غاية والتقليل من شأن الحياة الانسانية . ولكنى لا أعتقد أن ما ساقه راسل يعتبر سببا وجيها . إن الطبيعة لم تسمع مطلقا عن بنصل أوكام . وتضع أنثى سمك القد (البقلاة) حوالى تسعة آلاف بيضة فى العام ، ولكن بيضة واحدة أو بيضتين هما اللتان تفقسان . ولكن ليس هناك من يستنتج من هذا أن الغرض من البيض هو عدم إنتاج جيل جديد من سمك البقلاة (ويمكن للمرء أن يتخيل أن سمكة بقلاة ذات عقل متواضع قررت – بعد أن قرأت أعمال برتراند راسل – أن وجودها هو نوع من المصادفة غير الهامة يمكن توقعها فقط بين مثل هذا العدد الكبير من البيض . وأنه إذا كانت الطبيعة تقصد من وراء كل هذا العدد من البيض أن تنتج سمك البقلاة ، لما عملت الطبيعة على تحقيق هدفها بهذا الأسلوب الذى ينطوى على التبذير والتبديد ، كما ينطوى على الافتقار إلى الصلاحية والكفاءة . وقد كتب فرانك رامزى ذات مرة يقول : «إننى لا أشعر بوضاعتى على الاطلاق أمام اتساع السماوات الهائل ، وقد تكون النجوم ضخمة ولكنها تعجز عن التفكير أو الحب . وهاتان صفتان تؤثران فى نفسى أكثر بكثير من تأثير ضخامة الحجم فى . ولن يشرفنى أبدا أن يبلغ وزنى نحو سبعة عشر وزنة حجرية»(*) . وإننى

(*) تبلغ الوزنة الحجرية ١٤ رطلا .

أجد نفسى أتفق – اتفاقا جزئيا على أقل تقدير – مع وجهة نظر رامزى . وأظن أن راسل هو الآخر يتفق معها فى الحقيقة اتفاقا جزئيا . (ويمكننا فى هذا الصدد أن نقرأ وجهة نظره المدروسة فى الطريقتين التى يمكن للمرء بها أن ينظر إلى الانسان والكون فى بداية الجزء الثالث من كتاب «المعرفة الانسانية») .

وكما سبق لى أن ذكرت ، يستحيل علينا أن نقسم حياة راسل إلى تقسيمات مناسبة . فقد كان دائما يميل إلى الاهتمام بكل شىء . ففى عام ١٩٣٦ ، على سبيل المثال ، نشر مقالة عن «حدود مذهب المشاهدة والتجربة» ، الذى كان بمثابة خطوة هامة تجاه الموقف الفلسفى الذى توصل إليه أخيرا فى كتابة «المعرفة الانسانية» وعاد راسل لبعض الوقت إلى الفلسفة الرياضية ، وكتب مقدمة للطبعة الثانية لكتاب «مبادىء الرياضة» التى نشرت فى عام ١٩٣٧ . وفى هذه المقدمة قبل راسل التعديل الذى اقترحه فرانك رامزى فى نظريته المعروفة بـ«نظرية الأنماط» . ولكنه ظل يصر على رأيه الأساسى فى أن الرياضة هى المنطق فى وجه الآراء المنافسة التى كان يدعو لها كل من الحدسيين والصوريين(*) .

وعلى أية حال ، فاننا إذا أخذنا الأمور بصفة عامة ، نجد أن إهتمامات راسل الرئيسية خلال هذه السنوات كانت تنصرف إلى الاقتصاد والنظريات السياسية والتاريخ . ومما يثير الاهتمام أن نلاحظ أن راسل قد سبق كينز عندما تحدى فى مقالته «فى مدح الكسل» رجال الاقتصاد التقليدين الذين كانوا دائما يمتدحون الادخار ويدينون الانفاق . وكتب راسل يقول إنه طالما أن المرء ينفق دخله ، فإنه يطعم بذلك الناس .. ومن وجهة النظر هذه يصبح الشرير الحقيقى هو الانسان الذى يقتصد من دخله» . إن ما أسماه راسل ذات مرة «رذيلة الاقتصاد الكريهة» يمكن أن تؤدى إلى البطالة .

وقال راسل إنه ، بوجه عام ، سيكون من الأفضل كثيرا أن ينفق المدخرون

(*) Formalists .

أموالهم حتى ولو على الشراب والميسر وإقامة الحفلات لاصدقائهم ، وكان هذا الرأى يعتبر فى ذلك الوقت بمثابة هرطقة وضلال . واستبعد أساتذة الاقتصاد أفكار راسل باستخفاف واستهانة على أنها لا تعدو أن تكون زيفا مسليا صدر عن فيلسوف ضل طريقة عندما خرج عن ميدان تخصصه ، ولكن كينز كتب فى عام ١٩٣٦ محاجة مفصلة فى كتابه «النظرية العامة للفائدة والعمالة والمال» ، يذهب فيها إلى أن البطالة يمكن أن تنشأ نتيجة إفراط الناس فى الادخار . وأصبحت هذه الفكرة جزءا من المبادىء الاقتصادية الراسخة .

وكرس راسل الكثير من عمله لدراسة أسباب التطور التاريخي دراسة منظمة . وقرر بأسلوبه الذى يتميز به أنه لا يمكن تقديم تفسير منظم للتطور التاريخى ، وأن المؤرخين يميلون إلى تزييف الأشياء عن طريق محاولة إظهار أن التاريخ له معنى ، ومنذ ١٨٩٦ وراسل يرفض دائما التبسيط المبالغ فيه الذى تتورط فيه الماركسية حين تحاول أن تفسر كل شىء فى ضوء القوى الاقتصادية . وعلى سبيل المثال ، ذكر راسل ذات مرة أن «الاكتشافات العلمية الهامة حقا ... يندر أن تكون نتيجة الدوافع الاقتصادية» وأن «كل إنسان يعرف أن الصور الرديئة والكتب الرديئة تدر أرباحا أكثر من التى تدرها الصور والكتب الجيدة . وبالرغم من ذلك ، فإن كثيرا من الفنانين والكتاب يقدمون لنا أفضل ما يمكن لهم أن يقدموه» . وضرب راسل مثالا توضيحيا آخر قال فيه : «لم يسمع أحد ابدا عن طرد موظف حكومى بسبب كسله . ولذلك ، فإن الدافع الذى يدفع أى موظف حكومى إلى القيام بأى عمل لابد أن يكون دافعا غير اقتصادى ،. وبالرغم من ذلك فنحن نجد أن بعض موظفى الحكومة يعملون أحيانا ، فكيف إذن يمكننا تفسير هذا؟ ويرجع هذا من ناحية إلى حب الشرف ، كما أنه يرجع من ناحية أخرى إلى حب السلطة» .

وإذا كان الاقتصاد وحده لا يحكم التاريخ الانسانى أو يسوده ، فما هى إذن العوامل التي تحركه؟ للاجابة عن هذا السؤال أصدر راسل كتاب «الحرية والتنظيم من

عام ١٨١٤ إلى عام ١٩١٤» . وهذا الكتاب دراسة تاريخية ، ولايزال يعتبر من أكثر كتبه غير الفلسفية قيمة وامتاعا فى قراءته . وامتد مجال هذه الدراسة بحيث شمل كل من أوربا وأمريكا . وقال راسل إن الأحداث التاريخية هى وليدة شبكة معقدة من الأسباب التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة عناوين : التكنيك الاقتصادى ، النظريات السياسية ، والأشخاص البارزين المهمين . وكى يوضح ما يذهب إليه ، وصف راسل مذاهب مختلفة مثل القومية والراديكالية الفلسفية والماركسية والديموقراطية الأمريكية . كما قدم إلينا تصويرا حيا لشخصيات مثل مالثوس ، وبنثام وماركس وجيفرسون وجاكسون وروكفلر وكارينجى .

وتنقل إلينا هذه الصور – مثل لوحات الزيت الجيدة – شيئا عن رسامها نفسه ، مثلما تنقل إلينا شيئا عن موضوعاتها ، ولم يكن راسل على سبيل المثال عادلا إلي حد كبير فى تصويره لشخصية القس ت.ر.مالثوس فإنه لا يخطر على بال أحد من تصوير راسل له أنه كان رجلا مرحا شفوقا يمجد «ملذات الحب الطاهر» ويدافع عن زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل ، ويتحدى المسيحية التقليدية التى ترفض التجديد برفضه فكرة العقاب الأبدى فى الجحيم على أساس أنه من غير اللائق أن تصدر مثل هذه الفكرة عن اله رحيم عادل» .

ولكن المرء يشعر أنه طالما أن الحياة تنبض فى عروق راسل ، فإنه لم يكن فى وسعه الا أن يتخذ موقفا معاديا لرجل الدين الذى يحث الناس على ممارسة «ضبط النفس الاخلاقى» للسيطرة على دافع الجنس الطبيعى الممتع . غير أن الحيوية التى تتدفق فى «الحرية والتنظيم» تعوض إلى أقصى حد ما يشوب هذا الكتاب من تحيز راسل الذى يظهر كثيرا ، وهو تحيز يمكن لدى شخص يدرك حقيقة اتجاه تفكيره أن يضعه بسهولة فى نصابه .

وقد كتب راسل «الحرية والتنظيم» بناء على اقتراح من ناشرة الأمريكى فى ذلك الوقت و.و.نورتون . وكانت الفكرة منذ البداية هى أن يبين هذا الكتاب اندحار النظريات

الليبرالية في القرن التاسع عشر . فقد اندحرت هذه النظريات على يدى بسمارك الذى أقام تحالفا بين القومية والفكر المحافظ بدلا من الليبرالية ، كما اندحرت على يدي روكفلر الذى أظهر كيف يمكن للمنافسة الحرة أن تؤدى إلى الاحتكار وتركيز الصناعة (وقد كانت هذه هى النقطة التى ذكر راسل منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٨٩٦ أنها أهم محاجة ساقها ماركس) .

وقرر راسل أن مثل هذه الاحتكارات يجب على الأقل أن تخضع للسيطرة العامة وكتب فى هذا الشأن يقول :

«إن الراديكالى الذى يؤمن بالمنافسة محكوم عليه بالهزيمة فى أى صراع يدخل فيه مع المؤسسات والهيئات الحديثة . وتشبه قوة هذه الهيئات قوة الجيوش . وإذا تركناها للقطاع الخاص ، فإن ذلك سيؤدى إلى كارثة تماما كما نترك الجيوش فى يد القطاع الخاص . إن المنظمات الاقتصادية الواسعة النطاق فى العصر الحديث هى نتاج حتمى للتكنيك الحديث ، ويميل هذا التكنيك بصورة متزايدة إلى جعل المنافسة شيئا ينطوى على الضياع والتبديد ، والحل بالنسبة للذين لايقبلون الخسف أو الاضطهاد هو أن تؤول هذه المنظمات إلى الملكية العامة».

وفى مقال كتبه راسل بعنوان «دفاع عن الاشتراكية» نراه يطالب بملكية الدولة للقوى الاقتصادى العليا ، بحيث تتضمن على أقل تقدير «الأراضى والمعادن ورأس المال والمصارف والائتمان والتجارة الخارجية».

وهكذا أصبح راسل مؤيدا للتأميم على نطاق واسع . ويرجع السبب فى ذلك – على ما أعتقد – إلى أنه بالغ فى تقدير مزايا التنظيم على نطاق كبير ، فى حين أنه هون فى شأن الصعاب الادارية البحتة التى تكتنف إدارة جهاز بيروقراطى ضخم ، يعني بالشئون الصناعية إلى جانب إهتمامه بالعمل الحكومى العادى ، ولكن إذا كان راسل قد أخطأ فى هذا ، فإن كل أصحاب النظريات الاشتراكية كانوا مخطئين أيضا .

ولقد مرت سنوات كثيرة بعد أن تولت حكومة اشتراكية مقاليد الأمور بالفعل فى بريطانيا عام ١٩٤٥ قبل أن يبدأ أى شخص فى إدراك مدى المشاكل المتعلقة بهذا الأمر .

وكانت هناك صعوبة أخرى أدركها راسل بوضوح . فقد أصبحت كل محاجاته كأشتراكى تقود الآن إلى الاستنتاج بأنه يجب التوسع فى سلطات الدولة ، وزيادة أوجه نشاطها زيادة هائلة . ولكنه بات يؤكد – خصوصا منذ الحرب ومنذ الزيارة التى قام بها لروسيا السوفيتية – الاخطار الناجمة عن «الافراط فى التنظيم فى مجال الفكر ، والافراط فى بذل الجهد فى مجال العمل» . وقال ذات مرة إن «حب السلطة يلحق اضرارا أكبر من الأضرار التى يلحقها حب شرب المسكرات» .

وفى عام ١٩٣٨ نشر راسل كتابا بعنوان «السلطات» يعالج نظريته التى يذهب فيها إلى أن «حب السلطة هو الدافع الرئيسى الذى يؤدى إلى التغيرات التى يتعين على علم الاجتماع دراستها» . وقال راسل أن احتياجات الانسان محدودة ، ومن ثم فإنه من الممكن اشباعها . ولكن اشتهاء السلطة ليس له حدود .

وأكد راسل أنه يجب حماية الاشتراكية عن طريق نوع من الديموقراطية أكثر شمولا وتغلغلا من أى نوع سابق ، بما فى ذلك اتخاذ اجراءات خاصة بحماية الحريات . والا فانه قد يترتب على ذلك «طغيان جديد ، اقتصادى وسياسى فى نفس الوقت يفوق فى صرامته وفظاعته أى طغيان سابق» . وقال : إن «الافتراض بأن السلطة المستهترة غير المسئولة ستتحرر بمعجزة من سائر الصفات السيئة التى كانت السلطة الطاغية المستبدة تتصف بها فى الماضى لا يعدو أن يكون ضربا من علم النفس الطفولى الساذج الذى يفتقر إلى نضوج» .

إن مشكلة «ترويض السلطة» سواء كانت فى ظل الاشتراكية أو الرأسمالية مشكلة كان راسل يعترف دائما بوجودها ويعود إلى الكتابة فيها باستمرار . وهى مشكلة كان

قد ناقشها فى كتابه «مستقبل الحضارة الصناعية» فانعكست فى عنوان «الحرية والتنظيم» ، الذى اختاره لكتابه (كما انعكست بصورة أكبر فى عنوان «الحرية مقابل التنظيم» الذى فضلته دور النشر فى أمريكا) وبعد انقضاء سنوات عديدة عالج راسل هذه المشكلة مرة أخرى فى كتابه «السلطة والفرد» . ولم يستطع راسل مطلقا أن يجد حلا مرضيا لها فى حقيقة الأمر . وإن كانت اقتراحاته العديدة تمثل على الأقل حلولا وسط طيبة لا تقل فى صلاحيتها عن أية حلول أخرى سبق أن طرحت فى هذا الشأن .

الفصل العشرون

الدعوة إلى السلام والحرب العالمية الثانية

ربما كان من غير المنصف لسمعة راسل ، وإن كان هذا أمرا يسهل فهمه ، أن كتبه ، مثل كتاب «الحرية والتنظيم» وكتاب «السلطان» ، لم تحظ بنفس درجة الاهتمام العام الذى حظيت به الحملة الدعائية التى قام بها من أجل الدعوة للسلام فى نفس الأعوام التى صدرت فيها هذه الكتب .

وكان راسل بعيدا عن أن يكون داعية سلام تقليديا لدرجة أنه نادى ، كما رأينا بانشاء بحرية بريطانية قوية كشرط أساسى لبقاء بريطانيا الاشتراكية وصمودها فى عالم رأسمالى يحيط بها. إن ما غير رأيه هو قوة الطيران التى اعتقد أنها جعلت القوة البحرية شيئا باليا . كما أنه تنبأ بأن الحرب القادمة ستستخدم فيها الطائرات التى تنشر الغازات السامة ، وربما الجراثيم المسببة للأمراض .

وكتب راسل فى ١٩٣٣ يقول : «إذا كان لأحد الأطراف أن يكسب الحرب القادمة ، فسيكون هو الطرف الذى يظهر شبابه أكبر قدر من الذكاء فى ميدانى الكيمياء والبكترولوجيا» . وتنبأ راسل وهو يحاضر فى الجمعية الفابية عام ١٩٣٥ بأن الغارات الجوية على المدن الكبرى» ستعنى انتشار الدمار والذعر ، وتؤدى إلى انهيار تام لمواردنا الغذائية وانطلاق ملايين من المشردين الجائعين البائسين من المدن التى أصابها الخراب إلى الريف» . وذكر راسل هذه التنبؤات بالتفصيل فى كتاب «أى الطرق تؤدى إلى السلام» الذى ألفه لحساب الناشر مايكل جوزيف ونشر فى أكتوبر ١٩٣٦ . وقد تنبأ بوقوع خسائر كبيرة فى الأرواح ، وأضاف فى حديث صحفى له أنه

يخشى أن تستمر الحرب حتى تصبح أوربا فى حالة من الفوضى ، وتختفى الحركة الصناعية والحكومات المستقرة وتنشر الأوبئة على نطاق واسع .

وفى كتاب «أى الطرق تؤدى إلى السلام» قال راسل إن حالة الفوضى التي ستنجم عن الغارات الجوية سوف تجعل من الضرورى تطبيق الأحكام العرفية : «إن الحرب دفاعا عن الديموقراطية لابد وأن تبدأ باستبداد العسكريين ، وليس هناك ما يدعو للشك بأنها ستنتهى بنفس الشيء» . «ولن يؤدى الموت والدمار فى النهارية سوى إلى ظهور هتلر آخر فى انجلترا» . وسيصبح البريطانيون مثل النازيين الذين يحاربونهم ، وحتى بفرض أن البريطانيين كسبوا الحرب ، فإن شخصيتهم ستتغير ويصبحون قساة غلاظ القلوب .

وقال راسل إن الدعوة إلى السلام فى مثل هذه الظروف هى السياسة الوحيدة العاقلة . «فإذا شن هتلر هجوما على هذه الدولة (بريطانيا) فى ظل حكومة بها تدعو إلى السلام ، فسيلقى هو وقواته الترحيب والتحية الودية التى يلقاها السائحون» . وإذا سمح للألمان أن يدخلوا البلاد دون حرب ، فقد يغير ذلك من حالة الألمان العاديين النفسية ويجعل النزعة العسكرية تبدولهم أمرا يتسم بالسخف .

وحث راسل الأفراد على رفض القتال ، وقال : إن دعاة السلام كانوا على حق عندما هاجروا إلى دول محايدة . وناقش مع أصدقائه إذا كان واجبه يحتم عليه أن يأخذ أطفاله الثلاثة ويرحل إلى أمريكا .

بل لقد توجه راسل فى حملته الدعائية من أجل السلام بالحديث إلى مجلس اللوردات ، ولم يكن ينظر بعين التقدير الكبير إلى هذا المجلس الذى يتسم بشيء من الخمول بالرغم من كل ما له من هيبة ووقار . وعندما قيل له فى ذلك الوقت إن اللوردات يبدون وهم يجلسون على مقاعدهم الحمراء أقرب إلى سمك الزينة فى إنائه ، أجاب : «ولكن سمك الزينة يتحرك أحيانا» . ورغم أنه ورث لقبه عام ١٩٣١ فإنه لم يلق خطابه الأول في مجلس اللوردات الا فى عام ١٩٣٧ معلنا : «إنى أعتقد ، بل وآمل أن السكان

المدنيين فى كل البلاد التى تشترك فى الحرب القادمة سيرفضون – بعد اكتساب بعض الخبرة – أن يواصلوا القتال ، فيبرهنون بذلك على أنهم أكثر تعقلا من حكامهم» .

وأعتقد أن كتابه «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» هو أقل الكتب التى يجد راسل فى نفسه استعدادا للدفاع عنها . وهو بالتأكيد أبعد من أن يكون خير كتبه ، ومن الجائز أن تكون نتيجة طبيعية لذلك أنه حظى أكثر من غيره من الكتب بمديح النقاد . ولم تكن آراء راسل تعبيرا عن نزوات شخصية ، إذ شاركه فيها كثير من الناس الاذكياء ، كما أنه استمد جزءا كبيرا من هذا الآراء منهم . فمثلا تنبأ كل من هـ . ج. ويلز وألدوس هكسلى لسنوات عديدة بتنبؤات مماثلة بالدمار الذى ستلحقه الغارات الجوية ، كما وردت مثل هذه التنبؤات فى مجلة نيو ستيتسمان الأسبوعية اليسارية التى كانت إن – فى فترة الزمن – بنفوذ واسع ، حيث قالت فى عرضها لكتابه «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» : «إننا إذا خضنا حربا ، فلن تكون حربا ضد الفاشية . إن الذين يناهضون النزعة العسكرية يجب أن يرحبوا بأية حركة تدعو إلى السالم فى هذا البلد» . وقد حدث ذلك قبل أن تخوض بريطانيا الحرب ضد قوى المانيا النازية بثلاث سنوات .

ومما يدعو للأسف أنه فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة ارتكب كثير من الأذكياء فى انجلترا خطأ جسيما ، بينما كان قواد الجيش البريطانى على صواب . وأعتقد أن هتلر ما كان ليصل إلى السلطة فى ألمانيا ، لو كانت نصيحة الأذكياء قد سمعت فى فترة مبكرة ، ولم يقيض لوجهة نظر القادة العسكريين أن تسود بعد سنة ١٩١٨ . ومع ذلك ، فمما لا شك فيه أنه عندما استقر هتلر فى الحكم واتجه بشكل ملحوظ إلى الغزو ، واصل المثقفون دعوتهم إلى السلام ،

ومعارضة إعادة التسلح ، أو تنبأوا بنوع من الحرب تختلف تماما عن تلك التى كان ينبغى على بريطانيا أن تعد لها .

وقد نجت الحضارة نتيجة لإعتقاد بعض الشباب الأغبياء أن النصر مرهون بما يظهرون من شجاعة ونظام يتطلبهما القتال الفردى ، والذين التحقوا بالجيش أو قضوا عطلاتهم الأسبوعية يتعلمون قيادة الطائرات المقاتلة .

وتنم الأخطاء الصارخة التى وقع فيها المثقفون عن عيب أساس فى تفكيرهم : ولكنى لست أرى ضرورة مناقشة أسباب الحماقة التى كان يتسم بها كثير من المثقفين الاشتراكيين فى هذه الأعوام (كما أنى أمتنع ، تدعونى إلى ذلك دواعى اللياقة ، عن ذكر ما إذا كان بعضهم لايزال يتسم بالحماقة) . والنقاط الوحيدة ذات الأهمية الأساسية من الناحية النظرية فيما ارتكبوه من أخطاء هى نقاط تتعلق بعبادتهم لروسيا السوفيتية وبآرائهم الماركسية عن أخلاقيات السياسة ، كما شرح الكثيرون منهم فى سبيل هائج مندفع من السير الذاتية تفيض بالتحليل الذاتى . لماذا كانوا يعجبون بالشيوعية فى الثلاثينات ، ولماذا انصرفوا عن ذلك عندما أمسى الاعجاب بالشيوعية أمرا عتيقا لا يتمشى مع روح العصر . ولست أدرى إذا كان أى فرد آخر يهتم بهذا الأمر بصفة خاصة . فضلا عن أن هذا لا يهمنا ، حيث إن راسل لم يقع فى هذا الخطأ ، ويكفى أن نهتم بخطئه بشأن دعوته إلى السلام ، التى سنجد فيما أظن ، أنها كانت ترتكز على خطأين فنيين وليس على أية قضية هامة من حيث المبدأ .

ففى المقام الأول نجده قد غالى فى أهمية قاذفات القنابل كوسيلة لنشر الغازات السامة ، ثم أنه من ناحية أخرى هون من شأن الشرور التى كان فى إمكان النازيين اقترافها ، وترتب على هذين الخطأين كل شىء آخر فى كتاب «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» بصورة تلقائية .

ولم يشارك راسل فى الخطأ الأول بعض اليساريين فحسب ، وإنما شاركه فيه أيضا الخبراء العسكريون الذين درس راسل أعمالهم ونقل عنهم(*) . كما حاز هذا الرأى الخاطىء القبول فى هوايت هول (مقر الوزارة البريطانية) . ويذكر من عاش فى انجلترا فى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ توزيع كمامات الغاز على وجه السرعة وتدريب الجنود على الوقاية من الغازات السامة . أما ما كان أكثر غرابة من ذلك ، فهو أن السلطات ، اعتقادا منها بأن الغارات الجوية على لندن قد تؤدى إلى انهيار الحكومة المركزية ، قامت بإعداد خطط تتضمن الخطوط العريضة لحكم بريطانيا على أساس أقليمى . وكما اتضح فيما بعد ، كانت حكمة راسل سابقة لأوانها بقليل ، إذ إنه لو كانت القنبلة الذرية قد اكتشفت لدى الجانبين قبل ذلك بشهور قلائل ، لكانت تنبؤاته بحدوث الدمار أقل من التقديرات الصحيحة .

وربما كان خطأ راسل الثانى – فيما يتعلق بالشرور التى يمكن للنازيين اقترافها – قد نتج عن رأى زائف فى أساسه بصدد الطبيعة البشرية . وقد يقال إنه فشل قبل عام ١٩٣٩ فى إدراك الغلو فى السادية الذى يمكن للمنحرفين الشواذ أن يصلوا إليه ، تماما مثلما فشل قبل ١٩١٤ فى فهم الطريقة التى يستطيع بها الأفراد العاديون الحصول على المتعة من الحروب عوضا عن الذين يشتركون فيها اشتراكا مباشرا . ولم يكن النازيون – على سبيل المثال – أسوأ من جينكز خان الذى وصف راسل ما ارتكبه من فظائع فى كتابه «مشكلة الصين» . ولكن الذى لم يدركه راسل هو الطريقة التى استطاعت بها وسائل الدعاية الجماهيرية مثل الاذاعة والسينما ، فضلا عن تسخير

(*) فعلى سبيل المثال نقل عن الميجور – جنرال فوللر أنه قال : «ستظل لندن لعدة أيام بمثابة مكان فسيح يمتلىء بالجنون والفوضى والهذيان . وتقتحم أبواب المستشفيات ، وتتوقف حركة المرور ، ويستصرخ المشردون طلبا للنجدة . وتتحول المدينة إلى مجمع شياطين تعبث فيه الفوضى والجنون . وماذا سيكون من أمر الحكومة فى ويستمنستر؟ سيجرفها تيار من الرعب» . وفى الوقت الذى كان يكتب فيه راسل «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» كان يقرأ مجلتى «الجيش والبحرية والقوات الجوية» ، و«الطيران» اللذين داوم على الاشتراك فيهما بصورة منتظمة .

العلم فى خدمة البوليس السرى – أن نهيىء للمنحرفين والشواذ أن يفرضوا آراءهم على أمة بأسرها . فلم يكن بوسع جينكيز خان أن يبث روح الكراهية من خلال جهاز الميكروفون حتى يستمع إليه الملايين ، ولم يكن فى وسعة أن يسترق السمع لما يدور عبر أسلاك التليفون حين يتآمر عليه أعداؤه . ولو كان جينكيز خان قد ولد فى عصر العلوم الحديثة ، لكان مثل هتلر إلى حد كبير . ربما استطعنا – بهذا القدر – أن نعتبر خطأ راسل خطأ فنيا .

ولهذا السبب ؛ فإن العبرة الوحيدة التى يمكن أن نخرج بها هى تلك العبرة الواضحة إلى حد ما ، ومفادها أنه من الخطأ أن ننظر إلى فيلسوف باعتباره حجة فى الغازات السامة وأساليب الدعاية الجماهيرية .

ومن الطبيعى أن نقع فى هذا الخطأ عندما تتواطأ الصحافة وأجهزة الدعاية والاعلان على اقناعنا أن أفضل من يعرب عن رأية إزاء أى موضوع بالذات هو من ليست له دراية به على الاطلاق . واعتدنا أن نرى كاتبا مسرحيا مثل شو ينصب نفسه حجةفى فلسفة بيرجسون ، وأن نرى أستاذا فى العلوم مثل جينز يناقش مسائل اللاهوت ، فى نفس الوقت الذى نرى فيه عالما فى اللاهوت مثل دين أنج يناقش «القانون الثانى للديناميكا الحرارية» . وليس من الغريب ، فى العصور الأكثر حداثة ، أن نرى لاعب «كريكيت» خبيرا فى «كريم» الشعر ، وأن نستمع إلى نجم تليفزيونى وهو يقدم لنا النصيحة بخصوص أقلام الحبر الجاف ، ونحن نجد ، فيما يتعلق براسل ، أنه لم يترك موضوعا تحت الشمس الا وكتب فيه فيما عدا موضوعا واحدا . وبعد سنوات طويلة أمضيتها فى البحث المضنى الطويل بين المقتطفات الصحفية وفى قراءة آرائه فى السياسة والدعوة إلى السلام وفى موضوع الحرب والشئون الدولية والاشتراكية ، وفى موضوع الزواج والتربية والعلوم لم أجد الا موضوعا واحدا لم تنشر الصحف فيه آراءه ، ألا وهو الفلسفة .

والعجيب أن أخطاء راسل فى كتاباته العديدة لم تتجاوز هذا القدر . وعندما كان يرى ويحكم بنفسه كانت الأخطاء التي يقع فيها نادرة للغاية ، كما كان الحال عندما تحدث عن ألمانيا وروسيا والصين . وترجع أخطاؤه فى أغلب الأحيان إلى اهتمامه المفرط بالآراء المتخصصة التى يذهب إليها الآخرون . والخطر الحقيقى الذى يهدد الأذكياء من الهواة هو إفراطهم فى احترام آراء المتخصصين . وفى تواضع ، رأى راسل أنه حين يكتب فى موضوع لا يعتبر فية حجة ، فإنه ينبغى عليه أن يسترشد بآراء الثقات فيه . وقد قال بعد ذلك فى كتابة «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» أنه استمد الحقائق التى يستند إليها من الخبراء ، «وهو الأسلوب الذى ينبغى على غير الخبراء أن يتبعوه» . ويبدو أنه لم يكن يدرى دائما كيف ينبغى ترتيب الموضوعات على شكل هرمى – يبدأ على سبيل المثال بالرياضيات ثم يتدرج إلى الفيزياء ثم علم الأحياء فالاقتصاد فالسياسة فعلم النفس – حيث تزداد إمكانية الخطأ حتى بين المتخصصين .

ويكاد المرء أن يستطيع أن يقرر كمبدأ عام أنه لا يجب على أى شخص بار أن يكتب فى أى موضوع خارج مجال تخصصه إلا إذا كان يختلف مع المتخصصين فى هذا المجال . فإذا أصاب ، فسوف يعود ذلك بالفائدة ، أما إذا أخطأ فلن تكون لذلك أية أهمية .

وانصافا للحق يجب علينا أن نضيف أن كتاب «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» – بالرغم مما تردى فيه من نتائج أساسية خاطئة – يحتوى على قدر هائل من الأفكار السديدة . فقد كان راسل مثلا على صواب عندما قال إن آراءه أكثر تناسقا وإنسجاماً من آراء حزب العمال الذى عارض فكرة إعادة التسلح فى نفس الوقت الذى كان يطالب فيه بمقاومة العدوان الفاشى . ولم تكن تراوده الأوهام بصدد المستقبل ، فقد كتب يقول : إن اندفاع الأحداث يشير بالتأكيد إلى احتمال اندلاع الحرب فى المستقبل القريب للغاية» . وكتب بواقعية تامة يقول : «إن ألمانيا قد أقامت جهازا حربيا رهيبا، من الواضح أنها تنوى استخدامه عندما تحين اللحظة المناسبة . ويقال إنه إذا قوبلت

مطالب ألمانيا العادلة بروح الصداقة ، فإن النزعة العسكرية التى تسيطر على تصرفاتها فى الوقت الحاضر سوف تلين بالتدريج .. ولكن معاملة الألمان لمناهضيهم العزل داخل الرايخ تكشف عن عقلية البلطجى الذى لا يؤدى النجاح إلى تقويمه بل يزيد من سلوكه سوءاً .

ويطبيعة الحال ، بلغ صدق راسل وصراحته حدا جعله ينقض ما كتبه فى مواضع أخرى عن النازيين ، كما أن صراحته جعلته يعترف قائلا : «إن النزعة الانسانية الأصلية فى تثور غضبا لمجرد التفكير فيما قد يحدث إذا ما جلسنا مكتوفى الأيدى إزاء النازيين» . ولم يذهب ، كما ذهب غيره من دعاة السلام البريطانيين ، لمقابلة هتلر والقادة النازيين . وقال فيما بعد فى هذا الصدد : إن المجاملات المألوفة التى قد تنطوى عليها زيارته لهؤلاء الرجال ، شيء «كان سيقف فى حلقى» .

وكذلك ضايق راسل المتطرفين من دعاة السلام عندما أكد أن استخدام القبوة أمر يمكن السماح به فى سبيل إنشاء حكومة عالمية .

ولعله من أكثر الفقرات تشويقا فى الكتاب - عندما نعود بأفكارنا القهقرى - هى تلك الفقرة التى يذكر فيها راسل : «يريد الألمان من العالم أن يتركهم وشأنهم حين يهاجمون روسيا» . وكتب يقول : «إن نابليون هاجم روسيا كخطوة تمهد لغزو انجلترا . وقد يجد هتلر أن أتباع مثل هذا السياسة سوف تؤدى إلى نفس الكوارث» . وقد سببت وجهة نظرا راسل هذا الرعب لدى أصحاب الفكر الاشتراكى التقليدى بصفة خاصة حيث أنها وجهة نظر لايقرها الا الرجعيون من المحافظين . ونظر لما أتبعه ستالين فيما بعد من تكتيكات «فإنه يمكن للمرء أن يتصور أن المؤرخين فى المستقبل لن يقطعوا بخطأ راسل والمحافظين الرجعيين .

ويمكن أن نشير أخيرا إلى قول راسل : «ربما كانت بولندا أكثر مناطق أوربا تعرضا للأخطار .. وليس من المستحيل أن تتحالف ألمانيا مع روسيا بحيث يؤدى ذلك إلى تقسيم جديد للأراضى ، وكل ما يفعله ستالين من شأنه أن يبين أنه لا يختلف مع

هتلر من حيث المبدأ . ولست أشك فى أنه سيشعر بالارتياح والغبطة إذا أمكن تسوية الخلافات بين الدولتين على حساب الضحايا التقليديين» . وقد أثارت هذه الاهانة الموجهة إلى ستالين مرة أخرى حنق المعجبين به من البريطانيين بصفة خاصة .

وأصبح جزءا من التاريخ القديم أن نذكر كيف أن المعاهدة السوفيتية الألمانية التى وقعت عام ١٩٣٩ قد مهدت لغزو بولندا ، وكيف أن ذلك كان بمثابة الشرارة التى أوقدت نار الحرب العالمية الثانية . وإذا تذكرنا كيف جاء توقيع هذه المعاهدة كصدمة كبيرة لكل اتجاهات الرأى السياسى البريطانى فى ذلك الحين ، فإن تنبؤ راسل عام ١٩٣٦ ، أى قبل قيام الحرب بثلاث سنوات ، يعد أمرا خارقا . ويؤكد ذلك من جديد أن راسل كان أفضل ما يكون عليه فى تعليقاته السياسية عندما كان يفكر تفكيرا هادئا مستقلا ، وكان أسوأ ما يكون عندما كان يصغى لأقوال الآخرين .

وأظن أن راسل ، كما هو الحال فى كثير من كتبه السياسية ، كان يتأرجح بين رأيين وهو مؤلف كتاب : «أى الطرق تؤدى إلى السلام؟» وإن كان هذا أقل وضوحا فى هذا الكتاب عنه فى كتب أخرى . وتبين الفقرات التى سبق لنا أن اقتطفناها من كتاباته جانبا من الصراع الداخلى بين دعوته إلى السلام وبين نظرته الواقعية إلى الأمور . كما أنه صدر لكتابه بملاحظة ذات مغزى يقول فيها : «لقد ظل الشك الصادق يساورنى لفترة طويلة بخصوص السياسة الصحيحة التى ينبغى اتباعها» . ولكنه ما أن التزم بدعوته إلى السلام حتى اجترفه تيار الدفاع عن دعوته ، فكان هذا دليلا جديداً على الخطر الذى يواجه المفكر عندما يدين بالولاء لقضية سياسية . إذ إن راسل لم يستطع أن يخذل اتباعه ويزعزع إيمانهم بالاعراب عما يساوره من شكوك . وبسبب أيمانه بأن الحرب حتمية بالفعل ، ونظرته إلى طبيعة الحرب القادمة ، فقد شعر أنه ليس لديه شىء مفيد يستطيع هو شخصيا أن يقدمه على أية حال . (وقد وصفته بياتريس وب فى عام ١٩٣٧ بأنه شخص «منهوك البدن تؤرقه المتاعب المالية») . ووهب راسل نفسه بصورة متزايدة للفلسفة والعمل الأكاديمى فأخذ يلقى المحاضرات فى أكسفورد ويلبى الدعوات

إلى تنظيم الحلقات الدراسية فى جامعة شيكاغو وكاليفورنيا .

وفى عام ١٩٣٨ كان راسل على قدر من الايمان بالدعوة إلى السلام جعله يؤيد اتفاق ميونيخ ، فكتب يقول : «إن تسعة من بين كل عشرة أفراد فى أمريكا يعتقدون أنه كان ينبغى علينا (فى بريطانيا) أن نقاتل ، بينما تظل أمريكا محايدة . وهذا رأى يضايقنى» . وقال : إنه من العجيب أن نفس الأشخاص الذين احتجوا فى انجلترا على إقامة حدود غير عادلة لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩١٩ هم الآن أكثر الناس تحمسا للدفاع عنها . ولكن بعد أن اندلعت الحرب ، وأصبحت بريطانيا مهددة بالغزو ، أعلن راسل نبذة لدعوته إلى السلام ، وصرح بأنه لو كان فى سن الخدمة العسكرية لاشترك فى القتال . وقال راسل فى هذا الصدد : «إننى لازلت أدعو للسلام ، بمعنى أن صيانة السلام هى أكثر الأمور فى العالم أهمية . بيد أنى لا أعتقد أنه يمكن أن تقوم للسلام فى العالم قائمة ما دام هتلر منتصرا . إن هزيمته ، إذا كانت ممكنة ، تمهيد ضرورى لاصلاح الأمور ، أما إذا خسرنا الحرب ، فإن ذلك سيكون جحيما من المحتمل أن نصطلى بناره لفترة طويلة من الزمن» ، وكتب راسل إلي أحد أصدقائه فى يوليو ١٩٤٠ يقول : «إننا نتمنى دوما لو كنا فى انجلترا - وما نشعر به الآن هو ما يشعر به الشخص الغائب عندما يكون أحد أحبائه فى حالة خطيرة من المرض، ولكن أطفالنا وحاجتنا إلى كسب المال تحول بيننا وبين الرجوع إليها» . وكان قد انتهى فى ذلك الوقت على وجه التقريب من كتابه «بحث فى المعنى والصدق» . وقال معلقا : «أرى أن الشىء الوحيد الذى أستطيع تقديمه للعالم فى هذه اللحظة هو أن أحاول الحفاظ على أكبر قدر من حضارتنا المتداعية ، على أمل أن تنبعث نهضة من جديد فى خلال ألف عام» .

الفصل الحادى والعشرون

منبوذ فى أمريكا

ربما كانت سنوات الحرب التى قضاها راسل فى أمريكا أكثر السنين تعاسة في حياته . فقد كانت هناك أولا مخاوف من أن يكسب هتلر الحرب . إن أولئك الذين يعتبرون راسل مجرد عالم منطق بحت تجرد من العاطفة ، يجدون أقوى دليل على خطأهم حين يتتبعون الطريقة التى كانت حالته النفسية تتقلب بها أثناء الحربين الأولى والثانية بين اليأس المطلق والأمل التواق فى أن يحل السلام على الأرض بأسرع ما يمكن . ومما زاد الأمر سوءا ابتعاده عن انجلترا فى ذلك الوقت . فقد كتب يقول : «فى بعض الأحيان يكاد حنين المرء إلى وطنه أن يصبح أمرا لا يطاق . وإن المرء ليشعر بالخجل لاستمتاعه بالراحة والأمن والسلام» . وكتب إلى مسز تريفيليان فى شيفولدز يسألها إذا كان أزيز الطائرات قد أفسد ما ألفه من هدوء وسكينة فى غابات سرى ، وإذا كان صحيحا أن الأشجار التى كانت تنمو على ليث هيل قد اقتلعت . وقال : «إن فكرة اندثار الجمال شبح يطاردنى» . واعترف «أنه من الصعب للغاية تجنب كآبه الجسد والروح التى تصيب الانسان عندما يخيب أمله فى أن يكون مفيدا بصورة من الصور . أن المرء ليشعر أنه أمر فظيع ألا يقدم شيئا من العون ، وإن كان من الصعب علينا هنا أن نقدم الكثير» .

وإلى جانب هذه الهموم والمشاغل وجد راسل نفسه فى ضائقة مالية شديدة . فقد كان مثلا يستحيل فى ظل اللوائح المالية الصادرة فى وقت الحرب أن تدفع له دور النشر البريطانية حقوق التأليف والنشر فى أمريكا باستثناء مبلغ صغير غير كاف لتعليم أطفاله الثلاثة ، ثم وقع راسل ضحية فتنة أثارها ضده فى نيويورك الروم

الكاثوليك ، لايزال كثير من تفاصيلها مجهولا فى انجلترا ، نظرا لأن أخبارها كادت الا تصل إليها بسبب القيود التى كانت الصحافة تخضع لها فى فترة الحرب .

ففى فبراير عام ١٩٤٠ عندما كان راسل لايزال يعمل بجامعة كاليفورنيا ، وجهت إليها الدعوة للتدريس بكليف مدينة نيويورك . وكان قد وافق من قبل على القاء المحاضرات المعروفة بمحاضرات وليم جيمس فى جامعة هارفارد في خريف ١٩٤٠ ، ومن ثم ، فقد عينه مجلس التعليم العالى فى نيويورك أستاذاً للفلسفة ابتداء من ١ فبراير ١٩٤١ . وتقرر أن تستمر فترة شغلة لهذه الوظيفة حتى ٣٠ يونيو عام ١٩٤٢ ، وهو الوقت الذى يبلغ فيه راسل سن التقاعد هو السبعون .

وحين قبل راسل هذه الوظيفة استقال من منصبه كأستاذ بجامعة كاليفورنيا . ولكن سرعان ما أحتج أحد أساقفة الكنسية الانجيلكانية هو وليام ت . مانتج تعيينه فى نيويورك على أساس أنه اشتهر «بدعايته ضد الدين والأخلاق ، وبدفاعه بوجه خاص عن الزنا» . ثم رفعت ضده إحدى دافعات الضرائب دعوى فى محكمة نيويورك العليا لالغاء تعيينه . ورفعت هذه الدعوى زوجة طبيب أسنان – وهى سيدة تدعى مسز جين كاى من بروكلين التى وصف محاميها جوزيف جولدشتين مؤلفات راسل بأنها تتسم «بالفسق والشبق والشهوانية وتمتلىء بالحديث عن الجماع وحب الجنس إلى حد الخبل ، وبالمهيجات الجنسية ، وتنم عن الالحاد والتبجح وضيق الأفق وانعدام الصدق وانتفاء أى نسيج أخلاقى» . وفضلا عن ذلك فقد كتب راسل شعرا مفعما بالشهوة الجنسية المتأججة كما نظم مستعمرة للعراة فى انجلترا ، وسمح بالشذوذ الجنسى .. هذا بالاضافة إلى أنه لم يكن مواطنا أمريكيا . وقال جولد شتين فيما يتعلق بفلسفة راسل :

«إن راسل مغالط سفسطائى . وهو يقدم محاجات زائفة تستند إلى الخداع والأساليب الماكرة الملتوية ومجرد المغالطات ، وإن كل مبادئه المزعومة التى يسميها فلسفة ليست سوى أساليب رخيصة مبتذلة مبهرجة بالية تتسم بالسحر والشعوذة وأحابيل تهدف إلى خداع الناس وتضليلهم» .

وكان القاضى الذى استمع إلى هذه الدعوى رجلا من الروم الكاثوليك يدعى جون أ. ماك جيهان وأصدر ماك جيهان حكمه التاريخى فى ٣٠ مارس ١٩٤٠ فألغى تعيين راسل استنادا إلى ثلاثة أسباب : أولا أنه لم يكن أمريكيا . واشتكى ماك جيهان فى هذا الصدد قائلا : «إن هناك جامعات وكليات أخرى تبدو قادرة على أن تجد من تعينهم من المواطنين الأمريكان» . والسبب الثانى : أنه لم يطلب من راسل اجتياز امتحان مسابقة كشرط أساسى التعيينه . والسبب الثانى : أنه لم يطلب من راسل اجتياز امتحان مسابقة كشرط أساسى لتعيينه . والسبب الثالث : أن القاضى ماك جيهان ندد «بالمبادىء غير الاخلاقية الشهوانية» ، و«بالقذارة» التى تحتويها كتبه مستدلاً على قوله بدفاع راسل عن زواج الزمالة بين طلبة وطالبات الجامعات ونصيحته بأنه يجب أن تكون التجربة الجنسية سابقة على الزواج .

ورد ماك جيهان على القول بأن راسل ، مع كل ذلك ، لن يقوم الا بتدريس الرياضيات والمنطق والفلسفة رداً يعتبر سليماً من وجهة نظره فحواه : «أن شخصية المدرس لها علاقة بتكوين وتشكيل آراء الطالب أكثر مما يشكله كثير من القياسات المنطقية . ويقال إن راسل شخص مبرز . ولكن ذلك يزيد خطره . فكلما ازدادت قدرته على خلب لب طلبته والتأثير فيهم بوجوده بينهم ، اشتد نفوذه فى جميع مجالات حياتهم» .

وأخيرا لخص القاضى ماك جيهان الموقف بقوله إن مجلس التعليم العالى – بتعيينه راسل – قد أنشأ «كرسيا للبذاءة» ، كما أنه تصرف بطريقة تعسفية هوائية تنتهك انتهاكا مباشرا قواعد الصحة العامة والأمن وأخلاق الناس .

واتخذت الدعوى التى نظرها القاضى ماك جيهان ببساطة صورة قضية رفعتها إحدى دافعات الضرائب ضد هيئة نيويورك التعليمية . وقدم راسل طلبا بأن يصبح طرفا فى اجراءات القضية حتى يستطيع الرد على الاتهامات الموجهة ضده ، ولكن ماك جيهان رفض ذلك .

وكانت جميع الاطراف المعينة تعتقد فى بادىء الأمر أن راسل سيستأنف ضد الحكم الذى أصدره ماك جيهان . ولكن العمدة لا جارديا قرر أنه من المناسب سياسيا أن ينسى الناس أمر هذه القضية ، وبذلك ترك راسل مجردا من وسائل الدفاع عن نفسه أو وضع الأمور فى نصابها .

وصرحت جريدة نيويورك تايمز أنه كان يجدر براسل أن ينسحب من تعيينه «بمجرد أن اتضحت له آثاره الضارة» . وأجاب راسل أنه لو كان يأخذ فى الاعتبار مصالحه وميوله وحده لما تردد فى الانسحاب . ولكن انسحابه من منصبه عمل ينطوى على «الجبن والأنانية » لأن عددا كبيرا ممن يدركون أن مصالحهم الخاصة ، فضلا عن مبادئ التسامح وحرية الكلمة يتهددها الخطر أظهروا منذ البداية تحمسا لفكرة مواصلة الجدال المحتدم . ولو كنت قد تراجعت أو انسحبت لسلبتهم الأسباب التى تدفعهم إلى شن الحرب على هذا الموقف ، ولو أنى وافقت بصمتى لكان ذلك اقرارا منى بمبدأ السماح للمجموعات الكبيرة من الناس باعفاء الأفراد الذين لا تروق لها آراؤهم وجنسهم وجنسيتهم من مناصبهم العامة» .

وتعرضت جامعة هارفارد للضغط كى تلغى الدعوى التى وجهتها إلى راسل ليلقى محاضرات وليم جيمس ، ولكن رئيس الجامعة وأعضاء هيئة التدريس فيها اتخذوا موقفا حازما . وكان أ. ن. هوايتهد بعد تقاعده يعمل أستاذا فى جامعة هارفارد فى ذلك الوقت . وكانت أراؤه كما سبق أن ذكرنا تختلف كثيرا عن آراء راسل ، فقد اعتاد أن يقول لطلابه : «أيها السادة ، أن برتى راسل يقول إننى رجل مشوش الفكر . أما أنا فأقول إنه بسيط العقل» . وعلى الرغم من هذا ، فقد ناصر هذا الرجل راسل - شأنه فى ذلك شأن ديوى واينشتين وآخرين - فى الملاحاة التى احتدمت حول أستاذيته فى نيويورك .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد وجد راسل نفسه عاطلا عن العمل بعد انتهاء محاضراته فى هارفارد . وأثارت اللمزات وتلطيخ اسمه فى قاعة المحكمة سيلا من

الشائعات حوله ، ولاكت الألسنة سيرته التى أصبحت مضغة الأفواه خاصة فيما يتعلق بأشياء شاع بين الناس زعم بأنها حدثت فى المدرسة التى كان يديرها فى انجلترا . وإزاء ذلك وجد راسل نفسه مضطرا إلى إصدار إنكار وتكذيب لما وجه إليه من اتهامات . فقال : «إننى لم أشعر قط بالخجل من أى شىء خلقه الله . ولكن ذلك لايعنى أننى – وأطفالى – نتحول عراة فى كل مكان» . وأضاف أنه على الرغم من أن له سجلا حافلا بالزنا فى انجلترا ، «فإن اللوم فى ذلك يقع على قانون هذا البلد قبل أن يقع على عاتقى ، لأن هذا القانون لم يبح حينذاك الطلاق الا لعلة الزنا» .

وأنقذ راسل من ضيقة المالى بصورة مؤقتة مليونير غريب الأطوار يدعى دكتور ألبرت بارنز الذى كلفه بالقاء محاضرات فى تاريخ الفلسفة بمؤسسة بارنز بولاية بنسلفانيا وانتقل راسل مع عائلته إلى منزل ريفى قديم يسمى مزرعة ليتل داتشت على بعد خمسة وعشرين ميلا غرب فيلادلفيا . ووجد هناك أن سكان الولايات الشرقية يناصرون الانجليز بحماس «وأن كل إنسان فيها يعطف عليه وعلى أسرته بسبب جنسيتهم» . وسنحت له الفرصة أن يستمتع بزيارات قام بها أصدقاؤه فى انجلترا ، ومن بينهم جوليان هكسلى . وذهب راسل لزيارة ج.أ. مور ، الذى دعى لالقاء المحاضرات بجامعة برنستون . وقال إن مور «كان على عهدة دائما ، شخصية فاتنة للغاية وهادئة لا تتأثر بشىء» .

ولسوء الحظ ، كانت هناك متاعب عديدة تنتظر راسل ، فقد مرض مرضا شديدا ، إذ أصابته العدوى بمرض جيبى شل قدرته على الحركة لدرجة أن الأطباء حذروه من خطر عبور الطريق بمفرده . وفى يناير عام ١٩٤٣ انتهت فترة تعاقده مع مؤسسة بارنز بصورة مفاجئة حيث تلقى اشعارا بانهاء خدمته قبل نهاية مدة العقد بثلاثة أيام فقط .

ورأى بارنز أن راسل «قد فشل فى أن يصل بسلوكه الشخصى والمهنى إلى

المستوى المطلوب لوظيفته» . ومن بين الشكاوى التى ترددت أن باتريشيا راسل كانت تلفت أنظار طلابه وتصرف انتباههم عن الدرس بحضورها محاضرات زوجها فى بنطلونات فضفاضة وباحداثها صوتاً ناجما عن احتكاك الابر وهى تشتغل شغل الابرة لتصنع ملابس ترسلها إلى الأطفال الذين شردتهم القنابل فى بريطانيا ، وربما ترجع بعض متاعبه إلى أنه انتقد فى مناظرة له مع لويس فيشر موقف غاندى من الحرب وقال : إن أحوال الهند قد تسوء عما هى عليه إذا تسنى أن يغزوها اليابانيون . واعتبر بارنز ذلك القول دفاعا عن الاستعمار البريطانى .

وهكذا تعيين على راسل العاطل وهو فى سن السبعين – حين يتقاعد معظم الرجال – أن يعول أطفاله الثلاثة ويقوم على تربيتهم . ووصفته مجلة التايم بأنه «الفيلسوف الذى تعرض عنه الجامعات الأمريكية» . فقد تلطخت سمعته بسبب الهجمات التى توالت عليه والاشاعات التى ثارت حوله لدرجة جعلت كل الجامعات ترفض أن تعرض عليه أى منصب فيها . ولم تقبل أن تنشر مقالاته سوى صحف قليلة . ويمكننا الاستدلال على قوة المشاعر التى ثارت ضده من هذه الحادثة . كتب جليرت مرى إلى صديق له أمريكى ذى مكانة مرموقة ، يسأله إذا كان يستطيع مساعدة راسل ، فرد عليه الرجل بقوله : إنه على الرغم من رغبته الشديدة فى أن يقدم خدماته لجلبرت مرى ، إلا أنه يعتبر أن طلبه بتقديم العون إلى راسل أمرا يتجاوز الحدود بعض الشىء.

ودافع راسل عن نفسه برفع دعوى ضد بارنز بسبب فصله من عمله فصلا تعسفيا ، وبالرغم من أنه كسب القضية ، فقد تعرض تنفيذ الحكم الصادر فيها للتأخير الشديد ، فلم يدفع له التعويض الا بعد انقضاء ثلاثة أعوام . وأثناء سماع القضية ذكر راسل أن كل دخله فى خلال الثمانية أشهر السابقة لم يتجاوز ٧٨١ جنيها . وحين قال القاضى أنه ربما لم يحاول العثور على عمل ، رد عليه راسل بقوله : «هل تعتقد أننى لا أسعى إلى الحصول على المال ؟ لست واحدا من هذا النوع من الفلاسفة».

وظل راسل رابط الجأش حتى عندما كان فى موقف يدعو لليأس ، يعانى من الحاجة الملحة إلى المال ومن غربته وعزلته بعيدا عن وطنه . وقال لأحد الصحفيين بروح المرح : «إن دخلى الحالى أقل من الضريبة التى تستقطع منى . ولنر كيف تعالج الحكومة هذا الوضع» . وكتب إلى ناشره فى إنجلترا - السير ستانلى أنوين . فأعد هذا الناشر تقديرا للعائد الذى قد تدره كتب راسل فى المستقبل ، وأرسل إليه المبلغ المقدر مقدما حتى يستطيع ولداه الكبيران أن يتما تعليمهما الجامعى فى أمريكا . ثم حصل راسل على مبلغ مقدما من أحد الناشرين الأمريكان مقابل كتاب بدأ يجمعه من محاضراته التى القاها بمؤسسة بارنز .

وقيض لهذا الكتاب أن يكون أحد روائعه ، نشره فى ظل ظروفه العصيبة المضطربة ، تحت عنوان «تاريخ الفلسفة الغربية» وأضاف إليه العنوان الفرعى : «وعلاقته بالظروف السياسية والاجتماعية» . ويعد هذا الكتاب الأول من نوعه يكتبه فيلسوف من الدرجة الأولى . كما أنه يعد احدى المحاولات النادرة للغاية لكتابة تاريخ شامل للفلسفة ينهض على قراءة دقيقة وأمينة لكتابات الفلاسفة الذين يناقشهم فى مؤلفه . وفيما بعد حدثتنا باتريشيا راسل عن رحلاتها التى قامت بها للبحث عن الطبعات الكاملة لأعمال الفلاسفة المختلفين ، وكيف أنها وجدت صعوبة بالغة فى محاولة اقناع من تتعامل معهم بأن «المختارات» التى تشيع في أمريكا لا تصلح للدراسة المتعمقة .

وفى القسم الوسيط فى هذا الكتاب ، تعمق راسل فى دراسة الفلاسفة الكاثوليك فى العصور الوسطى . ومن النادر أن تجد مثل هذه الدراسة التفصيلية المستفيضة لهم فى أى مرجع آخر . وعلق راسل على كتابتهم بقوله إنه على الرغم من رتابتها ومللها ، فإنها أفضل مما توقع . وبطبيعة الحال ، لم تحظ آراؤه فيهم بموافقة الكاثوليك عليها تماما . ولذلك ، فإنه مما يثير الاهتمام أن نعرف أننى حين انتقدت هذا القسم

الوسيط من الكتب على أساس أنه أطول مما يجب ، عارضنى راسل فى عنف وأصر على أهمية بعض الاعمال المؤلفة فى العصور الوسطى .

وينطوى كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» على محاسن عديدة لدرجة أنه قد يبدو من التجروء بمكان أن امتدح الكتاب . ولهذا فسوف اكتفى بذكر عيوبه .

إن كتابا بهذه الضخامة كان لا بد أن يحتوى على بعض الهنات . وكان هناك إجماع فى الرأى بين المعجبين بكانط على أن الفصل المخصص لهذا الفيلسوف هو أسوأ فصول الكتاب . وحين كتب راسل عن مبدأ كانط المأثور الذى يقيس صحة أى عمل برغبتنا فى أن يقدم الجميع على الاتيان به تجده يقول : «ويعطينا كانط على ذلك مثلا توضيحيا فيذهب إلى أنه من الخطأ أن نقترض المال ، لأنه إذا حاول الجميع الاقتراض ، فلن تتبقى نقود يمكن اقتراضها» . واحتج حشد من أنصار كانط فى الحال قائلين إن كانط لم يستخدم هذا المثل بالذات . وإنى على استعداد لتصديقهم لأنه ليست هناك ثمة ما يغرينى بقراءة كانط مرة أخرى لأكتشف ذلك بنفسى .

ويحتوى الفصل الخاص ببرجسون على خطأ أكثر إثارة للاهتمام . وهذا الفصل ، كما سبق أن ذكرنا ، عبارة عن محاضرة راسل الشهيرة فى جماعة المهرطقين ضمها راسل إلى كتابه دون أى تغيير . ويرجع تقسيم هذا الفصل إلى جزءين ببساطة إلى أن راسل أثناء حديثه الذى ألقاه فى جماعة المهرطقين عام ١٩١١، أخذ فترة استراحة فى منتصف المحاضرة حتى يلتقط أنفاسه من ناحية وحتى تتاح لجمهور المستمعين فرصة الاستراحة والتفكير فيما سمعوه من ناحية أخرى . وانتقد راسل فى محاضرته هذه برجسون انتقادا قاسيا «لخلطه بين الذات والموضوع» ، وبين «عملية(*) المعرفة ومايعرف» . وقد غير راسل رأية من قبل عندما تبنى الواحدية المحايدة ، ولكن نقده لبرجسون أعيد طبعه كما ورد بالحرف الواحد فى كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» رغم

(*) The act of knowing .

أنه امتدح فى الفصل التالى له وليام جيمس لأنه أنكر وجود أى فرق أساسى بين الذات والموضوع(*) .

وهذا التباين فى الرأيين دليل يثير الاهتمام ، ويوضح نقطة ضعف فى راسل باعتباره مؤلفا . إن راسل صاحب أسلوب جميل تستحق بعض فقراته أن تجد لها مكانا فى أية «مختارات من النثر الانجليزى» . ولكن كتبه أقرب ما تكون إلى مجموعة من الفصول غير المترابطة دون أن تسهم فى خلق عمل متكامل . هذا بالطبع كان نتيجة طبيعية لأسلوبه التحليلى والتفصيلى فى معالجة أية مشكلة ونتيجة لرفضه مبدأ «الواحدية» . وقد كان المرء يتوقع من عنوان الكتاب الفرعى أن يركز «تاريخ الفلسفة الغربية» أساسا على العلاقة بين آراء الفلاسفة وبين العصور التى عاشوا فيها . ولم يتوصل راسل إلى نتائج عامة فى هذا الشأن . لقد نبذ – وهو محق فى هذا – النظريات الماركسية المتطرفة التى تقول إن الفلاسفة نتاج القوى الاقتصادية . وقال وهو محق فى ذلك أنهم من وجهة النظر التاريخية يجمعون بين كونهم سبب هذه القوى ونتيجة لها ، ولكن حتى هذه النتيجة غير الحاسمة لم تكن بذهنه دائما كموضوع أساسى للكتاب تدور كل الفصول حوله .

وحقيقة الأمر أنه بالرغم من أن راسل كانت له تعليقات عديدة وضاءة عن الفلاسفة وعصورهم ، فإنه لم يكتب الكتاب الذى كان ينوى حقا كتابته ، كما أنه نسى تماما أن يناقش الظروف المحيطة ببعض الفلاسفة . بيد أنه نجح فى كتابة خير تاريخ يلقى ضوءا على الفلسفة قيض له أن يظهر بين صفحات مجلد واحد . وبسبب فرط تواضعه فقد شعر أن هذا لم يكن كافيا ، وأنه ينبغى أن يفى كتابه بغرض آخر حتى يبرر وجوده ولكن عيوب «تاريخ الفلسفة الغربية» ككتاب تزيد من محاسنه كتاريخ . ولو أن راسل – مراعاة لوحدة الكتاب الفنية – حاول أن يستخدم تلخيصاته وانتقاداته

(*) بالرغم من ذلك ، فإن هذه النقطة لا تؤثر على سلامة نقد راسل لآراء برجسون الخاصة بالذاكرة .

للفلسفات المختلفة بمثابة توضيحات لنظرية ما - لا تنقص ذلك من قيمة هذه التلخيصات والانتقادات . لقد كان من عادة نقاده أن يذهبوا إلى أن التحليل معناه التزييف ، ولكن الواقع فى أغلب الأحيان أن الوحدة غير التحليلية هي التى تنطوى علي التزييف .

وفى أوائل عام ١٩٤٤ بينما كانت الحرب دائرة رحاها أتيحت لراسل فرصة العودة إلي إنجلترا التى كانت يتوق إليها . ودعته كليته القديمة ترينيتى للعودة إلى كامبردج . وتمكن من السفر إلى وطنه على متن سفينة للشحن . وبادر أثر وصوله إلى إنجلترا بزيارة عائلة تريفيليان فى شيفولدز ، وتمشى على تيراس منزلها وهو يستمتع فى الهواء الطلق برؤية تلال سرى من جديد وبجمال أشجار الزان ، كما استمتع أيضا بالحديث الشيق مع أصدقائه الانجليز . ولم يمض وقت طويل حتى خرج للتنزه مع بوب تريفليان وأخذا يتناقشان فى اللاهوت .

وقال له تريفليان بطريقته الهادئة التأملية : «المشكلة تتلخص فى عدم قدرتى» .. على الاهتمام بالله» .

ورد عليه راسل على الفور : «قد يكون هذا الشعور متبادلا» ، ثم ترددت ضحكاتهما عبر التلال .

وقد تبدو دعوته للعودة إلى كامبردج - إذا عدنا بذاكرتنا للماضى - خطوة طبيعية للغاية ، ولذلك فإنه من الغريب أن ندرك أنه حتى فى ذلك الوقت وفى إنجلترا ذاتها ، كان الناس ينظرون إليه أحيانا على أنه شخص بشع منفر . وقد حاول البروفيسور ليتلوود من قبل أن يستطلع الرأي فى إمكانية تعيين راسل زميلا شرفيا فى كلية ترينيتى ، ولكنه دهش عندما واجه معارضة شديدة . وبالرغم من ذلك ، فقد تلقى راسل بعد ذلك بوقت قصير دعوة للعودة إلى ترينيتى وإلقاء المحاضرات فيها .

وشاركت هيئة الاذاعة البريطانية لبعض الوقت اعتراضها على راسل . وأظهرت فى بادىء الأمر شيئا من الاحجام عن دعوته لاذاعة الاحاديث فيها . وكتب راسل يقول : «إن هيئة الاذاعة البريطانية لا تريدنى ، ولكنى سأحاضر فى ترينيتى . وهذا ما أفضله» .

وحتى نختتم هذا الفصل بطريقة خفيفة مرحة ، فاننا سنذكر أحد التغيرات التى لاحظها راسل عند عودته إلى انجلترا . فقد وجد أن الفليسوف س.أ.م. جود يحظى بأكبر نصيب من الشعبية وذيوع الصيت .

ومن أغرب الخصائص التى تميز العظماء وأعمها معا هى قدرة التافهين على تعكير صفو بالهم . فمثلا سوف يتساءل المؤرخ فى المستقبل متعجبا كيف أمكن لسياسى مثل شنويل أن يضايق ونستون تشرشل بما وجهة إليه من انتقادات ، ولماذا التفت تشرشل إلى مضايقاته على الاطلاق؟ وفى ظنى أن أجيال المستقبل ستذكر باستمتاع العداء العنيف الذى أظهره راسل نحو شخصيات قليلة الشأن مثل ج.أ. سميث و س .أ . جود وهذا دليل على أن العبقرية لم تمنعه من أن يتصرف كانسان .

كان جود يتحلى بفضائل عدة ، ومن الجائز أنه لو ولد فى وقت آخر ، إن الناس كانوا سيذكرونه كمفكر صادق ومعلم صافى الذهن ولكن لسوء الحظ ، أصبح اسمه تجسيدا ورمزا لكل ما هو سىء بين المثقفين اليساريين فى بريطانيا فى هذه الفترة بالذات ، فقد كان داعية سلام أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكنه لم يكن فى طاقته أن يتحمل السجن ومشاقه فوجد حلاً وسطا مرضيا فى التحاقه بالعمل بوظيفة مدنية حكومية . وتخلى جود - شأنه فى ذلك شأن راسل - عن دعوته للسلام أثناء الحرب العالمية الثانية . وبينما رأى راسل عندما تقدم به العمر ولم يعد قادرا على الاشتراك فى الحرب بنفسه أنه ينبغى عليه أن يمتنع عن تحريض الشباب على القتال ، كان جود يمارس أنشطة مثل التحدث فى اجتماعات غفيرة يحث فيها على إقراض المال من أجل الحرب . وتلقى جود مكافأة كبيرة لتخليه عن سياسة الدعوة إلى السلام ، فقد كان معروفا فيما مضى لدى عدد قليل من الناس على أنه كاتب يمثل ذلك النوع من الكتاب

الذين يكتبون الهراء التقدمى الذى يحظى باعجاب مجلة نيوستيتسمان ، ومروج للفلسفة بلغة مبسطة يفهمها عامة الناس يسعى إلى جذب انتباههم إليه باطلاق لحيته وحديثه عن الجنس . ولكن هيئة الاذاعة البريطانية بدأت تقدم جود فى برنامج مخصص للمناقشات معروف باسم «هيئة الخبراء» ، وأظهرت هذه الهيئة براعة عجيبة فى تحويل شخصيته من الدرجة الثانية إلى واحد من مشاهير الأمة . كما كان جود يكتب أيضا مقالات أسبوعية لجريدة السنداى ديسباتش التى وصفته بأنه «فيلسوف بريطانيا الرائد» .

ومن العسير ألا يشعر المرء بشىء من العطف نحو جود . فقد كان مفكرا صافى الذهن تنقصه الاصالة والابتكار ، شاء له القدر أن تسلط الأضواء عليه فجأة ويقف على منصة فينفضح أمره باعتباره رجلا ليس لديه ما يقوله للناس . إذ إن فلسفته فى الحياة لم تكن سوى تكرار لأفكار غير مبتكرة جمعها من راسل وبرنارد شو . وبالرغم من ذلك فقد استحق جود كثيرا من الثناء لأنه أثار الاهتمام بالفلسفة بين أناس لم يفكروا فيها من قبل ، ولكن راسل لم يعطف عليه أو يمتدحه ، فقد كان يمقت فيه كل ما هو زائف فى الانسان ووصفه بأنه «دجال ينتحل مؤلفات غيره» مشيرا بذلك إلى نقل جود المتكرر لافكار من كتبه وادماجها فى مؤلفاته الخاصة به دون اعتراف منه بمصدرها . وتتجلى دعابة راسل الذكية وحضور بديهته بصورة شديدة التركيز فى إجابته عندما طلب إليه تقديم كلمه ثناء يصدر بها أحد كتب جود ، فما كان منه الا أن قال : «حاشى لى أن أفعل هذا . فإن التواضع يمنعنى» .

وسقطت نعمة هيئة الاذاعة البريطانية عن جود عندما ضبط مسافرا فى قطار دون أن تكون معه تذكرة ، وحاول أن يضلل مفتش التذاكر بشأن المكان الذى ركب منه . وقبل وفاته بقليل ظل يتنكر بصورة متزايدة لآرائه اليسارية وانتهى بانضمامه إلى كنيسة انجلترا . وقال راسل معلقا على هذه التصرفات بأن «جود قد عثر على الله بعد أن فقد تذكرة سفره بالقطار» . وثارت ثائرة راسل عندما سمع إشاعة ترامت إلى أمريكا مفادها أن جود قد هداه من جديد إلى العقيدة الدينية الأصيلة .

الفصل الثاني والعشرون

المتمرد يحظى بالتبجيل

استقبل راسل بترحيب يليق بالابطال عند عودته إلى كامبردج ، وخصصت كبرى القاعات كى يلقى فيها محاضراته . ومع ذلك ، فقد كانت هناك صفوف من الطلبة يقفون خارج القاعة لعدم وجود أمكنة لهم بداخلها . واستطاع راسل كذلك أن يقابل أصدقاءه القدامى من جديد مثل مور ويرود وهاردى وليتلوود . وربما كان الشخص الوحيد الذى لم تسعده عودة راسل هو فيتجنشتين الذى خلف مور كأستاذ للفلسفة بجامعة كامبردج ، وهو منصب لم يكن يصلح له بعض الشيء بسبب عدم اهتمامه بتدريس أية فلسفة أخرى غير فلسفته . ويدا أن فيتجنشتين يناصب راسل العداء الشديد فمثلا عندما رأى كتابا عن راسل فى مجموعة الكتب الأمريكية المنشورة بعنوان : «مكتبة الفلاسفة المعاصرين» ، شعر بالاشمئزاز عندما لاحظ توقيعاعلى غلاف الكتاب هو صورة طبق الأصل من توقيع راسل . وعلى الرغم من أن كل مجلد فى هذه السلسلة كان يحمل توقيع المؤلف بنفس الطريقة التى لا تتضمن أى ضرر ، فانه يبدو أن فيتجنشتين قد اعتبر أن السلسلة بأسرها تنطوى على استعراض لا يليق من جانب مؤلفيها ، ولم يكن هذا الاعتراض معقولا للغاية ، ولكن فيتجنشتين لم يكن دائما معقولا في اعتراضاته على الناس أو الأشياء . فقد كان على سبيل المثال يحقد حقدا متفجرا على السير آرثر ادنجتون متهما إياه «بعدم الاخلاص» ، قائلا : إنه يفضل أن يدخل الجحيم بمفرده من أن يدخل الجنة مع ادنجتون . ولكن أحدا لم يفهم سب اعتراضه على إدنجتون . وذات مرة بينما كان يتمشى فى حديقة هيئة التدريس بكلية ترينيتى ، ثارت ثائرته عندما رأى بعض الزنابق تنمو وسط العشب الخشن قائلا : إن منظرها «غير طبيعى» . وفى وقت من الاوقات خلا سكن فيتجنشتين من المقاعد ، الأمر الذى

اضطر كل زائر لها أن يقف أو يستند على «الخدديات» . وكان يتناول غداءه فى محل ليونز أو يبكر فى الذهاب إلى قاعة الطعام الخاصة بالكلية لأنه لا يتحمل رفقة زملائه من أعضاء هيئة التدريس .

ولم يقم راسل بالتدريس فى كلية ترينيتى فحسب ، ولكنه كان يذهب إلى لندن للاشتراك فى المناظرات فى مجلس اللوردات ، ويقضى الليل أحيانا مع جوليان هكسلى فى (هامب استد) . وفى إحدى هذه المناسبات فكرا - حتى يدخلا التسلية على نفسيهما - فى تجميع نصوص من العهد القديم ليوضحا ما تنطوى عليه مبادؤه الاخلاقية من تناقض . وقد علق هكسلى بعد ذلك بقوله : إنه من الغريب أن نجد فى الازمنة الحديثة أنه يبدو أن أصحاب المذهب العقلى فقط هم الذين توفروا على دراسة الانجيل دراسة دقيقة . وكان هكسلى يعرف قدرا كبيرا من العهد القديم ولكنه اعتراف أن معرفته به لا يمكن بحال من الأحوال أن تضارع معرفة راسل به .

وابتهج راسل لفوز حزب العمال على تشرشل فى انتخابات عام ١٩٤٥ ، ولكنه لم يحاول التقليل من شأن منجزات تشرشل كما جرت العادة فى مهاترات السياسة الحزبية الوضيعة . وكان يقول : إنه مما لا شك فيه «أن تشرشل رجل عظيم ... رجل عظيم للغاية . وإنى أحبه حبا جما» . وقد بدأ إعجابه بتشرشل بطبيعة الحال منذ الحرب العالمية الثانية(*) . ولكن على الرغم من انتقاد راسل لتشرشل كعضو فى حزب المحافظين ، فإنه كان يدرك دائما أنه مخلص - «وليس وغدا لزجا موحلا مثل بولدوين»

وعندما نشرت مذكرات تشرشل عن الحرب ، علق راسل قائلا : «إن تشرشل يكثر

(*) فى محاضرة ألقاها عام ١٩٢٧ بعنوان «لماذا لست مسيحيا ؟ هاجم راسل المحاجة التي تذهب إلى أن الكون لا يمكن ألا أن يكون نتيجة تصميم إلهى . قائلا : «هل تعتقدون أن المرء لا يستطيع - إذا توفرت لديه القدرة على كل شيء والعلم بكل شيء - أن يخلق شيئا أفضل من عصابات الكولوكس كلان المناهضة للزنوج والفاشست والسير ونستون تشرشل عبر ملايين السنين التى تنصرف إلى استكمال ما يشوب العالم من نقص» ولكن راسل حذف هذه الاشارة إلى تشرشل عندما أعاد طبع محاضرته .

من الحديث عن نفسه ولكن بطريقة بزيئة لا تضير الغير أو تسيء إليهم – إذا كان من الواضح ما أرمى إليه . وهو لم يطالب بما ليس له حق فيه ، شأنه فى ذلك شأن عظماء الرجال» .

وقد انتهت الفترة التى شعر راسل فيها بالبهجة بعد تولى حزب العمال من جديد مقاليد السلطة بالقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، فكتب يقول : «فى الفترة القصيرة بين الانتخابات العامة إبقاء القنبلة الذرية ، كنت أشعر بشيء من السعادة ، ولكن الحكومة البريطانية ستضطر إلى التخلى عن كل مشروعاتها عندما تسمع فرقعة سياط ترومان ..

«إن القنبلة الذرية تجعل المرء يعيد النظر فى كل شيء . ولم أشعر قط حتى فى عام ١٩٤٠ أن الأمور قائمة كما هى الآن . إن كل شيء يتحرك تجاه حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى نكون نحن فيها بمثابة تابع يدورفى فلك الولايات المتحدة . ويستخدم الطرفان فيها القنابل الذرية ، ولن يبقى فى النهاية سوى القليل» .

وعند عودته إلى إنجلترا وجدها تحمل الاعجاب المطلق بروسيا الستالينية . وكان قد سمع وهو على سفينة الشحن التى أقلته عبر المحيط الأطلنطى البحارة وهم يتغنون فى حماسة ونهم بنشيد «العلم الأحمر» الشيوعى . وكان راسل من أول الذين تنبأوا بالتصدع فى جبهة الحلفاء أعقاب الحرب . وقال راسل فى وقت مبكر يرجع إلى عندى عام ١٩٤٤ فى حديث أجرته معه مارى سيتون وود : «الرأى عندى أنه من المحتمل أن تندلع حرب عالمية أخرى» . وفى نوفمبر عام ١٩٤٥ قال وهو يشير إلى أحداث أوربا الشرقية : إن الشيوعيين قد اقترفوا فظائع «تضارع فى مستواها وضخامتها فظائع النازيين» .

وفى هذه الظروف شعر راسل أن المخرج الوحيد يكمن فى السياسة التى إتبعها بيفين وزير الخارجية الجديد فى حكومة العمال . وقال مخاطبا مجلس اللوردات : «إننى أؤيد الحكومة الحالية من كل قلبى سواء فى سياستها الخارجية أو الداخلية» . (ولم

تتدخل حكومة ترومان فى الشئون الداخلية البريطانية بالحد الذى كان راسل يخشاه . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى مخاوف أمريكا من روسيا) . وقال راسل : «إننى لا أعتقد أننا نستطيع أن نضمن تعاون السوفيت معنا بمجرد الاعراب عن رغبتنا فى ذلك . وأظن أنه من الضرورة القصوى أن نتخذ موقفا حازما بشأن مصالحنا الحيوية» .

وتنبأ راسل باختراع القنبلة الهيدروجينية فى وقت مبكر يرجع إلي عام ١٩٤٥ وقال فى مجلس اللوردات كيف يمكن استعمال القنبلة الذرية الموجودة حالياً فى صنع القنبلة الهيدروجينية التى سيمكن استخدامها بالفعل عندما يحين الوقت» (وعارض المقترحات التى تحبذ اطلاع روسيا على أسرار صناعة القنبلة الذرية . ولكنه حذر من أن «سرها لن يظل خافيا علي روسيا لمدة طويلة . وسوف يصنع الروس بلا شك – وفى سنوات قليلة – قنابل تضارع فى جودتها تماما القنابل التى تنتجها الولايات المتحدة الآن» .

وكتب راسل فى صحيفة المانشستر جارديان فى نفس العام يقول : إنه يجب بذل قصارى الجهود من «أجل زيادة تفوق قوة أمريكا» على أمل أن تصبح هذه القوة على درجة من العظمة بحيث تخلق احتكارا فى القوة المسلحة يحول دون نشوب حرب عالمية أخرى» . ومن الواضح أنه كان لايزال يحبذ الفكرة القائلة بأن أكثر الطرق ضمانا لانشاء حكومة عالمية هى أن تسود دولة واحدة بقية الدول . وظل متعلقا بأهداب هذا الأمل حتى أصبح تحقيقه مستحيلا بسبب اقتناء روسيا للاسلحة النووية أيضا .

وفى أثناء الحرب الكورية أيد راسل فكرة إعادة تسليح الغرب وألمانيا الغربية قائلا : إن ألمانيا لن تكون مرة أخرى خطراً يهدد العالم . وأضاف أن أفضل وسيلة للمحافظة على السلام هى أن تكون بوضوح أقوى من روسيا . «وليس علينا سوى أن نمنع حدوث انفجار بطريقة أو بأخرى على أمل أن تجيء الحكمة بمرور الوقت» . ولم تساور راسل أية شكوك الآن فيما يتعلق بالموضوع الرئيسى الذى يتخلص فى قوله :

«إذا تعين على أن أختار بين الشيوعية الروسية والرأسمالية الأمريكية ، فإنى سأختار الرأسمالية الأمريكية دون أدنى تردد ، وذلك لانها مرتبطة بالديمقراطية ويقسط من الحرية الفردية» . وأضاف أن خير ما يقال عن الرأسمالية أنها تفصل بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية . وهذا التأكيد من جانبه يناقض ما ذهب إليه حين كتب «الحرية والتنظيم» . كما دافع راسل عن الأسلوب الأمريكى فى الحياة أكثر مما دافع عنه من قبل .

قال : «لست أعتقد أن الأمريكان أكثر مادية - بالمعنى المألوف للكلمة - من الدول الأخرى . ولانهم ينجحون فى الحصول على الدولار القادر على كل شىء فنحن نعتقد أنهم يعبدونه . وقد يأتى أرستقراطى فى عوز أو فلاح فرنسى بأفعال من أجل الحصول على المال تصدم مشاعر كل أمريكى نظيف» .

بيد أن ذلك لم يمنعه من أن ينقد السياسة الأمريكية نقدا شديدا . فقال : إن الصينيين ما كانوا ليصبحوا شيوعيين لو أن أمريكا لم تتركهم بين نارى الاختيار بين الشيوعية أو حكومة تشانج كى شك «الرجعية الفاسدة» . وقال إن الأمريكان أجهل بكثير من البريطانيين فى الشئون الخارجية ، فقد وقعوا نتيجة عدم خبرتهم فى أخطاء تعادل تلك التى وقع فيها البريطانيون فى القرن الثامن عشر : «إننا نستطيع أن نسيطر على الأمريكان عن طريق الأمم المتحدة . ولابد لنا أن نفعل ذلك ، وسيسعى الأمريكان دوما إلى الحفاظ على ماء وجههم من الناحية الأدبية - فهم فوق كل شىء من سلالة الأباء الحجاج» .

ووقف راسل فى صمود وثبات ضد حكم المكارثية الارهابى ، وقال فى عام ١٩٥٠ «إن أمريكا تنتابها نوبة من الهستريا الشديدة . وينبغى علينا أن نظهر أننا أرفع من ذلك» .

ولكن صلابته وتصميمه فى انتقاد كل من أمريكا وروسيا فى نفس الوقت لم ينقذه من هجوم الشيوعيين عليه ، ولاسيما عندما قيل أنه ينادى بشن حرب (وقائية) ، ضد

الشيوعية – وهو الشيء الذى أنكره راسل على الفور . ووصفه راديو موسكو بأنه : «ذلك الذئب المتفلسف الذى يخفى تحت بدلة سهرته الأنيفة غرائز الوحش . ويبدو أن الحقد والقتل وافتراس الناس بعضهم البعض هى المبادىء الخلقية الأساسية التى ينادى بها هذا الوحش الذى يرتدى مسوح الفيلسوف» . أما صحيفة الكونونفورم جورنال فقد وصفته بأنه «مفكر بريطانى ينادى بمعتقدات أكلة لحوم البشر» .

وواجه راسل كذلك الهجمات فى عقر داره . فبالاضافة إلى سيل القدح والسباب الذى انهال عليه من جانب دعاة الستالينية ، فقد ذكرت مجلة نيوستسيمان بطريقة هازئه أن راسل يرى أن البدء فى قصف موسكو بالقنابل هو من «السياسة الرشيدة والأخلاق الحميدة» . وعندئذ توجه راسل إلي المجلة برفقة محاميه ، وجعلها تنشر رسالة طويلة له ضمنها مقتطفات مما قاله فعلا عن روسيا .

وكان من المتوقع أن شعور أصدقائه اليساريين السابقين بالمرارة سيدفعهم إلى إتهامه بتغيير آرائه حتى يقترب بها من الرأى العام . ولست أعتقد أن أى فرد يدرك كيف أنه انتقد الماركسية منذ زمن مبكر يرجع إلى عام ١٨٩٧ ، ويتوفر على دراسة تطور آرائه التدريجى منذ أن كتب «الديموقراطية الاجتماعية الألمانية» ، يستطيع أن يصدق مثل هذا الاتهام . فقد أصبح أكثر اقتناعا بشرور التعصب ، وبالنجاح الذى يمكن أن يحققه الأشرار فى تشكيل عقول دولة بأسرها حتى يتناسب مع خدعهم وحيلهم . ولذلك ، فإنه بالرغم من أنه عارض إعادة التسلح ضد هتلر ، فإنه لم يعترض عليها ضد ستالين .

لقد طرأ على آراء راسل تغير حقيقى . ولكن ذلك يعنى أنه على الرغم من أنه من المضحك أن نزعم أن راسل كان يسعى إلى كسب الشعبية ، فإنه من الخطأ أن ندعى أن آراءه كانت دائما ثابتة لا تتغير .

وحدث فعلاً نوع من التغير فى موقف وزارة الخارجية البريطانية التى رفضت إعطاءه تأشيرة خروج للذهاب إلى أمريكا فى عام ١٩١٦ ، فى حين أنها أصبحت تحثه

الآن على إلقاء المحاضرات فى برلين وفى أماكن أخرى فى العالم . وفى أثناء هذه السنوات كان راسل ينتقل دون عطل ودون توقف وبحيوية وقوة تتناسب مع رجل فى نصف عمره ، وقد وقعت له أكثر الأحداث عنفا وإثارة فى أكتوبر عام ١٩٤٨ عندما نجا من حادث تحطم طائرة مائية كان يركبها فى النرويج وهو فى السادسة والسبعين من عمره .

وأخبره المسئولون على متن الطائرة أن التدخين ممنوع إلا فى الديوان الخلفى . فقال : «إننى سأموت إن لم أستطع التدخين» . وذهب راسل إلى مؤخرة الطائرة المائية ليدخن ، وكان يشعر بدوار الجو عندما اقتربت الطائرة من الهبوط . وفك حزام النجاة . وفجأة هبت عصفة ريح ، واصطدمت الطائرة بالماء محدثة خضخضة شديدة ، وانقلبت على جانبها فاندفعت المياه داخلها وغمرتها . ووجد راسل نفسه جالسا على الأرض تطفو حوله القبعات والمعاطف . وظن فى بادى الأمر أن موجة اقتحمت نافذة الطائرة ، ولم يدرك خطورة الموقف ، وردد لنفسه : «حسنا» «حسنا» ، وأخذ يبحث عن قبعته فلم يجدها .

وتم نقل الركاب على وجه السرعة خارج الطائرة من بابها الخلفى إلى البحر ، حيث وجد قاربا يقف على بعد حوالى عشرين ياردة ، فسبح راسل حتى وصل إليه ولكنه اكتشف بعدذلك أن ١٩ شخصا فى الديوان الأمامى قد غرقوا .

ونقل راسل إلى الفندق حيث أعطى بعض البراندى والقهوة . وذهب إلى الفراش إذ إنه لم تكن لديه أية ملابس . ووصل القنصل البريطانى يحمل قميصا وجوارب . وأعارة نائب القنصل حلة ، ثم وصل الصحفيون فقال لهم راسل :لست أعتقد أننى سبحت أكثر من دقيقة . وبالنسبة لشخص داوم على السباحة أكثر من سبعين عاما ، فإن هذا ليس بالكثير» .

وتحدث أحد الصحفيين من كوبنهاجن بالتليفون يسأل راسل عما كان يفكر فيه وهو بين لجج الماء ، رد راسل أنه كان يفكر فى برودة الماء . وألح الصحفى فى سؤاله : «ألم تفكر فى «التصوف والمنطق» ، فأجابة راسل بالنفى وقطع المكالمة .

وكتب جلبرت مرى إلى راسل معلقا علي براعته فى أنه استطاع السباحة فى المياه المتجمدة وهو فى هذه السن . وأضاف أن راسل يدين بحياته إلى عادات الاعتدال التى كان - هو وراسل - يناديان بها فى الأيام الخوالى ، وعبر مرى عن سروره لرؤية أن تعاليم راسل لقيت مكافأة لها على هذا النحو ، وأجاب راسل أنه يدين بحياته - على عكس ذلك - للبراندى الذى أعطى له بعد وصوله إلى الشاطىء .

وكتب راسل يصف نواحى نشاطه فى هذه السنوات قائلا : إننى أملى على السكرتيرة لمدة ستة أيام فى الأسبوع ، ثم أحاضر كل يوم أحد فى مكان ما . ليت ستالين ينزع السلاح حتى أجد لنفسى وقتا للفراغ» . ولم تكن كل أسفاره تتعلق بالعمل ، فقد سافر مثلا مع زوجته باتريشيا راسل برفقة الفنان جوليان تريفيليان - ابن روبرت تريفيليان - لقضاء أجازة فى تورمينا بصقلية . وخرج راسل ذات مساء مع جوليان ومارى فيدن - التى تزوجها جوليان فيما بعد - للتنزة فى قارب الصيد ، ثم تناول جميعهم العشاء على الشاطىء ، وأكلوا سمكا مشويا واحتسوا الخمر بعد أن دفنوه فى الرمل المبلل حتى يبرد . ثم ابتعد جوليان عنهم قليلا ، وجلس فوق صخرة وعزف لهم على الناى ، وجلس راسل كعادته معتدل القائمة فوق سلة مقلوبة من سلال الصيد للسمك وهو يستمتع بالنغم إلى أقصى حد . وذكر أنه وجد سعادة فى هذا المساء كان قد افتقدها منذ سنوات عديدة . وقال (بقدر كبير من المبالغة) : «إننى مخمور مثل لورد . ولكنه حيث أننى لورد بالفعل ، فإن كل شىء على ما يرام . أليس كذلك ؟» .

وفى تلك الفترة انفصل راسل عن زوجته باتريشيا انفصالا نهائيا . فقد عادت باتريشيا إلى إنجلترا وحدها - وتبع ذلك الطلاق .

وكان راسل يشعر بالأسى والألم فى كل مرة يطلق فيها زوجتة ، ولكنه كان يميل - بطريقته التى تميز ّبها - إلي إخفاء مشاعره ظاهريا تحت ستار من المزاح . وقال شخص ذات مرة أنه اندهش عندما سمع أن أحد أبناء راسل عقد خطوبته على إحدى

الفتيات ، لأنه كان يعتقد أن راسل لا يؤمن بالزواج . فرد راسل عليه قائلا : «لا تكن سخيفا . انظر إلى عدد المرات التى تزوجت فيها» .

وفى تلك الفترة كانت مكانة راسل البارزة فى الحياة البريطانية فى صعود مطرد . وفى شتاء عام ١٩٤٨ دعته هيئة الاذاعة البريطانية لإلقاء أول أحاديث سلسلتها المعروفة بـ «محاضرات ريث» تناول فيها موضوع «السلطة والفرد» . وأيد راسل فى هذه الأحاديث قيام حكومة حزب العمل بتأميم الصناعات الرئيسية . ولكنه بوجه عام أهتم أكثر بالدفاع عن الفرد في وجه السلطة . وقال إنه ينبغى أن تقتصر سلطات الحكومة العالمية على ما هو ضرورى للقضاء على الحرب كما قال إنه ينبغى على الحكومات الوطنية أن تترك أكبر قدرممكن من الصلاحيات إلى السلطات الأقليمية . وأن على السلطات الأقليمية أن توفر أكبر قدر من الحرية للهيئات التابعة لها . وامتدح التجارب التى أجريت فى الديموقراطية الصناعة مثل شركة لويس المساهمة .

وفى يونيو ١٩٥٠ منح راسل وسام الاستحقاق ، وهو أسمى وسام يستطيع الملك أن يمنحه .

وعندما توجه راسل إلى قصر باكنجهام ليتسلم الوسام ، كان واضحا أن الملك جورج السادس لم يكن على سجيته . ولابد أن ملك إنجلترا قد وجد نفسه لأول مرة يمنح شرفا ساميا لرجل كان فى يوم من الأيام من نزلاء سجون جلالته ، كما كانت آراؤه ومسلكه بغيضا فى نشر «الكنيسة الراسخة» التى كان الملك رئيسا لها . وقال الملك جورج السادس : «إنهم يقولون لى أنك عشت حياة مليئة بالمغامرات . ولكنه لن يكون من المفيد أن يحاول كل انسان أن يحيا مثل هذه الحياة ، أليس كذلك؟» وبذل راسل جهداً حتى يضبط نفسه ويمنعها من هذا الرد : «ليس هذا صحيحا ، كما اكتشف ذلك أخوك دوق وندسور» .

وبدلا من هذا أجاب راسل بقوله : «إن موزعى البريد يطرقون الأبواب فى كل مكان ، ولن ينفع إذا فعل كل إنسان ما يفعلون» . وغير جلالته الموضوع .

ويشعر المرء تماما بشيء من الاشفاق على الملك ، لأنه لم ينقض وقت طويل حتى طلب من المتصلون به أن يمنح وسام الاستحقاق لـ «ج.أ.مور» وبدا جليا لمور أن الملك يجد مشقة بالغة فى الاستمرار فى الحديث معه ، فأراد أن يخلصه من حرجه بأن ذكر له أساتذة آخرين فى جامعة كامبردج ظن أن الملك قد يعرفهم مثل راسل وفيتجنشتين . ولكن الملك إضطر إلى الاعتراف بأنه لم يسمع اسم فيتجنشتين قبل ذلك مطلقا . أما بالنسبة لراسل فقد كان تعليقه الوحيد : «أنه رجل غريب المنظر» .

الفصل الثالث والعشرون

زيارة لأستراليا

من أكثر رحلات راسل تشويقا وإثارة للاهتمام تلك الرحلة التى قام بها لأستراليا عام ١٩٥٠ ، إذ إنها تبين تدفق الحيوية التى تتسم بها إهتماماته . فعلى عكس كانط الذي قضى حياته كلها فى كونجسبرج ، كان راسل فيلسوفا على استعداد دائم للقيام برحلات جديدة واكتساب تجارب جديدة ، فكان بذلك رجلا يدين بالمذهب التجريبى كما ينبغى لمثل هذا الرجل أن يكون . وكان راسل يتوق دوما إلى أية مغامرة نحو المجهول . وقد ذكر مرة : «أليس من الأمور الرائعة أن يكتشف المرء أشياء جديدة عليه؟» .

وأنشأ رجل أعمال غنى فى ملبورن يدعى ادوارد دياسون صندوق أئتمان يمكن عن طريقة دعوة الشخصيات البارزة فى الدول التى تقع فيما وراء البحار إلى إلقاء المحاضرات فى أستراليا . وقبل راسل تلك الدعوة للقيام بجولة تتطلب منه الجهد المضنى فى بلاد جديدة باستعداد وشوق على الرغم من أنه فى ذلك الوقت كان قد أتم الثامنة والسبعين . وحيث أنه لم يحدث من قبل أن زارت أستراليا شخصية من نوع راسل ، فقد اقتضى وصوله إليها قدرا من الاستعدادات القلقة . ونظرا لأن بعض الاضطرابات التى نشبت نتيجة المظاهرات التى قام بها الشيوعيون قد سبقت مجيئة بفترة وجيزة ، تولى اثنان من رجال الشرطة حمايته هما السارجنت (الصول) لانجمان والمخبر لايت بوتوم . وذهب أحد كبار وزارة الخارجية هو ريتشارد جرينيش إلى سيدنى لاستقباله ، وانتدب هذا الرجل فيما بعد لمرافقته فى كل رحلاته . أما الترتيبات الفعلية لرحلته فقد اضطلع بها المعهد الأسترالى للشئون الدولية . وقد أعلن الموظف المختص عن قدوم راسل باهتمام شديد ، كما تدلنا على ذلك التعليمات التالية التى

أصدرها :

(ردا على بعض الأسئلة التى وجهتها الفروع المختلفة ، نفيدكم بأننا قد تلقينا المعلومات الاضافية التالية عما يحب ب . راسل وما لايحب .

«إنه يفضل ألا يكون ضيفا على محافظى الأقاليم» .

«وهو لا يفضل أن يقيم له العمد استقبالات أو ما شابه ذلك» .

«ويرغب أن يتوفر له وجود حمام ، وأعتقد أنه قد تم توفيره بالفعل» .

وكان من الواضح أن الصحافة الأسترالية تأمل أن تغرى راسل كى يدلى بتصريحات فاضحة . وتجمع صحفيو سيدنى بشغف شديد لعقد مؤتمر صحفى عند وصوله على طائرة شركة كانتاس فى شهر يونيو ، وفى ذلك المؤتمر أظهر راسل براعة شديدة عندما حاولوا أن يجروا رجله حتى يخوض فى موضوع الحب المنطلق من كافة القيود . فقد وجهوا إليه السؤال الآتى : «إن لدينا كثيرا من الشابات غير المتزوجات ، وقد ترامى إلى أسماعنا جانب من أرائك ، فهل تسمح بأن تقترح شيئا عما يمكنهن عمله فى ظل بعض التحيزات الاجتماعية السائدة حتى يعشن حياة أكثر اكتمالا؟» .

وفكر راسل لحظة ثم أجاب في مرح : «أعتقد أنه لابد من الدعوة إلى سياسة الهجرة الجماعية بينهن» .

وفضلا عن حماية نفسه من الصحفيين فقد أظهر راسل – بسبب تمرسه الطويل دون شك – أن لديه إجابات جاهزة لمعظم المضايقات التى تتعرض لها الشخصيات الذائعة الصيت . وكان رده على الذين يجرون وراء توقيعاته أنه لايحب أن يوقع باسمه على قصاصة ورق ، ولكنه لايمانع فى التوقيع على واحد من كتبه . وعندما كانت السيدات المتقدمات فى السن اللائى يفرطن فى الاهتمام بملابسهن يتدافعن حوله أثناء المآدب والحفلات ، ويبدين إعجابهن الشديد بكل ما كتب ، كان لديه دائما رد واحد . فقد كان يسألهن إذا كان كتابه «مقدمة الفلسفة الرياضية» قد أعجبهن . فكن أحيانا

يرمشن بعيونهن ويقلن «نعم» . وعندئذ يعلق راسل تعليقا عارضا قائلا : «لقد كتبته عندما كنت فى السجن» ، ثم يراقب ما يرتسم على وجوههن .

وقد اعانته التجربة التى مر بها فى أمريكا على مشكلة تجنب الأذى الذى قد تتعرض له يده بسبب كل أولئك الذين يرغبون فى السلام عليه باليد . ولذلك فعندما اقترح عليه البعض أن أحسن أسلوب تتبعه الشخصيات اللامعة هو أن تترك أيديها تتدلى فى رخاوة وطراوة لكل من يريد السلام ، رد راسل بسرعة ردا تتميز به شخصيته أنه على العكس من ذلك كان يسبقهم بالسلام» ويعصر أيديهم حتى يصرخوا .

ومن سيدنى طار راسل إلى كونيزلاند وكانبرا وملبورن وأديليد وبرث . ومكث فى أستراليا مدة تزيد عن شهرين . وفى كل مكان ذهب إليه لم يكن فقط يلقى المحاضرات العامة والأحاديث الاذاعية ولكنه كان يريد أيضا أن يرى ويتعلم كل ما يمكنه أن يراه ويتعلمه . وقد علق على هذه الزيارة بقوله : «يخجلنى أن أقول إن هذه هى زيارتى الأولى لأستراليا . ولما كنت قد أضعت ثمانية وسبعين عاماً من حياتى فى أماكن أخرى من العالم ، فاننى سعيد حقا إذ أتيحت لى الفرصة كى أصحح خطأى وأعوض ما فاتنى» .

وذهب راسل إلى جرين أيلاند فى كونيزلاند . ومن هناك أرسل بطاقات إلى أحفاده كتب عليها «كان جدكم هنا اليوم» . وفي كانبرا عقد اجتماعات ناجحا للغاية مع وليم ماك كيل الذى كان يعمل سابقا فى صناعة سخانات المياه ، وكان بطلا فى الملاكمة ، والذى أصبح محافظا عاما فى أستراليا بعد أن كان قد وصل إلى منصب رئيس الوزراء العمالى فى نيوساوث ويلز . وكان راسل قد زاره ليتناول معه الشاى فى الصباح . ولكنه بقى معه فترة أطول بكثير مما كان محددا فى برنامجه ، وقد استغرق فى مشاهدة نموذج عرضه عليه ماك كيل لمشروع نهر سنووى ، وهو مشروع حفر أنفاق داخل سلسلة من الجبال وذلك لتحويل مجرى النهر إلى داخل الأراضى بدلا من تدفقه إلى البحر ليصب فيه رأسا .

ويبدو ، فى واقع الأمر ، أن راسل كان يتمتع بمقدرة فائقة على التفاهم مع معظم الناس الذين قابلهم . ولكن حدثا مؤسفا بعض الشىء وقع له عندما طلب إليه ناد موقر فى ملبورن أن ينضم إليه كعضو شرف موجها إليه الدعوة باسم «السيد المحترم أيرل راسل» ولكن راسل اكتفى بالتعليق على ما ينطوى عليه تصرف النادى من قلة ذوق قائلا : «من الواضح أنهم يعتقدون أننى واحد آخر من أولئك الأمريكان» . وعندما قال أحد الصحفيين إن راسل يشبه دبا أستراليا من نوع الكوالا ، على درجة عالية من الثقافة والتعقيد ، قد تذكر لتوه قصة مضحكة» ، لم يتوان راسل فى الذهاب إلى حديقة الحيوان فى ملبورن ليعرف شكل دب الكوالا الأسترالى ، وعاد منها يقول : «إن هذه الدببة مخلوقات تسترعى الانتباه ، وأنه شعر أنه تشبهه بها ينطوى على إسترضاء زائد لمشاعرة» .

ونظرا لتصميم راسل على أن يرى كل شىء ، فقد عرف أستراليا عن قرب أكثر مما عرفها معظم الذين زاروها . وطار من أديليد حتى أليس سيرنجز عبر السهول والتلال الرملية الحمراء ، واشترى بعض الرسوم من أعمال فنانى قبيلة أرونتا وهم من سكان أستراليا الأصليين ، وذهب إلى مركز الطبيب الطائر حيث استمع إلى رسائل بالراديو مذاعة من محطات أسترالية تقع فى المناطق النائية القليلة السكان تستفسر عن تشخيص أو علاج عن طريق تليفون لاسلكى ، أو تطلب زيارة الطبيب واستمع وهو مفتون بهذه الفكرة . وطلب إليه أن يتحدث عبر الأثير ، ولكنه رفض بتواضع قائلا : «إنهم لا يريدون أن يستمعوا إلى ولكنى أرجو أن تقولوا لهم إننى قد استمعت إلى ما أذيع باهتمام وإعجاب بالغين» .

وبالرغم من شدة ضغط الجميع عليه ضغطا لاينتهى طلبا لمقابلته ، فإن راسل كان دائما فى فترة وجودة فى أستراليا على استعداد لمقابلة أشخاص جدد . وفى أحد الأيام تلقي طردا من الكتب وصل إليه فى الفندق الذى ينزل به فى أديليد من رجل عجوز من الاشتراكيين الفابيين اسمه أرثر جاسك كان قد نزح إلى أستراليا فى عام

١٨٩٨ ، وكتب روايات يهجو فيها بعض المواطنين فى أديليد ممن يشعرون بأهميتهم . وبلغ إعجاب راسل بهذه الكتب حدا جعله يصر على مقابلة مؤلفها جاسك ، ونشأت بينهما على الفور صداقة قوية تمس شغاف القلب . وقد ابتهج راسل بأن يعود بذكرياته إلى النظرة الراديكالية فى القرن التاسع عشر وإلى الحملات الموجهة ضد الكنيسة فى وقت كانت الكنيسة فيه تتمتع بالقوة والبأس ، ووصف راسل جاسك بأنه أكثر من قابل فى أستراليا تأثيرا فى النفس ، وأعطى هذا الرجل أحلى أيام عمره . وعندما حان وقت رحيل راسل عن أديليد ، كتب إليه جاسك يقول :

«سيدى العزيز . لقد دخلت حياتى كومضة برق . والآن وقد رحلت ، فإنى أجد السماء مظلمة خاوية» .

وكذلك وجد راسل وقتا لمساعدة الشباب . ففى ملبورن تأخر صحفى شاب ينقصه الخبرة عن موعد المؤتمر الذى عقده راسل وفاته ما دار فيه ، وأحس راسل بمحنته فأعطاه حديثا خاصاً على انفراد . وفى مدينة أخرى علم راسل أن سكرتيرا شابا لمنظمة تعنى بمحاضراته قد علم لتوه أن زوجته مريضة بالسرطان، فما كان من راسل ألا أنه بحث عنه وتحدث إليه على انفراد ، وتمكن على نحو ما من أن يدخل الشجاعة إلى نفسه .

وكان ماكماهون بول الأستاذ بجامعة ملبورن من بين الذين استضافوا راسل . وفى أحد الأيام ترك ماكماهون راسل بمفرده قبل الغداء ظنا منه أنه ربما يريد أن يستريح . ولكنه عندما رأى أن راسل على استعداد واضح للحديث ، طلب من ابنته الصغيرة جينى – التى كانت فى الثالثة عشرة حينئذ – أن تذهب لتتحدث إليه ، وذهبت جيني إليه وهى تكاد لا تخفى شعورا بالرهبة نحوه . وبعد قليل عاد ماكماهون ليجد جينى تنصت فى بهجة واستمتاع ، وقد زال عنها التوتر تماما ، إلى سلسلة أخاذة من الحكايات اللطيفة بدأها بحكاية رواها عن ذلك اليوم الذى جلس فيه يشرب نبيذ البورت مع مستر جلادستون .

وهناك شخص آخر لديه من الأسباب ما يجعله يتذكر زيارة راسل هو ريتشارد جرينيش ، مرافقة المنتدب من إدارة الشئون الخارجية فقد عرف كل منهما الآخر معرفة وثيقة . وابتكرا كلمة رمزية تشبه الهمهمة هى «همف» كانا يستخدمانها فى كل مناسبة أو حفل استقبال يتسهم بالأبهة الزائفة ، وفى المساء كان راسل يدخل السرور على مرافقة جرينيش بأن يلقى عليه بعض الأشعار القصيرة التي تخلو من الاحتشام . وكان القلق يظهر على راسل حين يلاحظ أن جرينيش يكتب بعضها على ظهر علب السجائر .

وبطبيعة الحال ، انتهزت الجامعات فرصة وجود راسل لتقيم ندوات يستطيع أن يناقش فيها المسائل الفلسفية مع الأساتذة وعدد قليل من الطلبة المختارين ، إلا أن هذه الندوات لم تكن دائما ناجحة . فقد ذهب أستاذ مثلا إلى إحدى هذه الندوات دون أن يحلق ذقنه ، وسرعان ما بدا واضحا أن راسل بدأ يضجر باصرارهذا الأستاذ على أن يحتكر الحديث معظم الوقت . ، وفشله الواضح فى فهم ما كان راسل يقوله ردا على كلامه ، الأمر الذى جعله راسل يتمتم فى غضب : «إن هذا الرجل لم يصل حتى إلى البدء فى فهمى – وهو بحاجة إلى أن يغتسل على أية حال» . وكذلك عقدت ندوة فاشلة فى جامعة غير نظامية ، وكان تعليق راسل بعد ذلك هو أن قال : «لاعجب أنها جامعة غير نظامية» .

ومن العدل أن نذكر أن النقد لم يكن موجها من جانب راسل على طول الخط . فقد سمع البعض مدرسا فى إحدى الجامعات الأسترالية يقول فى نقده لكتابه «تاريخ الفلسفة الغربية : إن راسل بصراحة يفتقر إلى المعرفة الكافية . فعندما يحتاج الأمر إلى الدراسة الأصيلة المبتكرة نجده فى حالة ضياع تام» .

ومن الجائز أن يكون راسل قد منى بخيبة أمل بعض الشيء ، لأنه فشل فى أن يثير من الجدل أكثر مما أثار . ومما لاشك فيه أن من أبعث الأمور على سروره ورضاه تلك البراعة النادرة التى استطاع بها أن يحصل على اعتذار علنى من كبير أساقفة الروم الكاثوليك . فقد شنماينكس كبير أساقفة ملبورن المعروف هجوما على زيارة

راسل قائلا : «كان من الواجب عدم السماح له بأن يأتى إلى أستراليا ويشرح «نظرياته الملحدة» ، وقد سبق لأمريكا أن عرفت ذلك جيدا» .

وقد أصاب الأسقف الجذع عندما تلقى برقية لاذعة من راسل أعدها هو وجرينيش تقول هذه البرقية : «إننى أطلب منك أن تقدم فى الحال اعتذارا علنيا عما ذكرته فى غير صدق من أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد رفضت السماح لى بدخول أراضيها» . ورد ماينكس على الفور موضحا أنه كان يتحدث بحسن نية ولكنه اعتمد على «معلومات غير موثوق بها» .

وخاب أمل الصحفيين الأستراليين الذين كانوا يتطلعون إلى أن يتبرع راسل باصدار التعليقات الاستفزازية . إلا أن معاملة السكان الأصليين كانت من الأمور القليلة التى وجد فيها راسل مناسبة للنقد ، فقد صدمه أن يكتشف من حديثه مع بعضهم أن السكان الأصليين يقبلون كمتطوعين فى القوات الأسترالية فى كوريا ، فى حين أنهم يمنعون من دخول الحانات بسبب لونهم . وقال : «يبدو أن كلا من البوليس والشعور العام غير مستعد لأن يعطى السكان الأصليين أبسط حقوقهم العادلة . فقد انحل إلى حد كبير تنظيمهم القبائلى ، وبعد عنهم أسيادهم القدامى وترك الكثير منهم بلا مأوى أو عون ، وذلك دون ما ذنب جنوه» .

وكانت الحرب الكورية قد نشبت بعد أن بدأ راسل جولته بقليل . وعلى هذه الخلفية المظلمة تكونت انطباعات راسل الرئيسية عن أستراليا ، وخشى راسل لفترة أن تشعل كوريا ألسنة حرب عالمية ، لدرجة أنه أراد أن يعود مباشرة إلى بلاده ليكون بجوار أحفاده . وأرسل برقية تتضمن تعليمات باستئجار منزل لهم بعيدا عن لندن . وقيل إنه ذكر فى حديث له : «أعتقد أن روسيا سوف تدخل الحرب ، وأن الحرب العالمية الثالثة سوف تمتد عشرة أعوام . ومن المحتمل أن أحدا من سكان لندن لن يستطيع أن يبقى علي قيد الحياة ، إذا دارت الحرب بالصورة التى أتصورها» . ولكنه أضاف : «ولكنى أعتقد أنه سيبقى أناس على قيد الحياة فى تييرا ديل فيجو وفى منطقة أليس سبرنجز بعد الحرب القادمة » .

و«فيما يختص بأستراليا ، فإنه حتي لو أمكننا أن نتجنب الخطر المباشر للحرب ، فإن خطر غزو أسيوى لها سيظل قائما لأجل طويل» . وذكر راسل الأستراليين بأن عدد السكان فى كل من الصين والهند يبلغ ضعف عدد سكان أستراليا مائة مرة، وأنه قد انقضى الوقت الذى كانت أستراليا فيه تستطيع أن تقبل أن تصبح صحراء» .

وقال راسل أيضا إنه يجب على الأستراليين أن ينفقوا على التنمية مائة ضعف ما ينفقونه بالفعل : « يجب أن تصنعوا المطر ، وأن تحصلوا على الماء ، وبطريقة ما ، يجب عليكم أن تغمروا الأراضى الخالية بالناس» . وتنبأ بأن العلماء يمكنهم – إذا وجدوا تشجيعا كافيا من الحكومة – أن يجدوا طريقة لزيادة المطر .

«ويستطيع سكان أستراليا ، إذا توفرت لديهم سياسة تنمية قوية ، أن يتزايدوا من ثمانية ملايين إلى خمسين مليونا خلال ثلاثين عاما ، وربما إلى مائة مليون فى نهاية هذا القرن » .

ومن الواضح أن التنمية على نطاق واسع تحتاج إلى عمل حكومى . وكما حدث فى زياراته لألمانيا عام ١٨٩٥ ، ولروسيا والصين وأمريكا ، أبدى راسل فى أستراليا موهبته الغريبة فى وضع يده على الأمور الجوهرية . وقال : إن المشكلة تتلخص فى أن الأشياء التى تحتاج أستراليا إلى عملها إحتياجاً كبيرا يجب أن تتم فى الريف . ولكن السياسيين كانوا يولون المدن اهتمامهم نظرا لوجود معظم الناخبين فيها . وأشار راسل إلى الصراع الموجود فى أستراليا بين المعتقدات ذات الصبغة الفردية والضرورات الجماعية ، وهذا هو المفتاح لفهم السياسة الأسترالية .

وأوضح راسل التعارض البين بين أستراليا وما كانت عليه أمريكا منذ مائة عام مضت . فقد كان من الممكن للفردية المصممة الخشنة أن يكون لها وجود منذ بادىء الأمر ، نظرا لتوافر الأخشاب والمياه . وكان المرء يستطيع أن يبنى كوخا من الخشب خاصا به ، وأن يزرع المحاصيل بمجرد تطهير الأرض . أما فى المناطق النائية والقليلة

السكان فى أستراليا ، فإن توفير المياه يحتاج إلى إنفاق مبالغ طائلة من المال ، كما أن الخشب المطلوب للبناء قد يحتاج إلى أن يجلب من مسافات بعيدة .

وقبل أن يذهب راسل لأستراليا ، أبدى ملاحظة مضمونها أنه كان دائما يتصور الأستراليون على أنهم أشبه بالأمريكان ، بل أنهم أكثر أمريكية من الأمريكان أنفسهم» ولكنه قال بعد زيارته لأستراليا إن ما لفت نظره هو الاختلاف بينهم . فالأستراليون أسعد حالا من الأمريكان وليس لديهم «نفس القلق الذى يدفعهم إلى علم شىء آخر غير ما يعملونه أو إلى التواجد فى مكان آخر غير المكان الذى هم فيه» . وعندما وجد الأستراليون أن ظروفهم طيبة استقروا واستمتعوا بها ، ولكن الأمريكيين فى انشغالهم المضنى بالبحث عن شىء أفضل لم تعد لديهم فسحة من الوقت للاستمتاع بما حصلوا عليه .

وقال راسل : لاشك أن القلق الأمريكى مرتبط بالطاقة الأمريكية والمشروعات الأمريكية ، وربما لو كانت أستراليا يسكنها أمريكيون لأمكن تنمية مواردها بسرعة أكبر . ولكن إذا حدث هذا ، فإنهم سيدفعون الثمن وهو انتشار الاستياء العام بينهم» .

وأنهى راسل جولته فى أستراليا وكله تقدير وثناء عليها . ورغم أن الضيف المجامل لا يقول كل الصدق عندما يتحدث بما يسر مضيفه ويرضيه ، فإن ما قاله راسل يستحق الذكر على الأقل من حيث أنه يبين ما اتصفت به نظرته من شباب دائم . ورفضه أن ينظر إلى الوراء . فقد صرح راسل قائلا : «لو كانت لى فرصة اختيار مولدى من جديد ، لفضلت أن أولد فى أستراليا على أن أولد فى أوربا الغربية . إن عظمة أستراليا لاتزال أمامها فى المستقبل ، أما عظمة أوربا الغربية فتتمثل فى ماضيها ، والعيش فى الماضى قاتل مميت يصيب بالحزن روح الانسان ، أما العيش برؤية للمستقبل فيولد الأمل والقوة والسعادة .

«إن الثقافة فى إنجلترا وفرنسا قد أصيبت بنوع من الوهن بسبب النظرية التى تنادى بأن كل شىء قد تم عمله بالفعل ، وأن الكتب التى يمكن أن يأمل المرء فى كتابتها ليست فى جودتها على مستوى الكتب التى صدرت فى سالف الأيام ، وأن

الموسيقى التى يأمل فى كتابتها لن تضارع موسيقى بيتهوفن ، كما أن اللوحات التى يأمل فى رسمها لن تكون مثل روائع الماضى .

وفوق كل هذا ، فإن المرء يشعر بين ضلوعه بذلك الوهن السياسى الذى يدب فى أوصاله من جراء بعده عن مركز القوة النامية . ويمكننا أن نتطلع إلى ميلاد قوة جديدة ونهضة جديدة إذا استطعنا أن ننقل ثقافة أوربا القديمة إلى بيئة نامية الاقتصاد» .

ولكنه يجب ، كما يقول راسل بأسلوبه الذى تميز به ، أن نخفف من حدة القوة والنشاط عن طريق التسامح . وأوضح راسل للأستراليين الذين تنقصهم هذه الصفة أحيانا أن «الرجال الذين يقومون بأعمال الخلق الفنى والثقافى نادرا ما يتفق سلوكهم مع ما يعتبره المجتمع سليما بالنسبة للمواطن المسئول ، وأن مزاجهم النفسى ينزع إلى شىء من الفوضوية عادة . وغالبا ما يكونون من النوع الذى لا يرضى عنه جيرانهم . وإذا شاءت أية دولة أن يكون من بينها أفراد عظماء ، فلا بد لها أن تضيف إلى الحريات الأربع حرية خامسة – ألا وهى حرية المرء أن يكون شاذاً .

ولذلك يقول راسل إنه لو كان شابا أستراليا يفتقر إلى القوة البدنية التى تجعل منه رائدا أو القدرة العلمية التى تجعل منه باحثا ، لوهب نفسه لبث روح التسامح . ويحتمل أن يفعل ذلك عن طريق كتابة الروايات الطويلة .

وبهذه النغمة المودعة ، عاد راسل بالطائرة إلى إنجلترا ، وهو يعلن أن خيبة أمله الوحيدة فى أستراليا أن برودة الجو حالت بينه وبين السباحة . وعندما وصل إلى إنجلترا بعد رحلة جوية مجهدة طولها أثنا عشرة ألف ميل تزيد عن كل رحلاته السابقة ، لم يستقر فيها سوى أسابيع قليلة سافر بعدها مرة أخرى ليقوم بجولة فى أمريكا لإلقاء المحاضرات ، لأن المرء على حد قوله ، يجب أن يشغل نفسه بعمل شىء ما .

وبعد مضى وقت قصير ، تلقى راسل تكريما عظيما آخر له ، فقد منح جائزة نوبل . وفى تلك المناسبة وصلته برقية تهنئة من جرينيش مرافقة فى أستراليا تتضمن كلمة «همف» .

الفصل الرابع والعشرون

فلسفة لم تكتمل

أبدى فيتجنشتين فى لحظة من لحظات سرعة الادراك وقوة البصيرة التى كانت تهبط عليه فجأة ملاحظة مؤداها أن ما كان راسل يعانى منه فى السنوات الأخيرة هو «فقدان المشاكل» . وكان هذا التعبير مثيرا للانتباه ، كما أنه - إذا كان رأيى فى الفلسفة صحيحا - من أهم صور النقد الأساسية التى يمكن أن توجه إلى أى فيلسوف . وكان فيتجنشتين يعنى بما قاله أن راسل بدأ يجد الفلسفة أكثر سهولة واستقامة مما ينبغى ، كما أن عقله أصبح أكثر دقة وتحديدا مما ينبغى . فلم تعد الحيرة الغامضة تستبد به بسبب الشكوك غير المتوقعة والأسئلة الغريبة التى تعن له .

وأظن أن هذا النقد صادق إلى حد ما ، فإن ثلاثين عاما من التوتر والضغط والاضطراب فى عالم يزداد جنوناً كل يوم ، ثلاثين عاما من النشاط السياسى والمتاعب الشخصية ، والارتباك المالى المتكرر ، قد جففت بعض حيوية عقل راسل ، وخاصة بعد الطريقة التى استهلك بها كل الاحتياطى من قوته فى كتابة مؤلفه «مبادىء الرياضيات» . وفى خلال تلك السنوات الثلاثين ، لم تسنح له فرص كثيرة للاستجمام الفكرى أو استعادة قوته الذهنية دون أن يجول بخلده سوى القليل من ذلك الاشراق الذهنى وومضات الشك الوضاءة التى جعلته يتشكك فى صحة بديهيات أقليدس أو فيما إذا كانت كل كلمة أو شبه جملة فى عبارة تعنى شيئا . واكتفى راسل فى معظم الوقت بالانشغال بمسائل سبق لها أن خطرت له . وكان يبرر ذلك تبريرا معقولاً بأنه لم يكن قد حل تلك المشاكل بعد ، كما أن أحدا سواه لم يحلها كذلك .

ونحن نجد أكمل صورة عرض فيها راسل ما وصل إليه من استنتاجات فى كتابة «المعرفة الانسانية : مجالها وحدودها» الذى نشره عام ١٩٤٨ عندما كان فى السادسة

والسبعين . والرأى عندى أن هذا الكتاب هو واحد من أهم كتبه وأنه علامة على الطريق فى تاريخ الفلسفة ، إلا أننى أعترف «بأنى لا أكاد أجد شخصا واحدا يوافقنى فى هذا الرأى . وأظن أن السبب فى أن الكتاب لم يلق التقدير الخليق به يرجع أساسا إلى خطأ راسل نفسه ، وذلك أولا لأن هذا الكتاب كان أطول مما ينبغى ، أجزاؤه غير مترابطة ملئ بتكرار ما سبق أن قاله فى كتابيه «تحليل المادة» . و «بحث فى المعنى والصدق» ، نظرا لأنه أراد بهذا الكتاب أن يكون تلخيصا نهائيا لآرائه . كما أن راسل كتب – لسبب مجهول لا يعلمه أحد إلا راسل نفسه – يقول فى تمهيد الكتاب أنه ليس موجها فى المقام الأول إلى الفلاسفة المحترفين ، ولكنه موجه إلى القارىء العادى الذى يهتم بالفلسفة . الا أن الكتاب – فى واقع الأمر – يتضمن محاجات فنيه طويلة ومجهدة لا تقل فى صعوبتها عن المحاجات التى يتضمنها كتاب «بحث فى المعنى والصدق» بل إنها تزداد صعوبة فى بعض الفصول .

ومن ثم ، فمن السهل أن نفهم رد فعل الفيلسوف المحترف بالنسبة لهذا الكتاب . فهو يشرع فى قراءته ، وهو يقلل من شأنه على أنه شىء كتب بقصد تعليم الهواة فقط ، ثم يشق طريقة بجهد فى الأجزاء الأربعة الأولى ، وهو يدرك أنه قد طالع الكثير منها فى أعمال راسل الأخرى . ليصل بعد ذلك إلى الجزء الخامس من الكتاب فيلاحظ فى يأس أنه ملىء برموز رياضية مبعثرة ، وأنه يحتوى على مناقشة تكتيكية لمشكلة من أكثر المشاكل تعقيدا وإثارة للحيرة ، والتى لم تجد سبيلا إلى الحل بعد ، وهى نظرية الاحتمالات . وبهذا يشعر الفيلسوف المحترف أن الكتاب قد عرضه فى نهاية الأمر لمهانة واذلال لم يكن يتوقعهما . فقد سبق أن قيل له إن «المعرفة الانسانية» كتاب بسيط كتب ليفهمه القراء العاديون ، وإذ به يكتشف أنه هو نفسه عاجز عن فهمه . وهو إما أن يتركه عند هذا الحد وقد استبد به الغضب ، أو أن يصل فى حالة من السخط الشديد إلى الجزء السادس والأخير الذى يتناول «مصادرات الاستدلال العلمى» . ويتضمن هذا الجزء من الكتاب معظم الأفكار المبتكرة الأصيلة (وإنى أتحفظ فأقول «معظم» فقد ضمن راسل بعض مناقشاته التكتيكية الهامة فى فقرات سابقة) .

وتساءل راسل عام ١٩١٢ فى بداية كتابه «مشاكل الفلسفة» : «هل توجد فى العالم أية معرفة يقينية بالدرجة التى لا تجعل أى رجل معقول يشك فى صحتها ؟» أما فى عام ١٩٤٨ ، فإنه خلص فى الصفحة الآخيرة من كتابة «المعرفة الانسانية» إلى نتيجة مفادها أن «كل معرفة انسانية هى مسألة غير مؤكدة أو غير مضبوطة ، ومتحيزة . ولست أجد أن لهذا المبدأ أية حدود» .

لماذا وصل راسل إلى هذه النتيجة المثبطة للهمم إلى حد ما؟

أولا ، أدرك راسل قلة ما يمكن الحصول عليه من معرفة عن طريق الاستنباط المنطقى . وقد سبق لى أن ذكرت هذا بوصفه إحدى إضافاته الهامة فى التفكير الفلسفى ، ولكن هذا الرأى كان رأيا توصل إليه تدريجيا بمساعدة فيتجنشتين . فقد كان لايزال عندما كتب «مشاكل الفلسفة» يعتقد أنه يمكن للاستنباط أن يعطينا معرفة جديدة . ولكنه كتب فى «المعرفة الانسانية» يقول : «لقد تبين أن الاستنباط أقل فى قوته بكثير مما كان مفروضا فيما مضى . وهو لا يعطينا معرفة جديدة فيما عدا ما يتعلق بصيغ جديدة للألفاظ تذكر حقائق معروفة على نحو ما من قبل» .

ولذلك ، فقد أصبح ايجاد مبرر لقبول الاستقراء كمصدر للمعرفة أمرا أكثر أهمية من ذى قبل . (ويمكن أن نصف الاستقراء بوجه عام على أنه يتلخص فى الكيفية التى يمكن أن نستدل بها أن الشمس سوف تشرق غدا من حقيقة أن الشمس قد طلعت علينا فى كل يوم من أيام حياتنا) . وقد ظن بعض الفلاسفة أنهم ربما وجدوا إجابة عن هذا فى «نظرية الاحتمالات الرياضية» . وكان الغرض من الجزء الخامس من «المعرفة الانسانية» هو التخلص من هذه الفكرة عن طريق مناقشة نظريات متنوعة فى هذا الموضوع .

وبالرغم من أن راسل لم يكتب سوى القليل عن الاستقراء ، فقد قال انها «فضيحة» ألا يجد أحد إجابة عن الصعوبات التى كان هيوم أول من أشار إليها . وقد رأى راسل لمدة طويلة أنه لابد من ايجاد بعض المبررات للاستقراء أفضل من تلك المبررات الموجودة الواضحة الزيف . وفى عام ١٩٢٧ كتب يقول :

«عندما بدأ الناس فى استخدام العقل ، حاولوا أن يبرروا ما قد وصلوا إليه من استدلالات دون تفكير فى سالف الأيام . وتمخضت تلك النزعة عن الكثير من الفلسفة الرديئة والعلوم الرديئة أيضا . وأن المبادىء العظيمة» مثل «النسق الواحد للطبيعة»(*) و«قانون السببية الشاملة»(**) وغير ذلك كلها محاولات لتدعيم اعتقادنا بأن ما حدث غالبا سوف يحدث مرة ثانية ، وهو اعتقاد ينبنى على أساس أفضل من ذلك الذى ينبنى عليه اعتقاد الحصان أن راكبه سوف يتجه به فى نفس الاتجاه الذى يتجهه عادة . وليس من السهل أبدا أن تعرف ما يمكن أن يحل محل تلك المبادىء الزائفة فى مجال ممارسة العلوم ولكن ربما تعطينا نظرية النسبية لمحة عما يمكن أن نتوقعه» .

وقد كان كتاب «المعرفة الانسانية» ، الذى صدر عام ١٩٤٨ ، اعترافا رسميا من راسل بأنه لم يستطع أن يجد – لا فى نظرية النسبية ولا فى أى شىء آخر – ما يحل محل تلك «المبادىء الزائفة» بالطريقة التى كان يأمل فيها . وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يبنى فلسفته على إيمان من نوع «إيمان الحيوانات الغريزى»(***) أو حاسة الحصان التى سبق له أن قلل من شأنها .

وبالاضافة إلى ذلك ، كان الاستقراء مجرد جزء من مشكلة أخرى . وأطلقت كلمة «الاستقراء» على مشكلة كيف يمكن أن نستدل أن الشمس سوف تطلع غدا ، والمشكلة الأخرى هى كيف يمكن أن نستدل أن الشمس موجودة بالفعل عن طريق مدركات معينه نسميها « رؤية الشمس » . وبطبيعة الحال ، فانه من الضرورى إيجاد حل لكلتا المشكلتين ، إذا أردنا أن نكون على يقين عند قبول صدق العلم .

وكان راسل يأمل أن يواجه المشكلة الثانية باعتبار الشمس «بناء منطقيا» يقوم على أساس معطيات الحواس . ولكنه نبذ تلك الفكرة واعترف أنه من المستحيل تماما الوصول إلى عالم عن طريق الأجزاء الصغيرة من المعرفة المستمدة من الخبرة ، إلا إذا

(*) Uniformity of nature.

(**) Law of universal causation.

(***) Animal faith.

كان فى استطاعتنا أن نضمنها إلى بعضها البعض بواسطة مبادىء معروفة بصورة مستقلة عن هذه الخبرة .

وقد تتبعت بالتفصيل فى كتابى الأكثر تخصصا عن فلسفة راسل الخطوات التى وصل بها راسل على مر السنين إلى هذه النتيجة التى تقول إن مذهب المساعدة والتجربة ليس كافيا . وفى كتابة «المعرفة الانسانية» بدأ يدرس دراسة دقيقة ما نحتاج إليه بالاضافة إلى ذلك . ووجد الاجابة عما يريد فى خمس مصادرات معقدة إلى حد ما . وحيث أننى لا أريد أن أصدم القارىء غير المتخصص مثلما فعل راسل ، فانى سأمتنع عن عرضها كاملا . وأولى هذه المصادرات هى الدوام الزائف(*) الذى يصلح ما يلى أن يكون مثلا عليه : «إذا أخذنا حدثا(**) مثل الحدث (أ) فإنه كثيرا جدا ما نجد حدثا شبيها للغاية به فى مكان مجاور له فى أى وقت متقارب . وبمعنى آخر ، وكى نعبر عن هذا المعنى بلغة يفهمها عامة الناس نقول «إذا نظرنا إلى الشمس فى لحظة ما ثم نظرنا إليها مرة أخرى بعد دقيقة واحدة ، فمن المحتمل جدا أن نرى حدثا مشابها للغاية ، وهو أننا سنجد الشمس لا تزال فى السماء . ويبدو لنا غالبا أن الأحداث تسير مع بعضها البعض على هذا النهج . والمقصود بهذه المصادرة أن تحل محل الفكرة القديمة عن المادة(***) . وقد كانت هناك حاجة إلى شىء ما يحل محلها ولكن لم يكن فى استطاعة راسل أن يستبعدها تماما ببساطة باستخدام نصل اوكام .

وتتضمن المصادرات أيضا إعادة تثبيت فكرة السبب التى ظن راسل فى وقت ما أنه يمكن ردها إلى مقدم(****) لا يتغير (أو يكاد لا يتغير) .

وفى فلسفته اللاحقة ظل راسل واحديا محايدا ، بمعنى أنه يؤكد أن كل مكونات العالم من نوع واحد حسبما نعرف . أما فيما عدا ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نقول عما

(*) Quasi Permanence.

(**) Event.

(***) Substance.

(****) Antecedence.

إذا كانت «الأحداث» الفيزيقية هي نفسها الأفكار والمشاعر أو تختلف عنها . فكل ما نعرفه عنها يأتى عن طريق قوانين السببية التى تتيح لنا الاستدلال على التركيب(*) .

لماذا نقبل المصادرات التى يتضمنها كتاب «المعرفة الانسانية»؟ يعطينا راسل فى واقع الأمر ثلاثة أسباب :

أولا : إننا إذا رفضناها فسينتهى بنا هذا إلى الانانية أى إنكار وجود كل شىء باستثناء الذات أو بمعنى أدق «الأحداث» التى نطلق عليها اسم الذات . وليس هناك فى واقع الأمر من يصدق هذا . وفى الحقيقة ، فإننا نستطيع فقط أن نؤمن بالتجربة التى نمر بها فى هذه اللحظة . ويعطينا هذا نموذجا يمثل ما أسميته بتكنيك راسل الفلسفى فى التوصل إلى نتيجة إيجابية بطريقة سلبية . وحطم راسل جميع نقط الالتقاء المريحة فى منتصف الطريق بين مصادراته من ناحية والأنانية فى لحظة معينة من ناحية أخرى .

ثانيا : أنه بدون وجود شىء مثل المصادرات ، فإننا لا نستطيع أن نصدق حقيقة العلم بصورته العريضة العامة . وليس هناك من يشك فى حقيقته بشكل جدى .

ثالثا : وأخيرا ، إذا كان اعتقادنا بالمصادرات مخطئا ، فإن الجنس البشرى لم يكن ليستطيع أن يبقى على قيد الحياة . وذلك لأننا عندما نتسلق سلما خشبيا فنحن نفترض أن درجاته على قدر كاف من الدوام الزائف بحيث لا تذوب من تحت أقدامنا فجأة . وإذا كنا مخطئين فاننا نسقط وتتكسر رقابنا . ولو كنا مخطئين فى الاعتقاد فى «الدوام الزائف» وفى الاستقراء ، لكان الجنس البشرى قد اندثر حتى يومنا هذا وحلت محله كائنات أخرى ذات معتقدات أكثر دقة عن طبيعة الواقع . وفى الحقيقة ، فإنه من المحتمل أن تكون معتقداتنا قد جاءت نتيجة التكيف البيولوجى مع البيئة . ونحن نفكر بهذه الطريقة لأن العالم مخلوق بهذه الطريقة .

(*) Structure .

وهذه النقاط الثلاث ذات أهمية لأنها تبين ضيق راسل المتزايد بالفلاسفة الذين ينسجون موضوعات جدل بأن يزعموا الشك فى مسائل لا يستطيع أحد أن يشك فيها شكا مخلصا . وهى تبين أنه ينتهج فلسفة أكثر من هذا من الناحية العملية والادراك العام . ولكنها تبين ، على أية حال ، ما طرأ عليه من تغير كبير عما كان عليه فى تلك الأيام التى كان يأمل فيها أن يجد بعض الأسس اليقينية للاعتقاد فى صحة العلم ويسخر من مزاعم الادراك الانسانى العام . وقد استمر بطبيعة الحال فى إنكار أن الادراك العام لا يأتيه الباطل من خلف أو أمام . إلا أنه الآن يعترف بأنه أحيانا ليس هناك شىء أفضل من الادراك العام كأساس للتصرف العملى .

ولذلك يمكن أن نعتبر أن كتاب «المعرفة الانسانية» ، من وجهة نظر ما ، اعتراف منه بالفشل . فلم يكن باستطاعة راسل أن يجد المعرفة اليقينية التى كانت هدفا يرنو إلى تحقيقه طوال حياته الفلسفية . وكانت فلسفته الجديدة قائمة على مصادرات وعلى الحرص على النتائج العملية التى لا يمكن تبريرها بالمعايير النقدية التى سبق له أن وضعها . غير أن كتاب «المعرفة الانسانية» يحتوى على ما هو أكثر من ذلك .

وغالبا ما يكون أى اعتراف بالفشل شيئا مثمرا . وقد طرح فشل راسل فى أن يؤمن بالمذهب التجريبى القائم على المشاهدة والتجربة ايمانا تاما ثمارا من هذا النوع . ففى اعداده المفصل للمصادرات تجاوز راسل بكثير كل من سبقوه فى أن يحدد بدقة نوع المعرفة التى يجب التسليم بها تسليما قبليا حتى يمكن اقامة العلم على أساس تجريبى . وبهذا العمل أضاف راسل إلى فهمنا لطبيعة الكون .

ولنذكر ، على سبيل المثال ، كيف أن مصادرته فى «الدوام الزائف» قد أكدت الطريقة التى تسير بها «الأحداث» معا .

وقد سبق لى أن ذكرت أن إحدى الصعوبات التى واجهت برنامج البناء الذى وضعه من قبل كانت أن يشرح لماذا تتجمع أوجه المنضدة حتى تأخذ شكل منضدة . وقد أجاب راسل الآن عن هذا السؤال ولكن أفضل إجابة استطاع أن يجدها هى :

«أنها محض مصادفة أن تحدث بهذه الطريقة» . وقد أبديت كذلك ملاحظة مؤداها أن إحدى الصعوبات فى طريقة التحليل هى أنه بعد تفتيت الكون إلى أجزاء صغيرة للغاية ، يصبح من العسير على الفيلسوف المحلل أن يعيد تجميعها . ولهذا ، فقد ينبرى أحد نقاد راسل الآن بأن يقول : «لماذا لا نختار المدخل الآخر ونبدأ بالاشياء كما هى باعتبارها وحدات؟ ومن الجدير بالذكر أن الخطوات الفلسفية التى اتخذها راسل تتفق كثيرا مع الأفكار الحديثة التى يذهب إليها المشتغلون بعلوم الكون ونشأة العوالم ، ومن بينها على سبيل المثال مناقشة مستر فريد هويل عن كيف أن ذرات الهيدروجين المنتشرة تجمع نفسها لتكون النجوم . ولدينا أيضا حالة أخرى تثير فيها الفلسفة سؤالا لا تستطيع الإجابة عنه (وهو : لماذا توجد «الأحداث» و«مجموعات الأحداث» مع بعضها البعض؟) فى حين أنها تستطيع أن تعطى للفكر العلمى نشاطا متجددا .

ولا تزال مبررات التمزيق إلى أجزاء صغيرة فى الفلسفة مثل مبرراته فى علم التشريح ، فهى تزيد المعرفة ، حتى إن لم توضح كل شىء ، وتركز الاهتمام على ما تتركه دون توضيح أو تفسير .

وعندما يقرأ المرء مصادرات راسل وحججه فى الوصول إليها ، فإنه يصطدم بكثرة تردد كلمة «تركيب» أو «بناء»(*) – وهى كلمة سبق له أن أكد أهميتها . كما تتردد فى كتاباته كلماته أخرى مثل «الاستمرار» ، و«مشابه» . وأعتقد أن ما نجح راسل فى عمله فى كتابه «المعرفة الانسانية» هو توضيح افتراضات معينة كانت كتاباته السابقة تتضمنها . فعلى سبيل المثال ناقش راسل فى «مشاكل الفلسفة» النظرة «المثالية» التى تقول بأن القطة الموجودة فى الحجرة تختفى من الوجود عندما لا يكون هناك من ينظر إليها . وقال راسل –و على أساس غامض من الاستمرار – أنه من الطبيعى أن نفترض أن القطة كانت موجودة طوال الوقت . وخاصة إذا كانت قد شعرت بالجوع منذ أن رأيناها فى آخر مرة . ولكن لا هو ولا أحد غيره قد تحقق من

(*) Structure .

مدى صحة هذه الحاجة . وينبنى مبدأ الاستمرار على أساس الافتراض اللاواعى للفكرة القديمة عن المادة(*) . وفى الحقيقة ، فإن راسل لم يذكر كلمة «استمرار» بل أنه لجأ بطريقة غامضة إلى «كل مبدأ للبساطة» . ولكن ما كان يعنيه فيما أظن هو أنه من الأسهل على المرء أن يعتقد فى قطة موجودة باستمرار من أن يعتقد فى قطة متقطعة الوجود . وفى كتاباته الفنية المتخصصة التى كتبها فيما بعد عن معطيات الحواس غير المحسوسة(**) ، نراه يلتجىء مباشرة إلى «الاستمرار» . ولكنى أعتقد أنه فعل ذلك دون تفكير واع من جانبه . أما الآن ، فقد أثار السؤال الخاص بنوع «الاستمرار» المتعلق بذلك .

وإذا كنت على صواب ، فإن فيتجنشتين إذن يخطىء عندما يقلل من شأن كتابات راسل الفلسفية فى الفترة الأخيرة من حياته . ففى «المعرفة الانسانية» والكتب التى أدت إليها مثل مؤلفاته فى الفلسفة الرياضية ونظرية التعريف بالرسم قام راسل بمهمة فلسفية رفيعة هى إثارة الشك فى افتراضات كانت تقبل من قبل على أنها أمور مسلم بها ، كما قام بتوضيح هذه الافتراضات . ولفكرة التشابه أهميتها الخاصة . وقد جعل كذلك التكنيك الخاص باستخدام «الحد الأدنى للكلمات» يؤكد كلمة «مشابه» . وكانت هذه هى البقايا الحية التى تخلفت عن اعتقاده فيما مضى أننا نستطيع أن نحصل على معرفة بشأن تركيب الواقع بدراسة تركيب الجمل . وبلغة بسيطة كانت فكرته كما يلى : «حاول أن تجد أقل عدد من الكلمات تحتاج إليه لوصف الكون ، فإن لم تستطع أن تصفه دون استخدام كلمة معينة ، فلا بد أن يكون هناك فى الكون شىء مقابل لهذه الكلمة . وبهذه الطريقة ، على سبيل المثال ، حاول راسل أن يعرف عما إذا كان يستطيع أن يجد ألفاظا تخلصه من تلك الكلمات التى تمثل «الكليات» ، فوجد أنه لم يستطع أن يتخلص من كلمة «مشابه» . وتوصل راسل إلى النتيجة الآتية :

. Substance (*)

. Sensibilia (**)

«أن احتياجنا فى الواقع إلى كلمة «مشابه» يدل على حقيقة تتعلق بالعالم ، ولا تدلنا على حقيقة بخصوص اللغة وحدها . أما ما هى الحقيقة التى تدل عليها فيما يتعلق بالعالم ، فهذا ما لست أدريه» .

ومن المؤكد أنها حقيقة تدعو إلى العجب أن يكون فى العالم أشياء متشابهة . وأنه من الأسهل عندما نفكر فى ذلك أن نتصور عالما تكون فيه الأشياء كلها مختلفة أو كلها واحدة تماما ، أو مزيجا من الأثنين ، مثل التصور العلمى فى القرن التاسع عشر للعالم على أنه يتركب من حوالى تسعين نوعا مختلفا من الذرات ، حيث تكون سائر ذرات كل نوع من هذه الأنواع متطابقة تماما . ولكنه من الأمور المحيرة للغاية أن نجد أننا نعيش فى عالم تكون فيه الأشياء متشابهة ، وتكون للعناصر فيه نظائر . ويكون فيه نصل واحد من الحشائش مشابها جدا لنصل آخر دون أن يكون مثله تماما . وميزة راسل أنه جعلنا نفكر فى هذه المسألة ، أو أنه ، على أقل تقدير ، جعلنا نشعر بأنه يجب علينا أن نفكر فيها . أما كونه لم يقدم لنا بنفسه أى تفسير لها ، فهذا أمر يقل فى أهميته . وذلك لأن الفلاسفة يوجدون كى يطرحوا الأسئلة لا أن يجيبوا عنها . وربما توقعنا أن يقدم لنا كتاب «المعرفة الانسانية» ملخصا وافيا وناضجا لما خلص إليه راسل من نتائج . والغريب فى الأمر أنه بدلا من ذلك ظل يلفت النظر إلى مشاكل أكثر مما كان يستطيع حلها ، الأمر الذى تمخض عنه وضع كتاب غير مرتب يتسم بالتهويش الذى يتسم به التفكير المبتكر غالباً . ولم يكن عمله فلسفة كاملة أبدا بقدر ما كان فلسفة فى طور البناء . وبلغت حيويته الدافقة حدا جعل فلسفته لا تزال فى طور البناء حتى وهو فى السادسة والسبعين من عمره .

ولسوء الحظ ، فاننا لا نجد سوى إشارات قليلة تدل على وجود أحد يبنى نوعا من الفلسفة الجديدة كاستمرار لعمل راسل (أو كرد فعل له) . وربما تمر مئات السنين قبل أن يحدث ، لأن أى تقدم كبير تحرزه الفلسفة غالبا ما يستغرق قرونا . ومن بين المعاصرين ، نجد أن البروفيسور أير ، هو أكثر من قام بعمل للاستمرار فى أفكار

راسل . أما بقية الفلاسفة البريطانيين ، فإنهم - نظرا لاعجابهم بفيتجنشتين - قد قللوا من شأن عمل راسل بعد أن دب الخلاف بينه وبين فيتجنشتين ، ومن ثم فقد اتخذوا من آراء راسل الأولى نقطة لانطلاقهم أكثر مما أخذوا من أفكاره اللاحقة . وفى تلك الأيام الأولى - كما ذكرنا - كان راسل يأمل فى أن يستبعد كل المبادىء القبلية للمعرفة ، بمعزل عن المبادىء المنطقية ، وأن ينكر أن لدينا أية معرفة أخرى غير المعرفة القائمة على المشاهدة والتجربة . وقد تمخض عن هذا وعن بحث فيتجنشتين الذى يحمل عنوان «تركتاكوس» مذهب الوضعية المنطقية ، الذى يقول : حيث أننا نجهل كل شىء بأستثناء الحقائق التى يمكن ملاحظتها ، فإن المناقشات الميتافيزيقية التى تثيرها الفلسفة التقليدية تصبح أمرا لا معنى له . وفى أيامه الأولى وجد راسل أيضا أهمية فى التحليل اللغوى تزيد بكثير عما وجده فيما بعد . وقد دعم أهمية المعالجة اللغوية تأكيد فيتجنشتين فى المحاضرات التى ألقاها فى كامبردج وفى مؤلفه «مباحث فلسفية» المنشور بعد وفاته للطريقة التى تستخدم بها الكلمات فعلا فى الحديث العادى . وكان هذان الاعتقادان - الاعتقاد بعبث المناقشات الميتافيزيقية جنباً إلى جنب مع الاعتقاد بأهمية اللغة القصوى - هما القاعدتين اللتين استرشد بهما الذين خلفوا راسل مباشرة .

ولن أقول الكثير عن هؤلاء الفلاسفة لأنى أظن أن أعمالهم مصطنعه إلى حد ما . وهى أعمال مصطنعة لنفس الأسباب التى تجعل أعمال بعض الكتاب والفنانين المعاصرين مصطنعة . وتتلخص أسباب الاصطناع فى أنهم قد وجدوا أنفسهم عاطلين بغير عمل .

لقد حاول الفنانون لعدة قرون أن يصوروا الواقع . واستطاعوا أن ينتجوا فنا عظيما لأنهم كانوا يستغرقون فى هذا الهدف ، ويهبون أنفسهم لشىء خارج ذواتهم . وكان اختراع الكاميرا يعنى أن عملهم يمكن أن يتم بصورة أحسن بواسطة صندوق به عدسات . واضطر الفنانون إلى أن يعملوا شيئا آخر حتى يكسبوا قوتهم . وهكذا بدأوا

فى رسم أشياء ليس لها وجود ، كما بدأوا يتحدثون فى وعى بالذات عن رؤيتهم الذاتية للعالم . وكانت نتيجة ذلك أن وجدنا مائة فنان زائف مقابل كل فنان يجرب أساليب جديدة عن إلهام أصيل . وقد حدث نفس الشىء مع الكتاب والشعراء بعد اختراع الأفلام التى تستطيع أن تصور مناظر طبيعية أو تكشف عن شخصية إنسانية أو تثير المشاعر بطريقة أفضل بكثير مما تستطيع الكلمات وحدها أن تفعله . وضاق مجال الشعراء فأصبحوا يلعبون بالكلمات من أجل الكلمات ذاتها . ومن ثم فقد انتابهم الوعى بالذات والانطواء وأصابهم الجدب والخواء .

وقد حدث شىء شبيه بهذا للفلاسفة الذين يتبعون الوضعية المنطقية . فلم يعد عملهم يتضمن مناقشة العالم الحقيقى ، وإيجاد اجابات للمشاكل الحقيقة التى تؤرق الرجال والنساء ، لأنهم أعلنوا أن كل هذه المشاكل ، أما أنها خالية من المعنى ، أو أنه لا يمكن ايجاد حل لها ، أو أنه لا يمكن حلها إلا عن طريق العلماء وعلماء المنطق وحدهم . غير أنه تعين عليهم – شأنهم فى ذلك شأن الفنانين والشعراء العاطلين – أن يقوموا بعمل شىء . ومن ثم فقد انغمسوا وهم يعربدون فى خضم من الأحاديث الذكية واهتموا اهتماما فائقا باظهار الفروق الدقيقة بين الألفاظ التى قد تخفى عن الأنظار . وكانوا يسألون أسئلة تصعب الاجابة عليها بشأن استخدام الألفاظ . ولم يكن تحدوهم إلى ذلك دائما رغبة دفينة للمعرفة ، ولكن تدفعهم إلى ذلك رغبة فى تمرين عقولهم وتبرير وجودهم . وهكذا قضوا أوقاتهم فى التفكير فى أفكارهم دون أفكار الآخرين .

وأعتقد أن هذا هو السبب فى فكرة راسل السيئة عنهم . وهذا هو ما حدا بـ س.د. برود إلى أن يصف بعض الفلاسفة المعاصرين «بأنهم» سخفاء أذكياء ، وهو وصف يذكرنا بما استخدمه دزرائيلى من أوصاف . ولعل راسل لم يكن عادلا بعض الشىء فى هجومه المتكرر على فلاسفة أكسفورد . فإن بعضهم لم يندرج أبدا تحت هذا الوصف ، كما أن آخرين سرعان ما خرجوا من زمرة هؤلاء الفلاسفة ، ولكن راسل لم يدرك ذلك لأنه كان قد توقف عن القراءة لهم(*) . وقد وصل فى بعض حالاته

النفسية إلي حد اليأس من الفلسفة برمتها ووصفها بأنها «موضوع غير ذى فائدة» ، ونصح الشباب بألا يضيع وقته فيها . وقال راسل : «لقد بين فلاسفة أكسفورد أن الفلسفة شىء لا معنى له ، وإنـــى أجد نفسى الآن نادما على شبابى الذى ضيعته فى دراستها» .

وقد أعلن راسل قائلا : «إننى اضطررت وأنا أتألم إلى الاعتقاد بأن تسعة أعشار ما يسمى فلسفة لا يعدو أن يكون لغوا . وأن الجزء الوحيد منها الذى يتميز بالدقة والتحديد هو المنطق . وحيث أن هذا الجزء ينتمى إلى المنطق فإنه لا يدخل فى دائرة الفلسفة» . وعندما تحدث راسل بهذه الطريقة ، بدأ الواحد منا يتعاطف مع نقاده . صحيح فعلا أنه كلما تم حل مشكلة فلسفية بصورة نهائية ، فإنها تخرج عن نطاق الفلسفة وتصبح جزءا من العلوم . وقد حدث هذا بالنسبة إلى كثير من الأفكار التى كان الفلاسفة هم أول من طرحوها مثل حركة الكواكب والتطور البيولوجى ، والتركيب الذرى للمادة . غير أن هذا لا يثبت أنهم كانوا مخطئين فى التكهن بشأنها . كما أنه لا يثبت أنهم مخطئون حين يفكرون فى يومنا الراهن فى مشاكل لم تجد سبيلها بعد إلي الحل . وغالبا ما يكون حديثهم غامضا ومشوشا ، ولكن هذا ناجم بالضرورة عن حقيقة أنهم يبحثون عن حلول لم يتوصل إليها أحد بعد ، ولعلنى من ناحيتى أعرف الفلسفة ، كشىء أدافع عنه حتى الموت ، بأنها حق المرء فى التحدث عن أشياء لا يفهمها .

والذى لم يكن ينبغى على راسل أن يقوله هو أن معظم الفلسفة لغو وهراء ، ولكن إن معظم الفلاسفة زائفون . وأظن أن هذا ما كان يعينه فعلا ، غير أن أدبه منعه من أن يقول ذلك . وهى محاجة يمكن الأخذ بها أكثر من غيرها . وإذا كان لنا أن نرتب الجنس البشرى حسب متوسط الأمانة الفكرية ، فانى أضع فى المرتبة الأولى لاعبى الكروكيت المحترفين ، ثم أضع العلماء فى المرتبة التالية لهم ، ثم الفلاسفة المحترفين

(*) أخبرنى راسل (فى مارس ١٩٥٦) أنه قد فرغ لتوه من قراءة بعض فلاسفة أكسفورد ثانية دون أن يغير رأية فيهم .

فى مرتبة أدنى بكثير ،ذلك أنه من المستحيل أن يكون لاعب الكريكيت زائفا أو دجالا . فإذا تظاهر بأنه أفضل فى اتقانه للعبته عما هو عليه ، فسوف ينكشف أمره من أول كرة يلعبها . كما أن العالم الذى يستحدث نظرية يعرف عادة أنه يمكن إثبات صحتها أو خطئها بالاختيار العلمى . أما الفيلسوف فهو لايحتاج الا لكتابة كتاب لا يفهمه أحد ، دون أن يستطيع إنسان خلال الفترة الباقية من حياة هذا الفيلسوف أن يتأكد إذا كان عبقريا أم دعياً . وبهذا يصبح من السهل علينا أن نفهم أن صفوف الفلاسفة تشتمل على نسبة معينة من الادعياء غير أن هذا لا يثبت أن الفلسفة فى حد ذاتها عمل يقل فى قيمته عن العلوم أو لعبة الكريكيت .

الفصل الخامس والعشرون

ما يزال يعمل

لم ينشر كتاب راسل «المجتمع الانسانى فى الأخلاق والسياسة» حتى عام ١٩٥٤ وبالرغم من هذا ، فإنه من المناسب أن نناقشه هنا لأن معظمه قد قصد به أصلا أن يتضمنه كتاب «المعرفة الانسانية» الذى كتب فى نفس الوقت .

ويتميز كتاب «المجتمع الانسانى فى الأخلاق والسياسة» بالصراحة والصدق التى عبر بهما راسل عن عدم حبه لنظريته الذاتية فى الأخلاق . فقد كتب : «إننى أجد أنه أمر لا يطاق تماما أن أفترض أنه حين أقول «أن القسوة شيء سيء» ، فإنى لا أعدو أن أقرر أنى أكره القسوة» . ولذلك فقد سعى جاهدا إلى أن يجد بعض الأسس الموضوعية لنظريات الأخلاق ، مقررا أن الرغبات السليمة هى تلك التى يمكن لها أن تعيش جنبا إلى جنب(*) مع أكبر عدد ممكن من الرغبات الأخرى» . وتعبير «تعيش جنبا إلى جنب» له نظيره فى فلسفة ليبنتز التى استمد راسل هذا التعبير منها . وما عناه راسل كان تكرارا لحاجة وردت فى كتابه «مبادىء إعادة البناء الاجتماعى» . وتذهب هذه الحاجة إلى أن الدوافع الخلاقة دوافع خيرة لأن المتعة التى توفرها لا تكون على حساب أى إنسان آخر ، فى حين أن نوازع التملك لا تتحقق إلا بحرمان الآخرين ، فإذا أراد شخصان أن يمتلكا نفس الشيء فإنه لا يمكن لرغباتهما أن تعيش فى توافق جنبا إلي جنب» .

ويعنى هذا ببساطة أنه لا ضير أن يفعل المرء ما يريد إذا كان ذلك قمينا باسعاده دون أن يلحق ضررا بالغير . بل إن راسل سار بهذه الفكرة إلى نهاية الشوط من الناحية المنطقية ، قائلا : إذا كان هناك شخص يشعر بالمقت الشديد نحو شخص آخر ،

(*) Compossible

فقد يكون من الخير له ، أن يستمتع باعتقاده الكاذب أن ذلك الشخص الآخر يشقى من جراء هذا المقت .

وفى واقع الأمر ، تتلخص تعاليم راسل فى أن النفع «أو المتعة» الأكثر هو ما يعود بالخير على أكبر عدد من الناس . فلو أن تلميذا معه صندوق من (الشيكولاته) وزع ما فيه على من حوله ، فإنه يخلق شعورا بالرضى العام أكثر مما يتناول الحلوى بمفرده ويجلب لنفسه المرض . ومن ثم ، فإن الاحسان خير والأنانية شر . وأضاف راسل إلى «المذهب النفعى» التقليدى طريقة لقياس المتعة فى مقابل الألم . فهما يتساويان إذا كان المرء لايهمه أن يصيب كليهما أو لا يصيب أحدهما .

وقد تكون تسمية فلسفة راسل الاخلاقية «بالنفعية» مضللة . وربما كان «مذهب اللذة» هو أقرب شىء إليها . ولم يكن راسل بالتأكيد نفعيا بالمعنى الدارج لهذه الكلمة ، كما يتضح من نقده «للنفعية» المفرطة فى كل من روسيا ، وأمريكا . ويختلف راسل عمن سبقوه فى أنه أدخل فى اعتباره قدرات الانسان العقلية والجمالية ، كما أنه آمن بعلم تحسين النسل الإنسانى الذى يقوم على حقيقة كون الناس غير متساوين من الناحيتين العقلية والجسمانية(*) بل أنه أكد أن هناك خلافا بارزا بين الرجال والنساء لأن عددا كبيرا من تلامذته من النساء اللائى كن يبشرن بمستقبل زاهر قد تخلين عن طموحهن الفكرى بعد فترة طالت أو قصرت .

وتتلخص أهمية فكرة راسل عن «الرغبات المتوافقة التى تعيش جنبا إلى جنب مع غيرها من النوازع» ، فى كونها فكرة عملية وليست نوعا من التحذلق . وقد صاغ راسل فكرته ذات مرة بقوله : «أن ابتغائى التنسيق بين الرغبات هو الدافع الرئيسى الذى يكمن وراء معتقداتى السياسية والاجتماعية ، ابتداء من الحضانة حتى الدولة العالمية» . ويقرر راسل فى نهاية مناقشته التى يتضمنها كتابه «المجتمع الانسانى» أنه

(*) كتب راسل عن سر سعادته فى شيخوخته : «أن نصيحتى الأولى هى أن تختار أجدادك بعناية» مشيراً إلى أن ثلاثة من أجداده الأربعة عمروا فوق الثمانين .

قد توصل فقط إلى بعض المبادىء الهادية التى لها فائدة فى الاستخدام العملى ، دون أن يتوصل إلى المعرفة الموضوعية . فأسس الأخلاق «لا تزال مبنية على العاطفة والشعور» . وهذا هو السبب فى أنه استبعد ما كتبه من مؤلفه «المعرفة الانسانية» .

ولسوء الحظ ، فإن راسل لم يدع الأشياء عند هذا الحد . فقد ارتكب خطأ متكررا عندما أظهر اهتماما أكثر مما ينبغى بما يوجهه ضده النقاد السخفاء ، فقد أتهمه فلاسفة من أمثال س.أ.م جود بتدمير سلطة الدين والأخلاق التقليديين الأمر الذى يؤثر أثرا بالغا فى سلوك الناس . ومن الواضح أنه كان يجدر براسل أن يعترف بصحة هذا الاتهام . وينكر على هذا الاتهام مضمونه من حيث أنه يعنى أنه ينبغى عل الفلاسفة أن يضحوا بأمانتهم الفكرية كى يتجنبوا الوصول إلى نتائج هدامة أو مدمرة . بيد أن راسل لم يطق جود ، كما أنه لم يطق انتحال الأعذار من أجل إحياء الدين المنظم ، وذهب إلى أن الجانب المدمر من تعاليمه ليست له أهمية كبيرة من الناحية العملية .

قال راسل فى حديث اذاعى له :

«إن الفلاسفة مغرمون بالألغاز التى لا تنتهى عن القيم الاخلاقية النهائية وعن أسس الأخلاق . وإنى أعتقد أننا نستطيع ، فيما يتعلق بالسياسة والحياة العملية ، أن نطرح كل هذه الألغاز جانبا وأن نستخدم المبادىء التى تتمشى مع الادراك العام . فنحن جميعا لا نرغب فى الطعام والمأوى والكساء والأمن من الأذى والسعادة والاستمتاع بالحياة والحرية فحسب بل نحتاج إلى هذه الأشياء أيضا» .

أو كما يقول فى كتابه «المجتمع الانسانى» : «يندر أن يكون من الضرورى فى المجادلات السياسية أن نناشد الاعتبارات الاخلاقية لأن المصلحة الذاتية المستنيرة هى دافع كاف للعمل بما يتمشى مع الصالح العام» .

ولكن سرعان ما وجد لزاما عليه أن يضيف بعض التحفظات على هذا الرأى .

وأوضح راسل فى كثير من المواضع أن المصلحة الذاتية ليست ذلك الدافع القوى كما يظن ويأمل الناس غالبا . كما أنه لم يمتدح دائما «عادة التدبر فى عواقب الأمور» فقد اعترف راسل أننا لا نستطيع أن نمضي فى حياتنا وأن نتخذ القرارات فى كل كبيرة وصغيرة فيها باستخدام آلة حاسبة ، محاولين أن نحسب ما تنطوى عليه أفعالنا من عواقب ممكنة .

وأظن أنه من الأفضل أن نذكر بجلاء أن راسل طرح من الأسئلة أكثر مما تمكن من الاجابة عنها فيما يتصل بعلم الأخلاق وغير ذلك من الموضوعات . وتكمن ميزته الكبرى فى أنه اضطرنا إلى أن نرى أنه يجب علينا إما أن نجد بعض الاجابات المقبولة ، أو أن نتعلم كيف نعيش بدونها ، مستخدمين مثل هذه المبادىء العامة كالتى تتمثل فى قوله : «نستلهم الحب ونسترشد بالعقل فيما نفعل» . وأبرز راسل فى دقة وتحديد مأزق العصر الذى نعيش فيه . وهو عصر أعطى فيه العلم للانسان قدرة على الخير والشر تكاد ألا تحدها حدود ، كما أنه فى نفس الوقت حطم الايمان بالمعتقدات السابقة التى كان يظن أنه يمكن عن طريقها التمييز بين الخير والشر تمييزا دقيقا ، فضلا عن أنه ليس فى مقدور العلم أن يجد بديلا لهذه المعتقدات السابقة . ومن النتائج الأمنية التى تميز بها راسل أننا لا نعرف شيئا عن هذا العالم يقترب من المعرفة اليقينية ، وأنه ليس فى إمكان العلم أن يثبت صواب أى شىء أو خطأة . فهو لا يستطيع على سبيل المثال أن يثبت أنه من الخطأ أن يستمتع الانسان بإلحاق القسوة بغيرة .

وكتب راسل فى عام ١٩٤٢ : «بالرغم من أن النتائج التى توصلت إليها فيما يتعلق بالأخلاق لا ترضينى ، فإن النتائج التى توصل إليها الآخرون ترضينى بصورة أقل» . وإنى أعترف با امام فى معه فى الرأى فى النقطة الثانية مثلما أتفق معه فى النقطة الأولى .

وحتى الآن ، فإن الفلاسفة اللاحقين لم يقدموا فى مجال الأخلاق شيئا أفضل مما قدموه بشأن تلك المشكلات المحيرة الغريبة التى تركها راسل بين أيديهم . وتخلى

الكثير منهم عن المبدأ الصارم الذى يذهب إلى أننا نستطيع أن نعرف فقط صدق البيانات المنطقية والعلمية . واستحدث هؤلاء الفلاسفة نظرية فحواها أن هناك قطاعات مختلفة للمعرفة الانسانية ، لكل منها نوعه الخاص من الحقيقة وأن الأحكام العلمية والأخلاقية والجمالية والاقتصادية واللاهوتية يمكن أن تكون جميعا صادقة بطرقها المختلفة . وبناء على هذه النظرية ، فإنه يصعب علينا أن نتبين ماذا نقصد عندما نقول مثلا «أن القوانين التى يعلنها علماء الطبيعة هى غالبا أكثر دقة من تلك التى يعلنها علماء الاقتصاد» . ومع ذلك ، يبدو أن صدق هذا القول يكاد أن يكون مؤكدا ، كما أنه يبدو أنه يتضمن نوعا من المقاييس العامة للصدق .

وعلى أية حال ، فإن هناك بالتأكيد شيئا واحدا يستتبع آراء راسل فى الأخلاق . فإذا كانت المعتقدات الاخلاقية مسائل تتصل بالمشاعر والعواطف ، فعليه أن يبذل قصارى جهده ، للتأثير فى مشاعر الناس وعواطفهم ، موجها أياها إلى وجهتها الأخيرة . وقد كان ذلك شغله الشاغل من عام ١٩١٤ . وفى أعوامه الأخيرة ، أصبح راسل أقرب إلى الواعظ إذا استخدمنا كلمة الواعظ فى أحسن معانيها دون أن نستخدمها بمفهومها التقليدى . ولقد أدهش بعض مستمعيه أثناء جولته فى أستراليا لألقاء المحاضرات حين قال : «إن جذور المسألة شىء بسيط وعتيق للغاية . شىء بسيط جدا لدرجة أننى أكاد أن أشعر بالخجل حين أذكره ، خشية أن يستقبل المتشككون الحكماء كلماتى بابتسامة ساخرة وأعنى بهذا الشىء - ولتسامحونى على ذكره - هو الحب ، هو الحب المسيحى أو الاشفاق» .

ولم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة فليس ما طرأ على موقفه هو ما يطرأ على المتشككين عادة الذين تلين قناتهم حين يتقدم بهم العمر . ولم يفعل راسل سوى أنه كرر فقط بكلمات مختلفة ما سبق أن بشر به فى مقاله «عبادة الانسان الحر» عام ١٩٠٢ وفى كتابه «مبادىء إعادة البناء الاجتماعى» (١٩١٦) . والشىء الجديد فى موقفه هو أنه أكد أن بعض الأفكار العتيقة قد تكون صائبة ، لقد حرر نفسه أخيرا من

الافتراض ، المستمد فى المقام الأول من إيمان العصر الفيكتورى باطراد التقدم ودعمته طليعة المثقفين فى العشرينات ، بأن القيم الجديدة هى بالضرورة خير من القيم القديمة .

ولا تعنى إشارته إلى المسيحية أنه قد اقترب من العقيدة التقليدية الراسخة . وقال عن تلك الفترة : «لست واثقا إذا كنت ملحدا أو لا أدريا ، ولهذا فإنى أسمى نفسى ملحدا أحيانا ولا أدريا أحيانا أخرى» . وقد عرف راسل أى دين بأنه «الرغبة فى الايمان بمجموعة من الترهات يدخل بها المرء الراحة إلى نفسه» . و«إنى أعنى أى شكل للايمان يستهدف تشجيع الجبن . وما أعترض عليه هو الجبن وانتفاء الأمانة» . والصلاة فى رأى راسل تعادل الاعتقاد أن الكون يسيطر عليه كائن يغير رأيه إذا طلب منه المصلى ذلك .

وقد قال راسل فى عام ١٩٥٠ : «إن الشىء الوحيد الذى أرى أنه أفضل فى الكاثوليكية من الشيوعية هو أن الكاثوليكية أقدم . فالدين مثل الخمر ، تزداد جودته بمضى الوقت» .

ويظهر راسل شيئا من القلق بشأن ما أسبغ عليه الناس من إحترام فى سنواته الأخيرة . ويتساءل فيما إذا كان قد أصبح محترما أكثر مما ينبغى . وهو يقول فى هذا الصدد : «لقد كنت دائما أظن أن الناس المحترمين أوغاد . وإنى أنظر بقلق إلى وجهى كل صباح باحثا عما قد يوجد فيه من أمارات تدل على أننى تحولت إلى وغد» . وعلى أية حال ، فإنه من المحتمل أن يكون تفسير هذا ، هو أن الانجليز ، شأنهم فى ذلك شأن الصينيين ، يوقرون كبر السن ويحترمونه . ومهما استثار المتمرد شعور الناس أو صدمه فإن الرأى العام البريطاني لا يرى خطرا فى إظهار الاعجاب بهذا المتمرد عندما يبلغ الثمانين من عمره . وعلى النقيض من ذلك ظل راسل فى أمريكا موضع شك لعديد من السنوات ، وحين سجلت هيئة الاذاعة القومية حديثا تليفزيونيا معه بمناسبة بلوغه الثمانين ، صادر موظف الجمرك المختص التسجيل عند وصوله إلى نيويورك . وقد نقل

عن هذا الموظف أنه قال : «راسل ؟ أنه (الجدع) الذى كتب عن الجنس . أليس كذلك ؟ ولهذا يجب أن يعرض التسجيل على الرقابة» .

أما فى بريطانيا ، فحتى برنارد شو نفسه قد اختتم أيامه بأن أصبح شخصية موقرة يكن لها الناس الاحترام . أضف إلى ذلك أن الرأى العام البريطانى ، فى حالة راسل ، قد تغير وأصبح يتفق معه فى كثير من الموضوعات .

وكذلك لانت عريكة راسل بعض الشيء فى سنوات عمره الأخيرة حين عاد ليقيم فترة من الزمن فى ريتشموند فى منزل فيكتورى لا يبعد أكثر من ميل أو نحو ميل من حدائق بمبروك لودج حيث كان يلعب فى صباه . وكتب راسل : «ليس من السهل أن يعتاد الانسان أن يعيش فى هذا العالم ولكنى بدأت أخيرا فقط أشعر أنى لست غريبا عنه ، وإن تفاوتت درجات هذا الشعور» .

وفى عام ١٩٥٢ عقد راسل قرانه السعيد بمس اديث فنيش مؤلفة سيرة حياة «ويلفريد سكاوين بلانت» . وتنتمى مس فنيش إلى أسرة قديمة استقر بها المقام فى نيو انجلاند كانت قد نزحت إلى أمريكا في القرن السابع عشر . ومارست مس فنيش مهنة التدريس فى برين ماور . وإلى جانب عملها الأكاديمى ، كان لها كثير من الاهتمامات بما فى ذلك خبرتها غير العادية إلى حد ما فى ركوب جواد ليس عليه سرج فى سيرك عندما كانت تطلب العلم فى باريس .

فضلا عن ذلك ، فقد قام راسل بغزوات كثيرة فى الفلسفة عن طريق عرض الكتب وكتابة المقاولات التى استخدم فيها نكتته الذكية البارعة بأسلوبه المدمر كعهده دائما ، وعندما ناقش راسل غرام فلاسفة أكسفورد فى وقت من الأوقات ببحث «الاستخدام الشائع» للكلمات ، كتب معلقا : «أن مناقشة ماذا يقصده الأغبياء حين يقولون أشياء تافهة مناقشة لا تنتهى قد تكون شيئا مسليا ، ولكنها لا يمكن أن تكون شيئا مهما» . وسخر راسل من موقف بعض الفلاسفة المحدثين عن طريقة قصة رواها عن صاحب

حانوت سأله ذات مرة عن أقصر طريق للوصول إلى وينشستر» . «نادى صاحب الحانوت على رجل فى المسكن الواقع خلف حانوته قائلاً :

- عندى رجل كريم يريد أن يعرف أقصر طريق إلى وينشستر .

- وينشستر . أجاب صوت شخص دون أن يظهر .

- نعم .

- الطريق إلى وينشستر ؟

- نعم .

- أقصر طريق ؟

- نعم .

- لا أعرف ؟

ويقول راسل فى هذا الصدد : «لقد أراد الرجل أن يستجلى طبيعة السؤال ولكنه لم يهتم بالاجابة عنه . وهذا بالضبط ما تفعله الفلسفة الحديثة فى نظر من يبحث فى جدية عن الحقيقة . فهل يثير دهشتنا بعد ذلك أن يتجه الشباب إلى الدراسات الأخرى».

ولم يتوقف راسل عن العمل أبدا . وفى ذلك كتب يقول : «إننى أود أن أموت وأنا أعمل ، لأنى أعلم أن آخرين سيواصلون ما لم أستطع انجازه ، يغمرنى الرضا عندما أفكر أن ما كان ممكناً قد تم انجازه» . ويبدو أن إنتاجه من أحاديث إذاعية ومقالات صحفية لا ينتهى . وظل فى مجال السياسة يوجه النقد إلى كل من روسيا وأمريكا . وقال راسل لأسقف يورك أنه يصلى كل ليلة : «ساعدنى يا رب على أن أحب الأمريكان» . ولكن الله لم يستجب لصلواته حتى الآن . كما أنه كتب إلى جرينيش فى أستراليا يقول : «إننى أقضى معظم وقتى وأنا أتفكه بإظهار عيوب الأمريكان . وهم

يستمتعون بذلك» .

ولم يقنع راسل بكل ما مارسه من أنشطة ، بل اتجه إلى هواية جديدة عليه تماما هى كتابة القصص . وأراد أن ينشر قصصه القصيرة تحت اسم مستعار محاولا بذلك أن يكتسب شهرة جديدة مستقلة عن شهرته كرياضى وفيلسوف فى سن الثمانين . بيد أن الناشرين رفضوا أن ينشروا قصصه دون أن يكون اسمه عليها . وفى نهاية الأمر نشر راسل دون توقيعه قصته «مغامرات الآنسة من الكورسيكية» من مجلة (جو) . ورصدت هذه المجلة جائزة قدرها ٢٥ جنيها لمن يستطيع أن يخمن اسم كاتبها . ولكن أحدا لم ينجح فى ذلك .

وقد ظهرت قصصه الأولى فى شكل كتاب بعنوان «الشيطان فى الضواحى» . وأعلن راسل مازحا فى هذا الشأن : «لقد كرست الثمانين عاما الأولى من حياتى للفلسفة . وانى أقترح أن أكرس الثمانين عاما التالية لفرع آخر من فروع الخيال» .

وقد نالت مجموعته القصصية «الشيطان فى الضواحى» . بعض الثناء العاطر . فقد وصفها انجوس ويلسون مثلا بأنها «مجموعة مسلية إلى أقصى حد ، تضيف فيها تراكيب ولغة القرن الثامن عشر الرسمية إضافة ممتعة إلى اتجاهها العام الساخر» . ولكنى شخصيا أفضل مجموعته القصصية التالية «كوابيس الشخصيات البارزة» . والسر فى ذلك ، على ما أعتقد ، هو أن راسل وهو يكتب تلك القصص كان يطيب ويلذ له أن يفكر فى مضايقة كثير من الناس الذين لا يحبهم . وهناك قصة فى هذا المجلد على وجه الخصوص بعنوان «زاها توبولك تتضمن مرارة ووحشية تذكر أننا بأدب سويفت» .

وظل راسل يقرأ بينهم حتى فى الفترات القصيرة التى كان يكتب فيها قصصه . فهو يقرأ التيمز والمانشستر جارديان ونيويورك هيرالد تريبيون بانتظام . وبالاضافة إلى الكتب الجادة ، كان يقرأ رواية بوليسية كل يوم تقريبا . قد أوضح راسل ذات مرة أنه

ينبغى على أى انسان يريد إلغاء الحروب أن يجد طرقا غير ضارة لاشباع غرائزه التى ورثها من أسلافه خلال أجيال من الانسان الهمجى . ويقول راسل أنه وجد لنفسه مثل هذا المتنفس فى قراءة الروايات البوليسية «حيث أتقمص - بالتناوب - شخصية القاتل مرة ورجل البوليس السرى الذى يطارده مرة أخرى» .

وظل راسل يحب أن يقرأ له أحد بصوت عال . وكان الشىء الوحيد المتعب أن اديث راسل كانت مغرمة بالتدخين مثله . ومن ثم فقد كانا يتناوبان القراءة حتى تتمكن زوجته من أن تدخن سيجارة .

واستمر راسل يستمسك بتدخين غليونه ، ويطلب بانتظام كل أسبوع علبة تزن ربع رطل من التبغ من توليفه فريبورج وتريبار الذهبية . ويعلق راسل على ذلك بقوله : «قيل لى عندما كنت صغيرا أن التدخين سيقصر حياتى . وبعد ستين عاما من التدخين ، تبين أنه لم يقصر حياتى كثيرا . وعلى أية حال ، فاننى أحصل من التدخين على متعة تفوق ما كنت سأحصل عليه من سنوات قليلة تضاف إلى عمرى أقضيها مع الهرم وضعف الشيخوخة . وإننى أدخن بكثرة ، ولا أتوقف إلا لأنام أو أتناول طعامى» .

ويقول راسل فى لحظات شقاوته المتكررة أنه أقلع عن التدخين ذات مرة ، ولهذا فهو يستطيع أن يستمر فيه وهو مرتاح الضمير ، لأنه قد أثبت أن بامكانه الاستغناء عنه . ويتضح لنا أن آخر مرة أقلع فيها عن التدخين كانت منذ ما يزيد على ثلاثين عاما عند زيارته للصين فى عام ١٩٢١ .

ونحن لا نجد بين الفلاسفة من يزيد عن راسل فى رجاحة آرائه الخاصة باللياقة البدنية . وهو يقول فى هذا الشأن : «إننى لم أفعل شيئا على الاطلاق حتى الآن على أساس أنه مفيد لصحتى . إننى أدخن كيفما أشاء وآكل كل ما أحب وأشرب ما أريد . لقد وجدت دائما أن أفضل وسيلة يستطيع بها المرء أن يحافظ على صحته هو ألا يشغل باله بأمر نفسه ، إذا كان صحيح البدن بالطبيعة مثلى» . وعلى أية حال ، لم

يرضخ راسل فى سنواته الأخيرة لنصح الأطباء باستثناء أنه أصبح عادة يشرب الويسكى بدلا من النبيذ لأنه أقل منه فى حموضته .

وألمت براسل أمراض أكثر مما قد نظن من الطريقة التى يتحدث بها . ولكنه تغلب عليها جميعا بفضل صلابته . فقد أوشك على الموت بسبب إلتهاب رئوى أصابه فى صيف عام ١٩٥٣ . ولكنه ترك المستشفى فى غضون أسبوع ، ثم أجريت له عملية جراحية فى بداية عام ١٩٥٤ كان لها خطرها بطبيعة الحال على من كان مثله فى الواحد والثمانين من عمره . ولكنه واجهها بنفس الاحتقار المرح الذى واجه به مرضه فى بكين فى الصين ، وهو يحتج بقوله : لولا الأطباء لأصبحت صحتى على ما يرام» .

وقبل إجراء العملية الجراحية له بأيام قليلة ، أمضيت وزوجتى أمسية معه ومع الليدى راسل ، ودار الحديث بالصدفة حول موضوع خلود الروح ، ورغم أن أحداً منا لم يقل شيئاً عن العملية الجراحية ، فقد كنا بالضرورة نفكر فيها . ودار بخاطرى كيف أن سقراط ، قبل أن يتناول السم ، قد أدخل العزاء على نفوس أصحابه بأن أعطاهم براهين خادعة على أن روحه سوف تحيا بعد الموت .

وكان راسل كعهده دائما غير مهادن فى رفضه الخلود وفى استمساكه بمبدأ «الوحدية المحايدة» الذى يذهب إلى أن الشخصية هى مجموعة من «الأحداث» . وقالت زوجتى أنه بالرغم من لا أدريتها ، فإنها تجد من العسير عليها أن تتقبل انتهاء حياة الفرد نهاية تامة . فأجابها راسل : «أن الشخصية هى مجاميع من العناصر ، أو أنها تنظيم يشبه نادى الكريكيت . وإنى أقبل من جانبى أن يؤول مثل هذا النادى إلى التآكل والانحلال» . وتحدثت عندئذ زوجتى عن الشباب الذى قتل فى الحرب ، وقالت إنه يبدو من الاجحاف الفظيع الا تتاح لهذا الشباب ، بشكل ما وفى مكان ما ، فرصة ثانية لتحقيق السعادة واستكمال الحياة . فرد عليه راسل بقوله : «ولكننا نعيش فى كون ظالم» .

والرأى عندى أن جوهر حكمة راسل العملية يكمن فى هذا . لقد ظل حتى النهاية

مستمسكا باعتقاده الذى بشر به قبل ذلك بزمن طويل فى مقاله «عبادة الانسان الحر» ، ذلك الاعتقاد الذى أكدته الفظاعات التى شهدها العالم منذ ذلك الوقت والذى يتلخص فى أن أى مذهب فى الحياة له قيمته يجب أن يبدأ بالاعتراف بالحقائق القاسية وغير البهيجة . وذكر راسل : «أن سر السعادة هو أن يواجه الانسان حقيقة مفادها أن العالم شيء فظيع ، فظيع ، فظيع . ويجب عليه أن يشعر بذلك شعورا عميقا ، وإلا يطرحه جنبا . يجب أن تشعر بذلك حقا هنا» – (قال راسل ذلك وهو يضرب صدره) – «وعندئذ تستطيع أن تستعيد سعادتك» . وتخطى راسل الاخلاق المسيحية ليس فى تأكيد تفاهة الانسان إذا قارناه بالكون فحسب ، بل فى القول بأن الكون لا تسير شئونه على مبدأ عادل أيضا . وإنى أسمى هذا حكمه عملية ، لأنه إذا استطاع المرء أن يتخلى عن الإيمان بوجود العدالة فى الكون ، فليس هناك شيء يمكنه أن يحمله على التذمر من العالم . كما أنه ليس هناك ما هو أكثر عمقاً وأقل جدوى من هذا التذمر . ويختلف راسل مع كثير من الفلاسفة فى أنه يجد ، فيما يبدو ، فى مبادىء فلسفته الأساسية فى الحياة معينا عمليا له فى معيشته . ولا أظن أنه كان فى استطاعة راسل أن يحتفظ بشجاعته ومرحه فى مواجهة الكثير من الأسى والقلق اللذين منى بهما فى حياته كثيرا ، لو لم تكن خبرته قد علمته أن يكف عن الشعور بالآسف على حاله . إن الطاقة التى كان من الممكن أن يبددها فى الشعور بالأسى على نفسه قد تحولت إلى شعور بالغضب من الآخرين ، التى أظن أنها أكثر صحة وسلامة . وذكر راسل ذات مرة : «إننى لا أؤمن بالوداعة» .

ولعل هذه النقطة إحدى النقاط التى ظهر فيها اختلافه الحاد ، فى مجال الممارسة العملية ، مع مبادىء الدين المسيحى . ولكنه اختلاف قاصر على الممارسة العملية فحسب ، لأن نظرياته بطبيعة الحال لا تسمح له بأن يغضب من أحد ، فهو يرى أنه لا يجب علينا أن نكره الانسان الشرير ، بل يجب علينا أن نقوم بدراسته وعلاجه بالطرق العلمية . وفى هذا الصدد يقول : «إنه تبديد لطاقة المرء أن يغضب من إنسان سيء فى

مسلكه . لأن ذلك يشبه تماما غضبه من سيارة بها عطب ولا تتحرك» . بيد أن الحقيقة أن أية حياة تقوم على الالتزام الشديد بالمبادىء التى يدعو إليها راسل ، دون الحيد عنها فى كثير من المناسبات ، لا تقل فى صعوبتها عن تلك الحياة المبنية على الاستمساك الشديد بالتعاليم المسيحية . اللهم إلا بالنسبة لعدد قليل من القديسين الخارقين للعادة . حتى المسيح نفسه (كما أوضح راسل) كانت تصدر عنه أحيانا ملاحظات لا تتسم بالحب لاعدائه .

وكتب راسل ذات مرة : «أنه من الضرورى أن يكن الانسان كراهية من نوع ما . وليس حتما أن توجه هذه الكراهية ضد الناس . فبدون شىء منها يصبح الانسان ضعيفا لينا وتنضب طاقته» .

وعندما أتناول حكمة راسل العملية ، فإنى لا أستطيع مغالبة نفسى فى أن أضيف هنا بعضا من حكمه وأقواله المأثورة التى وردت في مقالاته الصحفية التى لا تحصى . ومنها قوله « لا تحاول أبدا أن توقف الناس عن التفكير لأنك سوف تنجح بالتأكيد فى ذلك» . أو «من الأفضل أن تعمل قليلا من الخير من أن تفعل كثيرا من الأذى» . و«إياك أن تشعر باليقين المطلق من أى شىء» . وإنى أعتقد أن هذه الحكمة الأخيرة تفوق فى أهميتها بقية الحكم . إذ إنها تلخص موقفه الفلسفى . ولا يجب أن نفسر هذه الحكمة على أنها دفاع عن الشك الشامل فى كل شىء فحسب ، بل على أنها توضح أيضا أنه لا يمكننا أن نعيش فى هذه الحياة دون اتخاذ قرارات قد تعرضنا للمخاطر . وليست هذه الحكمة انجيلا يبشر بالتسامح الفكرى فحسب ، بل أنها انجيل يبشر بالشجاعة فى العمل أيضا .

كانت العملية الجراحية التى أجريت لراسل عام ١٩٥٤ تفوق فى خطرها ما كان متوقعا ، غير أنه ظهر جالسا فى السرير يدخن غليونه بنشاط كعادته دائما فى غضون أسبوعين من إجراء العملية له . ولم يمض على هذه العملية شهران حتى كان قد استأنف سلسلة أحاديثه الاذاعية وكتاباته .

وطرأ الآن على رأيه فى الشئون الدولية تغير له دلالته الكبيرة . فقد أكد فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة أنه يفضل نشوب حرب ذرية على عالم تغزوه روسيا السوفيتية . ثم قال فى عام ١٩٥٠ إنه : «بالرغم مما يزعمه بعض دعاة القلق والانزعاج ، فإنه يكاد يكون من غير المحتمل أن يدمر النوع البشرى نفسه تماما» . ولكن الموقف قد تغير الآن بسبب القنبلة الهيدروجينية التى تنبأ راسل نفسه باختراعها . فقد رأى أخيرا أنه ينبغى على الانسان أن ينتهز فرصته فى الاستمساك بمصلحته الذاتية المستنيرة ، حيث أن السياسة الدولية قد انتهت به إلى أن يختار إختيارا أساسيا بين الانتحار والبقاء على قيد الحياة .

ولهذا أذاع راسل فى ديسمبر ١٩٥٤ حديثا له من أعظم أحاديثه الاذاعية التى تمس شغاف القلب فى موضوع القنبلة الهيدروجينية ، واختتم راسل حديثه قائلا : «إننى أناشدكم بصفتى إنسانا يتوجه إلى غيره من البشر . تذكروا انسانيتكم ، وانسوا ما عدا ذلك . إذا فعلتم ذلك ، فإن طريقكم إلى جنة جديدة مفتوح . أما إذا اخفقتم ، فليس أمامكم سوى الموت الشامل» .

ولا يمكن لأى إنسان سمعه أن ينسى ذلك الاخلاص الملتهب بالعاطفة ، الذى كان يشيع فى حديثه . وما لبث الناس أن استجابوا لحديثه . ووجد راسل نفسه وقد أصبح شخصا ينظر إليه هؤلاء الناس على أنه حامل لواء العلم الذى يتقدم صفوف الجماهير فى جميع أنحاء العالم التى تخشى نشوب حرب أخرى . وبدأ راسل يشن حربا من أعظم حروب الإيمان التى شنها فى حياته . وجاءته فكرة ، لا تجيىء إلا لمن كان فى مثل مكانته العالمية ، هى فكرة بيان يشترك فى إصداره علماء شيوعيون وعلماء مناهضون للشيوعية لتحذير العالم من أخطار القنبلة الهيدروجينية .

وبدأ بأينشتين فطلب منه التوقيع على البيان . ووافق أينشتين واقترح عليه أن يتولى صياغة البيان . وأرسل راسل مسودة هذا البيان لأينشتين فى جامعة برنستون . وفى ذلك الوقت ، عندما كان راسل عائدا بالطائرة بعد أن ألقى حديثا عن الحكومة

العالمية فى مؤتمر عقد فى روما ، جاءه قائد الطائرة من قمرة القيادة بنبأ كان عامل اللاسلكى قد التقطه لتوه . أن أينشتين قد مات . وهكذا خسر راسل صديقا شخصيا له ، فضلا عن أنه ظن أن وفاة أينشتين معناها أنه سيخسر تأييده للنداء الذى كتبه . ولكن عندما وصلت الطائرة إلى باريس ، وجد خطاباً فى انتظاره . وكان هذا الخطاب واحدا من الخطابات التى كتبها أينشتين فى أيامه الأخيرة . وفيه وافق على أن يوقع على بيان راسل .

وحصل راسل بعد مجهود شاق فى التراسل والتفاوض على توقيعات أخرى هى توقيعات بريدجمان من هارفارد ، وإينفلد من وارسو ، ومولر من انديانا وباول من بريستول وروتبلات من جامعة لندن ، ويوكاوا من كيوتو ، وماكس بون وليفوس بولنج وجوليوت كورى .

وفى أوائل يوليو ١٩٥٥ دعا راسل – وهو فى الثالثة والثمانين من عمره – إلى عقد مؤتمر صحفى فى قاعة كاكستون فى لندن ، وظل راسل أكثر من ساعة واقفاً يجيب على الأسئلة التى وجهها إليه مائتا صحفى وسط أضواء كاميرات المصورين التى تغشى البصر وهى تسطع على شعره الأشيب . وألقى راسل نفس هذا الحديث أمام التليفزيون . ودوت كلماته فى كل أنحاء العالم تفيض بإيمان لا سبيل إلى الوقوف فى وجهه أو الرد عليه . فقد كان صوته من النوع الذى يسمعه الناس فيستجيبون له .

واستطاع أن يكسب حتى تأييد السير تشارلس تريفيليان نفسه ، الرجل العجوز ، الذى أعلن فى حنق عندما كان راسل أكثر ناقدى روسيا السوفيتية بروزا أن أية حكومة مهذبة لا بد أن ترمى كل من ماكارثى وبرتى راسل بالرصاص . ولكن السير تشارلس الذى تغير الآن أعلن بلهجة أهل نورثمبرلاند السريعة أن برتى هو الرجل العظيم الوحيد فى العالم فى يومنا هذا الذى يتكلم كلاما له معنى» .

وفى الثالث والعشرين من يونيو عام ١٩٥٠ قال راسل : إن هناك نصف أمل فى تجنب الحرب فى السنوات الخمس التالية وأن الروس لن يشعلوا حربا بعد خمسة

أعوام ، «لأن الدول الغربية ستكون آنذاك قد استكملت استعدادها» . وفى يوليو ١٩٥٥ أى بعد انقضاء ما يقرب من خمسة أعوام على وجه التحديد من تنبئه ، بدأ رؤساء الحكومات اجتماعهم فى جنيف الذى تمخض عن بزوع أمل جديد فى الموقف الدولى . وقال راسل بعد ذلك بقليل إنه لم يشعر مطلقا منذ ١٩١٤ بما يشعر به الآن من غبطة فيما يتعلق بمستقبل العالم . فقد بدا ، لفترة ما على أقل تقدير ، أن العقل قد أعطى فرصته ليسود .

الفصل السادس والعشرون

المعمر الشاب

إن دراسة سيرة حياة أى أنسان أثناء حياته لابد أن تكون بالضرورة غير كاملة . ولا يمكن اختتامها إلا عن طريق التنبوء ، وهو أمر ينطوى على المخاطرة غير المستحبة . بيد أنى أزمع أن أتعرض لمثل هذه المخاطرة .

لقد كان راسل فى نحو الثمانين حين بدأت العمل فى هذا الكتاب ، ولكنه حتى فى ذلك الوقت كان من السهل التنبوء بأن أمامه سنوات عديدة من الحياة العاملة النشيطة . وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت إنجلترا موطنا للشيوخ العظماء ، إذا أراد المرء أن يجد فيها مناقشة شيقة تشحذ الذهن فى أى موضوع ، تعين عليه أن يتوجه إلى واحد من هؤلاء المعمرين العظماء ومن بينهم راسل نفسه ، و ج . أ . مور ، وبرنارد شو ، وجلبرت مرى و هـ . ن . بريلسفورد ، الذين كانوا يكونون جماعة أعتقد أنها قد تظل دائما فريدة من نوعها بعض الشىء . لقد قضوا سنى عمرهم الأول فى العصر الذهبى الهادىء الذى سبق الحرب العالمية الأولى . وأطال تقدم العلم فى ميدان الطب حياتهم . وقيض للجيل الذى سبقهم أن يموت وهو أصغر منهم سنا ، فى حين شب الجيل اللاحق لهم فى عالم يشوبه التوتر والقلق ، عالم ملأته الحروب والخوف من الحروب ، ومشحون بالقلق الاقتصادى المتكرر . ويشعر المرء أن أحدا ممن جاء بعدهم ، مهما امتد به العمر ، لا يمكنه أن يحتفظ فى شيخوخته بجو العلماء الهادىء الرقيق الذى يحس به الانسان دائما فى حضرة جلبرت مرى مثلا .

لقد كان جميع هؤلاء المعمرين رجالا غير عاديين . ولست أشير إلى أن عقاقير السلفا والبنسلين لها أية علاقة بعظمة ونستون تشرشل ، بالرغم من أنه كان من الجائز بدونها أن يموت فى عام ١٩٤٣ . ولا يرجع الفضل فيما ينبضون به من حيوية إلى صدفة الزمن الذى ولدوا فيه فحسب ، بل إلى فيض من الحيوية التى تكمن فى ذواتهم . وتنهض حياة كل من تشرشل وراسل شاهدا على أن سائر الانجازات الانسانية العظيمة ترجع فى نهاية الأمر إلى نبع فياض من الطاقة الحيوية . وأستطيع أن أذكر فى هذا الصدد حين ذهبت لرؤية راسل مع أستاذ أمريكى شاب كيف أن التعب دب فى أوصاله عقب مناقشة فلسفية حامية مع راسل دامت ساعتين . كما أننى أستطيع أن أذكر اننى كنت أرى راسل يفيض بالحيوية والنشاط بعد منتصف الليل وقد عاد إلى بيته بعد أن قضى خمس ساعات فى هيئة الاذاعة البريطانية لعمل البروفات والاشتراك فى أحاديث تليفزيونية ، وبعد أن يكون قد قطع مسافات طويلة وهو يتريض فى متنزه ريتشموند فى ساعات ما بعد الظهيرة المبكرة . ولعل أكثر الذكريات مثولا فى خاطرى أننى ذهبت مع راسل إلى المسرح ، وتوجهنا بعد ذلك لتناول العشاء فى ساعة متأخرة . أخذ خلالها يسترجع فى دقة بعض المحفوظات اليونانية القديمة التى تعلمها فى صباه . ثم قمت بتوصيله إلى بيته فى ريتشموند بالسيارة فى الساعة الواحدة والنصف صباحا . وراسل لا يكف عن الحديث طول الوقت عن الأسباب الحقيقية التي جعلته يرفض الفلسفة الهيجيلية فى التسعينات من القرن الماضى . وكنت حينذاك موزعا بين رغبتى فى أن أولى حديثه الساحر كل إهتمامى ، وحاجتى إلى أن أتذكر مسئولياتى أمام عجله القيادة . (وكان راسل ، على عكس معظم الذين تقدمت بهم السن ، يكره القيادة البطيئة) .

ولم يفقد راسل أبدا حماسه الصبيانى فى استثارة الآخرين . وأستطيع أن أتذكره وهو يؤكد بوقار للمستر مايكل كيريتس المحرر الشاب لصحيفة من أكثر الصحف البريطانية إحتراماً ، أن «جريدة نيوز أف ذى ويرلد» (أخبار العالم) هى

الصحيفة الوحيدة التى تحاول بأمانه أن تعطينا الحقائق الصادقة بشأن ما يحدث حولنا(*) ، ومالت الليدى راسل نحو مستر كيريتس قائلة : «لا تغضب منه» ، وفى هذه المناسبة أيضا أبدى راسل إحدى ملاحظاته التى تميز بها ، وتحتوى على عنصر من الصدق عبر عنه بطريقة لا مثيل لها فى الاستفزاز والأثارة «أن الأشياء الوحيدة التى أصدقها مما ينشر فى الصحف هى ما يسجله لاعبو الكريكيت من أهداف وأسعار البورصة» .

ولم يكن راسل يعانى من ذلك الكبت الفظيع وغير الطبيعى الذي يمنع بعض الانجليز من الاستمتاع بنكاتهم . وقد كانت دعاباته ونكاته تتدفق سريعة ومنطلقة فى فيض متلألىء ، كما كان ينظر نظرة سريعة من حوله كى يتأكد أن كل الحاضرين قد فهموا ما يعينه ، ثم لا يلبث أن يشارك الآخرين فى ضحكهم .

يكاد أن يكون من المحتم أنه سيجابه فترة تشهد رد فعل ضده وتشويها لسمعته ، كما حدث لبرنارد شو . إن راسل هدف سهل لكل من يريد أن يكتب كتاب يقلل فيه من شأنه . ولأن أفكاره كانت دائمة التطور ، فإنه كان فى كثير من الأحيان يقع فى وهدة الخطأ بأن يقول أشياء تختلف عما سبق له أن عبر عنه . ويغرينى هذا أحيانا بأن أفكر أن كل موضوع تعرض له راسل فى إنتاجه الضخم الذى كتبه عبر السنين لا يخلو من رأيين متناقضين . فضلاعن أن أفكاره متداخلة مع أفكار الآخرين الذين عاشوا فى عصره بدرجة تجعل من السهل على القادح الذكى أن ينكر عليه كثيرا من الاصالة . ولعل الأعمال التى لا يمكن لأحد أن يدعى لنفسه فضلا فيها عليه هي مؤلفاته التى تعالج «منطق العلاقات» ، ونظرية التعريف بالرسم والمصادرات التى بنى عليها كتابة «المعرفة الانسانية» .

وفوق كل شىء ، فإن راسل يعانى من أن أعماله الأخيرة قد قوبلت بالافراط فى .

(*) «أخبار العالم» صحيفة انجليزية تصدر كل أحد وتتخصص فى نشر تقارير وافية ومفصلة عن جرائم القتل وقضايا الطلاق ... إلخ .

الثناء بينما كان نصيب أعماله الأولى النسيان فى أغلب الأحيان . وما من أحد يقرأ كل ما كتبه راسل قبل الحرب العالمية الثانية دون أن يدرك عظمة قدرته وحيويته الذهنية . بيد أن بعض هذه الكتابات الضخمة والمتنوعة قد دفنت فى دوريات مغمورة . وباستثناء عدد قليل من المتخصصين ، سيجد الناس دائما أنها تستغلق على الافهام تماما . ومن التناقض الغريب أن راسل قد اتهم بافتقاره إلى التعمق لا لسبب إلا لأن أجود أعماله بلغ من الصعوبة حدا جعل فهمه قاصرا على عدد قليل من الناس . وتشير كل هذه العوامل إلى شىء من رد الفعل الذى بدأ يظهر ضد ما أسبغ عليه الناس من احترام . وفى حقيقة الأمر ، فإن رد الفعل المضاد قد بدأ يتضح فى الدوائر العلمية البريطانية ، وإن كان لم يشع بعد بين عامة الناس .

ويحق لنا أن نتساءل عن مكانته فى تاريخ الفلسفة على المدى البعيد . هنا أيضا تظهر بعض المعوقات التى تعترض طريقة إلى أن يتبوأ المكانة اللائقة به . إن الطريق المضمون للوصول إلى مكانة خالدة فى الفلسفة هو طرح بعض المبادىء الملفتة للأنظار ، يتضح فيما بعد بطلانها تماما . فقد عاشت أسماء معظم الفلاسفة نتيجة دحض من جاءوا بعدهم لآرائهم . كما عبر عن ذلك البروفيسور أوستن : «لكى تكون فيلسوفا عظيما يتعين عليك أن ترتكب خطأ جسيما» . ومن المشكوك فيه أن يكون راسل قد ارتكب خطأ كبيرا بهذا المعنى . وحتى فى المواضع التى أخطأ فيها ، فإنه أفسد على الأجيال القادمة ما كان يمكنها أن تجده من متعة وتسلية ، بأن أظهر بنفسه ما تورط فيه من أخطاء . وهكذا بالرغم مما أحرزه من تقدم فى مجالى المنطق والفلسفة ، وبالرغم من كل المناطق الفكرية المظلمة التى أشاع النور فى أنحائها ، فإن المرء يغريه أن يقول إن خلود راسل يعتمد على ظهور شخص يقوم باكتشاف خطأ أساسى جسيم فى أعماله ، أو لكى نكون أكثر دقة فى التعبير ، نقول أن مكانته الراسخة فى تاريخ الفلسفة تكمن إلى حد ما فى أن يبدأ أى فيلسوف لاحق من حيث انتهى راسل ؛ لأنه يستحيل أن يقنع الفلاسفة فى المستقبل – كما هو الحال مع هيوم – بما قد توصل إليه من نتائج .

وإنى أشك فى أن راسل نفسه سيتقبل هذا الرأى . لقد كان يطرح الأسئلة الفلسفية لا لشىء إلا لأنه كان يرغب رغبة صادقة فى أن يعرف الاجابة عنها . ولهذا ، فإنى أتصور أنه يعتبر نفسه قد أخفق من حيث أنه ترك مشاكل عديدة - بدون حل . وحين فكرت فى وقت من الأوقات أن أختار لهذا الكتاب العنوان الفرعى التالى : «المتسائل العظيم» ، أوضح لى راسل أنه بذل شيئا من الجهد كى يجيب عما أثاره من أسئلة . وهو رد يبين ما يتميز به الانجليز من قصد فى القول .

والرأى عندى أن كثيرا من الأسئلة التى يطرحها الفلاسفة قد يتعذر الاجابة عنها . وكتب راسل نفسه ذات مرة أن قيمة الفلسفة تكمن أساسا فيما تثير من أسئلة . وأظن أن النتائج التى يتوصل إليها الفيلسوف غالبا ما تكون أقل فى أهميتها من المناقشات التى تؤدى إليها ومن روح البحث التى يعالجها به . لقد قال سينفنسون «إن أمل المسافر فى الوصول إلى غايته أفضل من تحقيقها . وينطبق نفس هذا الشىء على الفلسفة ، التى هى غالبا أمر لا يتوصل فيه المرء إلى شىء (ولو أمكن الوصول إلى شىء ، فقد نشعر أحيانا بخيبة أمل محزنة) ، وإنما الفلسفة هى تتبع هدف له قيمته تصحبنا فى ذلك خير رفقة . ومن ثم فإنه من الأنفع دائما أن نقرأ لفيلسوف عظيم فى نصوصه الأصلية وأن نتتبع أسلوبه فى التفكير من أن نقرأ أكثر تلخيص عصرى لنتائجه وضوحا وصفاء . وهذا هو السبب فى أن أعمال راسل سوف تقرأ دائما .

ويعنى هذا ، فيما أرى ، أنه ليست هناك فلسفات عظيمة ، بل إن هناك فلاسفة عظماء . ولقد كان ذلك أحد الأسباب الوجيهة التى جعلتنى أضمن هذا الكتاب كل هذا القدر عن راسل الانسان . وينطبق نفس الشىء بصورة أجلى على كتاباته فى السياسة والاجتماع حيث تكون المعرفة المحددة أصعب منالا . وتحتوى هذه الكتابات ، على أقل تقدير ، على نقطة لها أهميتها الثابتة ، تتلخص فى تأكيده لحب الانسان فى السلطة ، وفى رفضه لكل ما يقدمه الماركسيون والفرويديون من مبالغة فى تبسيط الأمور . وتعرض راسل نفسه للنقد فى بعض النقاط والمواضع الأخرى ، بسبب ما تردى فيه من أخطاء يسهل على المرء أن يتبينها إذا استرجع آراء هذا الفيلسوف السابقة . بيد أنه

ما كنا نفكر فى أن ننزل راسل هذه المنزلة العالية لو أنه بقى بمعزل عن صراعات أخيه الانسان وما يعانى منه من آلام يومية .

وحين نشرع فى قراءة كل كتاباته الصحفية وغير الفلسفية ، فإن أول انطباع تتركه فينا هو الأحساس بالحيرة أمام حجمها الهائل وما تتضمنه من تنوع فى وجهات النظر . وينطبق عليه ما قاله دكتور جونسون عن بيرك : «(إنه) رجل غير عادى . إن مجرى أفكاره لا ينضب» . وأنا لا أقول أن كل كلمة قالها راسل ، بما فى ذلك كتاباته لعامة الناس ، جديرة بالقراءة . ولكنى أقول ، مستندا فى ذلك إلى ما توصلت إليه فى بحثى ، أن كل كلمة كتبها ينبغى أن يقرأها ، على الأقل ، من يحاول تقييم مكانته ، فإنه قد نجد حتى فى مقالاته الصحفية العابرة أو تلك التى كسب بها رزقة فكرة ما تثير التشويق والاهتمام أو حقيقة صغيرة مجهولة لا يمكن أن نجدها فى أى موضع آخر .

وحين نتتبع هذا الانتاج الهائل من الألفاظ (الذى سخر راسل من حجمه الضخم ذات مرة) فلا أظن أننا سنكتشف فى النهاية ، كما يحلو لبعض الأمريكان الجادين أن يعتقدوا ، مجموعة من النظريات السياسية والاجتماعية التى تتنبأ بالمستقبل ، يجب دراستها باستقاضه فى كتب وقورة جادة . ولكنى أظن أننا سنكتشف فى راسل فى نهاية الأمر رجلا غير عادى ، رجلا لديه حصيله عظيمة من المعلومات يجد متعة فى تعليم الناس ، رجلا له عقل انسانى يشيع فيه الدفء ، جعل كثيرا من الناس يفكرون بأسلوب يقودهم إلى السعادة ، رجل يمقت الحماقة والقسوة من أعماق قلبه ، لديه القدرة على أن يعطى غيره الأمل والشجاعة فى محاربتهما . سنكتشف فيه رجلا عقلانيا يتساءل ، فى تلخيصه النهائى للموقف الانسانى ، عما إذا كان فى استطاعه الجنس البشرى أن يبقى على قيد الحياة ثم يجيب عن تساؤله بقوله : «بالرغم من كل ما يشير إليه أمعان العقل ، فإنى أجد نفسى مقتنعا اقتناعا راسخا أنه ستكتب له الحياة» .

وفى عالم يتطلع إلى الإيمان سواء كان هذا الإيمان دينيا أو سياسيا ، يذهب راسل إلى نتائج لا تعرف المهادنة ، مفادها أنه ليس هناك شىء يقينى يقينا مطلقا .

ولكنه فى نفس الوقت أوضح كيف يمكن لشخص لا أدرى أن يجابه الحياة دون خوف أو وجل . وفى حين نجد أن التشكك الذى لا يثق بالانسان عقيم ، فإن الشكاك المتأجج العاطفة يستطيع أن يحيا حياة شجاعة وأن يحقق فيها الانجازات العظيمة .

ولعل التعليق الذى ورد فى جريدة بوليتين (النشرة) الصادرة فى سيدنى عقب مؤتمر صحفى عقده راسل فى أستراليا خير ما يجلو لنا النقطة التى أسعى إلى توضيحها . ذكرت هذه الجريدة أن جوا من الحزن بل ومن القتامة ران على هذا المؤتمر . وقالت : «فى أوقات القلق البالغ يتجه الناس إلى حكماء القبيلة المسنين ، غير أنه حتى رجل فى مثل حكمة برتراند راسل لم يعرف فى حقيقة الأمر كيف يوفق بين ايمانه الذى لا يتزعزع بالاشتراكية والدفاع عن حرية الفرد ، كما أنه لم يعرف كيف يمكنه الاحتفاظ بإيمانه بالليبرالية فى زمن فرض فيه الشيوعيون علينا عصرا من الاستبداد ، وكيف يمكنه الجمع بين دعوته إلى السلام ومواجهة السوفيت فى نفس الوقت . ولم يكن يعرف حقيقة الأمر عما إذا كانت الحرب ستندلع أم لا ، وكيف يمكن بغير التسلح أن نمنعها من الاندلاع» .

ومع ذلك ، فقد اختتمت بوليتين ما كتبه بقولها : «ولكنه كان فى نفس الوقت يلهم الشجاعة . ويرجع هذا ببساطة إلى حيويته الدافقة ومرحه الذى لا تلبده غيوم اليأس . فإذا كان فى العالم قنبلة ذرية تهدده بالاندثار ، فإن فيه أيضا روح الانسان الشجاعة» .

وبهذا ترك راسل أثره فى أشد معاصرية جنوحا إلى النقد ، وبه أيضا ترك أثره البالغ فى نفسى . وهذا وحده اعتراف يصدم أفكار الناس فى عصر يجد متعته فى التهوين فى شأن الآخرين ، الأمر الذى قد يبدد ما تبقى لى من اعتقاد فى عدم تحيزى . ولكنه ليس لدى أدنى شك فى أن عظمة راسل من ذلك النوع الذى يحسب بمئات السنين ، ولست أظن أن من يعرفه معرفة وثيقة يملك غير أن يتوصل إلى نفس النتيجة التى توصلت إليها ، وقد يكون من اليسير على أى شخص فى السنوات القادمة أن يشن عليه الهجوم وهو على مبعدة عنه ، يساعدة على ذلك جهله بهذا الرجل ، تماما

كما سيسهل على أى كاتب تافه فى المستقبل أن يحط من شأن ونستون تشرشل . ونحن أبناء هذه الجيل لا نملك ردا على هذا غير «ولكنكم لم تعرفوا هذا الرجل» وإذا كان هذا الكتاب يخدم غرضا ، فهو أن يتيح للناس فرصة إضافة قدر ضئيل من المعرفة عن حياة واحد من أندر الناس وأشجعهم روحا ، الذين ألهموا الانسانية خلال العصور المختلفة بالوصول بأفكارها إلى أبعد أفاق الحقيقة والصدق .

فهرس

كلمة عن مؤلف هذا الكتاب 9
الفصل الأول : طفل فى الحديقة 11
الفصل الثانى : كان دائما يتكلم 29
الفصل الثالث : برلين والماركسية 39
الفصل الرابع : عمل عبقرى 49
الفصل الخامس : الرياضيات والفلسفة 63
الفصل السادس : نظرية التعريف بالرسم والمنطقية 77
الفصل السابع : الاشتغال بعرض الكتب والمقالات والسياسة 85
الفصل الثامن : حياة هادئة 95
الفصل التاسع : كامبردج وهارفارد 107
الفصل العاشر : الحرب العالمية الأولى 119
الفصل الحادى عشر : سجين بركستون 135
الفصل الثانى عشر : تحليل العقل 147
الفصل الثالث عشر : زيارة للاتحاد السوفيتى 157
الفصل الرابع عشر : الصين بلاد ممتعة 169
الفصل الخامس عشر : مرشح فى شيلسى ومحاضر فى أمريكا 177
الفصل السادس عشر : راسل والنسبية 191
الفصل السابع عشر : مدرسة بيكون هيل 199
الفصل الثامن عشر : الزواج والأخلاق 213
الفصل التاسع عشر : المؤلف الذى لا يكل 227
الفصل العشرون : الدعوة إلى السلام والحرب العالمية الثانية .. 239
الفصل الحادى والعشرون : منبوذ فى أمريكا 249
الفصل الثانى والعشرون : المتمرد يحظى بالتبجيل 261
الفصل الثالث والعشرون : زيارة لأستراليا 271
الفصل الرابع والعشرون : فلسفة لم تكتمل 281
الفصل الخامس والعشرون : ما يزال يعمل 295
الفصل السادس والعشرون : المعمر الشاب 311

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٤١١ / ١٩٩٨